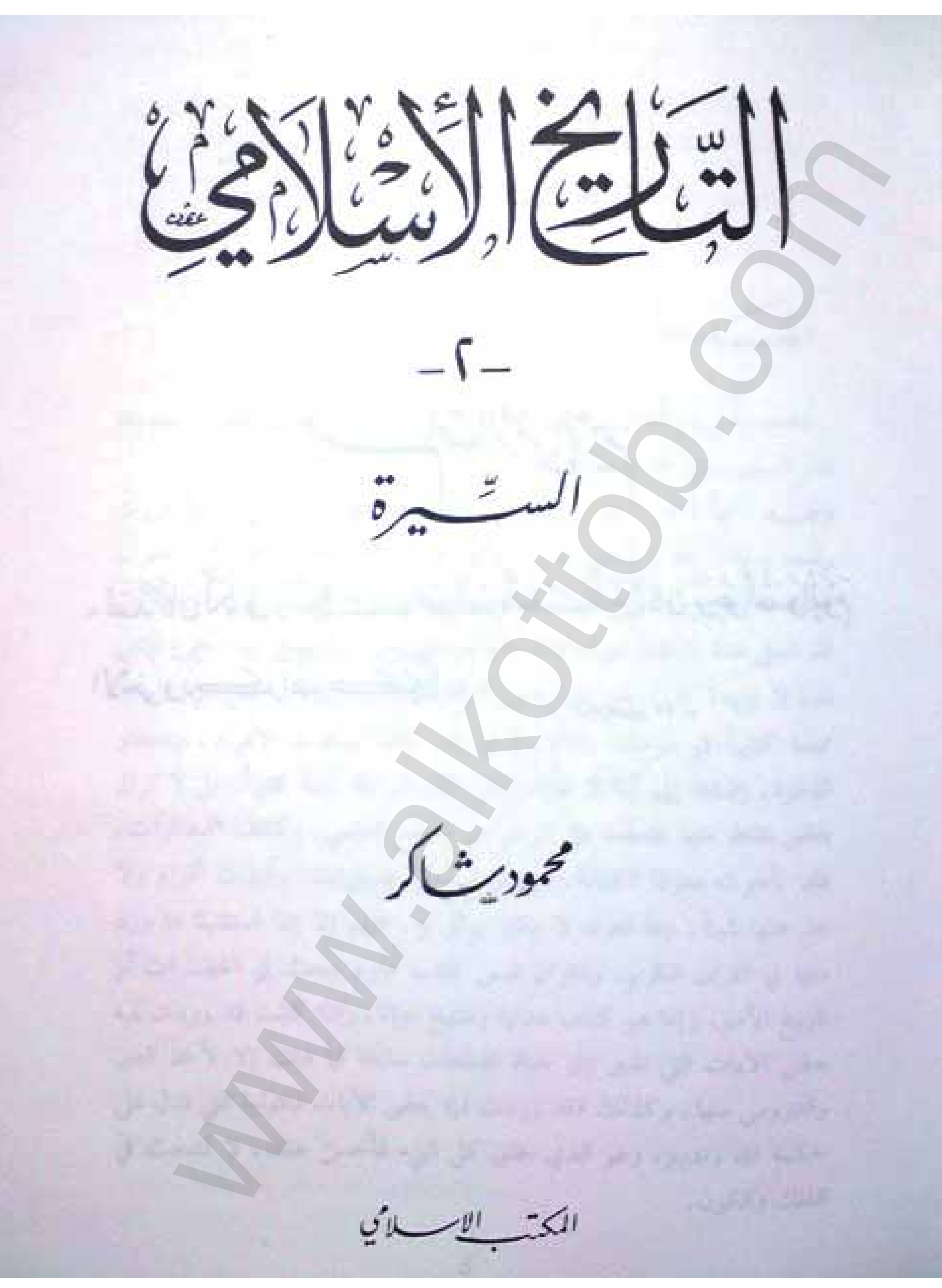
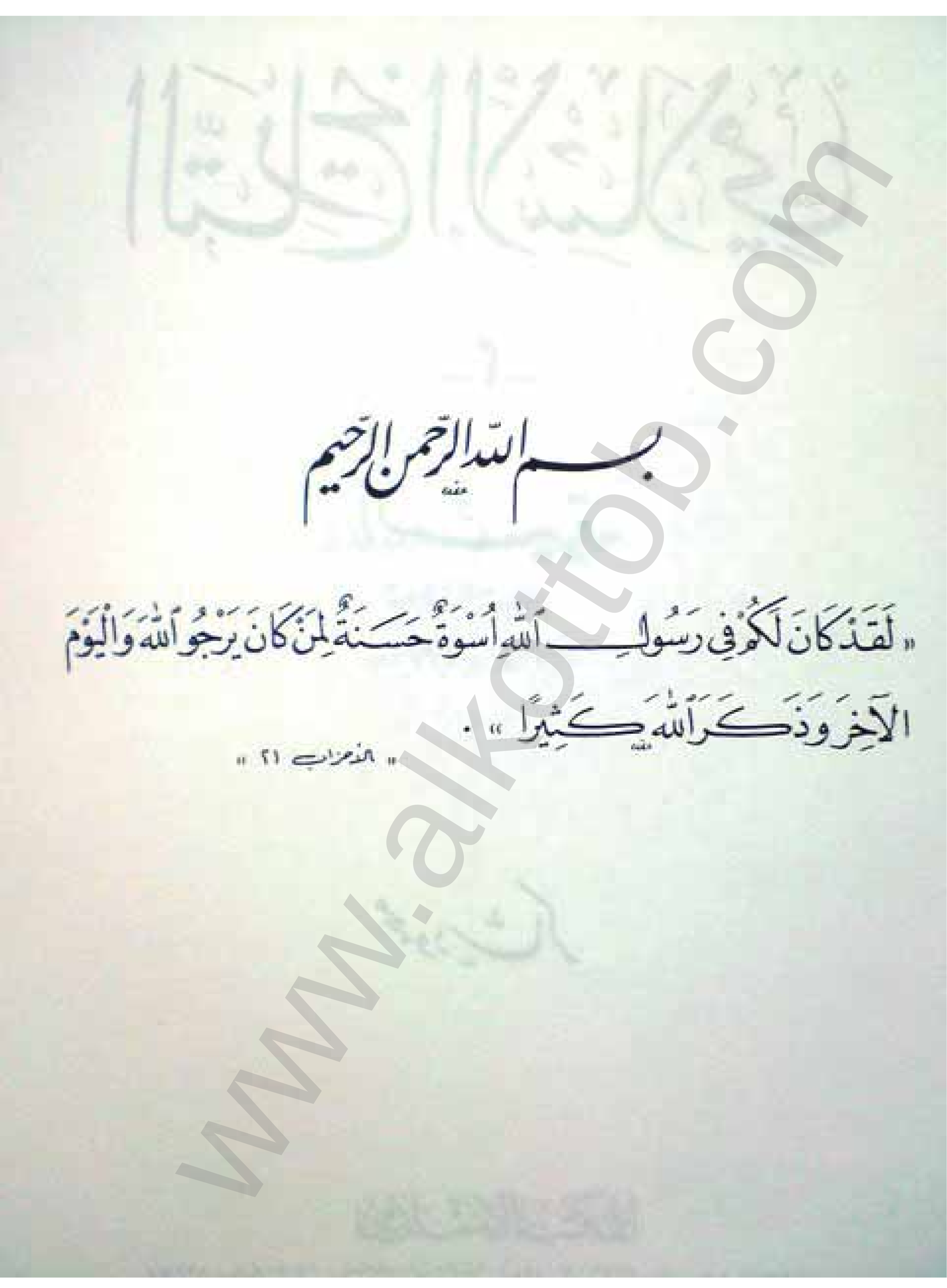

التاريخ الإسلامي
-٢-
السيرة
محمود شاكر
المكتب الإسلامي



بسم الله الرحمن الرحيم

« لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ».

« الأحزاب ٢١ »

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد بن عبدالله خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد: فهذا هو الجزء الثاني من كتاب التاريخ الإسلامي الذي قررت وضعه ـ بإذن الله ـ ليعطي صورة واضحة عن هذا التاريخ الطويل، بعد أن عبثت به أيدي مؤرخي الفرق، وأدبائها فبدا مشوهاً. وإذا كان الجزء الأول قد شمل مدة تاريخية طويلة تمتد عشرات القرون، بينما شمل هذا الجزء الثاني مدة لا تزيدة كثيراً على نصف قرن. فذلك لأن مرحلة ما قبل الإسلام لا تهمنا كثيراً في مرحلتنا الحاضرة في بناء الأمة وسلوك الأفراد، وانتشار الدعوة، إضافة إلى أننا لا نعرف عن تلك المرحلة شيئاً كثيراً، بل لا تزال بعض نقاط منها غامضة على الرغم من التوسع العلمي، وكشف الحضارات، فقد تأخرت معرفة الكتابة، واندثرت معالم حضارات، وأبيدت أقوام ولا نعلم عنها شيئاً، وما نعرفه لا يكاد يوثق به، اللهم إلا إذا استثنينا ما ورد منها في القرآن الكريم، والقرآن ليس كتاب علوم يبحث في الحضارات أو تاريخ الأمم، وإنما هو كتاب هداية ومنهج حياة، وإذا كانت قد وردت فيه بعض الآيات التي تشير إلى حياة مجتمعات سابقة فما ذلك إلا لأخذ العبر والدروس منها، وكذلك فقد وردت فيه بعض الآيات الكونية التي تدل على حكمة الله وتدبيره وهو الذي خلق كل شيء فأحسن خلقه، لا لتبحث في الفلك والكون.

ولأن سيرة محمد بن عبدالله ﷺ وهو خاتم الأنبياء وآخر الرسل كانت أسوةً لكل إنسان في سلوكه وعمله، وقدوةً لكل داعية في تصرفه ونشاطه، ونبراساً لكل قائد في منهجه ومعاملته لجنده، وكانت دولته التي أنشأها منهجاً لكل دولة تريد أن تسير على نهج الله، وتطبق شرعه، وترغب لأتباعها السعادة والحياة الفاضلة الكريمة. وسيرة هذا الرسول الكريم سيرة تاريخية كاملة لا توجد فيها أية ثغرة مجهولة أو مرحلة غامضة.

وسيرة الأنبياء والرسل هي التي تصلح أن تكون قدوة للناس على حين لا يصلح غيرها من سير الأبطال والزعماء التي لا تحوي إلا جانباً معيناً من جوانب الابداع والقدرات. مكنتها أن تحتل هذا المركز. وصعّد ميولها مصلحة أو هوى. فعنترة أبرزته فتاة، ونابليون أظهره ولعه بالنساء، وكم من رجل مشهور ما طارت شهرته إلا من وراء ماله الذي حرص عليه، أو حبه للزعامة التي سعى إليها، وأمضى حياته في سبيل ذلك، وهذه سبيل غير المسلمين، بينما تشمل سير الرسل والأنبياء جوانب الابداع كلها، وقد جبلوا بالفطرة عليها، فالله أعلم حيث يضع رسالته، ولم يكن لرسول غرض في هذه الحياة الدنيا سوى رضاء الله وتنفيذ ما أمره الله به.

وإذا كان قد كتب في سيرة رسول الله ﷺ الكثير إلا أن هذا لا يمنع من كتابة الأكثر، فلربما أطنب كل كاتب في جانب، وأجاد في ناحية، فيتمم عندها بعض هذه الكتب بعضها الآخر، وتكون الفائدة المرجوة، ولربما سلّط بعض الكتاب الأضواء على ناحية، فاستطاع من خلال ذلك أن يأتي بجديد، فتكون السيرة بذلك أكثر نمواً، وتمدنا بالجديد باستمرار، ونتلمس منها الخطا الحركية على الدوام، هذا بالاضافة إلى ما أشرنا إليه من أنها القدوة الصالحة، فهي لذلك بحاجة إلى الكتابة فيها باستمرار، ليطلع النشء عليها، ويتعرف الناس عليها بأساليب مختلفة ومستويات متنوعة، وخاصة أن لكل كاتب قراءً معينين، فلو كتب فيها عدد من الرجال لكان الاطلاع أكثر، ولكانت الفائدة المرجوة أكبر ـ بإذن الله ـ.

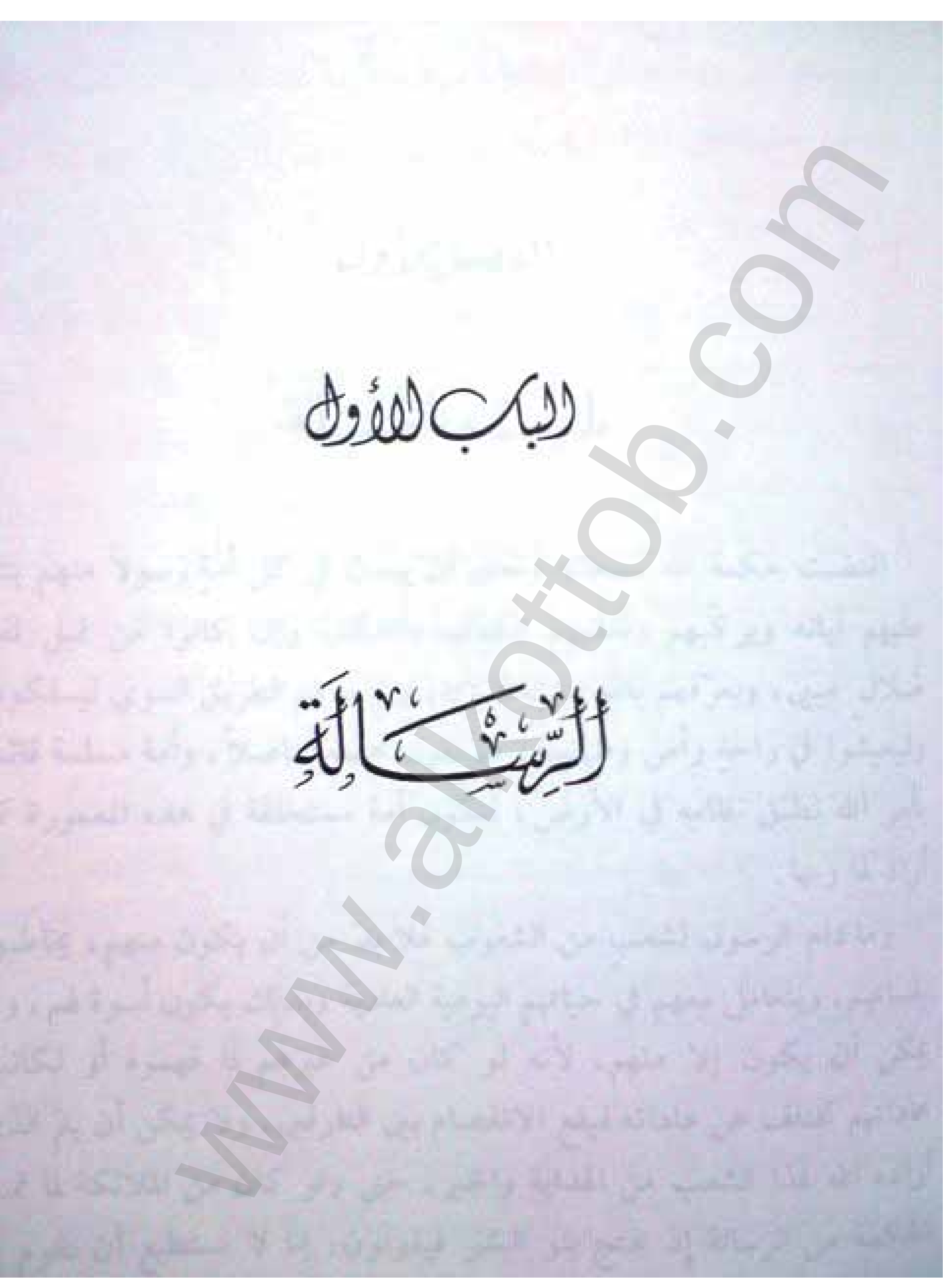
وإذا كان المؤرخون السابقون قد اقتصر أكثرهم على ذكر الأحداث والوقائع والروايات التي وصلت إليهم عن حادثة معينة، فقد حرصت على إعطاء الصفة العامة للسيرة من خلال ما يتراءى لي، وقد أوفق في بعض الجوانب، وقد يجانبني التوفيق في جهات أخرى، وكنت أحرص على قراءة بعض الخطا الحركية في سيرة رسول الله ﷺ لتكون نبراساً لنا، ودافعاً حركياً لمن يبغي الحركة والدعوة، والذي أرجوه أن يكون عملي خالصاً لله. كما أني لم أكن حريصاً على ذكر الوقائع حسب تسلسلها التاريخي، وإنما كنت أضع الحادثة ضمن إطارها العام بغض النظر عن تاريخها الزمني، وإن كان هذا لم يحدث إلا خلال عدد قليل من الحوادث، ولم تتأخر كثيراً عن زمنها.

وقد قسمت الموضوع إلى أربعة أبواب: تحدثت في الأول منها باختصار عن طبيعة الرسالة، وتكلمت في الثاني منها عن نشأة محمد ﷺ، وشرحت في الثالث منها عن الدعوة في مكة، وجعلته فصولاً ثلاثة هي: دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم السرية، والجهر بعد ذلك بالدعوة، ثم العمل على تأسيس الدولة، أما الباب الرابع فقد فصّلت فيه عن الدعوة في المدينة وجعلته أيضاً ثلاثة فصول هي: العمل على تأسيس الدولة ومحاولة المشركين القضاء على هذه الدولة، ثم بدء توسع الدولة الإسلامية.

والله نسأل التوفيق وسداد الخطا والأجر في الآخرة، وهو نعم المولى ونعم النصير، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

غرة المحرم ١٣٩٩ هـ.

محمود شاكر



الباب الأول

الرسالة

الفصل الأول

طبيعة الرسالة

اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يبعث في كل أمة رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكّيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين، ويعرّفهم بالله جلت قدرته، ويرسم لهم الطريق السوي ليسلكوه، وليعيشوا في راحة وأمن وطمأنينة، فيؤلفون مجتمعاً فاضلاً، وأمة مسلمة قائمة بأمر الله تطبّق نظامه في الأرض، لتكون أمة مستخلفة في هذه المعمورة كما أراد لها ربها.

وما دام الرسول لشعب من الشعوب فلا بدّ من أن يكون منهم، يخاطبهم بلسانهم، ويتعامل معهم في حياتهم اليومية العادية وبذلك يكون أسوة لهم، ولا يمكن أن يكون إلا منهم، لأنه لو كان من غيرهم لما فهموه أو لكانت عاداتهم تختلف عن عاداته فيقع الانفصام بين الطرفين، ولا يمكن أن يتمّ الذي أراده الله لهذا الشعب من الهداية والخير، حتى ولو كان من الملائكة لما تمت الحكمة من الرسالة إذ يحتج بنو البشر فيقولون: إنا لا نستطيع أن نقوم بما تقوم به الملائكة فطبيعتنا غير طبيعتهم، وطاقاتنا تختلف عن طاقتهم، وما كان الله ليكلف نفساً إلا وسعها.

وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ  وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا

يَلْبِسُونَ [1] قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا [2] وقال الله سبحانه وتعالى: وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا [3]

ولما كان كل شعب يعيش منعزلاً تقريباً عن بقية الشعوب لصعوبة الاتصالات آنذاك، ولطبيعة الحياة في ذلك الوقت، أرسل الله لكل شعب نبياً، ولكل مجتمع رسولاً خاصاً بهم، فلما تطورت المواصلات وزادت الاتصالات بين الشعوب، كان لا بد من دعوة جامعة لبني البشر تتمثل في رسول يجمع الدعوات، ويختم الرسل، ينسخ ما كان خاصاً بقوم، ويضم ما تشترك به البشرية جمعاء، وهذا ما كان في نهاية المطاف. وكانت دعوة الأنبياء جميعهم إلى الاستسلام لله سبحانه وتعالى، وكانت الجماعات التي تتبعهم أمة مسلمة واحدة من بداية الخلق إلى آخره. يقول الله جلت قدرته بعد أن يعدد أكثر الرسل: إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ [4]، ويقول سبحانه: يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ [5]

ولما كانت الشعوب كثيرة ومتعددة كان لا بد من أن يكون هذا الرسول الخاتم للأنبياء من أحد هذه الشعوب، ولا داعي لأن تحتج بقية الشعوب على أنه ليس منها إذ لو لم يكن من واحد منها لكان من غيرها، ولو كان من

---

(١) الأنعام: ٨ـ٩.

(٢) الإسراء: ٩٥.

(٣) الفرقان: ٧.

(٤) الأنبياء: ٩٢.

(٥) المؤمنون: ٥١ـ٥٢.

غيرها لكان قول البقية كذلك، ولكان لها الاحتجاج نفسه، ولكن يمكن أن يكون من شعب وسط بين هذه الأمم، وهذا ما كان في الشعب العربي، الذي تقع بلاده في موقع وسط يمكن أن تكون الدعوة من هذا المكان إليها جميعها. وإذا كانت الأرض كروية ويمكن أن تكون كل بقعة هي المنطقة الوسط إلا أن ما كان معموراً تقريباً لم يكن ليزيد على البر القديم أي من المحيط الهادي إلى المحيط الأطلسي، وفي منتصف هذه البقعة تقع جزيرة العرب هذا إضافة إلى أن القسم الباقي تغطي المياه أكثره، ويقصد بالوسط ما كان من اليابس.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (١)، وكذلك يجب أن يكون في أمة قد قل فيها الأنبياء لتكون له قيمته إذ لو كان في أمة كثر فيها الأنبياء لعُدّ مثل واحد منهم، وقد اعتاد الناس أن يسمعوا كثيراً بهذه الكلمة، وهذا ما كان في العرب، فلم يكن فيهم من الأنبياء إلا اسماعيل وهود وصالح عليهم الصلاة والسلام. وكذلك يمكن أن يكون على فترة متباعدة من الرسل في هذه الأمة حتى تتهيأ النفوس لتقبل الدعوة وتنتظر ذلك النبي لينقذها مما تعاني فقد مضى على رسالة إسماعيل أكثر من ألفين وخمسمائة عام، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢)

---

(١) البقرة: ١٤٣.

(٢) المائدة: ١٩.

وقد كان أهل الكتاب يعلمون ببعثة خاتم الأنبياء وقرب موعد ظهوره بل ومكانه حيث كانت كتبهم تشير إلى ذلك، وعرف هذا الاحبار والرهبان وكانوا يستفتحون على المشركين بقرب ظهور الرسول وأنهم سيؤيدونه ويدعمونه ويؤمنون به ويقاتلونهم معه، فلما بعث النبي الكريم، وعرفوه حقاً، أعماهم الحقد، واضلهم اللؤم، فكفروا به، وعادوه، ووقفوا بكل إمكاناتهم في وجه الدعوة، قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [1]. وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [2] ويبدو من حديث سيدنا سلمان الفارسي رضي الله عنه أن النصرانية كانت عند اقتراب بعثة سيدنا محمد ﷺ قد انتهت بشكلها الصحيح، وحرفت إلى شكل أقرب إلى الشرك منه إلى التوحيد قال سيدنا سلمان: «كنت رجلاً فارسياً من أهل (أصبهان)[3] من قرية يقال لها (جَـيّ)[4]، وكان أبي (دِهقان)[5] قريته، وكنت أحب خلق الله إليه، لم يزل به حبه إياي حتى حبسني في بيته، كما تحبس الجارية، واجتهدت في المجوسية، حتى كنت (قطَن)[6] النار الذي يوقدها، لا يتركها تخبو ساعة،

---

(١) البقرة: ٨٩.

(٢) الصف: ٦.

(٣) أصبهان: أصفهان مدينة بإيران تقع إلى الجنوب من طهران على بعد ٣٥٠ كم منها.

(٤) جي: ناحية أصبهان، وتسمى هناك شهرستان، وهي الآن أطلال خربة.

(٥) الدهقان: المرجع الأول في شؤون الزراعة بالقرية.

(٦) قطن النار: خادم النار.

قال: وكانت لأبي ضيعة عظيمة، فشغل في بنيان له يوماً، فقال لي: يا بني، إني قد شغلت في بنياني هذا اليوم عن ضيعتي، فاذهب إليها فاطلعها. وأمرني فيها ببعض ما يريد، ثم قال لي: ولا تحتبس عني، فإنك إن احتبست عني كنت أهم إلي من ضيعتي، وشغلتني عن كل شيء من أمري. قال: فخرجت أريد ضيعته التي بعثني إليها، فمررت بكنيسة من كنائس النصارى، فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلّون، وكنت لا أدري ما أمر الناس، لحبس أبي إياي في بيته، فلما سمعت أصواتهم دخلت عليهم، أنظر ما يصنعون، فلما رأيتهم أعجبتني صلاتهم ورغبت في أمرهم وقلت: هذا والله خير من الدين الذي نحن عليه، فوالله ما برحتهم حتى غربت الشمس وتركت ضيعة أبي، فلم آتها، ثم قلت لهم: أين أصل هذا الدين؟ قالوا: بالشام. فرجعت إلى أبي، وقد بعث في طلبي، وشغلته عن عمله كله، فلما جئته قال: أي بني، أين كنت؟ أو لم أكن عهدت إليك ما عهدت؟ قال: قلت له: يا أبت، مررت بأناس يصلّون في كنيسة لهم، فأعجبني ما رأيت من دينهم، فوالله ما زلت عندهم حتى غربت الشمس، قال أي بني، ليس في ذلك الدين خير، دينك ودين آبائك خير منه. قال: قلت له: كلا والله، إنه لخير من ديننا. قال: فخافني، فجعل في رجلي قيداً، ثم حبسني في بيته.

قال: وبعثت إلى النصارى فقلت لهم: إذا قدم عليكم ركب من الشام فأخبروني بهم. قال: فقدم عليهم ركب من الشام تجار من النصارى، فأخبروني بهم، فقلت لهم: إذا قضوا حوائجهم، وأرادوا الرجعة إلى بلادهم فآذنوني بهم. قال: فلما أرادوا الرجعة إلى بلادهم أخبروني بهم، فألقيت الحديد من رجلي، ثم خرجت معهم حتى قدمت الشام، فلما قدمتها، قلت: من أفضل أهل هذا الدين علماً؟. قالوا الأسقف في الكنيسة، قال: فجئته فقلت له: إني قد رغبت في هذا الدين، فأحببت أن أكون معك، وأخدمك في كنيستك، فأتعلم منك، وأصلي معك، قال: ادخل، فدخلت معه، قال: وكان رجل سوء، يأمرهم بالصدقة، ويرغبهم فيها، فإذا جمعوا إليه شيئاً

اكتنزه لنفسه، ولم يعطه المساكين، حتى جمع سبع قلال من ذهب وورق. قال: فأبغضته بغضاً شديداً لما رأيته يصنع، ثم مات، فاجتمعت إليه النصارى ليدفنوه، فقلت لهم إن هذا كان رجل سوء، يأمركم بالصدقة، ويرغبكم فيها، فإذا جئتموه بها، اكتنزها لنفسه، ولم يعط المساكين منها شيئاً. قال فقالوا لي: وما علمك بذلك؟ قال قلت لهم: أنا أدلكم على كنزه، قالوا: فدلنا عليه، قال: فأريتهم موضعه، فاستخرجوا منه سبع قلال مملوءة ذهباً وورقاً. قال فلما رأوها قالوا: والله لا ندفنه أبداً قال: فصلبوه ورجموه بالحجارة، وجاؤوا برجل آخر فجعلوه مكانه.

قال سلمان: فما رأيت رجلاً لا يصلي الخمس، أرى أنه كان أفضل منه وأزهد في الدنيا، ولا أرغب في الآخرة، ولا أدأب ليلاً ونهاراً منه. قال: فأحببته حباً لم أحبه شيئاً قبله. قال: فأقمت معه زمناً طويلاً، ثم حضرته الوفاة، فقلت له: يا فلان إني قد كنت معك وأحببتك حباً لم أحبه شيئاً قبلك، وقد حضرك ما ترى من أمر الله تعالى، فإلى من توصي بي؟ وبم تأمرني؟ قال: أي بني، والله ما أعلم اليوم أحداً على ما كنت عليه، فقد هلك الناس وبدّلوا، وتركوا أكثر ما كانوا عليه، إلا رجلاً بالموصل، وهو فلان، وهو على ما كنت عليه، فالحق به. قال: فلما مات وغُيّب، لحقت بصاحب الموصل، فقلت له: يا فلان: إن فلاناً أوصاني عند موته أن ألحق بك، وأخبرني أنك على أمره. فقال لي: أقم عندي، فأقمت عنده، فوجدته خير رجل على أمر صاحبه، فلم يلبث أن مات. فلما حضرته الوفاة، قلت له: يا فلان، إن فلاناً أوصى بي إليك، وأمرني باللحوق بك، وقد حضرك من أمر الله ما ترى، فإلى من توصي بي؟ وبم تأمرني؟ قال: يا بني، والله ما أعلم رجلاً على مثل ما كنا عليه إلا رجلاً بنصيبين[1]، وهو فلان فالحق به.

(١) نصيبين: بلد من بلاد الجزيرة، وهي الآن في تركيا على الحدود السورية تقابل بلدة القامشلي.

فلما مات وغُيّب لحقت بصاحب نصيبين، فأخبرته خبري، وما أمرني به صاحبه، فقال: أقم عندي، فأقمت عنده، فوجدته على أمر صاحبيه، فأقمت مع خير رجل، فوالله ما لبث أن نزل به الموت، فلما حُضِر قلت له: يا فلان إن فلاناً كان قد أوصى بي إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إليك، قال: فإلى من توصي بي؟ وبم تأمرني؟ قال: يا بنيّ والله ما أعلمه بقي أحد على أمرنا، آمرك أن تأتيه إلا رجلاً بعمورية[1] من أرض الروم. فإنه على مثل ما نحن عليه، فان أحببت فأته، فإنه على أمرنا.

فلما مات وغُيّب لحقت بصاحب عمورية، فأخبرته خبري، فقال: أقم عندي، فأقمت عند خير رجل، على هدي أصحابه وأمرهم. قال: واكتسبت حتى كانت لي بقرات وغنيمة. قال: ثم نزل به أمر الله تعالى، فلما حُضر قلت له: يا فلان، إني كنت مع فلان، فأوصى بي إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إليك، فإلى من توصي بي؟ وبمَ تأمرني؟ قال: أي بني، والله ما أعلمه أصبح اليوم أحد على مثل ما كنا عليه من الناس، آمرك به أن تأتيه، ولكنه قد أظل زمان نبي، وهو مبعوث بدين ابراهيم عليه السلام، يخرج بأرض العرب، مهاجَره إلى أرض بين حرتين[2]، بينهما نخل، به علامات لا تخفى، يأكل الهدية، ولا يأكل الصدقة، وبين كتفيه خاتم النبوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل[3]. وقد انتقل سيدنا سلمان إلى هناك وأسلم، وكان من الصحابة المعروفين، رضي الله عنه.

وكذلك فإن أهل الشرك في جزيرة العرب قد شعر بعضهم بما آل إليه أمر قومهم من الشرك والبعد عن دين سيدنا إبراهيم على الرغم من أنهم كانوا

---

(١) عمورية: بلدة في تركيا، في الجزء الغربي منها إلى الجنوب الغربي من أنقرة، وهي على بعد عدة كيلومترات منها.

(٢) الحرة: الأرض البركانية ذات الصخور الوعرة، والمدينة المنورة تقع بين حرتين إحداهما في الغرب منها والثانية إلى الشرق.

(٣) سيرة ابن هشام.

يدّعون ذلك. قال ابن اسحاق: واجتمعت قريش يوماً في عيد لهم عند صنم من أصنامهم، كانوا يعظمونه، وينحرون له، ويعكفون عنده، ويديرون به، وكان ذلك عيداً لهم في كل سنة يوماً، فخلص منهم أربعة نفر نجياً[1]، ثم قال بعضهم لبعض: تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض، قالوا: أجل. وهم: ورقة بن نوفل، وعبيدالله بن جحش، وعثمان بن الحويرث، وزيد بن عمرو بن نفيل، فقال بعضهم لبعض: تعلموا والله ما قومكم على شيء، لقد أخطؤوا دين أبيهم إبراهيم، ما حجر نطيف به، لا يسمع ولا يبصر، ولا يضّر ولا ينفع، يا قوم التمسوا لأنفسكم ديناً، فإنكم والله ما أنتم على شيء. فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية، دين إبراهيم. وقد فارق زيد دين قومه، فاعتزل الأوثان والميتة والدم والذبائح التي تذبح على الأوثان، ونهى عن قتل الموؤدة، وقال: أعبد رب إبراهيم، وبادى قومه بعيب ما هم عليه. وروي أنه كان يقول: يا معشر قريش، والذي نفس زيد بن عمرو بيده، ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيري، ثم يقول: اللهم لو أني أعلم أي الوجوه أحب إليك عبدتك به، ولكني لا أعلمه، ثم يسجد على راحته.

كل هذا يدل على أن الأوضاع كانت بحاجة إلى رسول ينقذ هذه البشرية التي تتخبط في الظلمات، وكانت النفوس مهيأة لذلك، والكتب السماوية قد أخبرت، والأحبار والرهبان يعرفون ما في هذه الكتب، وصفات النبي معلومة، وكل شيء يشير إلى ذلك.

فالرسالة الإسلامية جامعة للرسالات ناسخة لها، وهي للبشر جميعاً، وصاحب الرسالة محمد ﷺ خاتم الأنبياء والرسل كلهم، وكان من أمة وسط، وكان شهيداً على الناس جميعاً، جاء على فترة من الرسل، وتنطبق أحكام منهجه على أبناء البشر أجمعين.

---

(١) النجي: الجماعة يتحدثون سراً عن غيرهم، ويقع للاثنين والواحد بلفظ واحد.

وتختلف رسالة الإسلام عن بقية الرسالات فإذا كانت كلها خاصة بشعب أو أمة واحدة، وقد ضمت تشريعات تتفق ومصالح تلك الأمة، وإن بعض هذه الرسالات لم تكن تضم تشريعاً في الأصل، إذ لم تكن لدعوتها دولة قامت في عهد نبيها، فالرسالة الإسلامية كانت جامعة. أما النصرانية مثلاً فليس فيها تشريع عام لأنها لم تقم لها في عهد سيدنا عيسى عليه السلام دولة لتتنزل إليها التشريعات وإنما قامت الدول النصرانية من بعده حين انتشرت الفكرة، ورفع سيدنا عيسى إلى السماء، وهو لم يزد عمره على الثلاثة والثلاثين عاماً، بينما نلاحظ أن سيدنا محمداً عليه الصلاة والسلام قد بعث وهو في الأربعين من عمره، وانتشر الإسلام في أيامه وكوّن حكومة في المدينة المنورة امتد سلطانها على جزيرة العرب كاملة. وهذا أمر طبيعي فما نزل من القرآن الكريم قبل أن يكون للإسلام دولة عندما كانت الدعوة لا تزال في مكة لم يكن ليضم تشريعاً وهذا ما نلاحظه في السور المكية وإنما نرى التهديد والوعيد للمشركين والوعد والبشرى للمؤمنين، ونرى آيات الله بينات على قدرته ونعمه على مخلوقاته، أما الآيات التي نزلت في المدينة فكان فيها التشريع لتلك الدولة القائمة للإسلام. أما الديانة اليهودية فقد نزل لها منهج خاص ببني اسرائيل، يتفق وأسلوبهم في الحياة، ولا يصلح لغيرهم من الناس. ولما كانت الديانتان اليهودية والنصرانية ليستا آخر الديانات فقد جدت بعدهما على المجتمعات أمور تحتاج إلى تبيان وحكم، وهذا ما وجد في الرسالة الإسلامية على كونها آخر الرسالات وخاتمتها، قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ

حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍۢ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ [1].

كان كل نبي يبعث لقومه فقط ولمدة معينة من الزمن، فما من أمة إلا وأرسل لها بشير ونذير، وكانت تنتهي هذه المهمة بانتهاء تلك المدة من الزمن أو بهلاك القوم المنذرين أو البعد عما كانوا يقترفون من آثام أو التخلص مما كان يلحقهم من أذى، فإبراهيم عليه السلام أرسل لردع قومه عن عبادة الأوثان وتعريفهم على الله قال تعالى: وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍۢ مُّبِينٍۢ [2]. وقال تعالى: وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًۭٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًۭا سَوِيًّۭا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّۭا [3]. وأرسل سيدنا لوط عليه السلام لمحاربة الفاحشة التي كان قومه يأتونها: وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍۢ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ

---

(١) الأنعام: ١٤٥-١٤٦.

(٢) الأنبياء: ٥١-٥٤.

(٣) مريم: ٤١-٤٤.

شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ [١]. وأرسل سيدنا شعيب عليه السلام لمنع الغش الذي شاع بين بني قومه ولإبقاء الكيل والميزان: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [٢]. وأرسل سيدنا موسى عليه السلام لينقذ قومه من ظلم فرعون وملئه: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [٣]. وأرسل سيدنا عيسى عليه السلام لهداية خراف بني اسرائيل الضالة. وهكذا فلكل نبي مهمة بين قومه.

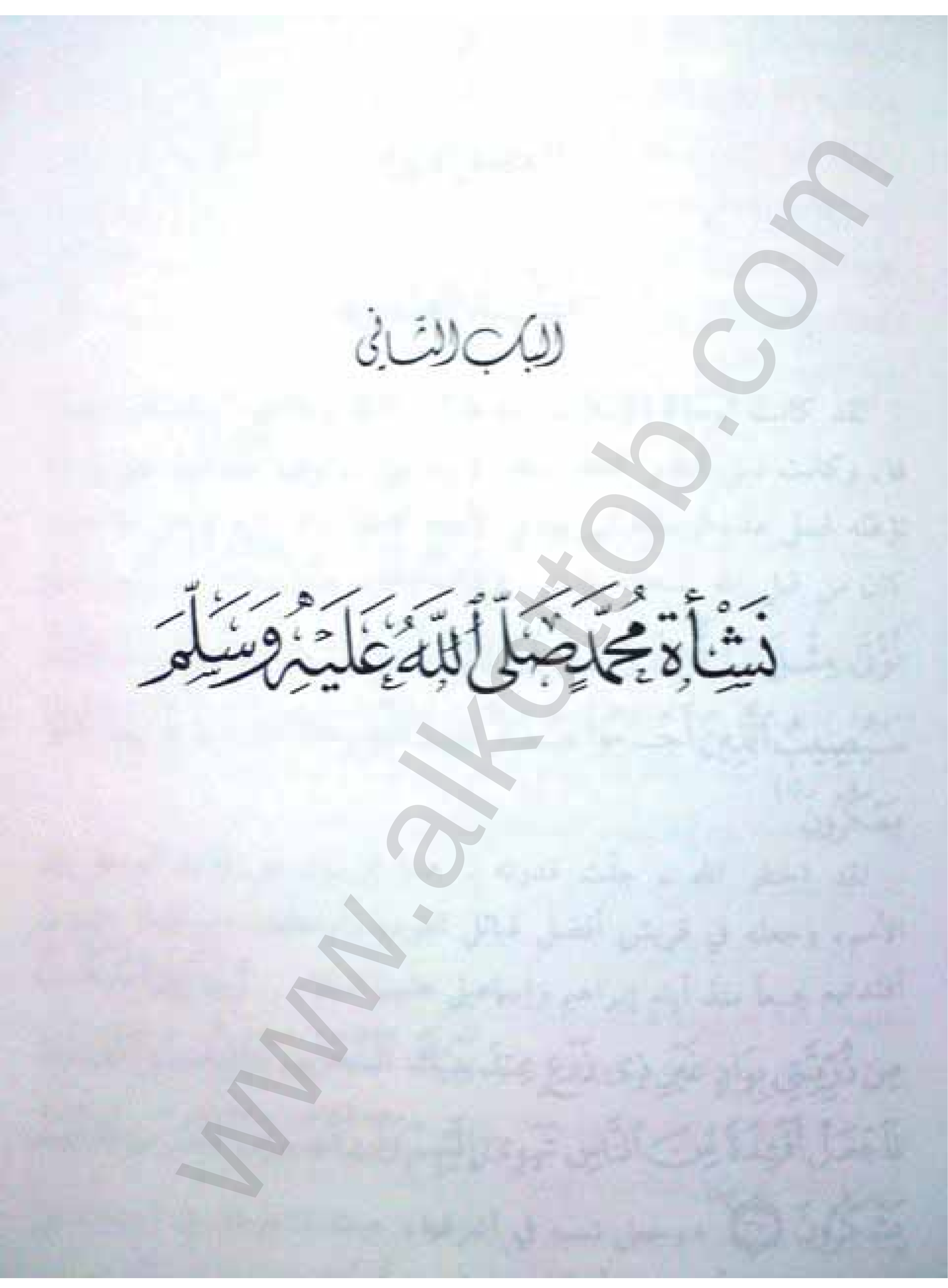
وامتاز بعض الأنبياء بالانذار كنوح وموسى، حتى إذا نفد صبر نوح، دعا على من لم يؤمن من قومه، وما آمن معه إلا قليل: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [٤]. واتصف بعضهم بالتبشير والتسامح والعفو كإبراهيم

---

(١) الاعراف: ٨٠ـ٨١.
(٢) الاعراف: ٨٥.
(٣) طه: ٤٧.
(٤) نوح: ٢٦ـ٢٧.

وعيسى. واتصف بعضهم بشهادة الحق كإسحاق ويعقوب. وعُرف بعضهم بالثبات والصبر كأيوب ويحيى و... وهكذا فلكل نبي سمة خاصة في دعوته، ولكن محمداً ﷺ كانت صفاته تجمع ميزات الأنبياء كلهم فقد كان بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً. لذلك يمكن القول: إن الاقتداء به إنما هو اقتداء بالأنبياء جميعاً، ويمكن أن نجد في سيرته ما يمكن أن نأخذه من سيرهم من الصفات البارزة والسمات الواضحة المعالم.

وكذلك فدعوته تجمع الدعوات السابقة حيث جاءت جامعة فهي لبني البشر كافة، بينما كانت دعوات من سبقه من الأنبياء لأقوام معينة، وقد شملت دعوته هذه الأقوام. وكذلك شملت الزمن كله حتى يرث الله الأرض ومن عليها. فهي تعمّ الأقوام أجمعين. وكذلك كانت خاتمة الدعوات كلها فلن تنزل بعدها شريعة لتشملها وتشمل الزمن كله. وبذا فتمثّلها إنما يكون تمثّلاً لكل دعوات الأنبياء الآخرين جملةً واحدة. فلو أخذنا دعوة واحدة سواها لكان أخذاً لجانب واحد وغمطاً لبقية الجوانب. وكذلك فهي ناسخة لما قبلها ومتممة لها في الوقت نفسه. فلم يعد للدعوات السابقة بوجودها شأن فقد انتهت مهمتها، أو هلك من كانت لهم. وعلى هذا لا يمكن قبول قول من يقول: إننا ندعو إلى تطبيق الشريعة الموسوية أو الديانة العيسوية ما دامتا من عند الله فإضافة إلى أنهما لا تتضمنان تشريعاً أو نظاماً. وكانتا لبني اسرائيل خاصة، وعملت بهما يد التحريف، فإنهما منسوختان، والمنسوخ لا يعمل به، بل لا يمكن قبول هذه الفكرة لأنها محاولة خبيثة لبذر الشك وإبعاد الناس عن طريق الحق.



الباب الثاني

نَشأة محمد صلى الله عليه وسلم

الفصل الأول

عهد الطفولة

لقد كانت الرسالة الإسلامية جامعة الرسالات وخاتمتها، وناسخة ومتممة لها، وكانت لبني البشر كافة، ولهذا لا بدّ من أن يكون صاحبها على درجة تؤهله لحمل هذه الرسالة كي يؤدي الأمانة كاملة، ولا شك أن هذا الاختيار كان من قبل الله سبحانه وتعالى ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ﴾[1]

لقد اختار الله ـ جلّت قدرته ـ هذا الرسول من الأمة الوسط بين الأمم، وجعله في قريش أفضل قبائل العرب وأوسطها، ومركزها مهوى أفئدتهم جميعاً منذ أيام إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾[2]، وجعل نسبه في أشرفها، حيث لا يوجد بين أجداده من ولد من سفاح أو غيره، أو يُطعن في نسبه، أو يُعاب.

---

(١) الأنعام: ١٢٤.
(٢) إبراهيم: ٣٧.

لقد اختار الله ـ جلّت قدرته ـ هذا النبي من شعب أقرب إلى البداوة التي لم تفسدها المدنية، والبساطة التي لم تغيّرها الرفاهية، ولم يكن من أمة متحضرة عرفت الفلسفة والمناقشات، وعلمت المعارف والعلوم، تناقش في كل موضوع وتجادل في كل بحث، ولو كان كذلك لكثر الجدال، وقيل: إن هذا الرجل قد اقتبس من علوم الأقدمين، وخالط الفلاسفة فأخذ عنهم، وفوق كل هذا فقد كان عليه الصلاة والسلام أمياً لا يحسن القراءة ولا يجيد الكتابة لكيلا يقول عنه أحد: إنه قد قرأ على بعض الأعجميين أو درس الكتب التي كانت خارج الجزيرة، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ (١)

لقد اختار الله ـ سبحانه وتعالى ـ رسوله، وتكفّل بالعناية به، منذ أن كان نطفة، حتى وُلد وبُعث، ثم جاهد وأسس دولةً، وحتى انتقل إلى الرفيق الأعلى، وكانت الرعاية الإلهية تحوطه في كل لحظة، فكانت سيرته كاملةً لا انقطاع فيها، وليس فيها مدة مهما قصرت غير واضحةٍ على الناس أو مجهولة في التاريخ لئلا يخفى شيء من السيرة حيث يمكن أن تكون حوادث هذه المدة المجهولة ذات فائدة وتكون أسوة للأتباع في بعض شؤون حياتهم. وحتى اللحظات التي يخلو فيها بنسائه، حيث كنّ يحدثن عن هذه اللحظات بكل أدب وحكمة، ويجد المرء من ذلك القدوة لعلاقة الزوج بزوجه.

وقد كانت سيرة سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ سيرة تاريخية، حدثت في الواقع وسجلها العلم وليست من نسج الخيال وتصور الكتّاب، كما لم تكن أسطورة تعتمد على الخرافة، وتُبنى على الوهم، لذا فهي واقعية يمكن أن يتمثلها المرء في الحياة حيث تنسجم مع ما فطر عليه البشر. وهذا الواقع من السيرة معروف لدى الأعداء قبل الأنصار وعند الخصوم الذين عاصروه قبل أصحابه الذين عاشوا معه.

---

(١) العنكبوت: ٤٨.

وكانت سيرة سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - سيرة جامعة تشمل جميع نواحي الحياة، فيها حياة الشاب مع أقرانه، والزوج مع أزواجه، والرجل مع أبنائه، والفرد مع مجتمعه، والمرء في محيطه، والقائد مع جنده، والحاكم مع رعاياه، فيها صفة القائد الحكيم المنتصر، وحالة الرجل المنهزم، المرء الذي مات أبناؤه، وفقد زوجته، ومات بين يديه أصحابه، والذي غدر به الغادرون، وحل عليه الأهل والجوار، وعتا عليه الوجهاء، وخاصمه الزعماء، وناصره المستضعفون، وعُذّب أمامه أنصاره وهو لا يقدر على شيء. في حياته المنهج الذي شرعه، والطريقة التي سار عليها، فيها علاقة الدولة مع غيرها، فيها حياته في العسر واليسر، والمنشط والمكره، في الشدائد والعقبات، في الهزائم وعند النصر، وبذلك يجد كل إنسان في حالته التي هو فيها مثلاً لها في حياة ذلك الرسول فيأخذ منها ويقتدي بها، كما في هذه السيرة حياة الطفل اليتيم والرجل الفقير، والتاجر المستأمن، والزوج الذي دون زوجه مدة من الزمن، والانسان الذي مات أبناؤه الذكور عنه، وعاشت الاناث فقط، ثم ماتوا كلهن في حياته سوى واحدة منهن، ومن بناته من أنجبن، ومنهن من كن عقماً، ومن تعددت أزواجه فمنهن المرأة المسنة، والفتاة الصغيرة، والمختالة بجمالها، والغيور...

وكانت سيرة سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - سيرة عملية يستطيع الناس ممارستها وتطبيقها، فلو كانت فوق مستوى البشر لصعب الاقتداء بها والسير على منوالها حيث يمكن للرسول تطبيقها بقدرة إلهية، ولم تكن سيرته عليه الصلاة والسلام لتجمع تناقضاً بين حوادث متشابهة لأن ذلك أيضاً يحول دون ممارستها. وليس معنى هذا عدم وجود معجزات له أو أمور خارقة للعادات والمألوف ولكن كانت هذه المعجزات في غير حياته الإنسانية التي يمكن أن تكون قدوة، فالشجر والحجر قد سلّما عليه، ونبع الماء من بين أصابعه الكريمة، ونزلت الملائكة تنصره في الحرب ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1] ، وقال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾[2] ، وقال جل شأنه: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾[3] ، وفوق كل هذا فالقرآن الكريم يُعدّ المعجزة الكبرى لرسول الله صلى الله عليه وسلم من الناحية الأدبية والتشريعية حيث اشتهر قومه بالأدب والبلاغة ومع ذلك فقد تحداهم بأن يأتوا بمثله أو بعشر سور منه أو بسورة واحدة، فعجزوا عن ذلك، قال تعالى:

﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ

---

(١) الأنفال: ٩ ـ ١٠.
(٢) الأنفال: ١٢.
(٣) آل عمران: ١٢٤ ـ ١٢٦.

لِلْكَٰفِرِينَ[1]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[2] وقال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[3]. وفي القرآن الكريم آيات معجزات، سواء أكانت في الإخبار عن الأمم السابقة حيث كانت مجهولة لا يعرفها أهل الجزيرة أبداً، أم في الحديث عن المستقبل كالإخبار عن انتصار الروم قريباً بعد هزيمتهم، قال تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾[4] أم كانت جوانب اقتصادية واجتماعية وتشريعية تدعو صاحب كل فكر ليقنع بأن ما في القرآن ليس من كتابة إنسان مهما سمت منزلته وعلت عبقريته، إذ لا يمكنه أن يأتي بتشريع يقترب من مستوى ما في القرآن من تشريع، والذي لو طبق لعاش الناس في حياة سعيدة تماماً كما حدث في صدر الإسلام عندما طبق التشريع الاسلامي،

---

(١) البقرة: ٢٣ - ٢٤.

(٢) هود: ١٣ - ١٤.

(٣) الاسراء: ٨٨.

(٤) الروم: ١ - ٥.

ولم لا ؟ والله هو الذي خلق البشر وصوّرهم، فلا شك أن ما يشرعه لهم وما ينزله عليهم سيؤمن لهم حياة سعيدة من كل جوانبها لا من جانب واحد، ولا يهمل بقية الجوانب، والله على كل شيء قدير.

عندما تتوفر هذه الشروط تكون السيرة صالحة للاقتداء، ومن خلال معرفتنا بسير الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام لا نجد سوى سيرة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم تتوفر فيها هذه الشروط، لأن كثيراً من الأنبياء لا نعرف من سيرهم إلا النذر اليسير، ومن نعرف من حياتهم الكثير تفوتنا حوادث وأخبار مدة من الزمن من حياتهم، الأمر الذي يحدث انقطاعاً في سيرتهم، وكلهم تقريباً ـ عدا محمد ـ تفتقد حياتهم شمول جميع نواحي الحياة، فسيرة سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام وهو أكثر الأنبياء ذكراً في القرآن الكريم، ونعرف الكثير من أخباره، ولكننا نجهل كيف تربى في بيت فرعون؟ وكيف نجا أخوه هارون من القتل؟ وكيف كانت علاقته مع زوجه وأسرته وأقربائه وأبنائه؟ وهذه نقاط أساسية في الحياة الاجتماعية، وكذلك نجهل النظام الاقتصادي والسياسي الذي سار عليه ودعا إليه. وكذلك لا يمكن الثقة بما ترويه التوراة حيث جمعت أسفارها بعد حياة سيدنا موسى عليه السلام بعدة قرون، الأمر الذي جعل التحريف يشمل الكثير منها مع ما أضيف عليها، وما ضاع منها، وبقيت كتاب سيرة ضمّ الكثير من آراء المؤرخين، ونظرتهم إلى صاحب السيرة، وتصورهم عنه، إضافة إلى المتناقضات التي تضمها، فلكل حادثة روايتان، وقد تكونان متباينتين تماماً.

وسيرة سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام لا نعرف منها إلا القليل، إذ لا نعلم إلا شيئاً عن ولادته وطفولته، ثم تغيب عنا مراحل حياته مدة ليست بالقصيرة لتعود إلينا مرة ثانية في السنوات الأخيرة من حياته، إضافة إلى أن الأناجيل قد دونت بعد ارتفاعه بأكثر من ستين سنة، بل نجهل اللغة التي دونت فيها، ومن قام بترجمتها؟ فهي إذن كتب سيرة لا يوثق بها لأنه لا يعرف كاتبها وصدقه، ولا غايته وقصده، ثم نسبت إلى الحواريين، وحتى

الكنيسة لا تعترف ببعض الاناجيل التي تنسب إلى حواريين آخرين حيث لم يرق لها ما تحويه. كما أن رهبان الكنيسة قد اجتمعوا بعد حياة المسيح بعدة قرون ليدرسوا طبيعته، وكذلك فإن حياة سيدنا عيسى لم تشمل جميع نواحي الحياة، فلم تكن له زوج لنعرف العلاقة بينهما، ولم يكن له أبناء، ولم يؤسس دولة يقودها، لنسير على خطاه وهديه في تسيير دفة الحكم وسياسة الأمور الاجتماعية والاقتصادية ولنعرف كيف تكون علاقتنا مع الحكومات والأمم الأخرى.

هذا بالنسبة إلى الأنبياء والرسل الذين نعرف عنهم الشيء الكثير فكيف بالذين لا نعرف عنهم إلا النذر اليسير أو الذين لا نعرف إلا أسماءهم والأقوام التي أرسلوا إليها.

أما سيرة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فإننا نعرفها كاملة منذ ولادته حتى انتقاله لا يفوتنا منها شيء، ولا يغيب عنا طرفة منها حتى في خلوته مع نسائه حيث كان صلى الله عليه وسلم يسمح لهن بالتحدث عن تلك الخلوة والنقل عنه، إضافة إلى أن عدداً من الصحابة قد تفرغوا لصحبته والأخذ عنه، ونقلوا إلينا أخباره بدقة وأمانة، ووصلت إلينا بطرق صحيحة، ثقة عن ثقة حتى لا يغيب عنا شيء منها. وأنه عليه الصلاة والسلام قد عاش ثلاثة وخمسين عاماً بين أعدائه وخصومه، فلم تصل إلينا أخباره من طرف واحد وهو ما دوّن من جانب أصحابه وأتباعه، بل ما سجل من جانب أعدائه وخصومه أيضاً، ومن عاصروه وكان السجل واحداً تقريباً من حيث الصفات الأخلاقية والأمانة والاستقامة. وحكومته دامت أكثر من عشرة أعوام وضم نظامها التشريع الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والإداري وجميع مرافق الحياة، وكان نجاح التطبيق كاملاً، وهو يصلح لكل وقت، ولأية مجموعة من الناس، وفي أية بقعة من الأرض. وبذا فحياته صلى الله عليه وسلم تصلح أن تكون أسوة لمن يريد التأسي من الأفراد، ونظامه يصلح منهاجاً لمن أراد الاقتداء من الحكومات للسير في طريق الحق. إذ يتعرف كل متبع لدين على

أمور دينه من سيرة نبيه والأحوال التي كان عليها، ثم يقتدي بها، ويفرغ حياته في قالبها. وتتعرف كل دولة تريد سبيل الصلاح على طريق سير نبيها في حكومته ونهجه وشرعه ثم تقتدي بذلك، وتطبق ذلك عليها وعلى رعاياها. وعلى هذا يجب أن تكون سيرة سيدنا محمد هي السيرة الواجبة الدراسة، الواجبة الاتباع، الواجب التمسك بها.

نشأ محمد صلى الله عليه وسلم في مجتمع جاهلي لا يهتدي إلى الله، ولا يتبع الوسائل التي تؤدي إلى الهداية، وإنما يعبد من دون الله أصناماً وأوثاناً، ويدعي أنها تقربه إلى الله زلفى، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[1] وإضافة إلى هذا الشرك فقد كان تصورهم عن الله تصورا خاطئا إذ كانوا يعتقدون أن الملائكة بنات الله، وأن هناك صلة نسب بينهم وبين الجن، قال تعالى: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾[2] وقال عز وجل: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[3] هذه العقيدة جعلت بعض العقلاء في المجتمع يلمسون سوء هذا التصور وجهل هذا المعتقد وبعده عن الصواب، ولكنهم لم يعرفوا طريق الحق،

---

(١) الزمر: ٢ ـ ٣.

(٢) الاسراء: ٤٠.

(٣) الأنعام: ١٠٠.

فانزووا، وادعوا أنهم حنفاء على دين إبراهيم دون أن يتوصلوا إلى التصور الصحيح والحقيقة التي ينشدونها، ولم ينكر هؤلاء الحنفاء جاهلية مجتمعهم، ولم يدعوا إلى تصور صحيح، فكان عملهم سلبياً، فلم يؤثروا بأحد، ولم يظهر لعملهم هذا أي مردود. فالعمل لا يفيد بالانزواء، ولا ينفع بالعزلة، ولا يجدي بالتحصن في الصوامع، والإسلام دعوة للحق في كل مجال وعلى كل صعيد، والإسلام أمر بالمعروف ونهي عن المنكر وقتال ضد الباطل، وإذا وجدت المفاسد ولو على نطاق ضيق، ولم ينكرها أحد، فمعنى ذلك تعاون المجتمع على تفشيها ومساعدة منه على انتشارها، قال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ۝٧٨ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[2]

وقال صلى الله عليه وسلم: «من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده، فمن لم يستطع فبلسانه، فمن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الايمان»[3]. فالبقاء في غرف خاصة وفي أماكن العبادة والاقتصار على روادها طريقة لم يعهدها المسلمون الاوائل، ولم يعرفها المصلحون، وإنما سار عليها أولئك الذين قبلوا أسهل الامور وأخف الجهاد وأضعف الايمان.

---

(١) المائدة: ٧٨ ـ ٧٩.

(٢) آل عمران: ١٠٤.

(٣) رواه مسلم (٤٩) في الايمان: باب كون النهي عن المنكر من الايمان.

نشأ محمد صلى الله عليه وسلم في مجتمع يعج بالظلم فالقوي يستعبد الضعيف، والغني يستبد بالفقير. والعبودية معروفة، والرق قائم، ومصادره كثيرة، فالغزو والسلب والاعتداء والحروب ـ وما أكثر الحروب، وأيام العرب مشهورة ـ وكل هذا يمد المجتمع بأفواج جديدة من الرق. والأغنياء قلة والفقراء كثرة. وطريقة الإغارة مشهورة وهي من أكبر وسائل العيش وطرق الرزق والحصول على الغنيمة والربح. والخوف على الحرية موجود في كل خطوة يخطوها الإنسان، والخوف على الملك قائم في كل لحظة يغفل فيها صاحبه أو يضعف عن الدفاع عنه، ولا يستطيع أحد أن يضع حداً لما يحدث، ولا أن يغير ما يجري، بل لم تقم دعوة لذلك، وإن كان التذمر من الأوضاع القائمة يساور بعض النفوس، ولكن سيطرة الظلم أقوى من الدعوة الكامنة ضده.

نشأ محمد صلى الله عليه وسلم في مجتمع تكثر فيه المفاسد وتعم الرذائل، فالبغاء والاستبضاع والزنى الجماعي والافرادي، وزواج أسبق الرجال ممن مات زوجها أمور كلها قائمة، وخطف الفتيات والاعتداء على الأعراض كله شائع لا ينكره أحد ولا تحاربه جماعة، هذا بالإضافة إلى وأد البنات وقتل الأولاد خشية الفقر أو العار، وكله معروف، ولعب الميسر وشرب الخمر أمور تعد من المفاخر والتباهي، وليس شرطاً أن يكون المجتمع كله يرتكب هذه الاعمال حتى تقول عنها: إنها من صفاته أو إنها ملازمة له، وإنما عدم إنكارها من عدد مقبول دليل الرضى بها، وهذا ما يدعو إلى انتشارها إلى جانب الأفكار الأخرى، وإن كانت دعوة الاصلاح قد تجد بعض التأييد لو حدثت.

نشأ محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ في أرض العرب التي كانت أطرافها الغنية بيد غير أبنائها، فالأحباش والفرس والروم يسيطرون على أجزاء منها سواء في اليمن أم العراق أم الشام، وكانت قبائل عربية تدين لهؤلاء الغرباء بالولاء، وأنصار آخرون لا يؤيدونهم، وليس في العرب من يدعو إلى حرب

هؤلاء الغرباء وطردهم، ولو قامت دعوة الى ذلك لوجدت لها أنصاراً من أجل كسب المغانم على الأقل، فالحرب مصدر رئيسي لها، وهي من أهم موارد الرزق. أما وسط الجزيرة الفقيرة فكانت تتنقل فيه القبائل العربية الكثيرة، وتقوم بينها معارك طاحنة، وصراع دائم، وحروب لا تنفك، تستل السيوف لأتفه الأسباب، وتشرع الرماح لأحقر الأمور، والقبائل تفتخر بأيامها، وتعتز بأمجادها وأبطالها. وباختصار: فأوضاع الجزيرة على حالة لا تحسد عليها، والسكان في حالة لا ترتفع الى مستوى بقية الأمم، وهم في وضع من التفكك والتجزئة وانتشار الظلم والمفاسد.

نشأ محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ في قبيلة تعد من أشرف قبائل العرب، وفي بيت من أفضل بيوت قريش وأمنعها. نشأ يتيماً فلم يعرف الأب، ولم يدرك تماماً الأم، ولم ينعم بحياة الجد ليكون في منتهى حالات اليتم، ولم يشعر بحالات الرخاء والرفاهية عند عمه أبي طالب الكثير العيال القليل المال ليكون في منتهى حالات الفقر وهو رسول الله وأفضل خلقه ليكون القدوة لمن فقد أهله والأسوة لمن ذاق مرارة العيش، ولم يعرف من طعم الحياة حلاوة.

نشأ محمد صلى الله عليه وسلم بين قومه فكان صادقاً لا يعرف الكذب، وأميناً لا يعرف الخيانة، ووفياً لا يعرف الغدر، حتى كان معروفاً في مجتمعه بهذه الصفات، مميزاً بها عن غيره، لا يجهل ذلك أحد، ولا يساويه فيها رجل، لا ينكر ذلك عدو، ولا يمكن أن يتهمه خصم. بعث صلى الله عليه وسلم وناصبه قومه العداء، ولكن لم يستطع رجل واحد منهم أن يتهمه بصفة غير لائقة، أو خلق يعيبه به، ولو عرفوا شيئاً من ذلك وقد عاش بينهم أربعين عاماً لأراحهم من التنقيب عن خصلة غير حميدة يتهمونه بها عندما يحل الموسم، ويلتقي بالناس في الحج حتى يبعدوه عنهم. فعجزوا حتى وجدوا أن كلمة ساحر هي أفضل الصفات التي يطلقونها عليه حيث يفرق بدعوته بين الأب وابنه والأخ وأخيه والرجل وصاحبه، كما عرضوا فكرة المس (أصابه شيء من مس الجن فهو مجنون)، وعندما عرضت كلمة كاذب،

قالوا: ما جربنا عليه كذباً.

فالصدق من أولى صفات المسلم التي يجب ألا يبتعد عنها مهما كانت النتائج ومهما كانت الدواعي، ويكون الصدق في القول، وفي النية، وفي العزم والوفاء به، والصدق بالعمل.

والصدق بالقول هو أشهر أنواع الصدق وأظهرها، ويكون بالإخبار فإن نقل خلاف ما هو عليه فهو كاذب ومفتر، ويعدّ عندها من المنافقين، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾[1] ويقول صلى الله عليه وسلم: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان»[2] وعلى الجماعة المسلمة أن تنقي صفها من أولئك الذين يتخذون الكذب ليسوغوا به أعمالهم، وذلك من أخطر الأمراض التي تتعرض لها أثناء سيرها.

والصدق بالنية هو الاخلاص في العمل ليكون خالصاً لوجه الله سبحانه وتعالى.

والصدق بالعزم على العمل كأن يقول الرجل المريض: لإن عافاني الله لأجاهدن في سبيله، فإذا عوفي دخل الصدق بالوفاء في الجهاد حيث يظهر عند الشفاء نوع من الضعف وتردد في التنفيذ حيث ذكر الله عدم الصدق في الوفاء بالعزم ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ

---

(١) النحل: ١٠٥.

(٢) البخاري ٨٣/١ في الايمان: باب علامات المنافق، ومسلم (٥٩) في الايمان: باب بيان خصال المنافق.

يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ [1]

وهو كما قال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لأن أقدم فتضرب عنقي أحبُّ إلي من أن أتأمر على قومٍ فيهم أبو بكر رضي الله عنه إلا أن تسوّل لي نفسي عند القتل شيئاً لا أجده الآن لأني لا آمن أن ينقل عليها ذلك، فتتغيّر عن عزمها».

والصدق في العمل يكون بأن لا يختلف ظاهر عمل المسلم عن باطنه.

ومن الصدق: الوفاء بالوعد، والمحافظة على العهد، وعدم الغدر بمن أمنه، وكان صلى الله عليه وسلم أميناً محافظاً على الأمانة أشد المحافظة، وعلى الرغم من العداوة التي كانت بينه وبين قومه، فقد كانوا يحفظون عنده الأمانات، ويحسن أن نذكر: كيف أخّر سيدنا علياً رضي الله عنه عن الهجرة معه حتى يؤدي الأمانات التي كانت لقريش عنده إلى أهلها على الرغم من ترك الدار والأملاك لأعدائه أصحاب الأمانات.

والمسلم هو الذي يتصف بهذه الصفات، ويتحراها تحرياً شديداً متخذاً رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة ومثلا أعلى له.

حملت آمنة بنت وهب الزهرية برسول الله ﷺ من زوجها عبدالله بن عبد المطلب الهاشمي بعد أن بنى بها، ولكن الزوج لم يلبث أن توفي، ولم تزد مدة الحمل على الشهرين، توفي وهو عائد من الشام بتجارة له، وقد مرّ أثناء رجوعه على أخواله من بني النجار في يثرب، وهناك أدركته منيته. ولما تمت مدة الحمل ولد ﷺ في الثاني عشر من ربيع الاول، وكان ذلك في ٢٠ نيسان عام ٥٧١ لميلاد سيدنا عيسى عليه السلام، وهو ما يوافق السنة الأولى من عام الفيل إذ أن المجتمعات كثيراً ما كانت تؤرخ في الحوادث الهامة التي تمر عليها، وحادثة الفيل بالنسبة إلى أهل مكة أمر هام إذ أراد (أبرهة

---

(١) التوبة: ٧٥ ـ ٧٧.

الأشرم) تهديم البيت الحرام، ولكن الله حماه ورد كيد أعدائه في نحورهم، وقد سماه جده عبد المطلب محمداً، وكانت قابلة سيدنا محمد ﷺ (الشفاء) أم عبد الرحمن بن عوف، وكان أول من أرضعه (ثويبة) جارية عمه أبي لهب، وحضنته (بركة) أم أيمن أمة أبيه عبد الله. وبهذا نشأ محمد - ﷺ - يتيماً لا يعرف أباه أبداً، وهي الصورة الأولى من اليُتم التي تجعل المرء يجد في نفسه تعزية فيما لو ولد يتيماً إذ أن سيد البشر قد ولد يتيماً.

وكان من عادة قريش وأهل المدن عامة أن يرسلوا أطفالهم إلى البادية ليتلقنوا فيها سلامة اللسان وفصاحة اللغة، وكانت العادة أن تأتي المرضعات من البوادي على شكل جماعات يأخذن الرضّع. وجاءت مكة مرضعات بني سعد، وحصلت كل واحدة منهن على أطفال يكفونها، وامتنعن عن أخذ محمد الطفل اليتيم الفقير، أما واحدة منهن وهي (حليمة)، زوجة أبي كبشة، فلم تحصل على أحد، فاضطرت أن تأخذ محمداً ﷺ، ولعل في ذلك حكمة بأن الانسان لا يعرف الخير أين هو؟ فلربما كان الخير كل الخير في ما أحجم عنه. وما إن أخذت (حليمة) رضيعها وسارت به مع صويحباتها إلا وكانت تشعر باللبن يتدفق في ثدييها، أما هنّ فكنّ لا يرغبن بالحديث في هذا الموضوع أمامها تعزية ومواساة لها بطفلها الفقير، ولكن إذا انفردت إحداهن بثانية أو انعزلت (حليمة) عن الركب تحدثن وضحكن ورثين لحالها. وما إن وصلت مرضعات بني سعد إلى باديتهن، وكانت مقفرة، وحيوانات القوم تكاد تجفّ أضراعها من الجدب وقلة المرعى، وبوصول محمد ﷺ الطفل الرضيع إلى أولئك القوم جادت عليهم السماء بخيرها، واخضوضرت الارض، وارتفعت الاعشاب، وشبعت الأغنام، فاكتنزت لحماً، وأترعت أضراعها باللبن، بل أضحت تبدو حفلاً، وهي سائمة في مراعيها. وشعر بنو سعد بما لحق أراضيهم من خير، وإن كانوا لا يستطيعون عزو ذلك إلى شيء سوى أسرة (حليمة) بالذات التي كانت تشعر بما حل عليها من نعيم وبما اطمأنت له نفسها عندما حلّ بدارها هذا الرضيع اليتيم محمد ﷺ، وخاصة عندما حدثت

له حادثة شق الصدر. تقول (حليمة): بينا هو وإخوته في بَهم[1] لنا خلف بيوتنا إذ أتى أخوه يعدو فقال لي ولأبيه: ذاك أخي القرشي قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه فشقا بطنه فهما يسوطانه[2]، فخرجت أنا وأبوه نحوه، فوجدناه منتقعاً وجهه، فالتزمه أبوه، فقلنا له: ما لك يا بني؟ فقال: جاءني رجلان عليهما ثياب بيض، فقال أحدهما لصاحبه: أهو هو؟ قال: نعم. فأقبلا يبتدراني، فأضجعاني، فشقا بطني فالتمسا فيه شيئاً فأخذاه وطرحاه، ولا أدري ما هو. فخافت حليمة من تلك الحادثة فردته إلى أمه، وإن كانت لا ترغب في فراقه لما رأت من بركات أثناء وجوده عندها، وليس فقط عندها وإنما حلت في بني سعد كلهم، وفي بواديهم وقطعانهم إضافة إلى هدوئه ولطفه وعلاقته مع إخوته الذين كانوا معه في رعايتها وكنفها.

عاد سيدنا محمد ﷺ إلى أمه ولم يزد عمره على الرابعة، ولم يلبث عندها إلا قليلاً، إذ سارت به إلى يثرب لزيارة أقربائه وقبر أبيه وأثناء عودتها أدركتها منيتها في الطريق ببلدة (الأبواء)[3]. ماتت (آمنة) وهي في مقتبل العمر وأول سن الصبا، ولم يكن أبوه أثناء موته بأكبر منها بكثير فكلاهما دون العشرين من العمر، وقلما يموت الزوجان معاً في هذه السن المبكرة، ولكن حكمة الله فوق كل حكمة وتدبيره فوق كل تدبير، إذ يريد الله أن يكون ـ كما ذكرنا ـ أنموذجاً لكل يتيم ومثلاً لكل فقير، فما من يتيم إلا وهو دونه في اليتم، وما من فقير إلا وهو دونه في الفقر.

توفيت آمنة فانتقلت كفالة الطفل إلى جده عبد المطلب، وحضنته بركة أم أيمن التي ورثها من أبيه فكانت أماً له، وكان لها ولداً مطيعاً، وقد رأت منه من النجابة الشيء الكثير، لم تر مثلها في أقرانه، ولم تعلم هذا في أترابه بل

---

(١) البهم: الصغار من الضأن والمعز، واحدتها: بهمة.

(٢) يسوطانه: يحركانه.

(٣) الأبواء: بلدة بين مكة والمدينة وهي أقرب إلى المدينة، وهي إلى الشمال الشرقي من رابغ وعلى مسافة ٤٠ كم منها.

ممن يفوقونه سناً بكثير. وعاش مدة في بيت جده، وربما قال بعضهم: إن الجد هو الأب الثاني، وعبد المطلب سيد قريش وشيخها المطاع، وعلى هذا فقد نشأ محمد ﷺ في بيت الوجاهة فأفاد منه، واقتبس من تربيته، ونشأ على المعرفة بما خالط وسمع من حضور منزل عبد المطلب. ولكن هذه الكفالة لم تطل ومدة هذه الحياة كانت قصيرة، ومحمد ﷺ كان في سن صغيرة لا تمكنه الإفادة من مركز جده، هذا بالإضافة إلى أن عبد المطلب كان قد أصبح مثقلاً في أواخر حياته فقلّ رواد داره إذ ظهر سادة جدد من بطون قريش كلها وحتى من بني هاشم بالذات حيث قام أولاده مكانه، إذ أصبح الزبير سيداً مكان أبيه، وكذلك أبو طالب والحارث وغيرهم، ولم يكن منهم في سن صغيرة سوى حمزة والعباس اللذين كانا في سن قريبة من سن رسول الله ﷺ.

ومات عبد المطلب ولم يزد عمر رسول الله على الثامنة، فكفله عمه أبو طالب شقيق أبيه، إذ لم يكن من بين أعمامه جميعهم سوى الزبير وأبي طالب شقيقان لعبدالله والد رسول الله ثم هناك بنات عبد المطلب كلهن شقيقات عبدالله باستثناء صفية رضي الله عنها، فإنها كانت شقيقة سيدنا حمزة رضي الله عنه. وكان أبو طالب يحب محمداً حباً جماً، فهو ذكرى شقيقه عبدالله الذي مات ولم تكتحل عيناه برؤية ولده الوحيد، ولم يسعد بزواجه سوى أشهر قليلة، ومات بعيداً، وكان ثانياً وصية أبيه عبد المطلب، ومن جهة ثالثة فقد رأى منه ما لم ير من غيره من الأدب والنجابة والتربية والطاعة فضمه إلى أولاده الكثيرين، وكان يعتني به العناية التامة، ويفضله على أبنائه جميعهم.

وكان أبو طالب قليل المال كثير العيال، وقد لحظ هذا رسول الله ﷺ مع صغر سنه، فطلب منه أن يعمل، إلا أن أبا طالب لم يكن برأيه عمل ابن أخيه تكريماً له وتقديراً، ولكن وافق العم مع طلب الطفل وإلحاحه، فبدأ يرعى الغنم لأهل مكة على قراريط، قال ﷺ «ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم. فقال أصحابه: وأنت؟؟ فقال: نعم، كنت أرعاها على قراريط لأهل

مكة[1]. يقول ابن حجر رحمه الله قال العلماء: الحكمة في إلهام الأنبياء من رعي الغنم قبل النبوة أن يحصل لهم التمرن برعيها على ما يكلفونه من القيام بأمر أمتهم، ولأن في مخالطتها ما يحصل لهم من الحلم والشفقة لأنهم إذا صبروا على رعيها وجمعها بعد تفرقها في المرعى ونقلها من مسرح إلى مسرح ودفع عدوها من سبع وغيره كالسارق، وعلموا اختلاف طباعها وشدة تفرقها مع ضعفها واحتياجها إلى المعاهدة، ألفوا من ذلك الصبر على الامة وعرفوا اختلاف طباعها وتفاوت عقولها، فجبروا كسرها، ورفقوا بضعيفها وأحسنوا التعاهد لها فيكون تحملهم لمشقة ذلك أسهل مما لو كلفوا القيام بذلك من أول وهلة لما يحصل لهم من التدريج على ذلك برعي الغنم، وخصت الغنم بذلك لكونها أضعف من غيرها، ولأن تفرقها أكثر من تفرق الإبل والبقر لإمكان ضبط الابل والبقر بالربط دونها في العادة المألوفة، ومع أكثرية تفرقها فهي أسرع انقياداً من غيرها.

ومرت السنون وشعر أبو طالب أن ابن أخيه قد بدأ في مرحلة الشباب، فقد غدا عمره قريباً من الثانية عشرة، ويجب عليه أن يترك عمل الرعي الذي لا يعطي من الربح إلا القليل، ولا يقوم به وجهاء القوم. لذا يجب عليه أن يدربه على التجارة مهنة قريش الرئيسية والتي تدر أرباحاً أكثر، ويعمل بها سادة القوم. وسار أبو طالب في تجارة، وصعب على محمد ﷺ فراقه وهو أنيسه، فرق له أبو طالب، وأخذه معه، وبذا تحققت رغبة أبي طالب برغبة سيدنا محمد وطلبه. وسارت القافلة إلى بلاد الشام، ووجد أبو طالب من محمد ﷺ الأخ الرفيق والولد المطيع والتاجر المستنير والزميل ذا العقل الراجح، وكان العم يشعر أنه يصطحب رجلاً كبيراً ذا قلب واسع وعقل سليم وخبرة عالية ومعرفة عامة، وكان هذا يسره ويشعر أن لابن أخيه مركزاً عريقاً ينتظره، وسيكون صاحب مركز بين قريش لا ينافسه فيه أحد مع علمه بأهلية قريش ورجالها ومكانتها ودرايتها. ووصلت القافلة إلى بصرى الشام

(١) رواه البخاري ٤/٣٦٣ في الإجارة: باب رعي الغنم على قراريط.

من بلاد حوران في الشام، وكانت بها سوق عامة دائمة. وهناك التقى أبو طالب براهب يدعى (بحيرا) فسأل الراهب أبا طالب عن ظهور نبي في بلاد العرب، فأجابه بأنه لم يظهر إلى الآن.

فقال الراهب: إننا نرى في كتبنا المقدسة أن موعد ظهوره قد حان وكثيراً ما كان من أهل الكتاب من يهود ونصارى يذكرون قرب بعثة نبي من أرض العرب، ثم سأل الراهب أبا طالب عن الفتى الذي معه ويعني بذلك محمداً، فأجاب أبو طالب: إنه ابني، فقال له عد به فلربما رآه بعضهم فعرفه فسعى في التخلص منه، فإنه سيكون له خبر[1]. لم يكن وقع هذا الكلام غريباً في أذن أبي طالب وإنما كان تحقيقاً لما في نفسه وتأكيداً لما يتحدث فيه أبو طالب مع نفسه.

عاد أبو طالب مسرعاً بقافلته متخوفاً، وقد زاد حبه له حباً، وحرصه عليه حرصاً، ولما عاد رسول الله إلى مكة انصرف إلى الحياة في خضم مجتمعها، يخالطهم ويتعامل معهم، ويرعى الغنم، فعرفه القوم معرفة تامة.

---

(١) حديث بحيرا الراهب رواه الترمذي (٣٦٢٤) وأصحاب السير، وقد تكلم في متنه، انظر تاريخ الاسلام، ٣٨/١ للحافظ الذهبي، فقد قال: حديث منكر جداً.

الفصل الثاني

مرحلة الشباب

١ ـ الحياة العامة:

قارب محمد ﷺ الثامنة عشرة من العمر، وغدا في سن الشباب، وكان يتعامل مع المجتمع الذي يعيش فيه ويتفاعل معه، ويشارك في الامور العامة والتي كان من أشهرها:

١ ـ **حروب الفجار**: وقد جرت بين قريش وكنانة من جهة وبين قيس من جهة ثانية، وسببها أن أحد الكنانيين قد قتل أحد القيسيين، وهبت قيس لتأخذ بثأرها، والتقى الفريقان عند (نخلة) شمال شرقي مكة خارج الحرم، وعندما حيت قيس احتمت قريش بحرمها الآمن، فنادت قيس: إن موعدنا العام المقبل في (عكاظ) ولما استدار العام التقى الطرفان في المكان المحدد، وكانت قريش قد جمعت كنانة والأحابيش وحلفاءها، ودارت الدائرة على قيس، ثم تم الصلح بين الجانبين، وعدت القتلى ودفعت الديات.

كان رسول الله ﷺ قد ناهز العشرين من العمر واشترك في هذه الحرب مع أعمامه، وكان عمه الزبير قائد بني هاشم ومعه إخوته أبو طالب والحمزة والعباس، وكان حرب بن أمية قائد قريش. وكان عليه الصلاة والسلام ينقل النبال ويجمع السهام.

٢ ـ **حلف الفضول**: وعندما عادت قريش من حرب الفجار تحالفت

بعض البطون وتعاقدت على ألا تجد بمكة مظلوماً من أهلها أو من غيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه حتى ترد إليه مظلمته. وكان بنو هاشم من بين هذه البطون المتحالفة، وحضره من بينهم محمد ﷺ، وكان الحلف في دار عبدالله بن جدعان أحد وجهاء قريش. وقد قال رسول الله ﷺ بعد أن شرفه الله بالرسالة: «لقد شهدت مع عمومتي حلفاً في دار عبدالله بن جدعان ما أحب لي به حمر النعم، ولو دعيت به في الاسلام لأجبت»[1].

وشاع خبر الفتى في أندية قريش، وأصبح حديث الناس في كل محفل عن أمانته وصدقه عن أدبه وسلوكه، عن انفراده ببعض الصفات التي تخوله أن يكون سيداً بل أكبر من ذلك بكثير، وقد عرف بين القوم باسم «محمد الأمين» و«الصادق».

٣ ـ بناء البيت: أصاب البيت الحرام حريق، ثم جاءه سيل عارم، فتصدعت جدر الكعبة، فأرادت قريش إعادة بنائها من جديد، فجمعت من أجل ذلك المال الحلال، وشرعت في البناء بعد الهدم، وجعل أشرافها ووجهاؤها يحملون الحجارة على أعناقهم لمكانة الكعبة في قلوبهم، وكان رسول الله ﷺ فيمن يحمل ومعه عمه العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه.

وتم البناء، وأرادوا وضع الحجر في مكانه، ولكنهم اختلفوا فيمن يضعه، وتنافسوا في ذلك حتى كادت الحرب تنشب بين بطون قريش، واستمر الخلاف أربع ليالٍ، ثم إن أبا أمية بن المغيرة المخزومي ـ وكان أسن القوم ـ قال: يا قوم لا تختلفوا بل حكّموا من ترضون بحكمه فقالوا: نكل الأمر لأول داخل. وما لبثوا إلا قليلاً حتى دخل محمد ﷺ فاطمأنت القلوب لما يعرفون من صدقه وأمانته، وحكمته ورأيه، وقالوا: هذا محمد الامين رضيناه.

شرح الوجهاء لسيدنا محمد ﷺ القضية فما كان منه إلا أن خلع رداءه

---

(١) رواه ابن هشام ١٣٣/١ عن إسحاق.

وسطه، ووضع الحجر عليه، وقال لتأخذ كل قبيلة بطرف من الثوب ولترفع، حتى إذا وصلوا به إلى مكانه أخذه بيديه الشريفتين ووضعه في موضعه المحدد.

وكان ﷺ آنذاك في الخامسة والثلاثين من العمر تقريباً. ولم تكن مشكلة من مشكلات المجتمع صغيرة أم كبيرة إلا ويشارك فيها. وهكذا فالإنسان المسلم عليه أن يعيش مع مجتمعه يصل رحمه، ويعود المريض، ويحمل العبء عن بعضهم، ويشارك في الأفراح، ويصلي في مسجد حيه، ويبتاع من سوقه، يقول ﷺ: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم»[1]. وأدرى الناس بالرجل أهله وجيرانه، فإذا عاملهم المعاملة الإسلامية فلا يكذب ولا يغش ولا يغتاب ولا يتكلم إلا بخير، فإذا فعل ذلك كان عندهم قدوة، وحاولوا أن يقلدوه ويسيروا على نهجه، وإذا أصابه مكروه حموه ومنعوه، ولكن إذا انزوى عنهم وابتعد كان بينهم نكرة لا يؤثر فيهم ولا يستفيد منهم. وكذلك فعليه أن يكون سمحاً في معاملتهم في بيعه وشرائه، كريماً معهم، يقول ﷺ: «رحم الله امرأ سمحاً إذا باع سمحاً إذا اشترى سمحاً إذا قضى سمحاً إذا اقتضى»[2]. ويقول «مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»[3] ويقول: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه[4]». وسأل رجل رسول الله ﷺ أي الإسلام خير؟ قال: «تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف[5]».

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥٠٩) في صفة القيامة: باب مخالطة الناس مع الصبر على أذاهم. وابن ماجه (٤٠٣٢) في الفتن وغيرهما وهو صحيح.

(٢) رواه البخاري وغيره.

(٣) متفق عليه.

(٤) متفق عليه.

(٥) متفق عليه.

وميدان عمل المسلم هو المحيط الذي يعيش فيه، فليمهد هذا الميدان لذلك وليعرفه وليتعهده.

٢ ـ الحياة الخاصة:

كانت حياة رسول الله ﷺ الخاصة أسوة صالحة للرجل المؤمن حتى قبل البعثة، فما من عمل يقوم به إلا وكان مثلاً أعلى للشباب إذ كان الله سبحانه وتعالى يرعاه ويتعهده. ومن أعماله الخاصة:

١ ـ **كسب الرزق**: كان ﷺ يرعى الغنم، وكان يتجر، وكان شريكه السائب بن أبي السائب، وذهب بتجارة لخديجة بنت خويلد إلى الشام على جزء من المال يأخذه، وبعد أن تزوج بها كان يتاجر بمالها، ويأكل من عمل يده، ويقول ﷺ «ما أكل أحد طعاماً قط خيراً مما يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده[١]»، ومنّ الله عليه بأن أغناه يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾.

٢ ـ **السمر**: كان من عادة شباب قريش السهر في الأندية واللهو والشرب فيها وقول الشعر أحياناً أو الذهاب إلى الأصنام وعبادتها ولكن رسول الله ﷺ لم يفعل شيئاً من هذا إذ كان الله سبحانه وتعالى يرعاه ويحول بينه وبين هذه الأعمال منذ صغره حتى لم يكن يحضر الاحتفالات أو الاعياد التي تقام للأصنام، ويقول عليه الصلاة والسلام «لما نشأت بُغضت إلي الأوثان، وبُغض إلي الشعر، ولم أهم بشيء مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين، كل ذلك يحول الله بيني وبين ما أريد من ذلك. ثم ما هممت بسوء بعدهما حتى أكرمني الله برسالته، قلت ليلة لغلام كان يرعى معي: لو أبصرت لي غنمي حتى أدخل مكة فأسمر كما يسمر الشباب، فخرجت حتى

---

(١) رواه البخاري.

جئت أول دار من مكة أسمع عزفاً بالدفوف والمزامير لعرس بعضهم، فجلست لذلك فضرب الله على أذني فنمت فما أيقظني إلا مسّ الشمس ولم أقض شيئاً، ثم عراني مرة أخرى مثل ذلك[1]». وكان ﷺ لا يشرب الخمر فقد حرمها على نفسه على الرغم من أنها كانت شائعة في ذلك المجتمع لدرجة كبيرة، كما لم يكن ليأكل مما يذبح على النصب، كل هذا زاد قومه حباً له.

وهكذا فالمسلم يجب أن يبتعد عن مواطن الشبهات ومواضع التهم، وحذار أن يُقال: إن هذا هو السائد في المجتمع وعلينا المسايرة، فالمسلم يعيش في المجتمع ليؤثر فيه، ويحاول أن يغير ما فيه من أعمال غير حسنة لا أن يتأثر فيه ويعمل كما يعمل، فما يفعل هذا إلا الرجل الضعيف الإمعة، ورسول الله ﷺ يقول: «لا يكن أحدكم إمعة إذا أحسن الناس أحسن وإذا أساءوا أساء[2]». هذا صحيح، ولكن لا يقرب مسلم مواطن السوء فهذا أمر يختلف عن ذاك.

٣ ـ الزواج: أصبح محمد ﷺ شاباً كامل الرجولة فقد بلغ الخامسة والعشرين من عمره، وغدا هدفاً لكثيرٍ من القبائل والبطون تريد أن تناسبه لتحصل على الشرف شرف القرابة، وما هذا بالذي يخفى على الفتيات، وكل واحدةٍ تريده بعلاً، وإن كان قليل المال، فالمال ظل زائل أما الشرف فأثر دائم، ولكن أنى للفتاة أن تتحدث بما يجول في نفسها في المجتمع القبلي إلا من كانت من الوجاهة ما تحول بينها وبين نقمة القوم، ومن الشرف ما يمنع أن تتحدث عنها القبيلة، أو من الغنى ما تذود به عن نفسها، أو تكون أرملة ثرية عركت الحياة، وقرفت الزواج، وحضرت منازل الرجال بمالها في مجتمعها من أثر الثراء والوجاهة.

وكانت خديجة بنت خويلد الأسدية ذات شرف ووجاهة إذ أن بني أسد

---

(١) أخرجه الحاكم ٤/٢٤٥ وصححه، ووافقه الذهبي، وضعفه ابن كثير في البداية ٢/٢٨٧.

(٢) رواه الترمذي (٢٠٠٨) وفي إسناده ضعف، وقد صح موقوفاً على ابن مسعود.

أحد بطون قريش المشهورة بالمجد والسؤدد. وكانت تاجرة تستأجر الرجال في مالها ليتاجروا لها، وتضارب بقية التجار وتنافسهم، وكانت أرملة قد تزوجت أبا هالة، وأنجبت منه ولداً هو (هالة) ربيب سيدنا محمد ﷺ، كل هذا جعلها تستطيع أن تتحدث بما في نفسها.

سمعت خديجة بسيدنا محمد ﷺ وأمانته وصدقه ودرايته وعلمه فاستأجرته ليخرج في مالها إلى الشام وتعطيه أفضل مما كانت تعطي غيره كل ذلك لتستوثق لنفسها. فسافر سيدنا محمد ﷺ مع غلامها ميسرة، فباعا ما حملا معهما، واشتريا ما عادا به، وربحا ربحاً عظيماً وظهر سيدنا محمد ﷺ لميسرة على حقيقته رجلاً لا كالرجال وإنما معجزة لهم على مدى الأيام. ولما عاد الرجلان إلى مكة، وسمعت خديجة من ميسرة ما رأى من صاحبه، سرت سروراً بالغاً، وطمعت في زواجه وأرسلت تخطبه لنفسها، وكانت تقارب الأربعين من العمر.

وذهب رسول الله ﷺ مع أعمامه ودخلوا على عمها عمرو بن أسد، فخطبوها منه فزوجه منها، وخطب أبو طالب في هذا اليوم فقال: «الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل وضئضئي[1] معد وعنصر مضر، وجعلنا حضنة بيته وسوّاس حرمه، وجعله لنا بيتاً محجوجاً وحرماً آمناً، وجعلنا حكام الناس، ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبدالله لا يوزن به رجل شرفاً ونبلاً وفضلاً، وإن كان في المال قلاً فإن المال ظلّ زائل وأمر حائل وعارية مستردة، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل وقد خطب إليكم رغبة في كريمتكم خديجة وقد بذل لها من الصداق (كذا)»، وعلى ذلك تم الأمر.

وقد عاش ﷺ مع خديجة حياة زوجية هادئة مثالية، وقد عرف كل صاحبه معرفة حقة عن قرب، فعرفت خديجة في زوجها الرجل المثالي في

---

(١) الضئضئ ـ بكسر المعجمتين ـ الأصل والمعدن.

الصدق والأمانة والكرم والوفاء والمحبة والخير وهذا ما سيكون له أكبر الأثر في المستقبل.

٤ - الخلوة: وفي أواخر العقد الثالث من عمره، حببت إليه الخلوة، ليبتعد عن مشكلات ذلك المجتمع المليئة بالمفاسد الحافلة بالمظالم، المعقدة، الكثيرة المآسي، وليعبد الله على دين أبيه إبراهيم عليه السلام فإن في العزلة صفاء السريرة، وسلوة النفس، فكان عليه السلام يرتقي إلى جبل قرب مكة ويخلو في غار هناك يدعى غار حراء ينظر إلى مكة أمامه صغيرة فتصغر في عينيه مكة ومن فيها والدنيا بأكملها، وينظر إلى أعاليها فيرى أنها دون موضع قدمه فيصغر العظماء والقادة والجبابرة والمتغطرسون في نظره.. وهكذا ينظر المسلم دائماً إلى الطغاة على أنهم دونه بكثير ما دام هو مؤمناً بالله[١].

كان محمد ﷺ يتحنث في غار حراء الليالي ذوات العدد، فيدوم بقاؤه عشرة أيام، وأحياناً شهراً، وكان يتزود لذلك الانقطاع، فإذا فرغ زاده رجع إلى زوجه خديجة فمكث الأيام القليلة ثم عاد لخلوته وهكذا حتى جاءه الوحي الأمين.

ومن هذا يتبين أن على المسلم أن يترك جزءاً من اليوم لعبادته وتفكيره ودعوته، ويوماً من الاسبوع، ووقتاً من الشهر لكي يبقى على صلة بالله لا تلهيه الحياة المادية التي انخرط فيها الناس حتى أنستهم أنفسهم وأهليهم وأبعدت عنهم أولادهم وتركتهم في فراغ روحي عظيم كل ذلك في سبيل الحرص على المادة والادعاء بأنها ضرورة من ضرورات الحياة وتحت اسم هذه التعقيدات التي فرضناها على أنفسنا والمتطلبات الضرورية التي لهثنا في طلبها.. هناك فرق بين الحاجة إلى المادة وبين عبادتها، هناك فرق بين الاكتفاء بالحاجة والجشع في الطلب.. فرق بين الضروري والكمالي فرق بين... و...

---

(١) أنظر فصل استعلاء الإيمان في «المعالم».

الفصل الثالث

البعثة

بينما كان رسول الله ﷺ ذات يوم في غار حراء يتعبد إذ جاءه الوحي، وكان ذلك في ١٧ رمضان عام ١٣ قبل الهجرة وهو ما يوافق أول شباط من عام ٦١٠ من ميلاد سيدنا عيسى عليه السلام، وكان رسول الله قد أتم الأربعين عاماً. وقد قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «أول ما بديء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. ثم حُبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه ـ وهو التعبد ـ الليالي ذوات العدد، قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ. قال: ما أنا بقارىء. قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارىء. فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ. فقلت ما أنا بقارىء. فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني فقال:

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال: زملوني زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: لقد خشيت على نفسي. فقالت

خديجة: كلا والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلّ، وتكسب المعدوم، وتُقري الضيف، وتُعين على نوائب الحق. فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى - ابن عم خديجة - وكان امرأ تنصّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب بالعبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال ورقة: هذا الناموس الذي نزّل الله على موسى، ياليتني فيها جذعاً[1]. ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: أو مخرجيّ هم؟ قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك انصرك نصراً مؤزرا، ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر الوحي»[2].

وفتر الوحي مدة أصح ما قيل فيها: أربعون يوماً، وذلك ليشتد شوق رسول الله ﷺ إلى الوحي، حتى صار كلما ارتقى جبلاً خطر له أن يرمي نفسه منه خوفاً من قطيعة الله له بعد أن أراه نعمته الكبرى بأن يكون إلى الخلق رسولاً، وكان كلما فكر في ذلك يتبدى له الملك قائلاً له: أنت رسول الله حقاً فيطمئن خاطره، ويبعد عن نفسه ما عزم عليه.. وبقي كذلك حتى عاد إليه الوحي، ومع الشوق كان يتخوف من الوحي لما أصابه في المرة الأولى.

فبينما كان مرة رسول الله صلى الله عليه وسلم يسير إذ سمع صوتاً من السماء، فرفع بصره فإذا الملك الذي غطّه في غار حراء جالس بين السماء والأرض فرعب أشد الرعب وتذكر ما حدث معه في ذلك الغار، فعاد إلى البيت مسرعاً فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣﴾

(١) أي شابا - وهو بفتح الجيم والذال - وذلك ليتمكن من نصرته والايمان به.

(٢) فتح الباري ١/٣١ - ٣٦: باب بدء الوحي

وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ[1]

كما أنزل الله سبحانه وتعالى: وَالضُّحَىٰ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ[2]

وعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليّ فيُفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول». قالت عائشة رضي الله عنها: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً[3]. وتتابع الوحي بعد ذلك.

كان اللقاء الأول مع الوحي قاسياً ـ كما رأينا ـ وذلك ليشعر رسول الله ﷺ بقسوة العمل والمهمة الشاقة الملقاة على عاتقه، وكان التنزيل دائماً يحثه على ضرورة الصبر فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ[4]، وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ[5]. تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ[6]. وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ[7] وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ

---

(١) المدثر ١ ـ ٧

(٢) هود: ١١٦.

(٣) فتح الباري باب بدء الوحي.

(٤) الأحقاف: ٣٥.

(٥) يونس: ١٠٩.

(٦) هود: ٤٩.

(٧) هود: ١١٥.

بِمَا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ[1]
فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ
وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ[2]. فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ
اللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ[3] وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۖ
إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ[4]. اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ ۖ
إِنَّهُ أَوَّابٌ[5]. فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ
الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ[6]. وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ
رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ[7]. فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ
مَكْظُومٌ[8]. فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا[9]. وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا
جَمِيلًا[10]. وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ[11]. الصبر على ما يلقى من وجهاء قومه، وغطرسة مجتمعه، وإصرارهم على شركهم، وتعنتهم في سبيل البقاء على عاداتهم الجاهلية وتقاليدهم الفاسدة، والتأكيد على ما ورثوه عن آبائهم

---

(١) النحل: ١٢٧ ـ ١٢٨.
(٢) طه: ١٣٠.
(٣) الروم: ٦٠.
(٤) لقمان: ١٧.
(٥) ص: ١٧.
(٦) ق: ٣٩.
(٧) الطور: ٤٨.
(٨) القلم: ٤٨.
(٩) المعارج: ٥.
(١٠) المزمل: ١٠.
(١١) المدثر: ٧.

وأجدادهم قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ۝٢٣ ۞ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾[1].

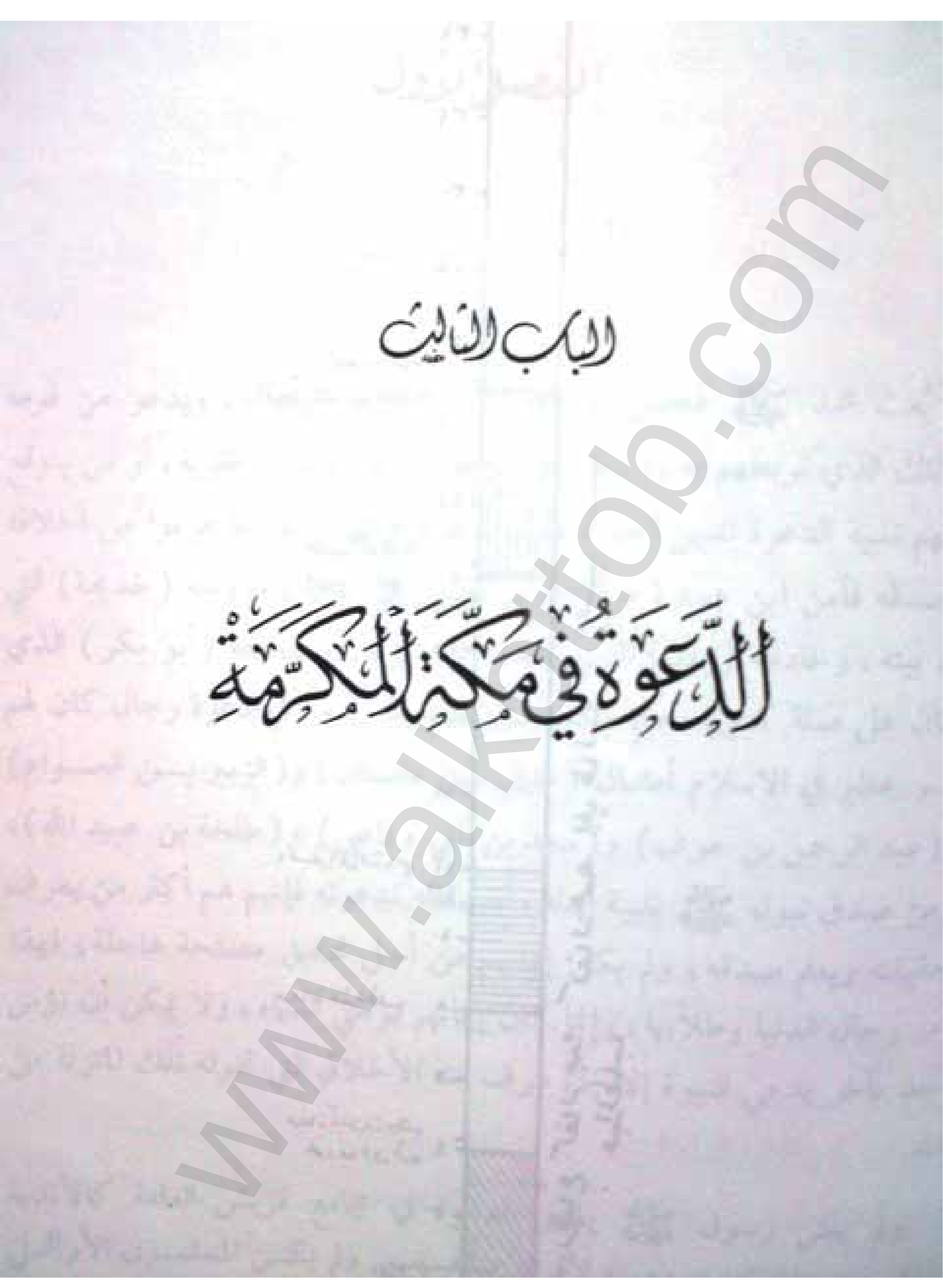
كانت آيات الصبر تتنزل في مكة وفي المدينة وفي كل مناسبة، وإذا كانت هذه القسوة التي يلقاها رسول الله ﷺ أثناء الدعوة تحلو لقلبه الكريم للإكرام الذي أكرمه به الله إذ اختاره من بين عباده ليكون رسوله إلى خلقه، وللنعمة التي أنعمها عليه في هدايته ورعايته وكفالته منذ الصغر. قال تعالى: ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ﴾[2] وإذا كان رسول الله ﷺ يشعر بهذا كله، ويقدره قدره، فإن على الداعية أن يعلم من بداية الطريق أن دربه الذي يسير فيه طويل شاق محفوف بالمكاره مليء بالأشواك، فيه مقاومة للنفس التي تنزع دائماً إلى التحرر من القيود المفروضة عليها، وفيه مقارعة للمجتمع الذي يفضل مصلحته على كل شيء ويدور دائماً وراء أطماعه، وفيه خلاف مع المتنفذين الذين لا يريدون أن يقف شيء أمام رغباتهم الشخصية، ويحاربون كل من يريد أن يحدّ من سلطانهم أو يقف في وجه أهوائهم وجبروتهم. ويشعر الداعية أيضاً بحلاوة الايمان في عمله لانتصاره إذا حقق نجاحاً ولما ينال من أجرٍ من الله إذ يكون جزاؤه جنات تجري من تحتها الأنهار، وإذا كان يشعر بمرارة العيش أو الضغط عليه والحد من نشاطه من قبل أصحاب النفوذ في هذه الحياة الدنيا الفانية التي ليس فيها إلا متاع الغرور وهي زمن

---

(١) الزخرف: ٢٣ - ٢٤.
(٢) الضحى: ٦ - ٨.

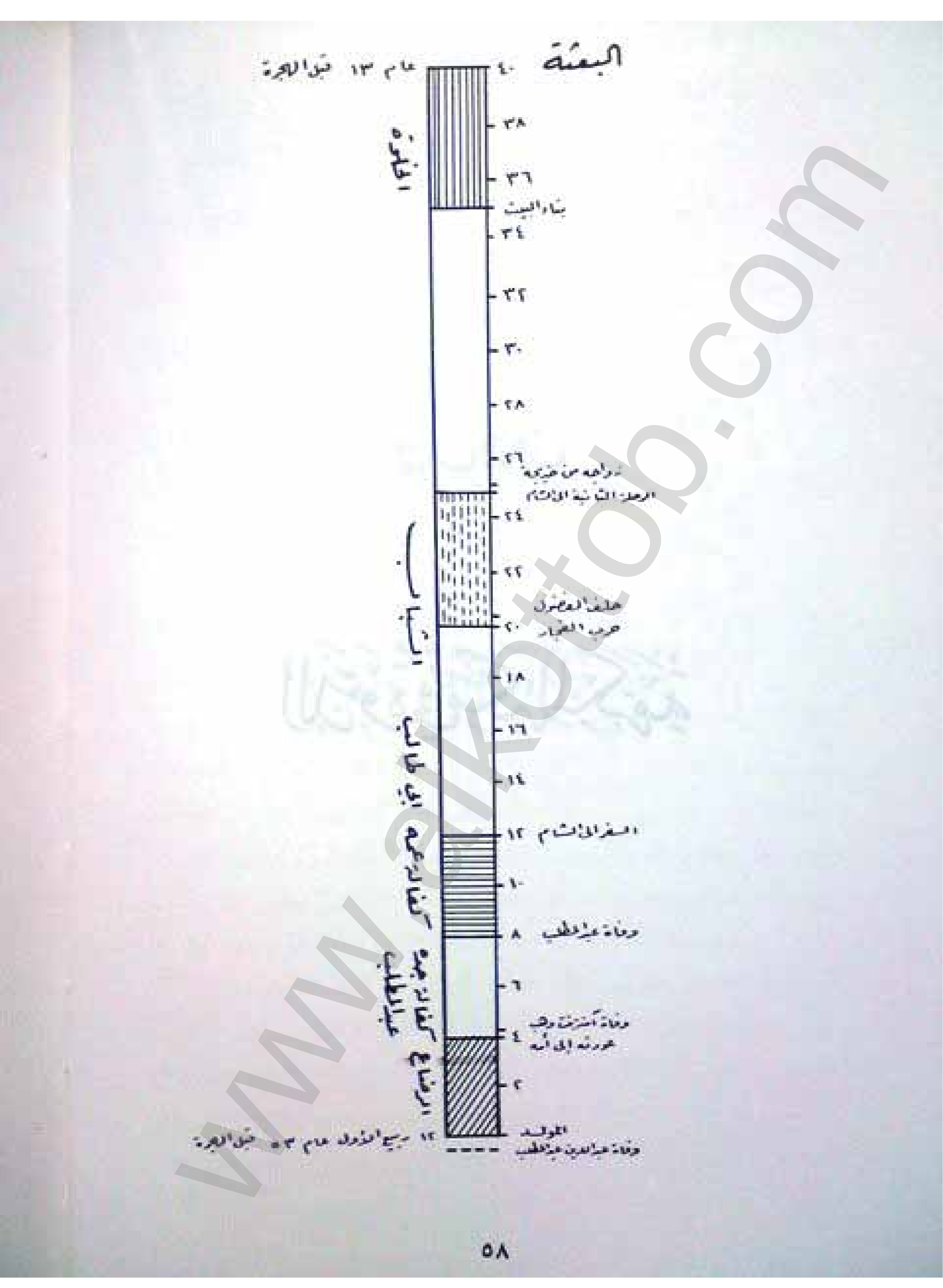


محدود فإنه يعرف أن الآخرة التي ينال فيها نصيبه هي ذات نعيم لا يزول ولا نهاية لمدتها ، وهي حياة الاستقرار .



الباب الثالث

الدعوة في مكة المكرمة


البعثة
٤٠ عام ١٣ قبل الهجرة
٣٨
٣٦
بناء البيت
٣٤
٣٢
٣٠
٢٨
٢٦
زواجه من خديجة
الرحلة الثانية إلى الشام
٢٤
٢٢
حلف الفضول
حرب الفجار
٢٠
١٨
١٦
١٤
السفر إلى الشام
١٢
١٠
وفاة عبد المطلب
٨
٦
وفاة آمنة بنت وهب
عودته إلى أمه
٤
٢
المولد
وفاة عبد الله بن عبد المطلب
١٢ ربيع الأول عام ٥٣ قبل الهجرة

الفصل الأول

الدعـــوة سِـــرًّا

بُعث محمد ﷺ فحمل الأمانة، وبدأ يؤدي الرسالة، ويدعو من قومه أولئك الذي تربطهم به روابط القربى القريبة أو الصداقة القوية، أو من يتوقع منهم تلبية الدعوة لدين الحق، فلبى الدعوة أولئك النفر لما عرفوا من أخلاقه وصدقه فآمن ابن عمه (عليّ) الذي يعيش في كنفه، وزوجه (خديجة) التي في بيته، وخادمه (زيد) الذي يخدمه في منزله، وصديقه (أبو بكر) الذي كان على صلة كبيرة معه، وكان دور صديقه كبيراً في دعوة رجال كان لهم أثـر عظيم في الاسلام أمثـال (عثمان بـن عفـان) و(الزبير بـن العـوام) و(عبد الرحمن بن عوف) و(سعد بن ابي وقاص) و(طلحة بن عبيد الله)، ومن صدق نبوته ﷺ تلبية أهله وأصدقائه لدعوته فإنهم هم أكثر من يعرف حقيقته ويعلم صدقه، ولم يكن إيمانهم من أجل تحقيق مصلحة عاجلة، فهذا أمر رجال الدنيا وطلاّبها، وإنما كان إيمانهم بوحي السماء، ولا يمكن أن يؤمن أحد بآخر يدعي النبوة إلا إذا عرف منه الأخلاق التي تخوله تلك المنزلة من الله.

ولم يكن رسول ﷺ يظهر الدعوة في مجامع قريش العامة كالأندية والحرم، وإنما كانت دعوته لأفراد بـأعينهـم. ولم يكـن المسلمـون الأوائـل يتمكنون من إظهار عبادتهم حذراً من تعصب قريش لدينها ووثنيتها، وإنما كانوا يخفون ذلك، وكان كل من أراد العبادة يذهب إلى شعاب مكة،

ويصلي هناك مستخفياً. ولما دخل في دين الله ما يربو على الثلاثين كان من الضروري أن يجتمع بهم رسول ﷺ على شكل جاعاتٍ يرشدهم ويعلمهم ليكوّن منهم القاعدة الصلبة التي يمكن أن يواجه بها أولئك الذين يقفون في وجهه، أو يحولون دون انتشار دعوته، واختار ﷺ لذلك الاجتماع دار (الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي) فكان يلتقي بهم على شكل أسر يعلمهم أمور دينهم، ويوضح لهم الطريق. وكان الى جانب دار (الأرقم) المركز الرئيسي دور أخرى تكون مراكز فرعية حيث يذهب إليها رسول الله أحياناً دون انتظام أو ينتظم فيها الصحابة الذين يختارهم رسول الله مثل دار (سعيد بن زيد)، التي كان يلتقي فيها مجموعة من قومه من بني عدي بينهم: سعيد بن زيد وزوجه فاطمة بنت الخطاب، ونعيم بن عبد الله النحام العدوي، ويلتقي معهم خبّاب بن الأرت، وكأن اللقاء كان يضمّ أبناء البيت الواحد إن توفّر العدد في سبيل السرية التامة، وحتى تستفيد النساء اللواتي يصعب خروجهن إلى الاجتماعات.

لم يكن أولئك الذين لبّوا دعوة رسول الله ﷺ من مجموعةٍ واحدة أو طبقة كما يقولون هي الفقراء والعبيد والموالي الذين نقموا على النظام الجاهلي الذي منعهم حق الحياة الكريمة، وإنما كان المؤمنون من مختلف المستويات بل إن بعض وجهاء من قريش وأبنائهم كانوا في طليعة المصدقين، ومن الذين تعرضوا للأذى أكثر من غيرهم إذ لا يمكن أن نقول: إن نور الفكر محصور في مجموعة أو طبقة من الناس، ولعلنا نرى أولئك السادة من قريش. نحن نعلم أن قريشاً كانت اثني عشر بطناً، ويعد أفراد كل بطن بمنزلة واحدة وهم السادة، وإن كان يختلف بعضهم عن بعض بالغنى والثراء أو كثرة الأبناء والأفراد، وهذا ما يزيد في المنزلة بعض الشيء، وإن كان ذلك لا يمنع أن نعدّ بقية أفراد قريش دون منزلة السيادة أو مركز الوجاهة، وعندما تتوفر لأحدهم بعض مقومات المال أو البنين يرتفع مباشرة، وهذا ليس للوراثة فيه أي أثر. بل إن قريشاً كانت نفسها وحدة متكاملة متساوية في المنزلة، وتعدّ بقية القبائل

دونها وأقل مرتبة منها . ومن هؤلاء الأعيان:

من بني عبد مناف: عثمان بن عفان ـ خالد بن سعيد بن العاص ـ عمرو بن سعيد بن العاص، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وهؤلاء الأربعة من بني عبد شمس: قوم أبي سفيان.

من بني هاشم: علي بن أبي طالب وأخوه جعفر بن أبي طالب.

من بني المطلب: عبيدة بن الحارث

من بني عبد الدار: مصعب بن عمير.

ومن بني أسد: الزبير بن العوام[1].

ومن بني تيم: أبو بكر الصديق، وطلحة بن عبيد الله.

ومن بني عدي، قوم عمر بن الخطاب: سعيد بن زيد ونُعيم بن عبد الله النحّام.

ومن بني عامر، قوم سهيل بن عمرو: أبو سبرة بن أبي رهم[1] وسليط بن عمرو، وحاطب بن عمرو، وحطاب بن عمرو، والسكران بن عمرو.

ومن بني الحارث: أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح.

ومن بني زهرة: عبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص وأخوه عمير بن أبي وقاص، والمطلب بن أزهر.

ومن بني مخزوم، قوم أبي جهل وخالد بن الوليد: عياش بن أبي ربيعة، وأبو سلمة بن عبد الأسد[1] والأرقم بن أبي الأرقم.

ومن بني سهم، قوم عمرو بن العاص: خنيس بن حذافة.

ومن بني جمح: عثمان بن مظعون وأخواه قدامة وعبد الله وابنه السائب، وحاطب بن الحارث.

---

(١) انظر ترجمته في سلسلة «عظماء مجهولون» بقلم المؤلف، صدر عن المكتب الاسلامي.

وهذه أشهر بطون قريش وأكثرها وأقواها، فليس من بطن إلا ودخله الإسلام، وكان منه أفراد كثيرون، ومجموعهم أكثر المسلمين في ذلك الوقت أيام كانت الدعوة سراً، بل وحتى وقت الجهر بها. فكيف يقال: إن أول من أسلم كان من الطبقات الدنيا التي منها الموالي والعبيد؟ وعدد هؤلاء الوجهاء واحد وثلاثون، ولم يزد عدد المسلمين على الستين مسلماً بينهم اثنتا عشرة امرأة هن: خديجة بنت خويلد - أسماء بنت أبي بكر - أسماء بنت عميس زوج جعفر بن أبي طالب - أم أيمن زوج زيد بن حارثة وحاضنة رسول الله ﷺ - فاطمة بنت الخطاب أخت عمر وزوج سعيد بن زيد - فاطمة بنت المجلل زوج حاطب بن عمرو - فكيهة زوج حطاب بن عمرو - رملة بنت أبي عوف زوج المطلب بن أزهر - أمينة بنت خلف زوج خالد بن سعيد - أسماء بنت سلامة زوج عياش بن ربيعة - سمية زوج ياسر.

وهناك ثلاثة من قبائل أخرى هم: عامر بن ربيعة - عبد الله بن مسعود من هذيل - مسعود القاري من القارة.

أما الموالي وعددهم أربعة عشر منهم: خباب بن الأرت حليف بني زهرة. صهيب بن سنان حليف بني تيم. عامر بن فهيرة مولى أبي بكر الصديق. عمار بن ياسر وأبوه ياسر حليف مخزوم. زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ - واقد بن عبد الله - خالد بن البكير - أخوه عامر - أخوه عاقل - أخوه إياس - حلفاء بني عدي، وعبد الله بن جحش - أخوه عبد حليفا بني عبد شمس. بلال بن رباح مولى أمية بن خلف.

وبذا يكون عدد المسلمين:

٣١ من وجهاء قريش وأبنائهم.
٠٣ من قبائل أخرى.
١٢ امرأة.

١٤ موالي وحلفاء.

٦٠ مسلماً.

فأكثرية الذين دخلوا في الاسلام يوم كانت الدعوة سراً إنما هم من وجهاء قريش وأبنائهم، وليسوا من الأرقاء والموالي وحلفاء القبائل كما اعتاد أن يتكلم في ذلك كثير من الذين كتبوا في السيرة، وخاصة من المستشرقين.

أما ما ورد من آيات في شأن الضعفاء ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[1] فإن هذا لا يدل على كثرة الضعفاء، وإنما يدل على المحافظة عليهم، وعلى كل مؤمن مهما كان وزنه الاجتماعي.

وفي هذه الدعوة مخالفة لعادات الجاهلية ونظرة الجاهلية إلى أولئك الضعفاء من الازدراء والاحتقار، ففي الآيات تربية وتعليم وترك لكل ما اعتاده الجاهليون، وليس فيها ما يدل على الكثرة أبداً.

وقد حاول كثير ممن يعادي الإسلام أن يتكلم في هذا الموضوع ليعطي صورة سيئة عن الإسلام فيقول: إن الأغنياء وأصحاب الفكر والمستنيرين لم يقبلوا على الإسلام إلا بعد أن خضد شوكتهم فاضطروا إلى إظهار الاسلام، وهم ينتظرون الفرصة لمحاربته، ولكن الذين آمنوا بالاسلام كانوا من المحتقرين والضعفاء، وكذلك يريد المستغلون في البلاد الاسلامية أن يظهروا الاسلام بأنه التربة الخصبة للفقراء الذين يشكلون أكثرية المجتمع في سبيل استغلال العوام وتسييرهم وراءهم.

---

(١) الكهف: ٢٨.

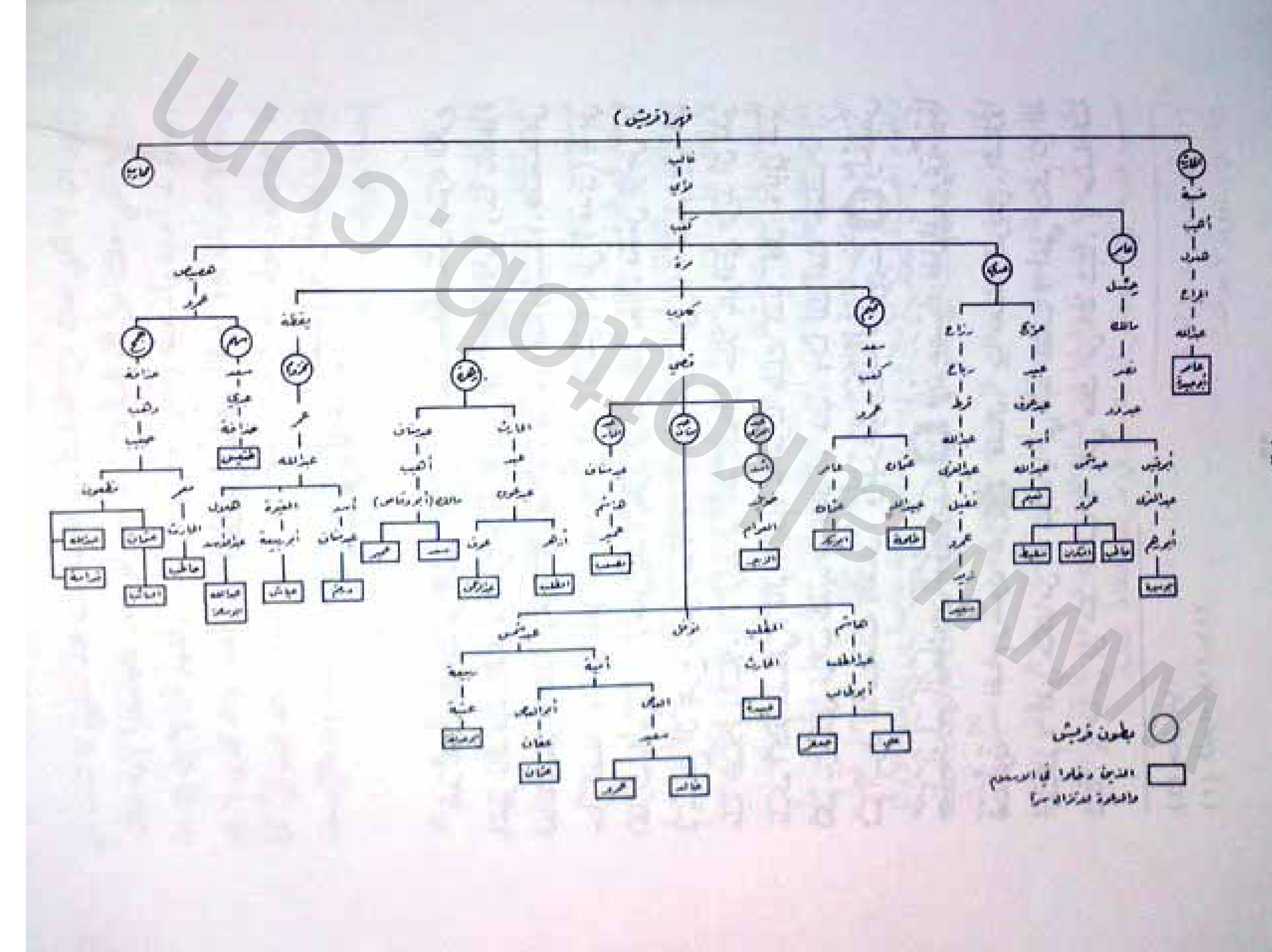
غير أن هناك نقطة يجب أن نفهمها وهي أن الذين أسلموا قد كانوا من المستضعفين، ويراد بالمستضعفين أنه لم تكن لديهم القوة ليواجهوا قريشاً، ولم تكن لهم قدرة على حل قريش لتأدية مهمة ما فهم من هذه الناحية مستضعفين، كما أنهم مستضعفون لأنهم خارجون على قبيلتهم بالعرف الجاهلي ماداموا يخالفونها في العقيدة، فأبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، ومصعب، والحمزة، وطلحة، وعبد الرحمن، والزبير، وأبو حذيفة مستضعفون ولو أنهم من السادة.

وفي هذه المرحلة من الدعوة فرضت الصلاة فكانت في كل وقت من الأوقات الخمس ركعتين، وفي الإسراء زيدت الركعات في الحضر، فأصبحت أربعاً في كل من الظهر والعصر والعشاء وثلاثاً في المغرب، أما في السفر والفجر فبقيت كما هي عدا المغرب التي هي ثلاث حضراً وسفراً. وكان أصحاب رسول الله ﷺ إذا أرادوا أن يصلوا ذهبوا في الشعاب، فاستخفوا بصلاتهم من قومهم، واستمرت هذه الدعوة السرية مدة ثلاث سنوات وقريش لا تعلمها حتى نزل قول الله مخاطباً رسوله الكريم:

﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[1].

---

(١) الحجر: ٩٤ - ٩٦.


فهر (قريش)
غالب
لؤي
كعب
مرة
كلاب
قصي
هاشم
عبد المطلب
أبو طالب
علي
بطون قريش

الفصل الثاني

الجهر بالدعوة

بعد ثلاث سنوات من الدعوة السرية أمر الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم بالجهر بالدعوة، ودعوة الناس جميعاً، فامتثل محمد ﷺ للأمر وبدأ بالدعوة العامة وبصورة علنية، وهو واثق بوعد الله ونصره ودعمه وتأييده، فصعد على جبل الصفا، ونادى بأعلى صوته: يا بني فهر (قريش) يا بني (عديّ) يا بني الحارث يا بني ..... وجعل يعدد بطون قريش بطناً بطناً، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج يرسل رسولاً عنه لينظر الخبر، حتى إذا اجتمعوا إليه قال عليه الصلاة والسلام: «أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقيّ» قالوا: نعم، ما جربنا عليك كذباً. قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»، فقال أبو لهب: «تباً لك ألهذا جمعتنا»[1] .. ثم أنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾[2] فقام رسول الله ﷺ فقال: يا معشر قريش، اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا بني عبد المطلب لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً، يا صفية عمة

---

(١) متفق عليه.

(٢) الشعراء: ٢١٤-٢١٦.

رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً، يا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئاً »[1]، ثم دعا أقرباءه، فاجتمعوا إليه فقال: « الحمد لله أحمده وأستعينه وأؤمن به وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ». ثم قال: « إن الرائد لا يكذب أهله. والله الذي لا إله إلا هو إني رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس عامة، والله لتموتُنّ كما تنامون، ولتبعثُن كما تستيقظون، ولتحاسبُن بما تعملون، ولتجزوُن بالإحسان إحساناً، وبالسوء سوءاً، وإنها الجنة أبداً، أو النار أبداً »[2].

بدأ رسول الله ﷺ الجهر بالدعوة فكان يدعو الناس في كل مجمع وناد وفي المسجد الحرام يحدثهم ويتلو عليهم القرآن، كما وينتهز كل عام موسم الحج ليلتقي بالقبائل قبيلة قبيلة، يعرض عليها الإسلام، ويُبيّن لها الطريق، فيستجيب منهم من يستجيب، ويرفض من يرفض، ويسخر من يسخر. ولكنه في الوقت نفسه الذي كان يدعو فيه قريشاً دعوة عامة في الأندية والمحافل، والقبائل، في المواسم، لم يكن ليترك أبداً التربية والعناية الخاصة لأولئك الذين قبلوا الدعوة ليبني منهم القاعدة الصلبة المتينة، فكان يجمع المسلمين في البيوت بشكل سري على شكل أسرٍ مغلقة تماماً لا يعرفها أحد خارج أعضائها، بعيدة عن أعين قريش، وعلى غفلة منها، وتتكون هذه الأسر من أولئك الذين عقد عليهم رسول الله ﷺ الأمل في حمل العبء والمهام الجسيمة لنشر الإسلام، وبذا تكوّنت طبقة خاصة من المؤمنين الأوائل قوية في إيمانها متينة في عقيدتها مدركة لمسؤوليتها منقادة لقائدها، مطبقة لكل أمرٍ يصدر عنه باندفاعٍ لا يعادله اندفاع وحبٍ لا يساويه حب. وبهذه الطريقة استطاع سيدنا محمد ﷺ أن يؤدي الأمانة ويبلغ الرسالة. وبذلك تكون طريقته هذه قدوة لنا في عملنا الذي نسير فيه ودربنا الذي نسلكه حسب هديه ﷺ. ويمكن أن نلاحظ في طريقته النقاط التالية:

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٢) في إسناده من لا يعرف.

أ ـ بدأ الدعوة بعناصر اختارها، قلبت الدعوة وآمنت.

٢ ـ كانت دعوته عامة للناس، وأثناء هذه الدعوة، يركز ﷺ على من يجد فيهم الإمكانات أو يتوقع منهم ذلك.

٣ ـ كان يجمع المؤمنين في أسر خاصة لا يعلمها أحد إلا أعضاؤها، وكانت هذه الأسر نواة القاعدة الصلبة التي ثبتت عليها أركان الدعوة.

وعلى هذا يجب أن يكون العمل الإسلامي والدعوة على كل أرض وفي كل وقت والسير بالناس في طريق الحق والهدى، ويجب أن تكون الطريقة حسب المنهج الذي سار عليه رسول الله ﷺ وفق الخطوط التالية:

أ ـ انتقاء العناصر المؤمنة الحركية النشيطة وبدء العمل الإسلامي، ويكون هذا العمل بمثابة الجماعة الإسلامية الأولى، ويلتزم الأفراد بالإسلام التزاماً كلياً وقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «لا إسلام إلا بجماعة». ولا يضيرنا أبداً ما يقال عن هذا العمل إذ أن الأحزاب السياسية البعيدة عن الإسلام وتصرفاتها قد أعطت صورة سيئة عن كل عمل إسلامي، كما أن الشائعات التي روّجها أعداء الإسلام عن الحركات الإسلامية بقصد تشويه سمعتها أمر غير خافٍ على أحد. ويجب ألا ننسى أن هناك عدد من الذين يستغلون الإسلام في سبيل مصالحهم وأطماعهم الشخصية فينتحلون الإسلام وصفة أبنائه وما هم كذلك. إن هم إلا يكذبون، ويزينون لأتباعهم أعمالهم، ويسوغون لهم مواقفهم، فيصدق الكثيرون، فأكثر الناس بسطاء وخاصة العوام أو ممن ينتفعون من المنتفعين، هذا بالإضافة إلى أن الحكومات تتخذ لها أنصاراً من بين من يدعي الإخلاص، وقد يكونون من أهل العلم، وتوجههم حيث تريد تبعاً لمناهجها ومخططاتها. وما أصحاب النفوذ والسلطان في هذه الآونة من الزمان الذي ضعف فيه المسلمون وضعفت شوكتهم إلا صنيعة دول كبرى يسلمونهم الأمر ليقدموا لهم الخدمات، ويقللوا من شأن الدين وأهل العلم، ونظرة واحدة إلى مرتبات العلماء ومن يقومون بخدمة المؤسسات والدوائر الإسلامية كافية لأن تعطي الدليل على

ذلك وما يلقاه المخلصون والدعاة على أيدي هؤلاء بين الآونة والأخرى في كل وقت - وما خلا منه مصر إسلامي - لدليل قوي آخر على ذلك. ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾[1] ، ولكنهم يسعون وراء مصالحهم التي يستطيع أن يحققها لهم أصحاب السلطة والنفوذ، لذلك فهم يتبعونهم وينافقون لهم، وكلما ارتقى إنسان تركوا من حطه القدر إلى من رفعه، لذا كان نصيب المتنفذين البقاء مدة أطول في مناصبهم، ويبدا لمن ينظر بعين المصلحة والهوى أن أصحاب السلطة لهم الأتباع ومنهم الذين يؤدون العبادات أو يظهرون التدين ، ولكن يبدو للذين ينظرون بعين الواقع أن هذا كله زبد يذهب جفاء بأقل شيء ليظهر في مكان آخر زبداً مرة ثانية ، وفي الآخرة يكون هؤلاء من الخاسرين ، ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا﴾[2] ، ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾[3].

وعلى كل مسلم أن يكون ضمن الصف الإسلامي الصحيح لا ينحرف عنه ولا يحيد ولا يبتعد عنه ولا يقف موقف المتفرج أو الموقف الحيادي - كما يزعم بعضهم - إذ لا يوجد في حال الخلافات ما يسمى حيادياً ، فالحايد إنما هو بجانب القوي وضد الضعيف إذ لو وقف بجانب الضعيف لجعله قوياً وأخذ حقه ، ولكن إذ ترك الأمر فإنما سمح للضعيف أن يؤكل من قبل القوي ، والقوي إنما هو صاحب السلطة والنفوذ فعندما يقف من يدعي الإسلام ويعلن أنه محايد ، فإنه يكون بذلك من أنصار السلطة وضد المسلمين قولاً واحداً ، ولا ننسى قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه في خطبته الأولى بعد توليه الخلافة «القوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه ، والضعيف

---

(١) يوسف: ١٠٣ .
(٢) النساء: ١٤٥ .
(٣) الكهف: ١٠٣-١٠٤ .

فيكم قوي عندي حتى أردّ إليه حقه...».

وإذا لم يطمئن المسلم إلى هذا الصف أو لاحظ بعض الهنات، فعليه أن يسعى في إصلاحها، فإن وجدها كبيرة، أو أن في الخط انحرافات لا تقوّم، أو لا يصح السير فيها، فعليه أن يفتش عن جماعة أخرى يرتضي سيرها. والجماعات ذات الخط الصحيح لا يختلف بعضها مع بعض، وإنما دعت الظروف لقيامها، أو تعددت بتعدد الأمصار، وإن لم يجد جماعة قائمة فعليه أن يقوم بنفسه بتأسيس جماعة أو يسعى في ذلك ويبذل جهده كله وإمكاناته كلها تأدية للفريضة وقياماً بالواجب الملقى على عاتقه. أما إذا كانت هناك جماعة تؤدي واجبها الإسلامي بحق، وتخلص في العمل، وعمل على إيجاد جماعة أخرى فعمله باطل يؤدي إلى تفريق كلمة المسلمين، وعليه وزر كبير، وما من زمن إلا وكانت فيه جماعة من المسلمين تؤدي دورها، وتقوم بعمل جاد ومثمر بغضّ النظر عن هذه الجماعة وحجمها وإمكاناتها وأثرها في المجتمع.

والتزام الجماعة أمر خطير في الإسلام، وخاصة أن الفرد لم يعد له دور في هذه المجتمعات الحالية التي لا تقيم له أي وزن، وتقوم على التكتلات والتنظيمات، فالفرد مهما كان ذا فكر ضاع في خضم هذه الجاهليات، وقد وردت فيه أحاديث كثيرة، فقد روى الإمام أحمد والترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «آمركم بخمس: بالجماعة والسمع والطاعة والهجرة والجهاد في سبيل الله، وأنه من خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يراجع، ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من جُثَى[1] جهنم وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم»[2] وهذا ما يدل على أن تكوين الجماعة ضروري وهو قبل كل شيء، ثم يليه عدم الخروج من الجماعة حيث أن مطالب الإسلام ومقتضياته وغاياته المهمة لا تتم ولا تتكامل إلا بالجماعة

---

(١) بضم الجيم، جمع جثوة، وهي الشيء المجموع من حجارة وتراب وغيره، والمعنى هنا: أي هو من جماعات جهنم.

(٢) الترمذي (٢٨٦٧) وإسناده صحيح.

والجهود الجماعية. وقد نجد أثناء الطريق من ينفر من الجماعة، ويدعو إلى نبذ التجمع والاقتصار على الدعوة العامة، فهذا إما جهل بطريقة رسول الله ﷺ، وإما رغبة في تحقيق الزعامة والتفاف الناس حول هالة فارغة، وإما خوفاً وتهرباً من تحمل المسؤولية.

٢ - تقوم الجماعة بدعوة الناس عامة لالتزام الإسلام وتطبيق منهجه في كل مجالات الحياة العامة منها والخاصة.

٣ - وتقوم الجماعة أثناء الدعوة العامة باختيار العناصر التي تبدو عليها الحركية ويظهر فيها الخير، وتدعوها إلى العمل، وتشكل منها أسراً خاصة لبناء القاعدة الصلبة، ويكون هذا سرّياً كسرية عمل رسول الله ﷺ. وبهذا لا تتناقض الدعوة العامة مع سرية العمل، بل على كل عضو في الجماعة أن يدعو إلى الإسلام علناً، ويجب أن يظهر أثر ذلك في كل تصرفاته وأعماله وأسرته وحياته، ولكنه في الوقت نفسه يخفي جماعته عن الأعين، وخاصة في هذا الوقت الذي تتكالب فيه قوى الشر في العالم كله ضد الإسلام.

٤ - يجب عدم وقوع أفراد الجماعة الإسلامية في خضم الحياة المادية العنيف، إذ ما إن يقع الفرد حتى يتخبط فيه، ويبدأ بمصارعة التيارات، فأعماله المادية لا يمكن أن يتركها لأنه يتوقف على ذلك نجاحه أو دماره وإفلاسه، وحياته الإسلامية أساسية بالنسبة إليه، ويبدأ التهاون تدريجياً حتى يصبح سيره كسير الماديين الكبار، وليس معنى هذا إهمال متطلباته الأساسية وشؤونه المادية تماماً وأبداً، ولكن أن يعيش الحياة الحرة الكريمة لا يحتاج أحداً، ولا ينصرف إلى المادة فقط، والحياة المادية اليوم تتطلب المزيد من الحاجيات التي تتبدل بين الآونة والأخرى، وأصبح الناس يعدّون الكمالي منها أساسياً فيجب ألا نسير في هذه الحسابات، وألا نكون متأثرين بالمجتمع غير مؤثرين فيه.

٥ - يجب عدم إهمال الروح المعنوية كالثقة بتأييد الله ونصره إذا

استقمنا على الطريقة واتبعنا أوامر الله عز وجل إضافة إلى التدريب والاستعداد ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾(١). وقد نشأ أيام رسول ﷺ كل فرد مقاتلاً، حيث كان القتال بين القبائل مستمراً، ويتدرب المرء أثناء الغارات وأيام المعارك، وكذلك كانت أعمال السلب والنهب وقطع الطريق وكلها تستدعي معرفة فنون القتال، فكان كل فردٍ مدرباً بشكل طبيعي، أما الآن فنحن بحاجةٍ إلى العمل والاستعداد لذلك وقد تغيّرت أساليب القتال وتبدلت أسلحة الحرب، واختلفت قيادات المعارك وتنظيمات الجيوش.

هذه طريقة رسول الله ﷺ وهو الموحى إليه من قبل الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾(٢) فيجب اتباعها تماماً، وكل طريقة غيرها تعدّ ناقصة بل وقاصرة إذ لا يمكن الاعتماد على الدعوة العامة فقط كما يتبنى ذلك الكثيرون، إذ يكون العمل بلا جماعة، ولا نستطيع بهذه الطريقة تكوين القاعدة الصلبة التي يمكنها أن تأخذ بزمام الأمور وتمسك بناصيتها، وكذلك ينعدم التنظيم الذي يحتاج إلى السرية لنجاح العمل. ولو لم يكن في صحابة رسول الله ﷺ مثل هذه النواة في أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وسعد والزبير وطلحة وعبد الرحمن وأبي عبيدة وسعيد بن زيد لضاع كثير من الإسلام أيام الردة، بل لما كان الإسلام خاتم الرسالات وصاحبه خاتم النبيين عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام.

كما لا يمكن الاعتماد على القوة فقط كما يتبنى ذلك بعضهم، حيث يضيع الحكم بعد تسلمه بمدة وجيزة إذ لا توجد الفئة الواعية التي يمكنها أن تسير بالحكم إلى النهاية، والفئة المدركة لأوضاع العالم وما فيه من أساليب ماكرة

---

(١) الانفال: ٦٠.

(٢) النجم: ٣-٤.

لضرب الإسلام وكل حركة تهدف إلى النهوض به. أو أن الأفراد الذين يتسلمون مراكز القيادات سيختلف بعضهم مع بعض وتنتقل المعركة بينهم إلى داخل الصف، وكل يظن أن طريقه هي الصحيحة وأن اجتهاده هو السليم الذي يتفق مع الخط الإسلامي الصحيح، وقد حدثت أيام صحابة رسول الله ﷺ قضايا صعبة لو لم تكن فيهم التربية الإسلامية القوية لاختلفوا فيما بينهم ولانقلب بعضهم على بعض قبل أن يتولى أبو بكر الصديق رضي الله عنه الخلافة، وقد حدث في هذا العصر أن تسلمت بعض الجماعات غير الإسلامية الحكم، وما إن تربعت على كرسيه حتى ظهرت اتجاهات متناقضة حيث يعمل كل لتأمين هواه وله اتجاهاته ووقعت الكارثة بين رفاق الأمس وبقيت تتكرر الصدامات المسلحة بين الأجنحة المتعددة بين آونة وأخرى.

وكذلك لا تتخذ الجماعة الإسلامية طريقة الاغتيال السياسي أو التخلص من أفراد بأعينهم لسبب من الأسباب إذ لم يلجأ رسول الله ﷺ لهذه الطريقة أبداً وكان بإمكانه ذلك وبكل يسر إذ كان يستطيع أن يكلف أحد الصحابة بقتل بعض قادة الكفر كالوليد بن المغيرة المخزومي أو العاص بن وائل السهمي أو أبي جهل عمرو بن هشام أو غيرهم وكان أمره لا يرد بل ينفذ على أنه نوع من أنواع التعبد، ولكن لم يفعل رسول الله ﷺ مثل هذا الفعل. فإن مثل هذا العمل قد يؤدي بالجماعة الإسلامية كاملة، أو يعرقل على الأقل مسيرتها مدة ليست قليلة من الزمن كرد فعل من قبل أعداء الإسلام الذين يتكالبون على حربها، بل وتجتمع قوى الشر في العالم أجمع لتنفيذ مثل هذا العمل وتباركه وتؤيده وتدعمه بكل إمكاناتها، ولا يمر يوم دون تحرش بالمسلمين للقيام بمثل هذه الأعمال ليكون ذلك مسوّغاً للقضاء عليهم، أو إشارة من جهات عالمية تحرض المسؤولين في الأمصار الإسلامية للإقدام على مثل هذه التصرفات. ثم لا ندري فلربما يكون أشد أعداء اليوم من الأنصار في المستقبل أو من الدعاة وكثيراً ما حدث مثل هذا الانعطاف

في حياة الكثيرين من الرجال. ورسول الله ﷺ كان يدعو لأعدائه بالهداية والتأييد فهو يقول: «اللهم أيد الإسلام بأحد العمرين: عمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام»، وعمرو بن هشام هو أبو جهل ألد أعداء الإسلام، فلو كتبت له الهداية لكان أحد سيوف الإسلام، وهذا ما حدث لعمر بن الخطاب وخالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو وأبي سفيان رضي الله عنهم جميعاً. وما دام رسول الله ﷺ لم يقم بمثل هذه الأعمال وحياته في مكة تشبه إلى حد كبير المجتمعات التي نعيش فيها اليوم ونحن مكلفون باتباع سنته، ومسؤولون عن مخالفتها، لذا لم نقم بها نحن، ولا نشجع عليها. وعندما بعث رسول الله ﷺ إلى كعب بن الأشرف من قتله كان للمسلمين دولة ويستطيعون حماية المسلمين بل وقتال من تسول له نفسه بالاعتداء على أي فرد منهم.

والجماعة الإسلامية هي المجتمع الإسلامي الصغير في هذا الوقت الذي ينعدم فيه الحكم الإسلامي على ظهر الأرض، وقائدها هو الأمير بالنسبة إلى الدولة الإسلامية، والأمير هو خليفة رسول الله ﷺ، وطاعته من طاعته، وطاعة الرسول من طاعة الله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[1] فالسمع واجب للقائد، وطاعته في طاعة الله فرض «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»[2]، وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه في خطبة له: «أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم». ولنعد إلى حديث رسول الله ﷺ: «آمركم بخمس: بالجماعة والسمع والطاعة والهجرة والجهاد في سبيل الله، وأنه من خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يراجع، ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من جثيّ جهنم وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم». والأمير هو

---

(١) النساء: ٧٩.

(٢) حديث صحيح، وهو في «الصحيحين» بلفظ «لا طاعة في معصية إنما الطاعة في المعروف».

إمام المسلمين ورئيسهم، وكما أن طاعته واجبة فالقتال تحت رايته واجب أيضاً، روى الامام مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «الإمام جُنَّةٌ يقاتل من ورائه ويتقى به»، والهجوم عليه والكلام عنه بسوء مخالفة لأمر الله ورسوله، وخلع للبيعة، وتهديم للعمل الإسلامي، وتفرقة للصف، وتقويض للمجتمع.

وقد كان للخليفتين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما هيبة، وللخلافة مركزها أيامهما، لأنه لم يجرؤ أحد أن يتكلم عنهما بسوء أو يتحدث عنهما إلا بخير، لعدم وجود أولئك النفر المنحرفين والخارجين على النظام بين الرعية، ولقرب العهد برسول الله ﷺ حيث لم تكن السرائر قد فسدت بعد، ولم يندس أصحاب الأطماع بين الصفوف، ومن هنا كانت تنقية الصف يجب أن تتم بين المدة والأخرى بالاختبار والابتلاء للمحافظة على الجماعة الإسلامية والتأكد من خلوها من الشوائب التي قد تتسلل إليها على حين غفلة من أهلها، ولكن عندما تسلل بعض اليهود إلى الداخل، وبدأ أحدهم وهو (عبدالله بن سبأ) يتكلم عن الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه، وينتقل في الأمصار يروج الشائعات، ويزرع بذور الفتنة، والمسلمون لم يعرفوا أمثال ذلك من قبل، فجاءتهم من حيث لم يحتسبوا، ووقع بعضهم في شباكها، وكانت رحابة صدر الخليفة وقوة إيمانه قد فسحت لهم المجال، فحاول أن يجنب المسلمين المصيبة وأن يتلقاها هو بقلبه الكبير، فكان أن زُعزع المجتمع الإسلامي، وحدثت الفتنة، وذهب ضحيتها الخليفة نفسه، وتفرقت كلمة المسلمين، ولم تتوحّد إلا مدداً قصيرة هدأت فيها العواصف لأسباب وقتية، منها قوة الخليفة وسيره في خط سليم بالنسبة إلى أسلافه، ومحاولته رأب الصدع وردم الهوة بين الأطراف المتباينة الآراء، وإما لوجود خطر خارجي داهم يقتضي توحيد الجهود وإنهاء الصراع الداخلي وخاصة في أواخر العهد الإسلامي. وإذا كان المسؤول معرّضاً للحرب الكلامية أو النقد الدائم ضعف مركزه وقل شأنه وبالتالي تضعف معه قيمة الدولة. والأمير رئيس المسلمين سمعته من سمعتهم، وقوته من قوتهم، وهيبته من هيبتهم.

والحكم الإسلامي تطبيق لقانون الله في الأرض، وتنفيذ لمنهجه، وحمل لدعوته إلى العالم، وهو غاية كل دعوة إسلامية، وأمل كل داعية، وفرض على المسلمين كافة، ومن هنا كان واجب عليهم البيعة لأمير، وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من خلع يداً من طاعة الله لقي الله يوم القيامة ولا حجة له. ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية»[1] ولا يجوز أن يوجد إلا أمير واحد للمسلمين، فإن نازعه أحد وجب قتاله، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «من بايع إماماً فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه إن استطاع فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر»[2].

ولما لم توجد اليوم دار للإسلام يطبق فيها قانون الله، فأمير الجماعة هو بمثابة الخليفة طاعته واجبة، والبيعة له حتمية، وإن لم يستطع أن يطبق المنهج ويقوم بتنفيذ الحدود والأحكام: «من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية»، وقد ثبتت بيعة المسلمين لرسول الله ﷺ، ولم تكن هناك دولة إسلامية تقيم الحدود وتطبق منهج الله. فقد قال عبادة بن الصامت رضي الله عنه: «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في المنشط والمكره وأن لا ننازع الأمر أهله، وأن نقول أو نقوم بالحق لا نخاف في الله لومة لائم»[3]، وتكون البيعة على العمل بالكتاب والسنة، ومتى أعطى المبايع البيعة كانت أمانة في عنقه لا يحلّ له الرجوع عنها، ولو أراد أن يرجع عن ذلك لا يجوز له، إلا أن يخلّ الأمير بشروط البيعة فعندها يجوز عزله. وليس من شروط البيعة أن يبايع كل فرد، ولكن تنعقد بيعته للأمير بقبوله الانضواء في الصف. ويجب ألا يخطر في بال إنسان أنه لم يبايع ما دام لم يضع يده في يد الأمير ويبايعه. وكل رغبة في تقويض الجماعة أو الإساءة إليها إنما تستهدف

---

(١) رواه مسلم (١٨٥١).

(٢) جزء من حديث رواه مسلم - ١٨٤٤ -.

(٣) متفق عليه من حديث عبادة بن الصامت.

أول ما تستهدف القائد بالدرجة الأولى، لذلك نرى التهم تكال للأمير، وتروج الشائعات ضده وضد جماعته من قبل أنظمة الحكم الجاهلية وأنصارها، تدعمهم الصليبية العالمية واليهودية، ثم أصحاب الأطماع من المسلمين وهم أصعب هؤلاء وأدهاهم، لذا يجب الحذر منهم، ومعرفة القصد من وراء كل كلمة تقال في هذا المجال. وقد كان المسلمون الأوائل يحافظون على تجمعهم فلا يتعرضون للقيادة إلا بخير، ولا يتلقون إلا من المسؤول المباشر الذي كان هو رسول الله ﷺ، ولا يتحدثون إلا له، ويمثله الآن الأمير، وكان ﷺ يوجه اهتمامه وانتباهه الكبير إلى الأسرة التي تعد النواة الأولى للمجتمع الإسلامي، ولم يكن القصد من اللقاء فيها التلقي والعطاء فقط وإنما الحياة بين أعضائها حياة إسلامية تصور الحياة في ظل الدولة الإسلامية المرتقبة التي يعملون من أجلها، وتعطي أهل مكة صورةً عمليةً عنهم حتى تتوضح لهم الحقيقة، ويعرفون صلاحية الدعوة وبالتالي كسبهم إلى صفها، ولم تكن الأسر التي نشأت في دار (الأرقم بن أبي الأرقم) على يد رسول الله ﷺ إلا صورة حية لهذا الأنموذج.

بدأت دعوة رسول الله ﷺ تأخذ طريقها إلى النفوس وتجد فيها مستقرها ومستودعها، ويزداد عدد أفرادها يوماً بعد يوم، وهذا ما أخاف قريشاً وزعماءها، خاف الزعماء على مصالحهم أن تنتهي وعلى مراكزهم أن يقضى عليها، ويأتي بدل عنهم من أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام، وخشيت قريش على دينها أن يزول، وعلى أصنامها أن تتحطم، وعلى وثنيتها أن تترك فأرادت أن تنقذ الموقف وتحتفظ لها بشيء من الهيبة والعقيدة، لذا رغبت في المساومة لإبقاء بعض عناصر الشرك ومظاهر الجاهلية فيما تعتقد. وبينما كان رسول الله ﷺ يطوف بالكعبة، اعترضه بعض زعماء قريش فقالوا: يا محمد، هلم فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد، فنشترك نحن وأنت في الأمر، فإن كان الذي تعبد خيراً مما نعبد كنا قد أخذنا بحظ منه، وإن كان ما نعبد خيراً مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه... وجاء الأمر الإلهي

الحاسم الموحي بأن أمر هذه العقيدة لله وحده ليس لمحمدٍ فيه شيء، إنما هذا أمر الله الذي لا مرد لأمره ولا راد لحكمه فلا مساومة ولا اتفاق ولا لقاء:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[1].

تأكيد يليه تأكيد على أن هذه أول خطوة في الطريق يجب أن يسير عليها رسول الله ﷺ، كما يجب أن تكون أول الشوط أمام كل داعية فيتميز بها خطه، ويعرف بها طريقه في شعوره وسلوكه، ابتعاد عن درب الجاهلية وانعزال عن دربها، ومفاصلة في طريقها وسلوكها. وإذا كانت بعض أعمال المنحرفين كثيراً ما تتلبس بأعمال المسلمين، وخاصة الجماعات التي تتحدث عنه على الرغم من أن الفارق بينهما بعيد والبون شاسع. فإن السبيل الوحيد للتميز والسير في الخط المستقيم القويم هو الخروج من الجاهلية بجملتها والسير في طريق الإسلام بجملته والانسلاخ من الجاهلية بكل ما فيها والهجرة إلى الإسلام بكل ما فيه.

والمفاصلة مفاصلة شعورية لا مفاصلة انعزالية إذ كان رسول الله ﷺ في مكة يعامل المشركين يبيعهم ويبتاع منهم يدعوهم ويقبل دعوتهم، فقد لبى دعوة (عقبة بن أبي معيط)، وكان جاراً له، وقد دعا إليها عقبة كبراء قريش وفيهم رسول الله ﷺ، وقال له عليه الصلاة والسلام: والله لا آكل طعامك حتى تؤمن بالله، فتشهد عقبة ثم عاد فنكث، وبدأ يسخر من رسول الله. وإذا كانت المفاصلة انعزالية لا يمكن للمرء أن يقوم بالدعوة الإسلامية أصلاً، وهل يدعو إلا البعيدين عن الإسلام؟ فكيف يبتعد عنهم ويدعوهم ويوجههم؟ ولكن يكفي المسلم أن يشعر أنه يختلف عن المحيط الذي يعيش

---

(١) سورة الكافرون.

فيه، يختلف في العقيدة وفي التفكير وفي السلوك وفي كل جوانب الحياة. وفي الاحتكاك مع مجتمعه يظهر لهم سلوك المسلم وأهمية دعوته ومحاسنها فيؤثر فيهم وهذه غايته، وكلما كان الاحتكاك والتطبيق سليماً كان التأثير واسعاً.

وكثيراً ما يحاول أصحاب الدعوات السائرة في طريق الجاهلية التي تنهل من نبعها، وهي شريكتها في الدنيا والآخرة يحاول أصحاب هذه الدعوات أن يكسبوا إلى صفهم بعض البسطاء من المسلمين أو الذين ينتمون إلى الإسلام انتماء أو لهم مصالح وأطماع بتزيين جاهليتهم إليهم بأن فيها كثيراً من الإسلام وما يدعو له، وأن ما في أعمالهم لا يخالفه، بل مما يؤيده، وأنهم عندما يصلون إلى بعض مطالبهم يكونون قد اقتربوا من الإسلام، أو يكونون قد قطعوا مرحلة انتقالية، وهكذا يتدرجون مرحلة إثر مرحلة حتى يستطيعوا تطبيق مبادئهم التي يقرها الإسلام. ذلك ما يقولونه بألسنتهم إذا التقوا بهؤلاء البسطاء والله يعلم ما تخفي قلوبهم، والله يعلم إنهم لكاذبون.

يقول بعضهم: إن الاشتراكية من الإسلام فهي تدعو إلى العدالة وعدم الاستغلال وهذا من الإسلام، أو يقولون إننا ندعو إلى المساواة وعدم سيطرة طبقة على أخرى وهذا ما دعا إليه رسول الله ﷺ وأيده.

ويقول بعضهم: إننا ندعو إلى إنصاف المرأة وإعطائها حقوقها، فالإسلام أول من اعترف بحقها كاملاً ولكن الظروف السيئة التي مرت بهذه البلاد قد جعلتها تتردى وتهمل وتعود إلى أسوأ الذي كانت عليه، ونحن نريد أن نعيد إليها مرة أخرى ما فقدته.

ومنهم من يقول: نعتقد أن الأمة لا يمكن أن تتماسك وتأخذ طريقها اللائق بها إلا عن طريق الأخلاق ومحاربة الرشوة والانتهازية والنفاق، ومتى سادت الأخلاق يمكن عندها الدعوة إلى الإسلام، أما الآن والأخلاق سيئة والفقر مسيطر، ولا أخلاق مع الفقر ـ وكاد الفقر أن يكون كفراً ـ لذا فإننا ندعو إلى إزالة الفقر وسيادة الأخلاق حيث لا يمكن الآن أن ندعو إلى

الإسلام لأن المقاومة عنيفة والجهل مستحكم، ويقال عنا إذا فعلنا ذلك رجعيون ومتخلفون و...

ومنهم من يقول، إننا نعمل بكل جهدنا للوحدة، والإسلام يدعو لها، والآيات التي تحث على اجتماع الرأي ووحدة العمل وتحض على عدم الفرقة كثيرة، ومتى وصلنا إلى ما نبغي، وتمت الوحدة لم يعد أمامنا من طريق إلا الإسلام، فنسلكه، أما الآن فلا يمكننا العمل للإسلام لأنه في البلاد الأخرى قد لا يوافقوننا على ذلك، فيحاربوننا، ولكن إذا أصبحت الوحدة صار المجتمع تحت إمرة واحدة تطبق الإسلام، وحتى نحن لا نستطيع تطبيق الإسلام على أنفسنا حتى لا ينفر منا الناس ويبتعد عنا أفراد المجتمع فالوحدة طريق يلتقي عليه الجميع على اختلاف أفكارهم بل لا يستطيع أحد أن يقف في وجهها.

وهكذا جماعات وجماعات توقع في حبالها بعض البسطاء من المسلمين وتستفيد منهم داخل صفوفها لتخدع الناس بأنها مسلمة وتضلل آخرين وآخرين، وهكذا يضربون بعضهم ببعض ويحاربونهم بأنفسهم، ويهدمون بهم كل ما يحملون في قلوبهم من عقيدة وفكرة. فرق كبير بين طريقة جاهلية تعد الوسيلة غاية، لترفد الجاهلية وتكون داعية لها وبين دعوة الحق والهداية التي تعد الوحدة والأخلاق والعدالة وسيلة، ويجب أن تكون وسائل الدعوة مشروعة منسجمة مع الإسلام، وليست الغاية سوى عبادة الله تعالى وتطبيق منهج الله في الأرض، والحكم بما أنزل الله وهذه سبيل الدعوة الإسلامية لا سوى ذلك مهما زينت دعوات الجاهلية. إذ لا يمكن الدعوة إلى الوحدة وكل مجموعة لها أفكار معينة، وارتباطات معينة، وتصرفات معينة، وكلها لا يرضى عنها الإسلام، ولا يقبلها بل يحاربها، ولا يمكن الدعوة إلى الأخلاق، والخمور منتشرة، يعاقرها دعاة الأخلاق، والزنى شائع، ويأتيه دعاة الأخلاق، والربا والرشوة والفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا يمكن الدعوة إلى العدالة، وأنصارها يستبيحون أموال الناس بالباطل، ويثرون على

حساب الفقراء ويحقدون على الأثرياء جشعاً وطمعاً، ويشجعون الكسالى على الأغنياء مكيدة واستغلالاً، والدعوة إلى الإسلام دعوة لكل خير، ونهي عن كل شر دفعة واحدة، لا تجزئة ولا تفرقة، لا مرحلة ولا تقسيطاً، نأخذ جزءاً ونترك الآخر حتى يأتي وقته ونرتكب المنكرات وندعو إلى بعض الأعمال المفيدة أو التي لا ضرر فيها، أمور متناقضة يراها كل ذي عقل بمجرد يُعمل عقله، ورسول الله ﷺ لم يتبع إلا طريقاً واحدة اختارها الله له، وسار هو عليها، لم يحد عنها ـ معاذ الله أن يحيد ـ ولم تكن على مراحل ينعطف بعد كل مرحلة إلى جهة ثانية أو ينتقل بعدها إلى مرحلة جديدة، وإنما كانت دعوة واضحة من أول الطريق متميزة منذ البداية: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)﴾[1] ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[2].

لم يتزعم رسول الله ﷺ الدعوة إلى التعصب لقومه والعمل على توحيد بلاد العرب وقتال الفرس والروم والأحباش الذين كانوا يسيطرون على أجزاء واسعة من أرض العرب، وهو من أشرف قريش أفضل القبائل العربية نسباً وأجدرها بالدفاع عن الأرض وتحريرها، ولم يعدّ الدعوة إلى هذه العصبية مرحلة من مراحل عمله وان الوحدة من متطلبات الإسلام حتى إذا طرد الأعداء ووحد البلاد وأطاعته القبائل، ولمع نجمه، وملك ناصية الأمر تحول بهم إلى الدعوة إلى الله، وإنما جاءه الأمر: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ

---

(١) الكافرون: ١ ـ ٦.

(٢) يوسف: ١٠٨.

﴿أَتْقَىٰكُمْ﴾[1] . وقال عليه الصلاة والسلام: «لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى».

ولم يتصدر رسول الله ﷺ الدعوة إلى الأخلاق التي كانت على مستوى منخفض، فالظلم والزنى والبغاء والربا والخمر والميسر وقطع الطريق والإغارة على الناس والقبائل أهم صفات ذلك المجتمع الجاهلي، ومع أن فضائل الأمور يقرها الإسلام ويدعو لها. فإذا ما نجح في هذه الدعوة وسار وراءه الذين يبغون الإصلاح، وهم في كل مجتمع كثيرون، تحول بهم إلى الدعوة إلى الإسلام.

ولم يناد عليه الصلاة والسلام بالعدالة الاجتماعية والمساواة بين الناس فلربما كانت الأكثرية تؤيده حيث كان طبقة قليلة تتحكم بالأكثرية فتتعامل بالربا، وتكسب الأموال وتسيطر على التجارة، وتملك الرق الذي يمدها بمزيد من الثروة بعمله وإنتاجه حتى إذا نجحت دعوته، ومشت وراءه الجموع تغلب فيها على الأقلية، وتم له الأمر، ثم انتقل بعدها إلى الدعوة إلى الله.

هذه كلها ليست بطريقة رسول الله ﷺ التي أوحى الله إليه بها، وإنما كانت طريقته أن يبدأ دعوته منذ اللحظة الأولى بتعريف الناس بخالقهم ووجوب انقيادهم له الانقياد التام حتى إذا استقرت هذه العقيدة في النفوس، أمكن تطبيق حكم الله عليهم، واستقر معه النظام الذي ترتضيه هذه النفوس المؤمنة، وتستسلم كلياً له، وهذا هو الإيمان. وقد جاء العتاب الشديد لرسول الله عندما حوّل نظره عن (عبدالله بن أم مكتوم) ذلك الرجل الضرير الذي جاء يستوضح عن بعض الأمور واتجه نحو قادة قريش (عتبة بن ربيعة) و(عمرو بن هشام) و(أمية بن خلف) و(أبي بن خلف) الذين طمع في إسلامهم فقال تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ

---

(1) الحجرات: ١٣.

﴿يَزَّكَّىٰ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ۝٤ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾(١).

ظنت قريش في بداية الأمر أن دعوة محمد ﷺ ستقتصر عليه وعلى أفراد قلائل تربطهم به بعض الروابط، وتجمعهم به بعض اللقاءات، ولهذا فلن يكون لهذه الدعوة أثر في مجتمع مكة، وأنها لن تغير شيئاً من معالمه الواضحة لأنها كانت تعلم أن أمر تغيير الدين شيء عظيم، وتبديل العقيدة أمر صعب مهما كان الدين بدائياً ومهما كانت العقيدة بسيطة. كما أن إيجاد دين جديد أمر بعيد لن يقدم عليه فرد، وإن حدث فهو صابيء ينتهي أمره بنهايته. ولم تكن قريش لتدرك ما حقيقة هذه الدعوة الجديدة، وما راحة النفس واستقرارها بالعمل لله والجهاد في سبيله وبمعرفة المصير والاطمئنان إلى النهاية. فإنها على الشرك، والأمر عندها سهل بصنع فتاها إلهه من تمر، فإن جاع أكله بعد أن عبده. كما اعتقدت قريش في البداية أن أمر محاربة هذه الدعوة الجديدة لن يطول وسينتهي بيسر، وستزول هذه العقيدة بتركها من قبل أتباعها القلائل المغرورين، وإن أخذت هذه الحرب مظهر الشدة منذ البداية فذلك لأن أحلام قريش قد سفهت منذ اللحظة الأولى، وآلهتها قد عيبت، وأصنامها قد استهزىء بها، والمرء لن يتأثر بشيء أكثر مما يتأثر لو أصيب بدينه أو أهين بعقيدته، ولو كان الدين بدائياً والعقيدة وثنية، فإن الإنسان متدين بالفطرة مرتبط بدينه أشد الارتباط ومتعلق به أشد التعلق وإن بدا في بعض المراحل غير مبال به.

رأت قريش في دعوة محمد غير ما توقعت، ولمست فيها غير ما كانت تظن، فقد بدأت الدعوة تنتشر بين مختلف الفئات والطبقات والمستويات ودخلها عناصر من بيوتات قريش الأولى التي تقف بشدة في وجه هذا الدين

---

(١) عبس: ١ ـ ١١.

الجديد. فكان بين صفوف المؤمنين الرجل الشريف والإنسان الوضيع، بينهم السيد المطاع والعبد المباع، وكان بينهم الشيخ الهرم والفتى اليافع، بينهم الرجل الناضج والشاب في مقتبل العمر، وكان بينهم التاجر الغني الثري والخادم المسكين، وبينهم المرأة الفاضلة والأمة المغمورة، وفيهم السيدة الكبيرة والفتاة الصغيرة. وعندما رأت قريش ما رأت غيّرت طريقتها الأولى في الدعوة إلى الكف عن هذا الأمر والرجوع إلى دين الآباء ومحاولة النصح وطلب الاتباع تارة باللين والتوسط، وأخرى بالحزم والتوعد، واستبدلت بذلك كله حرباً عامة شاملة شملت مختلف جوانب الحياة من دعاية وأذى وتجويع ومطاردة وقطيعة وملاحقة شأنها في ذلك شأن الحروب التي تشنّ على الدعاة اليوم، ولننظر إلى جوانب هذه الحرب.

أ - **الحرب الدعائية**: أطلقت قريش على محمد ﷺ منذ المدة الأولى لقب صابىء وكذا نعتت كل متبع له، ثم كان أفرادها يلقبونه تارة بالكاهن وأخرى بالساحر أو المجنون، وتارة يظنون أنه يريد الزعامة أو يبغي الشهرة، وثانية يحسبون أنه قد أصابه شيء من المس، ولنذكر ما قاله (عتبة بن ربيعة) لرسول الله ﷺ حين كلفه قومه أن يبذل جهده في محاولة يائسة لإقناع محمد ﷺ ليغيّر خطه ويبدل طريقه.

قال عتبة: «يا ابن أخي، إنك منا حيث علمت، من السطة (الشرف) في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرّقت به جماعتهم، وسفّهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفّرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها، لعلك تقبل منها بعضها».

قال رسول الله ﷺ: «قل يا أبا الوليد أسمع».

قال: «يا ابن أخي، إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من مالنا، حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً سوّدناك

علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً (أحد من الجن) تراه لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل، حتى يداوى منه» حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه.

قال: «أقد فرغت يا أبا الوليد؟». قال عتبة: نعم.

قال رسول الله ﷺ: «فاستمع مني». قال عتبة: «أفعل».

فقال رسول الله:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ، حتى إذا وصل إلى: فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ...[1]

فأمسك عتبة بفيه، وناشده الرحم أن يكف عن ذلك، ثم مضى رسول الله يقرأ السورة حتى أتمها عليه، فلما سمعها منه عتبة، أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره، معتمداً عليها، يسمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها، فسجد، ثم قال: «قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك». فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به. فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله

(١) فصلت: ١-١٣.

قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم.

وكان هناك كلام كثير يُتهم به سيدنا محمد ﷺ وأصحابه معه، ورسول الله لا يبالي بما يقوله قومه عنه. فهو ماض إلى آخر الشوط، سائر إلى نهاية الطريق حتى يبلّغ دعوة ربه ثم يُحكم الله أمره.

ولم يقتصر رسول الله على دعوة قومه، ولم تكن دعوته خاصة بمجتمع أو قبيلة أو جنس أو عرق كغيرها من الدعوات السابقة، وإنما كانت للناس جميعاً، وعليه أن يقوم بها، فكان يغتنم مواسم الحج التي تصل فيها الوفود إلى مكة فيعرض نفسه على القبائل ويدعوها إلى عبادة الله ونبذ ما كانت تعبد من دونه، فرأت قريش أن تسرع للوقوف في وجهه، وتسد هذه الثغرة أمامه خوفاً من استمالة القبائل إليه أو التأثير على الأفراد، فكانت توجه رجالاتها للدعاية ضده، وتنظم أمر الدعاية وتحبك خيوطها، وتحاول أن تحصر أمره في مكة. ولكيلا يختلف رجالاتها بعضهم مع بعض فيما يقولون عنه، ويكذب بعضهم بعضاً: اقترحوا أن يقولوا عن سيدنا محمد ﷺ أنه كاهن أو مجنون، ولم تقابل هذه الاقتراحات بالقبول، واتفقوا أخيراً أن يقولوا: إن هذا الرجل ساحر البيان، وإن ما يقوله سحر يفرق بين المرء وأبيه وبين صاحبته وبنيه، وبين عشيرته التي تؤويه، وكلما جاء موسم الحج أسرع رجال قريش إلى القبائل يعلنون الدعاية ضد محمد عليه السلام، ويحذرون الناس منه، وهنا يبدأ الصراع الفكري المرير بين رجل فرد وحده، يتحدى العالم ويسفه الأوثان وبين مجتمع يستمد وجوده من هذه الأوثان، ويقيم صرح حياته الاجتماعية والاقتصادية على أساسها.

تلقى المسلمون الأوائل هذه الدعاية بصبرٍ وتحمل شديدين، وهل أشد على المرء من أن يسمع دعاية عن قائده وسيده ونبيه أنه ساحر ومجنون؟ ولا يستطيع أن يفعل شيئاً، ثم القول عنه هو إنه من المغرّر بهم وإنه صابىء أو تابع لمجنون، ولكن عليه الصبر ما دام يعتقد أنه على حق، وأن نهايته واضحة ومصيره بيّن: إنها الجنة ماثلة أمام عينيه، فيلقي هذ وراء ظهره ويستمر في الجهاد.

هذه الدعاية ضد المسلمين منذ بداية الدعوة إلى اليوم لم تتبدل وإن اختلفت أساليبها لاختلاف الوسائل وتغيّر الأساليب وتطور الظروف وتبدل الأحوال. لقد بدأت الدعاية ضد الدعاة بأنهم يدّعون الإسلام ولا يطبّقونه، ويتظاهرون بالدين وهو منهم بريء ولكن هذه الدعاية لم تلبث أن فشلت أمام الحق الواضح وتبيّن للناس كذبها وزورها. وأمام هذا الوضوح تبدلت الدعاية ضد الأفراد والمبادىء، وانتقلت إلى القيادات، لأن الناس يعرفون الأفراد ويحتكون معهم، ويعاملونهم، ويعيشون بين ظهرانيهم فالكلام الكاذب عنهم لا يصدق مهما كان مصدره إن كانوا صالحين، ومن معرفة الأفراد تعرف المجموعة كاملة لذا صوّبت الدعاية ضد القادة الذين لا يعرفهم الأفراد في المجتمع جميعاً، ولا يخالطهم الناس كثيراً، وفي هذا خبث كبير فهذه التهم لا تدرك بالحواس ولا تعرف أضدادها إلا باللقاء، ولا يوجد لقاء، ومع هذا فقد فشلت كل التهم فالمسلم لا يمكن أن يكون إلا مخلصاً صادقاً ناصحاً وفياً مهما كانت المغريات. والمسلم لا يقدم إلا على حق، ولا يعرف إلا الخير ولا يحب لنفسه إلا ما يحب للناس عامة والمسلمين خاصة، وكل مسلم يعرف هذا لذا لا يمكن أن يصدق أية تهمة على أخيه، ولكن ذلك ينطلي على الذين لا يعرفون الإسلام سواء أكانوا من أعدائه أم ممن ينتمون إليه إذ يظنون أن جميع الناس أمثالهم يسعون وراء المادة والمنصب والشهوة، وتفتنهم الحياة بمباهجها، بل لا يمكنهم أن يتصوروا أن هناك رجالاً لا يفتنهم عن دينهم شيء مهما كانت الأسباب إذ ليس في الحياة الدنيا

عندهم إلا ما هو متاع الغرور .

وإذا كان المسلمون الأوائل قد تحملوا هذا الصراع بالصبر المرير ، فإن المسلمين اليوم يمكن أن يتحمّلوا كما تحمّل أسلافهم إن استقاموا على الطريق ، وأخلصوا النية. وإن الفرد الذي يخشى ما يقال عنه ويخاف على نفسه من الدعاية لا يصلح للعمل ، وسيسقط على الطريق ثم يكون مع الأعداء تدريجياً حتى ينحرف تماماً ويحق عليه القول ويلقى جزاءه يوم الحساب ، وإن سقوط بعض الأفراد ليس دليل ضعف وظاهرة مرض ، وإنما ظاهرة صحة تنقيها من الشوائب التي تعيق العمل وتدفع إلى الكسل .

وإذا كان المجتمع الجاهلي في مكة قد حارب الدعوة الأولى ووقف في وجهها خوفاً على مصالحه التي ستزول بنجاح الدعوة لذا أطلق الدعاية ضدها في كل ميدان وبين القبائل جميعها ، فإن العالم اليوم بأسره يحارب الدعوة ويقف في وجه نجاحها متخذاً الوسائل الحديثة والدراسات الفنية جميعها التي توصّل إليها العلم لأن نجاحها نهاية لمصالحه وخاتمة لسيطرة المهيمنين عليه ، فالدول الأجنبية تنتهي مصالحها في بلاد المسلمين بنجاح الدعوة الإسلامية ، ويبدأ بعدها انتشار الفكر النيّر بين أبنائها للتخلص من الظلم ولنشر الإسلام كما حدث في الماضي. والدول التي يعيش في ربوعها مسلمون تقف في وجه الإسلام لأن معنى نجاحه القضاء على الظلم الذي يمارسه الحكام ، وانتهاء سيطرة أصحاب الهوى والمنافع ، والتخلص من المفاسد التي يريدها أهل الشهوات ، والتطبيق لمنهج الله في الأرض ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ

ضَعِيفًا[1].

وسيصبر الدعاة بإذن الله على كل دعاية مهما كانت، ويقفون أمام كل نقد لا يخشون كلام الناس، وإنما يزيدهم ذلك إيماناً، ويبغون رضاء الله وحده، ويعاملون الناس بسلوكهم الإسلامي الذي يرتضيه لهم دينهم، ثم يكون لهم النصر، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾[3].

٢ ـ **الحرب الاقتصادية**: لما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد هاجروا إلى الحبشة، وأصابوا بها أمناً وأن النجاشي قد منع من لجأ إليه منهم، وأن الإسلام قد بدأ ينتشر بين القبائل، اجتمع رجال قريش، وتداولوا فيما بينهم على أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني المطلب الذين يمنعون رسول الله منهم، على أن لا ينكحوا إليهم ولا يُنكحوهم، ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم، ثم كتبوا ذلك في صحيفة، وتعاهدوا وتواثقوا على ذلك، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة، توكيداً على أنفسهم، فلما فعلت ذلك قريش انحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب في شعبه واجتمعوا إليه عدا أبي لهب بن عبد المطلب حيث خرج إلى قريش، فأقام المسلمون على ذلك سنتين أو ثلاثاً، ولم يستطيعوا الخروج من الشعب إلا في الأشهر الحرم بسبب الحراسة عليهم، حتى جهدوا، ولا يصل

---

(١) النساء: ٧٥ ـ ٧٦.

(٢) آل عمران: ١٧٣.

(٣) الحج: ٤٠-٤١.

إليهم شيء إلا سراً، مستخفياً به من أراد صلتهم من قريش، يرد عنهم غائلة الموت، وقد ساءت صحتهم، وبليت ملابسهم، وجفت أثداء النساء من الجوع والعطش، وشحبت الوجوه، وذوت الأبدان، وذبلت الأعضاء، وكان رسول الله ﷺ يمر بينهم، وهو يحمل أضعاف ما يحملون، فيرى فوق هذه البطون الخاوية صدوراً عامرة ممتلئة بالثقة تشكل مجتمعاً متكافلاً. وبقي الوضع هكذا حتى استيقظ الضمير الإنساني عند بعض رجال قريش، وقد كانت تغطيه ظلمة الوثنية وأوهام الجاهلية. فقاموا بتمزيق الصحيفة، وأعلنوا سخطهم على ما جاء فيها، وعاد بنو هاشم وبنو المطلب إلى مساكنهم، وقد انتصر الصبر وعتا على الحرب الاقتصادية وعلى ظلم المجتمع وذوي القربى.

وما حدث بالأمس يحدث اليوم وربما كان أشد مرارة بسبب الوسائل الحديثة والدراسات الفنية حيث أغلقت أبواب الكليات أمام المسلمين ومنعت عنهم الوظائف وحوربوا في رزقهم، ولكن المسلم لا يمكن أن يبالي في مثل هذه الأمور إذ يعتقد عقيدة لا يداخلها شك أن الرزق مقدر له، وهو بيد الله وكذلك أجله: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[2].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت خلف النبي ﷺ فقال: «يا غلام إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لن ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وأن الأمة لو اجتمعت على أن يضروك بشيء لن يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام، وجفت الصحف»[3].

---

(١) الذاريات: ٢٢.

(٢) لقمان: ٣٤.

(٣) رواه أحمد والترمذي، وهو صحيح.

٣ ـ **الحرب النفسية**: حين حوصر بنو هاشم وبنو المطلب في شعب أبي طالب حرموا من الزواج، فأوضاعهم المادية لا تساعد في كثير ولا قليل على الاحتفاظ بمن يحبون للبعد وللوضع الذي هم فيه، فصحتهم أصبحت عرضة للتلف، وأموالهم عرضة للضياع، ومنظر الفرد منهم مال إلى الذبول، والنضارة قد ذوت، أذهبها الجوع، وأسرعت بها المحنة والبلاء، بل إن كل ما يعتز به الفرد قد سار إلى البوار فطوى الشباب والفتيات ما في قلوبهم من عواطف النفس وفطرة الإنسان. وهذا أيضاً شأن الشباب الذين سجنهم ذووهم، ومنعوا عنهم المال، فأوضاعهم لا تختلف عن أوضاع إخوانهم في الشعب.

وحين كان أهل الشعب ينزلون في الأشهر الحرم إلى مكة يرى شبابهم صخبها فيذكرون حياتهم الماضية، وهم بثيابهم البالية، وأجسامهم المقوسة قد أضناها الجوع والألم، فيعافون هذا النعيم الذي يرونه، وينظرون إلى المستقبل فإذا هذا النعيم ينقلب في أعينهم إلى جحيم يتصورونه، ويتملاه المسلم يوم يقف الناس لرب العالمين فيخلد أهله في النار بينما هم في روضة يحبرون، في الجنة خالدون، فرحون بما آتاهم الله من فضله، فيرى روضة الإيمان في ذلك الشعب البائس، في تلك المنطقة الموحشة التي لا يسمع فيها إلا بكاء الرضع الجياع وصياح الاطفال مع بعض التأوهات يطغى عليها دعاء الله وكلمات التوحيد تنطلق من المسلمين الذين يقيمون مع أهلهم سواء أكانوا على عقيدتهم أم لا.

والحرب النفسية قائمة بما هو شائع وموجود في كل مكان من سفور واختلاط وتهتك وفجور، ويردع الشباب المسلم إيمانهم، ويمنعهم دينهم من أن يتمرغوا في هذه الأوحال، فيترفعون عن الاقذار، ولكنها لواعج النفس وفطرة العاطفة، وتقع الحرب النفسية فينتصر المسلم تارة بالصوم وأخرى بالعبادة، وتارة بالابتعاد عن هذه الأجواء ما أمكنه وهي التي يعيش فيها مكرهاً غير راض. ولعل هذه الحرب من أقوى الحروب وأشدها فتكاً بجسم

الأمة، والتي تسير بالشباب نحو الهاوية، وتقودهم إلى طريق الانحراف وبالتالي يبيعون كل شيء في سبيل تأمين هذه الشهوات، وقد يكون الثمن إيمانهم.

هذه الحرب النفسية إضافة إلى ما كان المسلمون يلاقونه من سخرية وتهكم وتكذيب واتهام فيصبر عليها الإنسان وإن كانت لا تجد الراحة للنفس سبيلاً.

٤ - الأذى البدني: غدت قريش على من أسلم من رجالها واتّبع محمداً رسول الله ﷺ فنالت منه، إذ وثبت كل قبيلة على من كان منها من المسلمين، فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش برمضاء مكة إذا اشتد الحر، ويفتنون من استضعفوا عن دينهم، فمنهم من يفتن من شدة البلاء الذي يصيبه، ومنهم من يَتَصَلَّب، ويعصمه الله منهم.

فكان (أمية بن خلف) يخرج بلالاً إذا حميت الظهيرة فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على ظهره، ثم يقول له: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى فيقول بلال وهو في ذلك البلاء: أحد... أحد وبقي على هذه الحال حتى أنقذه أبو بكر رضي الله عنه وأعتقه.

وكانت بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر، وبأبيه، وأمه سمية - وكانوا أهل إسلام - إذا حميت الظهيرة، يعذبونهم برمضاء مكة، فيمر بهم رسول الله ﷺ، وهو لا يملك إلا عبرة لهم تغرورق في عينه، وحسرة في كبده فيقول لهم وهو حزين: «صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة»[1]. أما سمية فقد أصابها سهم في موضع عفافها، وماتت، وكانت أول شهيدة في الإسلام.

وكان أبو جهل عمرو بن هشام إذا سمع برجل أسلم ذهب إليه، فإن

(١) حديث صحيح رواه الحاكم في «المستدرك» ٣/٣٨٨-٣٨٩، والطبراني في «الأوسط» كما في «المجمع» ٩٢٠-٢٩٣/٣، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وله طرق أخرى يصح بها.

كان له شرف ومنعة، أنّبه وأخزاه، وقال: تركت دين أبيك، وهو خير منك، لنسفهن حلمك، ولنخطئن رأيك، ولنضعن شرفك، وإن كان تاجراً قال له: والله لنكسدن تجارتك ولنهلكن مالك. وإن كان ضعيفاً ضربه وأغرى به.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إن كانوا ليضربون أحدهم ويُجيعونه ويُعطّشونه، حتى ما يقدر أن يستوي جالساً من شدة الضر الذي نزل به.

ولم يقتصر الأمر على هؤلاء الرجال من المسلمين بل نال الجميع ما نالهم من العذاب حتى رسول الله ﷺ فإضافةً إلى الإهانة التي أصابته منهم من تكذيب وسخرية وهزء. فيقال إنه خرج يوماً فلم يلقه أحد من الناس إلا كذبه وآذاه لا حر ولا عبد، إضافة إلى هذا فقد هموا بقتله عدة مرات ولكن الله حفظه. وألقوا الشوك في طريقه والتراب على رأسه وفتات العظام وسلا البعير على ظهره فلا يستطيع الارتفاع من السجود حتى تأتي ابنته فاطمة وترفع عنه سلا البعير. وضربه عدد من أفراد قريش، فلم يخلصه من أيديهم إلا أبو بكر رضي الله عنه، وهو يقول: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله. ويجب أن نلاحظ أن رسول الله ﷺ لم يكن ذلك الرجل الضعيف الذي يستكين هذه الاستكانة، ولكن حكمة الله حتى لا يقع القتال بين أطراف من قريش ولم يكن المسلمون قد تكاملت قوتهم، ولا اكتمل الدين الإسلامي، وليقضي الله أمراً كان مفعولاً. وأصاب رسول الله ما أصابه في الطائف عندما سار إليها، ولم يستطع دخول مكة عندما عاد حتى أجاره (المطعم بن عدي).

كانت قريش تنال من المسلمين، وخاصة المستضعفين منهم، ولم يكن بمقدورهم الرد عليهم إلا بتلاوة آيات من القرآن الكريم، تنال المشركين وتتوعدهم بالنار تارة باسمهم وأخرى بالتلميح إذ تشير الآيات الكريمة إلى حادثة معينة، فتعرف أشخاصها. وقد كان هؤلاء المستضعفون يهابون الجلوس مع ساداتهم وأشراف قريش فإذا بهم بعد إسلامهم يتجرؤون عليهم

ويتوعدونهم بالعاقبة الوخيمة كلما تلوا القرآن الكريم أمامهم وبغيابهم، بل وكل ساعة.

إن أساليب التعذيب اليوم تفوق ما عرفته الجاهلية الأولى بكثير. ولقد صبر المؤمنون الأوائل، وحققوا هدفهم في الحياة، ونرجوا أن يصل المسلمون إلى مبتغاهم الآن بما صبروا: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾[1].

٥ ـ الحرب السياسية: لم تكن الأمور السياسية بمفهومها الحالي قد وجدت في مكة يوم ظهر الإسلام حيث كان المجتمع صغيراً، والاتصال مع بقية الجهات ضعيفاً، والسياسة لم تلعب إلا دوراً ضئيلاً، إلا أنها اليوم في هذا المجتمع الذي نعيش فيه تعد ركناً كبيرا في الحياة الاجتماعية، فإضافة إلى الدعاية الموجهة من قبل الأعداء الذين لا ينحصرون في مدينة من المدن أو مصر من الأمصار، وإنما يتجاوزون ذلك حتى يشملوا العالم كله، وتتفق على محاربة الإسلام اليهودية والصليبية والوثنية والبدائية لا يتخلف عن ذلك منهم أحد بالإضافة إلى جاهلي المسلمين الذين يتحكمون في أرض الإسلام، ويسيرون بها حسب مصالحهم وتعاليم أسيادهم.

وإضافة إلى الدعاية الموجهة التي ألمحنا عنها في الحرب الدعائية والتي تشمل وسائل الاعلام كافة فإن خصوم الإسلام قد بدؤوا يصطنعون تنظيمات تنادي بالفكرة نفسها وتدعو بالدعوة نفسها، تحمل شعار الإسلام، وتزاود، ولكنها تتحرك من خارج الفكرة وتتلقى التعليمات من أعداء الإسلام، وقد ترتبط بالحكم الجاهلي، وتستفيد منه، ويسخرها لمصلحته، وقد يكون ارتباطها أبعد من هذا. ويستفيد الخصم من هذا الموضوع أيضاً، إذ يضيع الفرد المسلم وسط

---

(١) البقرة: ٢١٤.

الدعاية، وتظهر إشارات الاستفهام حول حلة اللواء حيث يُتهم الجميع، ومن بينهم العمل الصحيح، وتكثر الخلافات بين الرايات.

٦ - **اختلاف المفاهيم**: كانت قريش تشكل مجتمعاً تجارياً، وتنظم رحلة الشتاء والصيف إلى اليمن والشام، وتعيش حياة مادية صرفة، تقيس الرجل بمقاييس المادة، وتعد مركزه بتجارته وغناه، وقيمته من قبيلته ونسبه. وعندما بدأ محمد ﷺ دعوته ظنت قريش أن ذلك لا يعدو أن يكون من هذا القبيل يريد من ورائها عرضاً من أعراض الدنيا، ولكن عندما عرضوا عليه الملك والجاه والمال والنساء ورفض ذلك كله وأعرض عنه، استغربوا رفضه واستغربوا أن تنطلق دعوته من غير هذه المنطلقات فاتهموه بالجنون، ولما لم يُجد معه شيء من الاتهام والعروض والمقاومة واستمر في طريقته لا يبالي بشيء مما حوله وجدوا أن الأمر غريب، وكيف يكون رسولاً؟ وهل يختار الله فقيراً؟ فلو اختار الله رجلاً رسولاً لكان يجب أن يختار أحد الأغنياء أمثال (الوليد بن المغيرة) في مكة أو (عمرو بن عمير الثقفي) في الطائف:

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[1]، فمفهوم الدعوة والجهاد والتضحية والإخلاص والعمل الصالح في سبيل الله كلها مفاهيم لا يعرفونها، وإذا وردت فإنما القصد منها عند الجاهليين الحصول على المادة لا يتعدى الأمر ذلك.

وتفسير اليوم كتفسير الأمس فبُعد المسلم عن قول الفحش وهتك الأعراض ودعوته إلى غض البصر والعفة والأخلاق الفاضلة الكريمة لا يفسر

---

(١) الزخرف: ٣١-٣٢.

عند الجاهليين إلا أنه الكبت وعدم الصلاحية للنساء، أو إظهار النسك في سبيل تحقيق أغراض خاصة له. كما يفسرون عدم تعاطي المسكرات بعدم اكتمال الرجولة، وعدم سريان روح الشباب عند هؤلاء المؤمنين.

واشتد أذى قريش على المسلمين والشدة يعقبها الفرج، وينبلج الفجر بعد شدة الظلمة وكان من أثر هذا الأذى أن أسلم (حمزة بن عبد المطلب) عم رسول الله ﷺ، إذ أدركته الحمية عندما عيرته إحدى الجواري بإيذاء أبي جهل لابن أخيه محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، فتوجه حمزة مباشرة إلى ذلك الشقي، وقد احتمله الغضب لما أراد الله به من كرامته، فخرج يسعى ولم يقف عند أحد على غير عادته، مُعداً لأبي جهل إذا لقيه أن يوقع به، فلما دخل المسجد، نظر إليه جالساً في القوم، فأقبل نحوه، حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجه شجة منكرة، ثم قال: أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول؟ فرُد ذلك عليّ إن استطعت. فقامت رجال من بني مخزوم إلى حمزة، لينصروا أبا جهل، فقال أبو جهل: دعوا أبا عمارة، فإني والله قد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً، وثبت حمزة رضي الله عنه على إسلامه، وعلى ما تابع عليه رسول الله ﷺ من قوله. فلما أسلم حمزة، عرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد عز وامتنع، وأن حمزة سيمنعه، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه. وكان حمزة رضي الله عنه أعز فتى في قريش، وأشدها شكيمة.

أراد المشركون أن يغيّروا طريقتهم بتعجيز الرسول بطلب الآيات منه، فطلبوا منه شق القمر، فأعطاه الله هذه المعجزة وانشق القمر فرقتين كل فرقة فوق جبل، وعندما رأى ذلك المعاندون قالوا لقد سحركم ابن أبي كبشة[1] فأنزل الله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً

---

(١) أبو كبشة هو زوج حليمة السعدية مرضعة رسول الله، فكانت قريشاً تقول عنه ابن أبي كبشة.

﴿يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾[1]. عن عبدالله بن مسعود قال: بينما نحن مع رسول الله بمنى إذ انفلق القمر فلقتين، فكانت فلقة وراء الجبل، وفلقة دونه، فقال لنا رسول الله ﷺ: «اشهدوا»[2]. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر مرتين[3].

ثم سألوا الرسول بعد ذلك آيات لا يقصدون منها إلا التعنت والعناد فقالوا له كما جاء في سورة الإسراء: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾[4].

وبعثت قريش (النضر بن الحارث) و(عقبة بن أبي معيط) إلى أحبار يهود يثرب، وقالوا لهما: سلاهم عن محمد، وصفا لهم صفته، وأخبراهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء، فخرجا حتى قدما المدينة فسألا أحبار اليهود عن رسول الله ﷺ، ووصفا لهم أمره، وأخبراهم ببعض قوله، وقالا لهم: إنكم أهل التوراة، وقد جئناكم لتخبرونا

---

(١) القمر: ١ ـ ٢.

(٢) رواه الشيخان وغيرهما.

(٣) رواه الشيخان وغيرهما، وقال ابن كثير: قد كان هذا في زمن رسول الله، كما ورد في الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة.

(٤) الإسراء: ٩٠ ـ ٩٣.

عن صاحبنا هذا، فقال لهما أحبار يهود: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقول، فروا فيه رأيكم: سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم؟ فإنه قد كان لهم حديث عجب! وسلوه عن رجل طوّاف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح ما هي؟ فإن أخبركم بذلك فاتبعوه، فإنه نبي، وإن لم يفعل فهو رجل متقوّل، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم. فأقبل (النضر بن الحارث) و(عقبة بن أبي معيط)، حتى قدما مكة على قريش، فقالا: يا معشر قريش، قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، قد أخبرنا أحبار يهود أن نسأله عن أشياء أمرونا بها، فإن أخبركم عنها فهو نبي، وإن لم يفعل فالرجل متقوّل، فروا فيه رأيكم. فجاءوا رسول الله ﷺ. فقالوا: يا محمد، أخبرنا عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، قد كانت لهم قصة عجب، وعن رجل كان طوّافاً قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، وأخبرنا عن الروح ما هي؟ فقال لهم رسول الله ﷺ: «أخبركم بما سألتم عنه غداً»، ولم يستثن. فانصرفوا عنه. فمكث رسول الله ﷺ - فيما يذكرون - خمس عشرة ليلة لا يُحدث الله إليه في ذلك وحياً، ولا يأتيه جبريل، حتى أرجف أهل مكة، وقالوا: وعدنا محمد غداً واليوم خمس عشرة ليلة، قد أصبحنا منها لا يخبرنا بشيء مما سألناه عنه، وحتى أحزن رسول الله ﷺ مكث الوحي عنه، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة، ثم جاءه جبريل من الله عز وجل بسورة الكهف، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم وعلى قوله عليه الصلاة والسلام غداً وليس الأمر بيده، وإنما لله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[1] كما جاءه بخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية، والرجل الطوّاف، والروح. ضعفت قريش عن مقارعة المسلمين بالحجة والبرهان وعجزت عندما رأت الآيات والحق المبين لذلك عادت إلى الأذى وزادت فيه على

---

(١) الكهف: ٢٣ - ٢٤.

كل من أسلم محاولة صدّهم عن اتباع رسول الله ﷺ، ولم يتركوا طريقة إلا اتبعوها.

الهجرة إلى الحبشة: لما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية، بمكانه من الله ومن عمه أبي طالب، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء قال لهم: لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه، فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة، مخافة الفتنة، وفراراً بدينهم، فكانت أول هجرة في الإسلام.

ولكن المشركين لن يتركوا الدعوة تنطلق بحرية في أرض فيها الحرية، بل اتخذوا جميع الوسائل للكيد لها، وهذا في كل مكان، وفي كل وقت تجد فيه الدعوة مجالاً للعمل، وأرسلت قريش وفداً مؤلفاً من (عمرو بن العاص السهمي) و(عبدالله بن أبي ربيعة المخزومي) و(عمارة بن الوليد المخزومي) يؤلب النجاشي على نزلائه، ويوغر صدره على ضيوف بلده، متخذين الكذب والافتراء والدس، وإن لم يمكنهم ذلك لظهور الحق ورجاحة عقل النجاشي ولكننا نلاحظ عدة ملاحظات:

١ ـ إن الدعوة محاطة في كل وقت بالأعداء من كل جهة، ولن يترك لها أعداؤها الفرصة لتنطلق بحرية، فهم يراقبونها في كل مجال، ويتتبعون أفرادها في كل بقعة، فعليها أن تأخذ الحيطة، وتحتاط لكل أمر، وتخطط لأمنها وسلامتها، لا أن تسير معلنة عن مواقفها مبينة خط سيرها، كما يتبادر لذهن بعضهم في أن تكون الدعوة عامة دون حذر، الأمر الذي يجعل الأعداء يفسدون عليها الطريق.

٢ ـ لم تكن الدعوة لتنحصر في بقعة من الأرض أو في مساحة من العالم، وإنما تنتقل إلى المكان الذي يتوفر فيه العمل والمناخ الملائم، وتنطلق منه، ولعلّ الهجرة الأولى كانت إلى أرض الحبشة التي لا يسكنها العرب حتى

لا يُخيّل لبعض الناس أن الدعوة يجب أن تنطلق من الأرض التي انطلقت منها أول مرة وهي أرض العرب، وإنما حيثما تتهيأ الظروف وتساعد العوامل يجب أن ينطلق المسلمون، فلربما كانت الانطلاقة الثانية من غير أرض العرب، وإن كان لا يمنع أن تكون منها بل الأحرى أن تكون.

٣ ـ يجب أن تتجمع جهود المسلمين في منطقةٍ واحدةٍ للاندفاع منها فإذا ما تهيأت الأسباب انطلقت نحو هدفها تطبق منهجها، فالرسول ﷺ لم يسمح للمسلمين أن ينتشروا في أرض الله الواسعة ويتفرقوا كيف يشاءون، يحاول كل منهم أن يجد المأوى يتخلص فيه من أذى قريش واضطهادها وإنما سمح لهم أن يهاجروا إلى أرضٍ واحدةٍ يعيشون فيها حياة واحدة مجتمعين، فيها من معاني الإسلام مما تلقوه من رسول الله ﷺ في مكة، يساعد كل أخاه على حياة الغربة والتمسك بمبادىء الإسلام والعمل به.

هاجر المسلمون الأوائل إلى الحبشة وكان عددهم عشرة رجال وخمس نسوة:

١ ـ عثمان بن عفان، ومعه زوجه رقية بنت رسول الله ﷺ.
٢ ـ أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ومعه زوجه سهلة بنت سهيل بن عمرو.
٣ ـ الزبير بن العوام[1].
٤ ـ مصعب بن عمير.
٥ ـ عثمان بن مظعون.
٦ ـ أبو سلمة عبدالله بن عبد الأسد، ومعه امرأته أم سلمة هند بنت أبي أمية المخزومي[1].
٧ ـ أبو سبرة بن أبي رهم العامري وزوجه أم كلثوم[1].
٨ ـ عامر بن ربيعة، ومعه امرأته ليلى بنت أبي حثمة.

---

(١) انظر ترجمته في سلسلة (عظماء مجهولون) للمؤلف صدرت عن المكتب الإسلامي.

٩ ـ عبد الرحمن بن عوف .

١٠ ـ سهيل بن البيضاء .

وكان أميراً عليهم عثمان بن مظعون . فالركب يجب ألا يسير دون أمير ، ورسول الله ﷺ يقول : « إن كنتم ثلاثة فأمّروا عليكم » ، فلا يصح للدعوة أن تكون دون أمير .

ثم خرج جعفر بن أبي طالب مهاجراً في الدفعة الثانية وهو ما عرف بالهجرة الثانية إلى الحبشة[1] ، وتتابع المسلمون حتى اجتمعوا بأرض الحبشة، فكانوا بها ، منهم من خرج بأهله معه ، ومنهم من خرج بنفسه لا أهل معه ، وكان عددهم جميعاً ثلاثة وثمانين رجلاً سوى نسائهم وأبنائهم الذين خرجوا معهم صغاراً أو ولدوا ، وهم فيها .

هاجر المسلمون الأوائل ـ رضوان الله عليهم ـ إلى الحبشة في سبيل الله، خوفاً على إسلامهم وحفاظاً على عقيدتهم ، وكانوا قدوة الدعاة إلى الله وأسوة المخلصين في سبيل الله، وهنالك في الحبشة ارتد (عبيدالله بن جحش) ابن عمة رسول الله ﷺ ، ودخل النصرانية ، وبدأ يؤذي المسلمين ويسخر منهم، وبعد أن كان قدوة للمسلمين أصبح بعيداً منهم غريباً عنهم. فالمسلمون لا يرتبطون بالرجال، وإنما يرتبطون بالدعوة، فقد ينحرف الرجل فيزول عندها مركزه من بين الصفوف، أما الدعوة فتستمر . فما أن ارتد (عبيد الله بن جحش) حتى أصبح في عداد الكافرين ، وابتعد عنه المهاجرون الذين كانوا بالأمس إخوانه فالقرب والبعد إنما يكون على أساس العقيدة، حتى زوجه (رملة بنت أبي سفيان ـ أم حبيبة) قد حرّمت عليه ، وفارقته ، على الرغم من أنها هاجرت معه ، وفضّلت صحبته على الحياة في مكة موطنها ومرتع شبابها ، ومقر أهلها ، وأبوها أبو سفيان صاحب الكلمة المسموعة والأمر المطاع ، فضّلت عشرته عندما كان مسلماً وفارقته عندما ارتد . وقد

---

(١) انظر كتاب « مع الهجرة إلى الحبشة » للمؤلف نفسه.

حفظ لها رسول الله ﷺ هذا الإيمان، وأراد إكرامها، وعدم إضاعتها، فطلب من النجاشي أن يخطبها له، ففعل وأمهرها أربعمائة دينار، ثم انتقلت إلى المدينة، مدينة رسول الله ﷺ، ودخلت في عداد أمهات المؤمنين رضي الله عنهن، وهذا غاية الاكرام. وهنا يجب أن نتوقف على ملاحظتين:

١ ـ الزواج لا يصح بين صاحبي عقيدتين مختلفتين إلا إذا كانت الزوجة من أهل الكتاب، ولا يصح العكس، وإذا كان الزواج قائماً، وتبدلت عقيدة أحدهما حُرّم أحدهما على الآخر وتجب المفارقة.

٢ ـ ترك المسلمون (عبيد الله بن جحش) عندما ارتد، أي عندما بدل عقيدته، ولكن لو تساهل في تطبيق بعض الواجبات وضعف عن أدائها لوجبت عندها العناية به، والاهتمام بشؤونه وزيادة الصلة به وإظهار المحبة الزائدة حتى يعود إلى عقله ويرجع عن غيه.

إِسْلَامُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ : كان إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد خروج من خرج من أصحاب رسول الله ﷺ إلى الحبشة في العام السادس من البعثة النبوية، وكان من قبل شديداً على المسلمين كثير الأذى لهم، قالت ليلى بنت أبي حثمة زوج عامر بن ربيعة: والله إنَّا لنرحل إلى أرض الحبشة، وقد ذهب عامر في بعض حاجاتنا، إذ أقبل عمر بن الخطاب حتى وقف عليّ، وهو على شركه ـ قالت: وكنا نلقى منه البلاء، أذى لنا وشدة علينا ـ قالت: فقال: إنه للانطلاق يا أم عبدالله؟ قالت: نعم والله، لنخرجن في أرض الله آذيتمونا وقهرتمونا. حتى يجعل الله لنا مخرجاً، قالت: فقال: صحبكم الله، ورأيت له رقة لم أكن أراها، ثم انصرف وقد أحزنه ـ فيما أرى ـ خروجنا، قالت: فجاء عامر بحاجته تلك، فقلت له: يا أبا عبدالله، لو رأيت عمر آنفاً ورقته وحزنه علينا. قال: أطمعت في إسلامه؟ قالت: قلت: نعم، قال: فلا يسلم الذي رأيت حتى يسلم حمار الخطاب، قالت: يأساً منه، لما كان يُرى من غلظته وقسوته على الإسلام.

وكان ابن عمه سعيد بن زيد قد أسلم وأسلمت زوجه فاطمة أخت عمر، كما أسلم نُعيم بن عبدالله النحام من قومه بني عدي، وكانوا جميعاً يخفون إسلامهم عن عمر. وكان خبّاب بن الأرت يختلف على فاطمة بنت الخطاب يقرئها القرآن. فخرج يوماً عمر متوشحاً سيفه، يريد رسول الله ﷺ ورهطاً من أصحابه، وقد ذكر له أنهم اجتمعوا في بيت عند الصفا هو بيت الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي، وهم قريب من أربعين مسلماً. ومع رسول الله ﷺ عمه الحمزة بن عبد المطلب، والمسلمون الذين لم يخرجوا إلى الحبشة، فلقيه قريبه نعيم بن عبدالله، فقال له: أين تريد يا عمر؟ فقال: أريد محمداً هذا الصابيء الذي فرّق أمر قريش، وسفّه أحلامها، وعاب دينها، وسبّ آلهتها، فأقتله ورأى نعيم الغضب يحتمل عمر والشرر يتطاير من عينيه فخاف، ورأى أن يثنيه عن عزمه، ولكن أنى له هذا، ففضّل أن يوجهه إلى بيت أخته[1] ولو أدى إلى قتلها هي وزوجها وخبّاب، فإن قتلهم يعوّض أما فقد رسول الله فلن يعوّض وستموت الدعوة. فقال له نعيم: والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر، أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً! أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟ قال: وأي أهل بيتي؟ قال: ختنك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو، وأختك فاطمة بنت الخطاب، فقد والله أسلما، وتابعا محمداً على دينه فعليك بهما، فرجع عمر عامداً إلى أخته وختنه، وعندهما خبّاب بن الأرت معه صحيفة فيها صدر من سورة (طه) يقرئها إياها، فلما سمعوا حس عمر، تغيب خباب في بعض البيت، وأخذت فاطمة الصحيفة فجعلتها تحت فخذها، وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليهما، فلما دخل، قال ما هذه الهينمة (الصوت الذي لا يفهم) التي سمعت؟ قالا له: ما سمعت شيئاً، قال: بلى والله، لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه، وبطش بختنه سعيد بن زيد، فقامت إليه فاطمة بنت

---

(١) ربما كان لقاء هذه المجموعة أيضاً في الوقت نفسه ونعيم بن عبدالله في طريقه إلى هذا اللقاء.

الخطاب، لتكفه عن زوجها، فضربها فشجها، فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه: نعم، قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله، فاصنع ما بدا لك. فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع، فارعوى، وقال لأخته: أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرؤون آنفاً، أنظر ما هذا الذي جاء به محمد، وكان عمر كاتباً، فلما قال ذلك، قالت له أخته: إنا نخشاك عليها، قال: لا تخافي، وحلف بآلهته ليردنها إذا قرأها إليها، فلما قال ذلك، طمعت في إسلامه، فقالت له: يا أخي، إنك نجس على شركك، وإنه لا يمسها إلا الطاهر، فقام عمر فاغتسل، فأعطته الصحيفة، وفيها سورة (طه). فلما قرأ صدراً منها، قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه! فلما سمع ذلك خباب خرج إليه، فقال له: يا عمر، والله إني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه، فإني سمعته أمس وهو يقول: اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم بن هشام، أو بعمر بن الخطاب، فالله الله يا عمر، فقال له عند ذلك عمر: فدلني يا خباب على محمد حتى آتيه فأسلم، فقال له خباب: هو في بيت عند الصفا، معه فيه نفر من أصحابه، فأخذ عمر سيفه فتوشحه، ثم عمد إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، فضرب عليهم الباب، فلما سمعوا صوته، قام رجل من أصحاب رسول الله ﷺ، فنظر من خلل الباب، فرآه متوشحاً السيف، فرجع إلى رسول الله ﷺ وهو فزع، فقال: يا رسول الله هذا عمر بن الخطاب متوشحاً السيف، فقال حمزة بن عبد المطلب: فأذن له، فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له، وإن كان جاء يريد شراً قتلناه بسيفه، فقال رسول الله ﷺ: ائذن له، فأذن له الرجل، ونهض إليه رسول الله ﷺ حتى لقيه في الحجرة فأخذ بمجمع ردائه، ثم جبذه به جبذة شديدة، وقال: ما جاء بك يا ابن الخطاب؟ فوالله ما أرى أن تنتهي حتى يُنزلَ الله بك قارعة، فقال عمر: يا رسول الله، جئتك لأؤمن بالله وبرسوله، وبما جاء من عند الله، فكبّر رسول الله ﷺ تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله ﷺ أن عمر قد أسلم.

فتفرق أصحاب رسول الله ﷺ من مكانهم، وقد عزّوا في أنفسهم حين

أسلم عمر مع إسلام حمزة، وعرفوا أنهما سيمنعان رسول الله ﷺ، وينتصفون بهما من عدوهم. وقال عبدالله بن مسعود: إن إسلام عمر كان فتحاً، وإن هجرته كانت نصراً، وإن إمارته كانت رحمة، ولقد كنا لا نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتل قريشاً، حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه.

وفي رواية لعمر نفسه عن إسلامه يقول: كنت للإسلام مباعداً، وكنت صاحب خمر في الجاهلية، أحبها وأسر بها، وكان لنا مجلس يجتمع فيه رجال من قريش بـ (الحزورة) عند دار آل عمر بن عبد بن عمران المخزومي، قال: فخرجت ليلة أريد جلسائي أولئك في مجلسهم ذلك، قال: فجئتهم فلم أجد فيه منهم أحداً. قال: فقلت: لو أني جئت فلانا الخمار، وكان بمكة يبيع الخمر، لعلي أجد عنده خمراً، فأشرب منها، فخرجت، فجئته فلم أجده قال، فلو أني جئت الكعبة فطفت بها سبعاً. قال: فجئت المسجد أريد أن أطوف بالكعبة، فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي، وكان إذا صلى استقبل الشام، وجعل الكعبة بينه وبين الشام، وكان مصلاه بين الركنين: الركن الأسود والركن اليماني. قال: فقلت حين رأيته، والله لو أني استمعت لمحمد الليلة حتى أسمع ما يقول! فقلت: لئن دنوت منه أستمع لأروعنه، فجئت من قبل الحجر فدخلت تحت ثيابها، فجعلت أمشي رويدا، ورسول الله ﷺ قائم يصلي يقرأ القرآن، حتى قمت في قبلته مستقبله، ما بيني وبينه إلا ثياب الكعبة. قال: فلما سمعت القرآن رق له قلبي، فبكيت ودخلني الإسلام، فلم أزل قائماً في مكاني ذلك، حتى قضى رسول الله ﷺ صلاته ثم انصرف، و..... قال عمر رضي الله عنه: فتبعته، حتى إذا دخل دار عباس، ودار ابن أزهر، أدركته، فلما سمع رسول الله ﷺ حسي عرفني، فظن رسول الله - ﷺ - أني إنما تبعته لأوذيه فنهمني[1]، ثم قال: ما جاء بك يا ابن الخطاب هذه الساعة؟ قال: قلت: جئت لأؤمن بالله وبرسوله، وبما جاء من عند الله، قال: فحمد الله رسول الله ﷺ، ثم قال: قد هداك الله يا عمر، ثم

---

(١) النهم: صوت وتوعد وزجر، يقال: نهم إبله: زجرها.

مسح صدري، ودعا لي بالثبات، ثم انصرفت عن رسول الله ﷺ، ودخل رسول الله ﷺ بيته.

رجوع المهاجرين من الحبشة : لم ترق الحياة للمهاجرين في الحبشة، إذ ابتعدوا عن رسول الله ﷺ وقد اعتادوا الحياة بقربه يتلقون منه، وهو الذي ارتبطت حياتهم به، وابتعدوا عن بلدهم الذي نشأوا فيه، وعن بعض إخوانهم الذين آمنوا معهم، ووجدوا أنفسهم في محيط غريب عنهم في اللغة وفي العادات والتقاليد، وعددهم قليل وسط مجتمع واسع لا يستطيعون التأثير فيه، فهم ينتظرون أقل إشارة لعودتهم، وبعد ثلاثة أشهر من إقامتهم في الحبشة وصل إليهم خبر مفاده أن بعض زعماء قريش دخل في الإسلام، ولم يكن بالواقع سوى عمر بن الخطاب رضي الله عنه. فقرر بعضهم العودة، فرجع منهم ثلاثة وثلاثون مسلماً في شهر شوال من السنة السادسة، وكانوا قد غادروا مكة في شهر رجب من العام نفسه. وما إن وصلوا إلى مكة حتى خابت آمالهم، ولم يستطع بعضهم دخولها إلا بعد أن دخل في جوار وجهاء قريش فدخل أبو سلمة في جوار خاله أبي طالب ودخل عثمان بن مظعون في جوار الوليد بن المغيرة. ورأى هؤلاء المهاجرون أن قريشاً لا تزال تؤذي المسلمين فيها، بل قد ازدادت عتواً وسفاهة وحقداً وحسداً.

الصحيفة الجائرة : لما رأت قريش أن بني عبد مناف لا يمكن أن يخذلوا محمداً، وأن عمه أبا طالب ما زال ينصره، وأن قومه قد رفضوا تسليمه مقابل دية مضاعفة، وأن عمه قد أبى أن يأخذ سيداً من شبابهم بدل ابن أخيه الذي سيسلمه إليهم ليقتلوه.. إذ كان وجهاء قريش قد مشوا إلى أبي طالب بعمارة بن الوليد بن المغيرة (أخي خالد بن الوليد)، فقالوا له: يا أبا طالب، هذا عمارة بن الوليد، أنهد فتى في قريش وأجمله، فخذه فلك عقله ونصره، واتخذه ولداً فهو لك، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا، الذي قد خالف دينك ودين آبائك، وفرّق جماعة قومك، وسفّه أحلامهم، فنقتله، فإنما هو رجل برجل، فقال أبو طالب: والله لبئس ما تسومونني! أتعطونني ابنكم أغذوه

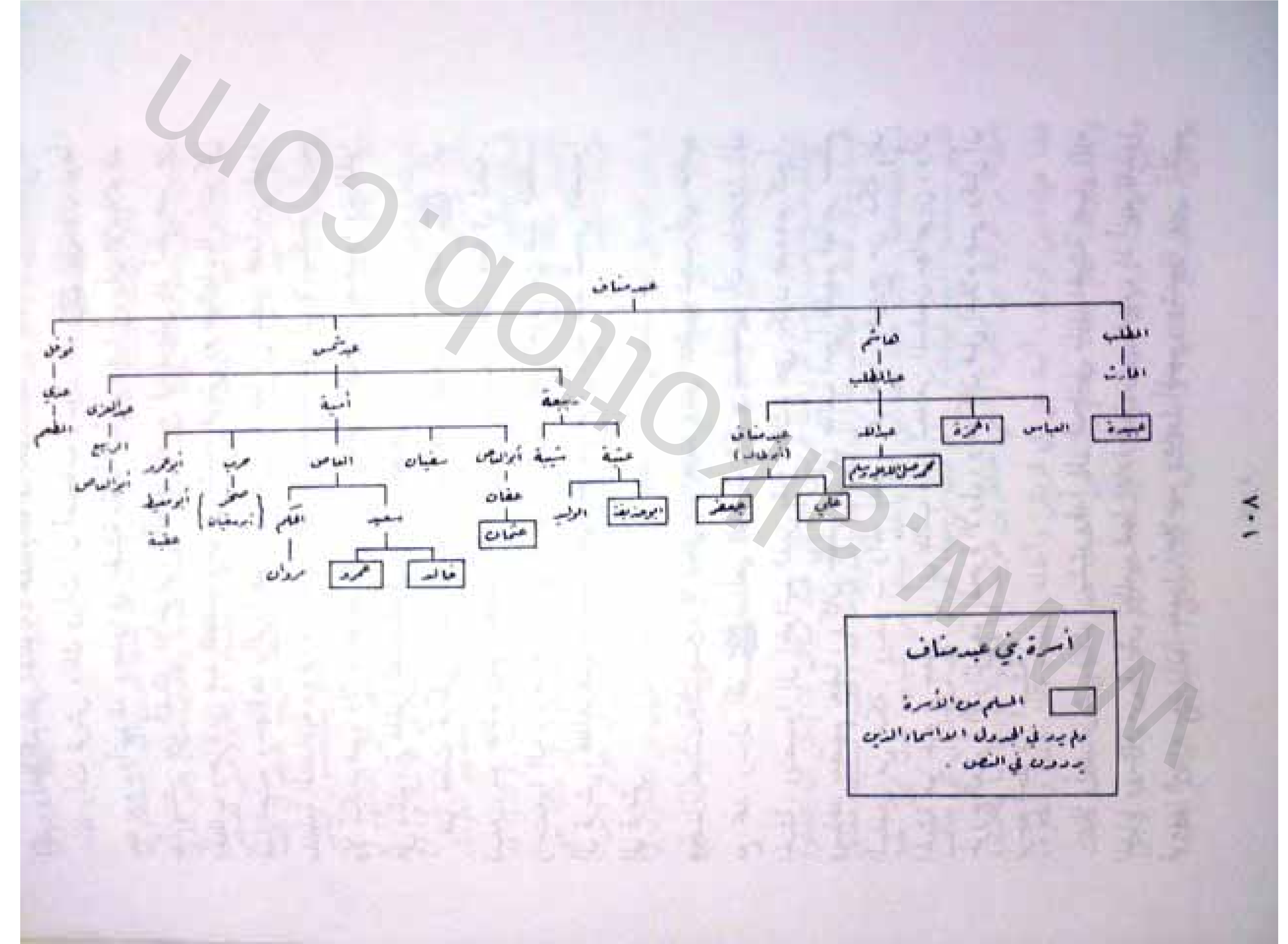
لكم، وأعطيكم ابني تقتلونه! هذا والله لا يكون أبداً.

لما رأت قريش ذلك ورأت أن أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون يوماً بعد يوم، وأنهم قد وجدوا في الحبشة مكاناً آمناً لهم وقراراً، وأن الإسلام قد بدأ ينتشر بين القبائل الأخرى، وأنه قد امتنع في قريش إذ أسلم عمر بن الخطاب وحمزة بن عبد المطلب وهما من أشداء قريش ووجهائها، لما رأت كل هذا اجتمع وجهاؤها وأتمروا فيما بينهم على مقاطعة من ينصر محمداً من قومه مقاطعة اقتصادية، وقرروا كتابة ذلك في صحيفة على أن لا ينكحوا إليهم ولا يُنكحوهم، ولا يبيعوهم شيئاً، ولا يبتاعوا منهم، ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة.

فلما فعلت قريش ذلك انقسمت بنو عبد مناف قوم محمد ﷺ إلى قسمين: بنو هاشم وبنو المطلب انحازوا إلى أبي طالب ودخلوا معه في شعبه، واجتمعوا إليه، وخرج من بني هاشم أبو لهب. عبد العزى بن عبد المطلب إلى قريش، فظاهرهم، والقسم الثاني وهو بنو نوفل وبنو عبد شمس انضموا إلى قريش.

هجرة الحبشة الثانية: لما دخل بنو هاشم وبنو المطلب شعب أبي طالب مع محمد رسول الله ﷺ، أمر الرسول الكريم المسلمين بأن يهاجروا إلى الحبشة، وينضموا إلى إخوانهم الذين بقوا هناك، حتى يكون عددهم كبيراً، ويساعد بعضهم بعضاً، وكان جعفر بن أبي طالب أميراً عليهم فهاجر معظم المسلمين من مكة. ويبدو - والله أعلم - أن هذا الخروج من مكة إلى الحبشة هو خروج جعفر بن أبي طالب ومن تبعه من المسلمين مهاجرين، وأن خروج العشرة الأوائل هو الهجرة الأولى، وأنه كان قبل إسلام عمر وقبل أن يرجع أحد من الحبشة.

ولما رأت قريش ذلك أرسلت وفداً إلى النجاشي ملك الحبشة يحمل إليه الهدايا ورسالة من قريش تطلب فيها إعادة المهاجرين إليهم، إذ أنهم نابذوا قومهم العداء بعد أن سفهوا أحلامهم وعابوا آلهتهم، وشتموا دين آبائهم


أسرة بني عبد مناف
المسلم من الأسرة
لم يرد في الجدول إلا الأسماء الذين يرد ذكرهم في النص .
عبد مناف
المطلب
الحارث
عبيدة
هاشم
عبد المطلب
العباس
الحمزة
عبد الله
محمد صلى الله عليه وسلم
عبد مناف (أبو طالب)
علي
جعفر
عبد شمس
ربيعة
عتبة
شيبة
أبو حذيفة
الوليد
أمية
أبو العاص
عفان
عثمان
سفيان
العاص
سعيد
خالد
عمرو
الحكم
مروان
حرب
صخر (أبو سفيان)
أبو عمرو
أبو معيط
عقبة
عبد العزى
الربيع
أبو العاص
نوفل
عدي
المطعم

وتألف هذا الوفد من عمرو بن العاص السهمي وعبد الله بن أبي ربيعة المخزومي وعمارة بن الوليد المخزومي.

وصل الوفد القرشي إلى النجاشي وسلم البطارقة هداياهم، ثم ذهب إلى النجاشي... وكلمه أمام البطارقة، فاقترحت البطارقة تسليم المسلمين إلى الوفد لإعادتهم إلى قومهم لكن النجاشي رفض ذلك وقال: لا والله، لا أسلمهم إليهم، ولا يقاد قوم جاوروني، ونزلوا بلادي، واختاروني على من سواي، حتى أدعوهم، فأسألهم عما يقول هؤلاء في أمرهم، فإن كانوا كما يقولون أسلمتهم إليهم، ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا غير ذلك منعتهم منهم، وأحسنت جوارهم ما جاوروني.

أرسل النجاشي إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول والله ما علمنا، وما أمرنا به نبينا ﷺ كائناً في ذلك ما هو كائن. فلما جاءوا، وقد دعا النجاشي أساقفته. سألهم فقال لهم: ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا في ديني، ولا في دين أحد من هذه الملل؟ فكلمه جعفر بن أبي طالب، فقال: أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه، وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه، من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور، وأكل اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام و..... فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئاً، وحرمنا ما حرّم علينا، وأحللنا ما أحل لنا فعدا علينا قومنا، فعذبونا، وفتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله

تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا ألا نُظلم عندك أيها الملك... فقال النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ فقال له جعفر: نعم، فقال له النجاشي: فاقرأه علي، فقرأ عليه صدراً من سورة مريم. فلما سمع النجاشي ذلك بكى وبكت معه أساقفته، ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة. انطلقوا، فلا والله لا أسلمهم إليكم.

وعاد عمرو بن العاص في اليوم التالي فقال النجاشي: أيها الملك إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً، فأرسل إليهم فاسألهم عما يقولون فيه. ولما وصل الخبر إلى صحابة رسول الله ﷺ اجتمعوا ثم قال بعضهم لبعض: ماذا تقولون في عيسى بن مريم إذا سألكم عنه؟ قالوا: نقول والله ما قال الله، وما جاءنا به نبينا، كائناً في ذلك ما هو كائن. فلما دخلوا عليه، قال لهم: ماذا تقولون في عيسى بن مريم؟ فقال جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاءنا به نبينا ﷺ، هو عبد الله، ورسوله وروحه، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول. فضرب النجاشي بيده إلى الأرض، فأخذ منها عوداً، ثم قال: والله ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود، إلا أن البطارقة قد نخروا[1] من حوله حين قال ما قال، فقال: وإن نخرتم والله، اذهبوا فأنتم آمنون بأرضي، من سبكم غرم، من سبكم غرم، من سبكم غرم، ما أحب أن لي جبلاً من ذهب وأني آذيت رجلاً منكم، ووقع الخلاف بين النجاشي والبطارقة، ثم طلب من البطارقة وأتباعه أن يردوا للوفد هداياه، فقال: لا حاجة لي بها، فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد علي ملكي فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس فيَّ، فأطيعهم فيه. وخرج الوفد من عند النجاشي مقبوحاً وقد ردت إليه الهدايا وما جاء به، وأقام المسلمون عند النجاشي بخير دار مع خير جار.

---

(١) النخر: مد الصوت في الخياشيم.

نقض الصحيفة الجائرة: مكث بنو هاشم وبنو المطلب في شعب أبي طالب مدة ثلاث سنوات، وقد ضاقوا ذرعاً بتلك المعيشة، إلا أن أفراداً من قريش شعروا بجور هذه الصحيفة، وجور قريش على بطنٍ من بطونها، فتدارسوا الأمر، وبدأ بذلك هشام بن عمرو بن ربيعة العامري، فكلم زهير بن أبي أمية المخزومي ثم المطعم بن عدي من بني عبد مناف ثم أبا البختري العاص بن هشام الأسدي ثم زمعة بن الأسود الأسدي، ثم اجتمعوا فتعاقدوا على تمزيق الصحيفة، وغدوا على أندية قريش، فتكلم زهير فقال: يا أهل مكة، أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى، لا يباع ولا يبتاع منهم، والله لا أقعد حتى تمزق هذه الصحيفة الظالمة، فأيده أصحابه، وقالوا: نتبرأ مما جاء فيها، وأنكر أبو جهل وقال: هذا أمر قضي بليل، وتشاورتم فيه بغير هذا المكان، وقام المطعم بن عدي إلى الصحيفة ليشقها، فوجد الأرضة قد أكلتها إلا باسمك اللهم.

وكان رسول الله ﷺ قد قال لأبي طالب: يا عم، إن ربي الله قد سلط الأرضة على صحيفة قريش، فلم تدع فيها اسماً هو لله إلا أثبتته فيها، ونفت منه الظلم والقطيعةوالبهتان، فقال: أربك أخبرك بهذا؟ فقال: نعم: قال: فوالله ما يدخل عليك أحد.

وعندما قام المطعم بن عدي ليمزق الصحيفة كان أبو طالب جالساً في ناحية من المسجد، فقام فقال: يا معشر قريش إن ابن أخي أخبرني بكذا وكذا فهلم إلى صحيفتكم، فإن كان ما يقول ابن أخي، فانتهوا عن قطيعتنا، وانزلوا عما فيها، وإن يكن كاذباً دفعت إليكم ابن أخي، فقال القوم: رضينا، فتعاقدوا على ذلك، ثم نظروا، فإذا هي كما قال رسول الله ﷺ، فزادهم ذلك شراً[1].

ومزقت الصحيفة وبطل ما فيها، وعاد بنو هاشم وبنو المطلب إلى مكة،

---

(١) انظر الخبر بإسناده في «عيون الأثر» ١٢٦/١.

وبقي الأذى للمسلمين من قريش التي كانت ترى زيادة عددهم، فتزداد ضغناً ولؤماً، ولننظر إلى هذا المجتمع الإسلامي الصغير في مكة ونظرته إلى الجاهليين الذين حوله، والذين يؤلفون معظم المجتمع، ثم لننظر إلى عوامل الارتباط بين أفراده بعضهم مع بعض.

المجتمع الجاهلي

جاء الإسلام وقام رسول الله ﷺ يدعو إلى ترك العادات الاجتماعية ونبذها والتمسك بمكارم الاخلاق وكريم الخصال التي تنبع من دعوة الإسلام، وقد بيّنها لهم بشكل دقيق، وأوضح لهم الطريق السوي. وآمن المسلمون الأوائل، واتبعوا النبي الأمي، وأسلمت ألسنتهم وقلوبهم وجميع جوارحهم، ولكنهم في الوقت ذاته كانوا يعيشون ضمن ذلك المجتمع الجاهلي الذي يضغط عليهم، ويضطرون للتعامل معه، فتكاد نفوسهم ترنو إلى بعض مطالبها وأهوائها في بعض الأوقات من الضعف البشري، الذي ينتاب النفوس أحياناً. فتحلو لها الزعامة أو كثرة المال، وخاصة عندما يرون أصحابها يتحكمون في المجتمع ويسيطرون على الناس بما لهم من مال أو بما عندهم من جاه وسيادة، ويتدخل الشيطان ليزين إلى تلك النفوس المؤمنة أثر هذا المال وعظمة السيادة، وأن هذا لو كان للمسلمين لتمكنوا من تبليغ دعوتهم، ولأسلمت لهم النفوس، وخضعت لهم الرجال، ودانت لهم القبائل، ودالت دولة الشرك، وزالت آثار الوثنية، ويوحي بعضهم إلى بعض أنه يمكنهم السير في هذا الطريق ليتم على أيديهم تحقيق هذا كله، وليسيروا وراء هذه المطالب، وتكون هدفاً لهم ومطلباً، وينعطف بهم المسعى، ويتغير الخط، ولكن الله سبحانه وتعالى لم يكن ليترك عباده المؤمنين يخضعون لضغط تلك الآثار النفسية وتزيين الشيطان لهم، وفتنته لهم، وصدهم عن سبيل الحق والطريق المستقيم، ووسوسته الدائمة لهم، وقيادتهم إلى الهاوية، وحملهم إلى الضلالة، فكان القرآن الكريم يتنزل على محمد ﷺ ليقرأه على المسلمين، ويبين

لهم أن هذه المظاهر لا تزن شيئاً في ميزان الله، وأن هذه الفترات من الضعف البشري التي تنتاب النفوس إن هي إلا من وسوسة الشيطان الدائمة في الوقت الذي تنقطع فيه الصلة بين العبد وربه. ويسمو القرآن الكريم بنفوس المؤمنين لترتفع فوق مستوى ذلك المجتمع الجاهلي بالارتباط الدائم بالله، ويحذرها من همزات الشياطين، ويطلب منها اليقظة الدائمة والتنبه المستمر، ويوضح لها كيف يوسوس الشيطان؟ وما هي طرقه ومجالاته؟.

وقد حافظ الإسلام على أبنائه الذين عاشوا في مكة بين الجاهليين محافظة قوية، واستطاع أن يحميهم من ذلك المجتمع، ومن كيد الشياطين وذلك بـ :

١ ـ تذكير المسلمين بشكل مستمر بخط الإسلام ومقاييسه وموازينه.
٢ ـ تنبيه المسلمين إلى الأبواب والمداخل التي ينفذ منها الشيطان.
٣ ـ استمرار اللقاء بين المسلمين والسماع إلى النصائح والتوصيات.
٤ ـ الوعد بالجنة والتخويف من النار والعذاب.

وليس المجتمع الذي نعيش فيه اليوم أفضل من ذلك المجتمع الجاهلي إن لم نقل إنه أكثر منه تردياً، وإن ضعفه لأقوى وطريقته لأشد وأنكى، وعلى المسلمين الآن أن يتذكروا تلك النقاط على الدوام.

نظرة المسلمين للجاهلية : رأينا نظرة قريش للمسلمين، وهي نظرة كلها عداء وخصومه وكراهية، ويرون من خلالها ضرورة القضاء على المسلمين والتخلص منهم، وبينما كانت هذه نظرة قريش، كان المسلمون يريدون لهم الخير، ويطلبون لهم الهداية، وينظرون إليهم نظرة ملؤها العطف والشفقة من العذاب، الذي ينتظرهم يوم الحساب، والجهل الذي كان يرين على قلوبهم فيحجبها عن الهدى، ويمنعها من الإيمان، بحجب من المادة والشهوة والجاه الكاذب، ويربطها إلى الارض بروابط زائلة، ويقيدها بقيود فانية، يدعونهم إلى الهدى فلا يستجيبون، ويرشدونهم فلا يعقلون، وعلى الرغم من هذا فلا يدخل اليأس نفوس المسلمين ولا أفئدتهم، ويأملون أن يأتي يوم يستجيب فيه

الجاهليون لداعي الله، وعلى الرغم مما يلاقيه المسلمون من إهانة واضطهاد على أيدي الجاهليين، فهم يرجون هدايتهم. وأبلغ ما في ذلك دعاء رسول الله ﷺ: «اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون».

وبينما يرى الجاهليون الدنيا جامدة مقفرة لا حياة فيها إلا بما يحصلون عليه من متاع وشهوات، وبما يحققونه من مصالح وزعامات، يرى المسلمون إن الدنيا كلها حياة تعج بالمعاني والشعور بالراحة عندما يؤدي الانسان واجبه، ويرضي ربه، وإن كان ما في الدنيا يخضع لله، ويسير حسب مشيئته، وعلى طبيعة فطرته التي فطره الله عليها. قال الله تعالى:

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾[1]. ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[2] فالوجود كله ساجد لربه، مسلم لأمره. والحياة كلها مستسلمة لله، فلماذا يكفر هؤلاء الجاهليون؟ ومن هنا يأتي مصدر الإحساس بالإشفاق عليهم والعطف نحوهم على الرغم من شدة بأسهم عليهم.

هذه النظرة الاسلامية للناس لا تختلف بين غنيهم وفقيرهم، فالناس كلهم سواء، فليس هناك من فروق في الطبقات أو الأجناس أو العروق أو الألوان أو الغنى، أو الأنوثة والذكورة قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[3].

---

(١) آل عمران: ٨٣.

(٢) فصلت: ١١.

(٣) الحجرات: ١٣.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع: «يا أيها الناس كلكم لآدم وآدم من تراب إن أكرمكم عند الله أتقاكم، لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأعجمي على عربي إلا بالتقوى»[1] وليست نظرة المسلمين لأهل الكتاب إلا من هذا القبيل، فالأصل أن يكون أهل الكتاب أسبق الناس للإسلام لما لديهم من كتب تدعو الى الإيمان بالله وتبشر برسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن أبعدهم عن الإيمان أحبارهم ورهبانهم الذين زينوا لهم السوء وصدوهم عن السبيل حسداً واستكباراً وغيروا كلام الله وبدلوه وحرفوه بعدما عرفوه.

وإذا كان المسلمون قد حاربوا هؤلاء الجاهليين فليسوا لأنهم أعداء، ولكن لأنهم هم الذين ناصبوهم العداء، وأصلوهم وابلاً من الاتهامات، وعرضوهم لأنواع الأذى، وحارب المسلمون الشر الذي في نفوسهم، والجهل المسيطر عليهم، فالمسلمون ليسوا خصوماً لأحد، فهم دعاة دين سماوي، لا يعد ملكاً لأحد، فيتعصب له، وإنما كل همهم أن يؤمن الناس بمثل ما آمنوا به، وأن يؤدوا هذه الأمانة، والناس هم الحقل الذي يعمل فيه المسلمون وليس من الخير أن ينسفوا ذلك الحقل، أو يزرعوا فيه شوكاً، وحروب الثأر غير معروفة في الاسلام، فمهما اعتدى إنسان على المسلمين، ونالوا منه الأذى، ثم اعتنق الاسلام أصبح أخاً لهم في الله، فالإسلام يجب ما قبله، ولننظر إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقد كان من أشد أعداء الإسلام فإذا به يصبح بين لحظة وأخرى من أولهم قربى، وعرف أبو جهل عمرو بن هشام بعدائه الشديد للإسلام ولرسول الله، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلب من الله أن يهديه، وأن يؤيد الاسلام به، لما عرف من قوته،

---

(١) رواه أحمد ٥/٤٠٠، وإسناده صحيح، فإن علية سمع من الجريري قبل اختلاطه.

فكان عليه الصلاة والسلام يقول: « اللهم أعزّ الاسلام بأحد العمرين »[1]، ويقصد بها عمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام، وكذا ابنه عكرمة الذي أهدر رسول الله صلى الله عليه وسلم دمه، ثم جاء معتذراً، فعفا عنه، وأصبح من الأبطال المجاهدين في سبيل الله. وما دخل المسلمون معركة إلا طلبوا من أعدائهم ـ مهما تمادوا في بغيهم وعدائهم قبل بدء القتال ـ إحدى ثلاث: إما الاسلام وعندها يصبحون إخوة لهم، وإما الجزية وعندها يدخلون في ذمة الله ورسوله، وإما السيف حتى يحكم الله بينهم والله خير الحاكمين.

ومع مرور الأيام، وتبدل الأحوال لم تتغير نظرة الجاهليين إلى المسلمين في الكراهية والعمل على استئصال شأفتهم. وفي الوقت نفسه لم تتغير نظرة المسلمين أيضاً إلى الجاهليين في حب الخير لهم وطلب الهداية والإيمان لهم، وذلك بدعوتهم المستمرة، وإبانة الطريق، وتأسيس منظمات للتبليغ والإرشاد. ومع هذه النظرة فقد لا يمر عام دون حدوث مذابح للمسلمين على أيدي الجاهليين بتلفيق مختلف التهم والدسائس.

المجتمع الإسلامي

لننظر إلى ارتباط المسلمين بعضهم مع بعض، وإلى شعورهم تجاه أفرادهم، وهل يمكن أن يؤسسوا دولة تقوم على هذا المجتمع؟.

١ ـ **الأخوة**: يشعر المسلم منذ أن يعتنق الاسلام، ويدخل الايمان إلى قلبه أن المسلمين جميعاً إخوة له ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[2] يرتبط بهم أشد الارتباط، ولا رابطة تجمعه إلى هؤلاء المؤمنين إلا الإسلام أينما كانت ديارهم، ومهما كانت قومياتهم ولغاتهم، وأنه بدخوله في الاسلام قد اكتسب جنسية جديدة، وانتسب إليها، وانه قد خلع عند عتبتها كل ما كان يحمله

---

(١) ورواه الترمذي بمعناه (٣٦٨٢) من حديث ابن عمر وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب، وهو كما قال.

(٢) الحجرات: ١٠.

من صفات جاهلية أو رواسب قديمة، وأن جميع أتباعها يبادلونه هذا الشعور، ويحبون له ما يحبون لأنفسهم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[1]، وأن هذه الرابطة أقوى من رابطة الدم والنسب، وأكثر تماسكاً من رابطة الجنس والحسب، وأكثر انسجاماً من رابطة اللغة والمصالح الاقتصادية والعلاقات المتبادلة، وأن المسلمين هم إخوته الحقيقيون لا أشقاؤه من غيرهم ويختلفون عنه في العقيدة.

٢ ـ **الشعور**: يشعر المسلمون جميعاً أنهم يشكلون مجتمعاً خاصاً بهم، ولو كانوا متفرقين بسبب الأوضاع السياسية والاجتماعية السائدة أو مبعثرين في مناطق واسعة لقلتهم، أو يخضعون للضغط بسبب الأحكام الجائرة المستبدة بهم، أو موزعين بسبب الفكرة الطبقية الهدامة المتبناة. ويشعر كل فرد منهم أنه يؤدي واجبا معينا تجاه مجتمعه الاسلامي، وبهذه الواجبات يتكامل البناء الاجتماعي ويسير نحو الأفضل ويقترب تدريجياً من الكمال، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر البدن بالسهر والحمى»[2].

وأول خصائص هذا المجتمع أنه متحد في العقيدة، متفق في الفكرة، منسجم بالشعور، وأنه متكامل يؤدي كل عضو فيه دوره المكلف به لأداء وظيفته، كما أن القيادة فيه ـ وتشبه القلب الذي لا يميز عضواً عن عضو، فكلهم إخوة متساوون في حاجتهم إلى الدم ـ هي الفكر المحرك الذي يعطي التوجيه إلى جميع الأعضاء، وهي الصدر الذي يتسع لكل المجتمع ومشكلاته ومتطلباته، وتنقي له الفكر من الشوائب خشية أن يزيغ، كما تنقي الرئة الدم للجسم. ويشعر المسلم أنه غريب في المجتمع إن لم يكن مسلما، إذ لا ينتمي

---

(١) رواه البخاري ١/٥٣ في الايمان. ومسلم (٤٥) من حديث أنس.

(٢) مسلم (٢٥٨٦) في البر والصلة: باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم.

إليه، وإنما ينتمي إلى مجتمع آخر، وهو المجتمع الاسلامي، ولو كان بعيداً عنه.

فترى المسلم الذي يعيش خارج العالم الاسلامي، يشعر دائماً بارتباطه بمكة مصدر الإشعاع الرباني أكثر مما يرتبط بمجتمعه الذي يعيش بين جوانحه، لأنه مجتمع غير إسلامي.

٣ - **التعاون**: وليس التعاون فقط في أداء الوظائف وتكامل البناء، وإنما في المادة أيضاً وتكافل الحياة. وليس أدل على هذا التكافل المادي من إنفاق خديجة رضي الله عنها لمالها الكثير في سبيل الدعوة، وشراء أبي بكر رضي الله عنه العبيد الذين أسلموا وعتقهم لتخليصهم من الرق والعبودية، وقد لامه أبوه عثمان أبو قحافة، ولم يدر بعد طبيعة هذا الدين فقال له: يا بني، إني أراك تعتق رقاباً ضعافاً، فلو أنك إذ فعلت ما فعلت أعتقت رجالا جلداً، يمنعونك، ويقومون دونك؟. فقال أبو بكر رضي الله عنه يا أبت إني إنما أريد ماأريد لله عز وجل. كما أن المسلمين من أصحاب الاموال قد وضعوا أموالهم بين يدي الرسول عند المحنة. وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقدمون الأموال بين المدة والمدة للدعوة ولكل ما تحتاج إليه، وعندما سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر رضي الله عنه وقد أتى بمال كثير: ماذا أبقيت لعيالك؟ أجاب: أبقيت لهم الله ورسوله، أي كان قد قدم ماله كله. ويعتقد المسلم أن الرزق بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.

ولم يقتصر الأمر على التعاون المادي، وإنما زاد على ذلك، فقد يزهد بعض الرجال بالمادة، ولكنه وصل الى الأذى البدني الذي لا يقبله حر، ولا يقوى عليه إنسان. فقد صعب على بعض المسلمين أن يروا إخوانهم من الضعفاء يعذبون، ولم ينلهم هم الأذى لقوة عشيرتهم ومركزهم أو لحمايتهم من قبل بعض الزعماء، وقد كان الجوار هو السائد والمعروف، فمن دخل في

جوار أحد حماه، وإن أصيب بأذى، وقعت الإهانة على صاحب الجوار، وشعر أن الأذى قد لحق به. فقد روى ابن هشام أن المسلمين الذين عادوا من الحبشة بعد هجرتهم إليها لم يستطع بعضهم الرجوع إلى مكة حتى دخل في جوار بعض قادة قريش، فأبو سلمة قد دخل في جوار خاله أبي طالب، ودخل عثمان بن مظعون في جوار الوليد بن المغيرة، ولما رأى عثمان بن مظعون ما في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من البلاء، وهو يغدو ويروح في أمان من الوليد بن المغيرة، قال: والله إن غدوي ورواحي آمناً بجوار رجل من أهل الشرك، وأصحابي وأهل ديني يلقون من الأذى والبلاء في الله ما لا يصيبني، لنقص كبير في نفسي. فمشى إلى الوليد بن المغيرة، فقال: يا أبا عبد شمس، وفت ذمتك، قد رددت إليك جوارك، فقال له: لمَ يا ابن أخي؟ لعله آذاك أحد من قومي؟ قال له: لا، ولكني أرضى بجوار الله، ولا أريد أن أستجير بغيره. قال: فانطلق إلى المسجد، فاردد عليّ جواري علانية كما أجرتك علانية. فانطلقا، فخرجا حتى أتيا المسجد، فقال الوليد: هذا عثمان قد رد عليّ جواري، قال: صدق، قد وجدته وفياً كريم الجوار، ولكني قد أحببت أن لا أستجير بغير الله، فقد رددت عليه جواره، ثم انصرف عثمان، ولبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب في مجلس من قريش ينشدهم، فجلس معهم عثمان، فقال لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل.

فقال عثمان: صدقت.

وتابع لبيد:

وكل نعيم لا محالة زائل.

فقال عثمان: كذبت، نعيم الجنة لا يزول. قال لبيد بن ربيعة: يا معشر قريش، والله ما كان يؤذى جليسكم، فمتى حدث هذا فيكم؟ فقال رجل من القوم: إن هذا سفيه في سفهاء معه، قد فارقوا ديننا، فلا تجدن في نفسك

من قوله، فرد عليه عثمان حتى شري[1] أمرهما، فقام إليه ذلك الرجل، فلطم عينه فخضرها، والوليد بن المغيرة قريب يرى ما بلغ من عثمان، فقال: أما والله يا ابن أخي، إن كانت عينك عما أصابها لغنية، لقد كنت في ذمة منيعة. قال عثمان: بل والله، إن عيني الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها في الله، وإني لفي جوار من هو أعز منك وأقدر، يا أبا عبد شمس. فقال له الوليد: هلم يا ابن أخي، إن شئت فعد إلى جوارك، فقال: لا.

أما أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقد ضاقت عليه مكة، وأصابه فيها الأذى، ورأى من تظاهر قريش على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ما رأى، فاستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهجرة، فأذن له، فخرج أبو بكر مهاجراً، حتى إذا سار من مكة يوماً أو يومين، لقيه (مالك بن الدغنة)، أخو بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة، وهو يومئذ سيد الأحابيش، فقال ابن الدغنة: أين يا أبا بكر؟ قال: أخرجني قومي وآذوني، وضيقوا عليّ، قال: ولم؟ فوالله إنك لتزين العشيرة، وتعين على النوائب، وتفعل المعروف، وتكسب المعدوم، ارجع فأنت في جواري، فرجع معه، حتى إذا دخل مكة، قام ابن الدغنة فقال: يا معشر قريش، إني أجرت ابن أبي قحافة فلا يعرضن له إلا بخير فكفوا عنه. وكان لأبي بكر مسجد عند باب داره في بني جمح، فكان يصلي فيه، وكان رجلا رقيقا، إذا قرأ القرآن بكى، فيقف عليه الصبيان والعبيد والنساء، يعجبون لما يرون من هيئته. فمشى رجال من قريش الى ابن الدغنة، فقالوا له: يا ابن الدغنة، إنك لم تجر هذا الرجل ليؤذينا! إنه رجل إذا صلى وقرأ ما جاء به محمد يرق ويبكي، وكانت له هيئة ونحو فنحن نتخوف على صبياننا ونسائنا وضعفتنا أن يفتنهم، فأته فمره أن يدخل بيته، فليصنع فيه ما شاء، فمشى ابن الدغنة اليه، فقال له: يا أبا بكر، إني لم أجرك لتؤذي قومك، إنهم كرهوا مكانك الذي أنت فيه وتأذوا بذلك منك، فادخل بيتك، فاصنع فيه ما أحببت، قال: أوَ أرد

(١) شري - كرضي - يقال: شري الشر بينهم، أي: عظم واستطار.

عليك جوارك، وأرضى بجوار الله؟. قال: فاردد علي جواري، قال: قد رددته عليك، فقام ابن الدغنة فقال: يا معشر قريش، إن ابن أبي قحافة قد ردّ علي جواري، فشأنكم بصاحبكم. فلقي أبا بكر سفيه من سفهاء قريش، وهو عامد إلى الكعبة، فحثا على رأسه تراباً، فمر بأبي بكر الوليد بن المغيرة أو العاص بن وائل، فقال أبو بكر: ألا ترى ما يصنع هذا السفيه؟ قال: أنت فعلت ذلك بنفسك. فكان أبو بكر يكرر: أي رب ما أحلمك!!.[1]

٤ ـ الطاعة:

هذا المجتمع كان يشعر أن له رسولاً قائداً، فكانت طاعته واجبة بصفته رسول الله ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾[2]، ويشعر كل فرد أنه أولى منه بنفسه ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾[3]، وكان المثل الأعلى للمؤمنين ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[4].

كما أن طاعته واجبة بصفته رأس المجتمع وقائده وبه تتمثل الدعوة، فلم يكن مسلم يتصرف دون إذنه، وكانت إشارته أمراً، ورغبته فرضاً يجب تحقيقه، وهذا ما يدعو إليه المسلم. وكذلك فالأمير اليوم تجب طاعته بصفته رئيساً يمثل المجتمع الاسلامي، ويقيم حدود الله بينهم، وهو يمثل رسول الله.

٥ ـ التضحية:

وكان المسلمون يضحون بكل شيء في سبيل رسول الله ودعوته نتيجة تقديرهم العميق له، ونتيجة كونه رمزاً لهذه الدعوة وصاحبها، وتتجلى هذه

---

(١) ابن هشام ٣٧٣/١.
(٢) النساء: ٧٩.
(٣) الأحزاب: ٦.
(٤) الأحزاب: ٢١.

التضحية عندما نام علي بن أبي طالب رضي الله عنه في فراش النبي صلى الله عليه وسلم يوم الهجرة، وكان هدفا للقتل، بل وتتجلى في كل معركة خاضها رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث كان الصحابة رضوان الله عليهم يحمونه بأنفسهم، ويتلقون الضربات عنه.

٦ - الموقع:

كان الفرد المسلم يعرف موقعه تماما في المجتمع الذي يعيش فيه، ويعرف التيارات التي تحيط به، ومن خلال هذه المعرفة يتخذ لنفسه موقفاً، ويتعرف على ما يحاك ضده من مؤامرات، وعلى الجهات التي تخطط وتنفذ ذلك، فيراقبها من جهته مراقبة دائمة، يعرف من خلالها تحرك الأعداء، ويبلغ قيادته بشكل دائم ومتصل لتتخذ الموقف المناسب الذي يحبط عمل الخصم، ويحول دون بلوغه الهدف الذي يصبو إليه، وقد كانت أحوال قريش وتحركاتها اليومية تصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن خلال هذه المعلومات يعطي الرسول الكريم أوامره، وقد ينقلها إلى بعض المسلمين الذين يرى ضرورة معرفتهم لها.

٧ - النظرة الصحيحة:

كان الفرد المسلم يقدّر الرجال تقديراً صحيحاً بعيداً عن كل هوى فليس في تقديره أثر للمال أو الجاه أو المركز أو الطبقة، بل هو بمقدار قربه من رسول الله صلى الله عليه وسلم قائده وموجهه، وتطبيقه للاسلام وانقياده له ووعيه، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾.

٨ - الحماية:

هذا المجتمع الاسلامي الصغير الذي نشأ في مكة كان لا بد له من حماية

من المحيط الذي يعيش فيه، والذي يريد القضاء عليه، ولا تتوفر له الحماية إلا إذا وجد له التنظيم الدقيق والسرية التامة، وهذا لا يضمن إلا إذا توفرت الطاعة التي تكلمنا عنها. وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينظم العمل، ويقيم سراً لقاءات تتم في دار الأرقم بن أبي الأرقم التي تحدثنا عنها في البداية، فلم يعلم ما يدور فيها إلا الذين يدخلون الدار، ولم يعلم باللقاء إلا الذين يجتمعون فيه، هذا بالنسبة إلى الذين لا تعلم قريش إسلامهم، أما الذين يجهرون بالدعوة، وتعرفهم قريش فكان لا بد من توفير الحماية لهم أيضاً، وكانت تتم إما:

أ - الدخول بجوار بعض زعماء قريش ممن تربطهم بهم الصداقة أو القرابة وقد تكون أحياناً من باب الشهامة أو حب الشهرة، وذلك في سبيل حمايتهم من الاضطهاد دون أن يمس ذلك شيئاً في عقيدتهم أو سلوكهم الاسلامي أو دفاعهم عن إخوانهم في الدين من المستضعفين.

ب - الهجرة من البلد: والقيادة هي التي تؤمن ذلك لحماية أفرادها من وقوعهم في أيدي الجاهليين، وخوفاً عليهم من الفتنة، فكانت القيادة هي التي تشير إلى بعض المسلمين بالهجرة إلى مكان معين كما حدث في الهجرتين إلى الحبشة ثم إلى يثرب، ولم يكن مسلم ليخرج الى أية جهة يريدها كيفما اتفق، أو يخرج دون أن يستأذن القائد أو المسؤول الذي هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالقيادة هي التي تقدر الأمر، وليس الافراد.

ويتساءل بعضهم: هل يصح الانضواء في صفوف مؤسسة جاهلية لاتخاذ مظلة يتقي بها شر الأعداء؟ ويعمل من خلالها لفكرته، ويستندون في هذا التساؤل إلى دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم في جوار المطعم بن عدي بعد عودته من الطائف، ودخول أبي بكر رضي الله عنه في جوار مالك بن الدغنة، ودخول ابن مظعون في جوار الوليد بن المغيرة، ثم دخول رسول الله

صلى الله عليه وسلم مع بني هاشم وبني المطلب في شعب أبي طالب، والجواب لا يصح ذلك للأسباب التالية:

١ ـ دخول فرد في جوار فرد يختلف عن دخول فرد في حماية مؤسسة، إذ أن علاقة الفرد بالآخر تبقى علاقة فردية ربما تتوطد وتزداد أو تنفصم عندما يجد أحدهما أن هذه العلاقة غير منسجمة مع أفكاره ومبادئه وهذا ما حدث عندما رد أبو بكر رضي الله عنه جوار ابن الدغنة، وعندما رد عثمان بن مظعون جوار الوليد بن المغيرة. أما العلاقة مع مؤسسة فما دام الفرد عضواً فيها فيجب أن يخضع لها، ويسير على نهجها، ويتبع أفكارها ولو أنها تباين أفكاره وخاصة أنه ضعيف.

٢ ـ دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم مع بني هاشم وبني المطلب في شعب أبي طالب كان دخول فرد مع أسرته وحماته. ولكنه لم يسمح للمسلمين من غير هذين الحيين بالدخول معهم، وإنما طلب منهم أن يهاجروا الى الحبشة الهجرة الثانية، وخاصة الضعفاء في قبائلهم أو الذين لا يستطيعون حماية أنفسهم، ومعنى هذا رفض رسول الله صلى الله عليه وسلم دخول فرد مسلم في حماية جماعة على الرغم من وجوده هو فيها.

٣ ـ دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم في شعب أبي طالب لم يكن دخول فرد، وإنما كان هو المحور الذي يدور حوله ذلك المجتمع، والعنصر المحرك فيه، فكان إذا جن الليل، وآوى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى فراشه ورأى الناس ذلك، طلب منه أن ينتقل الى فراش غيره من أبناء عمومته، وينتقل صاحب الفراش الى مكان رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لا يصاب الرسول بأذى إن أراد أحد به مكراً أو اغتيالاً، وإنما يصاب غيره. أما غير رسول الله فاذا انضم الى مؤسسة ضاع بين أفرادها وخاصة اذا كانت المؤسسة ذات سلطة، وكان هو ضعيفاً، وأراد أن يحتمي بها، وهذا سبب دخوله أصلا إليها.

٤ ـ كثيراً ما يتخذ الانسان هذا الدخول لتحقيق بعض مصالحه، فيحاول أن يجد المسوغات له، وبعد المناقشة تتبلور المسوغات في ذهنه حتى تصبح حقيقة عنده يدافع عنها.

تنقية الصف:

ولم يكن هذا المجتمع ليخلو من هزات تصيبه بين مدة وأخرى، فتنقيه من الشوائب التي يمكن أن تتسرب اليه، وتصفيه من ضعاف الايمان عند وجودهم فيه، فإما أن يقوى إيمانهم ويسايروا الركب، ويكونوا أعضاء عاملين فيه، أو يسقطوا على الطريق، وبهذا يصبح المجتمع أكثر تماسكاً وأشد تجانساً، فإن وجود عناصر مرضى يعيق السير ويبطىء من الحركة، وقد تؤدي إلى ضعف النمو، وبالتالي الى التخاذل وتوقف الحيوية. وإن حادثة الإسراء والمعراج كانت إحدى هذه الهزات التي أصابت المجتمع الاسلامي الصغير، فعندما حدّث رسول الله صلى الله عليه وسلم بقصة إسرائه أنكرت قريش عليه، وقال الناس: هذا والله الأمر البيّن، والله إن العير لتطرد شهراً من مكة الى الشام مدبرة، وشهراً مقبلة، أفيذهب محمد في ليلة واحدة، ويرجع الى مكة؟! فارتد بعض من كان أسلم.

صحيح أن الهزات كانت تقلل العدد، فيضمر المجتمع، ولكن متى كان للعدد تلك الاهمية؟ إن الأهمية كل الأهمية في القلوب التي في الصدور، القلوب التي يعمرها الايمان، فتحرّك الرجال، وتدفعهم كي يتجشموا المخاطر، ويتحملوا النوازل، ويتلقوا المصائب، ويستهينوا بقوة العدو أمام قوة الله، هذه القلوب المؤمنة هي التي كانت سبب النصر في كل المعارك التي خاضها المسلمون على الرغم من قلة العدد وقلة العتاد وما انتصر المسلمون في معركة بكثرة العدد، أو ضخامة العتاد، وإنما انتصروا بالايمان والتأييد من الله، وقد هزموا في حنين في البداية عندما أعجبتهم كثرتهم، وداخلهم شيء من الأمر، وظن بعضهم أن النصر بالكثرة، فخابت آمالهم ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ

أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ [١] وأضعف المنافقون الصف يوم أحد، ونشروا الفوضى، وانسحبوا من الجيش، وهذا شأن ضعاف الايمان في كل معركة وفي كل ميدان.

لذا يجب ألا نبالي بهذه الهزات، وألا نعدها ظاهرة مرض تضعف الجماعة الإسلامية، وإنما هي في الحقيقة ظاهرة صحة تقوي التماسك في الصفوف، وتدبّ فيها الحيوية والحركية، إذ لا يسقط من الصف ويتخلى عن الفئة المؤمنة إلا الذي في قلبه مرض، أو في نفسه هوى وقد طال أمد تحقيقه ورأى الطريق شاقاً، فاستهوته شياطين الأنس، فانحرف بغية تحقيق بعض مصالحه...

وفاة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها:

بعد أن خرج بنو هاشم وبنو المطلب من شعب أبي طالب بقليل توفيت زوج رسول الله ﷺ خديجة بنت خويلد الأسدية رضي الله عنها، وهي أول زوجاته، ولم تكن له زوج غيرها عندما كانت على قيد الحياة، وهي التي أنجبت له أولاده الذكور جميعهم عدا إبراهيم إذ ولدته مارية القبطية، وبناته كلهن: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة، وحزن رسول الله على خديجة حزناً كبيراً فهي أول من صدقه، ومن بذل ماله له وللدعوة، وأنجبت له الأولاد وكانت العطوف عليه وقت الشدة.

أما الذكور فقد توفوا صغاراً وهم: القاسم، وعبدالله الملقب بالطيب، والطاهر، وكذلك إبراهيم، وأما البنات فقد تزوج زينب في الجاهلية ابن خالتها أبو العاص بن الربيع، وأنجبت أمامة التي تزوجها علي بن أبي طالب

---

(١) التوبة: ٢٦.

بعد وفاة زوجه فاطمة ابنة رسول الله ﷺ وهي خالتها.

وتزوج عثمان بن عفان رقية وهاجر بها إلى الحبشة، ولما توفيت في المدينة بعد غزوة بدر تزوج أختها أم كلثوم، ولم تنجب الأختان. وتزوج علي بن أبي طالب فاطمة في المدينة بعد غزوة بدر، وأنجبت الحسن والحسين وزينب.

وهنا نجد أيضاً القدوة برسول الله ﷺ الذي لم يعش له من الذكور أحد، بل ماتوا صغاراً في حياته، وعاشت البنات، منهن من أنجبت ومنهن من لم تنجب، وماتوا كلهن في حياته إلا فاطمة فقد عاشت بعده ستة شهور فقط.

زواج رسول الله ﷺ سودة:

بعد أن توفي السكران بن عمرو إثر عودته من الحبشة إذ هاجر مع زوجه سودة مع المجموعة الثانية، بقيت سودة بلا معيل، فهي من بني عامر من أشراف قريش الذين منهم سهيل بن عمرو وأخو زوجها السكران، وهو من أشد الذين وقفوا في وجه الاسلام. فهي شريفة، وأسلمت وخالفت قبيلتها وأسرتها وهاجرت مع زوجها ولم يجد رسول الله ﷺ بداً من أن يتزوجها، وكانت خديجة قد توفيت منذ شهر تقريباً.

وفاة أبي طالب:

وبعد وفاة خديجة بشهر توفي عمه أبو طالب الذي وقف بجانبه وحماه من قريش، وكان يطمع رسول الله ﷺ في إسلامه إذ كان يصدقه، ولا يكذبه أبداً فيما يقوله، ولكنه لم ينطق بالشهادة، وكان رسول الله يقول له: قلها ولو في أذني، ولكنه رفض وخشي أن تعيره قريش. وقد نالت قريش من رسول الله بعد وفاة عمه ما لم تنله في حياته.

عقد رسول الله ﷺ على عائشة:

عقد رسول الله ﷺ على عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنه بعد وفاة عمه أبي طالب بشهر تقريباً، وكانت صغيرة فلم يبن بها إلا في المدينة أي بعد خمس سنوات من العقد، إذ دخل عليها في أواخر السنة الثانية للهجرة.

الإسراء والمعراج:

وقبل الهجرة أكرمه الله بالإسراء والمعراج، إذ نام يوماً بمكة بعد أن صلى العشاء الآخرة وقبيل الفجر أسري به على البراق إلى بيت المقدس فوجد هناك إبراهيم وموسى وعيسى وعدداً من الأنبياء معهم، فصلى بهم، ثم عرج به إلى السماء حيث رأى من آيات ربه الكبرى ما رأى، وفرضت عليه الصلاة فكانت خمسين صلاة في اليوم ثم سأل ربه التخفيف فوضعها عنهم إلا خمس صلوات في كل يوم وليلة فمن أداهن إيماناً بهن، كان له أجر خمسين صلاة مكتوبة. ثم عاد الى بيت المقدس ومنها الى مكة، ولم يخرج النهار، فصلى الصبح، تقول أم هانىء هند بنت أبي طالب ابنة عمه: ما أسري برسول الله ﷺ إلا وهو في بيتي. نام عندي تلك الليلة في بيتي، فصلى العشاء الآخرة، ثم نام ونمنا، فلما كان قبيل الفجر أهبنا[1] رسول الله ﷺ، فلما صلى الصبح وصلينا معه، قال: يا أم هانىء لقد صليت معكم العشاء الآخرة، كما رأيت بهذا الوادي، ثم جئت بيت المقدس، فصليت فيه، ثم قد صليت الغداة معكم الآن كما ترين، ثم قام ليخرج، فأخذت بطرف ردائه، فتكشفت عن بطنه كأنه قبطية[2] مطوية فقلت له: يا نبي الله لا تحدث بهذا الناس، فيكذبوك ويؤذونك، قال: والله لأحدثنهموه. قالت: فقلت لجارية لي حبشية: ويحك! اتبعي رسول الله ﷺ حتى تسمعي ما يقول للناس، وما يقولون له.

---

(١) أهبنا: أيقظنا.

(٢) القبطية ـ بكسر القاف وضمها ـ ثياب من كتان في مصر، نسبة إلى القبط.

فلما خرج رسول الله ﷺ إلى الناس أخبرهم، فعجبوا وقالوا: ما آية ذلك يا محمد؟ فإنا لم نسمع بمثل هذا قط. قال آية ذلك أني مررت بعير بني فلان بوادي كذا وكذا، فأنفرهم حس الدابة، فندّ لهم بعير، فدللتهم عليه، وأنا موجه إلى الشام. ثم أقبلت حتى كنت بـ (ضَجْنان) مررت بعير بني فلان، فوجدت القوم نياماً، ولهم إناء فيه ماء قد غطوا عليه بشيء، فكشفت غطاءه، وشربت ما فيه، ثم غطيت عليه كما كان. وآية ذلك أن عيرهم الآن يصوب[1] من البيضاء[2]: ثنية التنعيم يقدمها جمل أورق، عليه غرارتان، إحداهما سوداء، والأخرى برقاء. قالت: فابتدر القوم الثنية، فلم يلقهم أول من الجمل كما وصف لهم، وسألوهم عن الإناء، فأخبروهم أنهم وضعوه مملوءاً ماء، ثم غطوه، وأنهم هبّوا فوجدوه مغطى كما غطوه، ولم يجدوا فيه ماء، وسألوا الأخرين وهم بمكة، فقالوا: صدق والله، لقد أنفرنا في الوادي الذي ذكره، وندّ لنا بعير، فسمعنا صوت رجل يدعونا إليه، حتى أخذناه.

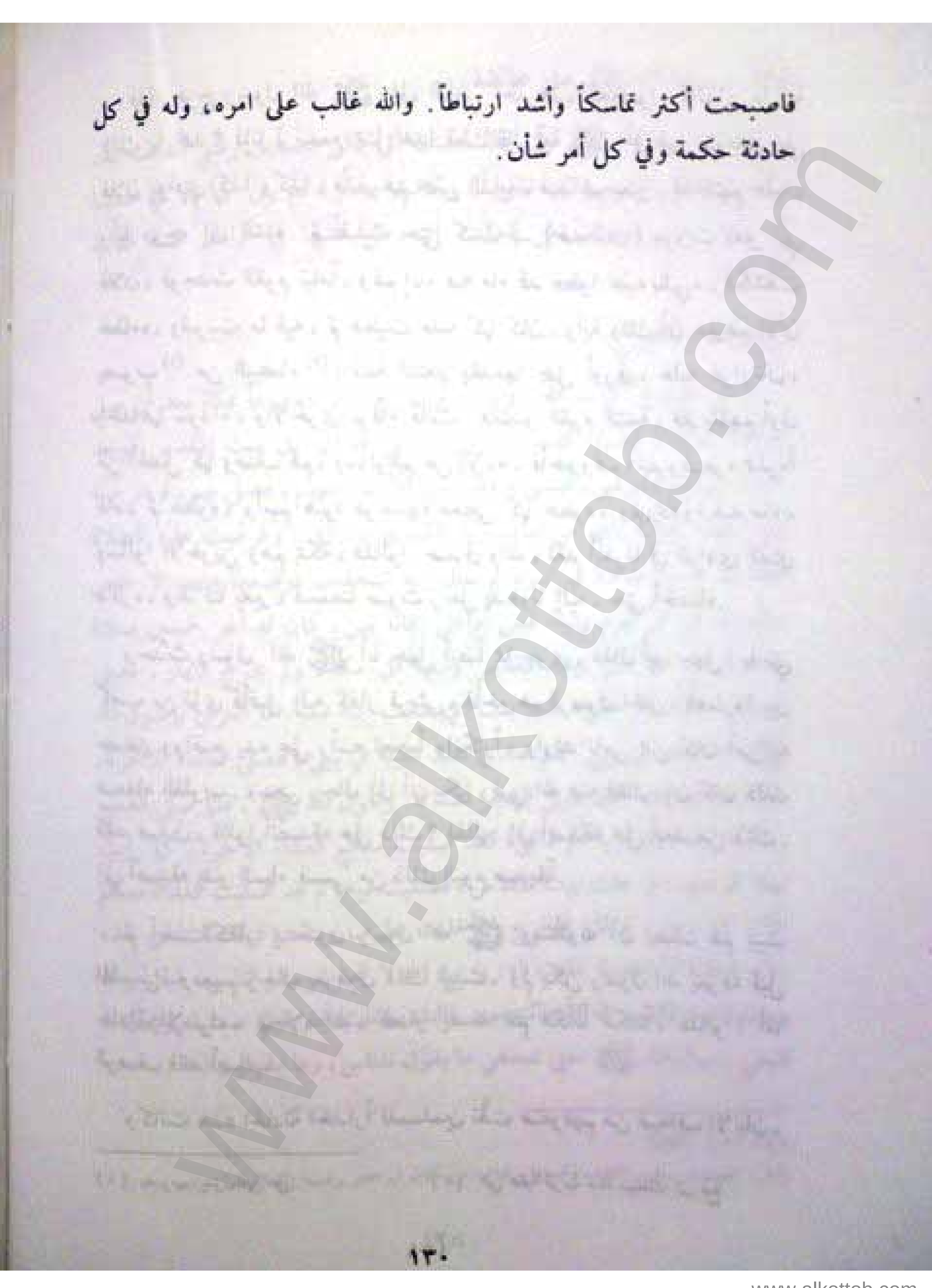
وحدّث رسول الله ﷺ أبا جهل أيضاً بما جرى، فقال أبو جهل: يا بني كعب بن لؤي فأقبل إليه كفار قريش، فأخبرهم الرسول الخبر، فصاروا بين مصفق وواضع يده على رأسه تعجباً وانكاراً، وارتد ناس ممن كان آمن به ضعفاء القلوب. وسعى رجال إلى أبي بكر رضي الله عنه فقال: إن كان ذلك فقد صدق، قالوا أتصدقه على ذلك؟ فقال: إني أصدقه على أبعد من ذلك. إني أصدقه بخبر السماء فسميّ من ذلك اليوم صديقاً.

ثم أخذ الكفار يمتحنون رسول الله ﷺ ويسألونه أن يصف لهم بيت المقدس، ومعهم رجال يعرفون ذلك البيت، ولم يكن رسول الله يعرفه قبل حادثة الإسراء، فجلاه الله، فصار يصفه لهم مكاناً مكاناً، فقالوا: أما الوصف فقد أصاب.

وكانت هذه الحادثة اختباراً للمسلمين نقّت صفوفهم من ضعاف الايمان،

---

(١) يصوب: ينزل من عل. (٢) هي عقبة قرب مكة تهبطك إلى فخ.



فاصبحت أكثر تماسكاً وأشد ارتباطاً. والله غالب على امره، وله في كل حادثة حكمة وفي كل أمر شأن.

الفصل الثالث

البحث عن مكان يتخذ قاعدة للدعوة

رأى رسول الله ﷺ أن القاعدة الصلبة قد تكونت، وأن عدد المسلمين غدا جيداً، وهم يزدادون يوماً بعد يوم، وأن الدعوة قد زادت حمايتها بدخول حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب في عدادها، وأن القبائل الثانية قد بدأ خبر الاسلام يصل إليها، وأخذ يعتنق الدين الجديد أفراد من تلك القبائل، فقد دخل في الاسلام عبد الله بن مسعود من هذيل، ومسعود بن القاري من القارة، وعامر بن ربيعة من اليمن، والطفيل بن عمرو من دوس، وأبو ذر الغفاري، ووفد نصارى نجران ويزيد عددهم على العشرين، وقد وصل إليهم خبره عن طريق المهاجرين إلى الحبشة، فوفدوا على رسول الله ﷺ، فقرأ عليهم القرآن فآمنوا جميعاً، فقال لهم أبو جهل: ما رأينا ركباً أحمق منكم، أرسلكم قومكم تعلمون خبر هذا الرجل فصبأتم! فقالوا. سلام عليكم لا نجاهلكم، لكم ما أنتم عليه ولنا ما اخترناه، وأبو موسى الاشعري من اليمن، وهاجر قومه فيما بعد إلى الحبشة، إذ ألقى بسفنهم الموج وهم في طريقهم إلى المدينة، في الوقت الذي كان فيه جعفر ومن معه في سفينتين يريدون المدينة أيضاً وكانوا قد بقوا فيها ما يقرب من عشر سنين.

لما رأى رسول الله ﷺ ذلك بدأ يفكر بتأسيس الدولة التي تحمي الدعوة وتعمل على حملها ونشرها، وقد بدأ هذا العمل منذ الهجرة إلى الحبشة، إذ كانت الغاية إضافة إلى حماية الذين أسلموا دراسة أوضاع الحبشة، فإذا كانت

التربة صالحة، والمناخ ملائماً، انتقل رسول الله ﷺ بعد المهاجرين إليها، يعمل هناك إلا أن ظروف الحبشة لم تناسب ذلك، إذ اختلفت البطارقة مع النجاشي ـ كما رأينا ـ ثم نازعه رجل على الملك، ولكن الله نصره عليه، وعاش المسلمون عنده في خير منزل، إلا أن الوضع كان بشكل لا يلائم انتقال رسول الله إليها، لأن الخلاف مع البطارقة يمكن أن ينفجر معه الوضع في كل وقت ـ وقد حدث ـ

الهجرة إلى الطائف

وفكر رسول الله ﷺ في الطائف، فهي بلد قريب من مكة لا يبعد عنه أكثر من ثمانين كيلا، وهي مكان مرتفع، وثقيف قبيلة مشهورة بين العرب وذات منعة، وهوازن كذلك، فإذا وجد هناك المنعة والحماية من قومه الذين اشتد أذاهم له بعد وفاة عمه أبي طالب هاجر إلى هناك، فإذا تم ذلك ربما أمكن اتخاذه مكاناً يكون قاعدة الدعوة. فسار إلى الطائف وحده.

وعمد إلى نفر منهم، هم آل عمير، ويعدون من سادة ثقيف إلا أنهم ردوه بعد أن دعاهم إلى الله، وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الاسلام، فلما يئس منهم، طلب منهم أن يكتموا عنه، إذ خشي أن يعلم قومه بما قام به، فيزداد أذاهم له، ولكنهم لم يفعلوا، وإنما أغروا به سفهاءهم وعبيدهم، يسبونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس، وألجؤوه إلى بستان لعتبة وشيبة ابني ربيعة من قريش، فرجع عنه سفهاء ثقيف، وابنا ربيعة ينظران ما فعل بمحمد ﷺ، وعمد إلى ظل شجرة عنب فلما اطمأن هناك توجه بالدعاء! إلى ربه قائلاً: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بي غضبك،

أو يحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك. »
وقد رق له ابنا ربيعة فأرسلا له قطفاً من عنب مع غلامهما (عداس). وهو من أهل نينوى بالعراق إلى الشرق من الموصل، فلما بدأ رسول الله ﷺ يأكل من العنب قال: بسم الله الرحمن الرحيم فاستغرب عداس، فلما كلمه رسول الله ﷺ وعرف بلده، بلد رسول الله يونس بن متى، أكب عداس على رأس رسول الله يقبله، وعلى يديه وقدميه، وقال ابنا ربيعة أحدهما للآخر لما رأيا ذلك: أفسد علينا الغلام. فلما رجع إليهما، قالا له: ويلك يا عداس! مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟ قال: يا سيدي، ما في الأرض شيء خير من هذا، لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبي، قالا له: ويحك يا عداس لا يصرفنك عن دينك، فإن دينك خير من دينه.

انصرف رسول الله ﷺ من الطائف راجعاً إلى مكة إذ يئس من ثقيف، حتى إذا كان بنخلة[1] قام من جوف الليلي يصلي، فمر به نفر من الجن، فاستمعوا إليه، فلما فرغ من صلاته ولوا إلى قومهم منذرين، قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا.

وعندما وصل إلى مكة، وكان خبر رحلته إلى الطائف قد وصل إلى قريش، فلم يستطع دخول بلده حتى أجاره المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف.

العرض على القبائل

ولما يئس رسول الله ﷺ من إيمان قريش في مكة وثقيف في الطائف، بدأ يذهب إلى المواسم التي تقام في الأسواق مثل عكاظ وذي مجنة وغيرها، وتحضرها القبائل العربية للتجارة والاستماع إلى ما يلقى فيها من شعر، ويعرض نفسه على هذه القبائل يدعوها إلى الله وإلى نصرته ومنعته حتى يؤدي

(١) نخلة: اسم واديين إلى الشمال الشرقي من مكة على طريق الطائف، يقال لأحدهما نخلة الشامية، وللآخر نخلة اليمانية.

رسالته، وكذلك يعرض نفسه على هذه القبائل في موسم الحج، فيقول: يا بني فلان، إني رسول الله إليكم، يأمركم أن تعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئاً، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد، وأن تؤمنوا بي، وتصدقوا بي، وتمنعوني حتى أبينَ عن الله ما بعثني به. ولكن قريشاً لم تكن لتتركه وشأنه مع القبائل إذ كانت ترسل إليها أفراداً منها يُحذّرون تلك القبائل منه، ويرمونه بالسحر والكهانة أو الجنون، حتى إن عمه أبا لهب كان يسير وراءه في كثير من الأحيان ويرد أقواله فيقول: يا بني فلان، إن هذا إنما يدعوكم أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم، وحلفاءكم من الجن من بني مالك بن أقيش، إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تطيعوه، ولا تسمعوا منه. ومن هذه القبائل من كان يرد رداً لطيفاً، ومنها من كان يرد رداً قبيحاً، ولعل أقبح رد ما كان من بني حنيفة قوم مسيلمة الكذاب. أما بنو عامر بن صعصعة فقد قال كبيرهم فراس بن عبد الله: والله لو أني أخذت هذا الفتى من قريش، لأكلت به العرب، ثم قال: أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك، ثم أظهرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟ قال رسول الله ﷺ: الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء، فقال له: أفتهدف[1] نحورنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا! لا حاجة لنا بأمرك، فأبوا عليه.

فلما صدر الناس رجعت بنو عامر إلى شيخ لهم، قد كانت أدركته السن، حتى لا يقدر أن يوافي معهم المواسم، فكانوا إذا رجعوا إليه حدثوه بما يكون في ذلك الموسم، فلما قدموا عليه ذلك العام، سألهم عما كان في موسمهم، فقالوا: جاءنا فتى من قريش، ثم أحد بني عبد المطلب، يزعم أنه نبي، يدعونا إلى أن نمنعه، ونقوم معه، ونخرج به إلى بلادنا. فوضع الشيخ يديه على رأسه، ثم قال: يا بني عامر، هل لها من تلافٍ، هل لذناباها من مطلب[2]،

---

(١) تهدف ـ بالبناء للمجهول ـ أي: تصير هدفاً يرمى.

(٢) هذا مثل يضرب لما فات، وأصله من ذنابى الطائر إذا أفلت من الحبالة فطلبت الأخذ به.

والذي نفس فلان بيده، ما تقولها إسماعيلي قط[1]، وإنها لحق، فأين رأيكم كان عنكم؟.

وهكذا يبدو أن رسول الله ﷺ لم تكن غايته جمع الناس حوله ومقاتلة خصومه، وعند نجاح أمره، يطبق المنهج الذي يريد، وإنما كانت غايته تثبيت العقيدة من البداية والسير على هدى الله من أول الطريق فليس هناك من مراحل في الدعوة وليس هناك أنصاف حلول.. فالحكم لله يضعه حيث يشاء لا مزاودة فيه ولا عمل من أجله بحد ذاته، وإنما هو وسيلة لتحقيق منهج الله في الأرض.

وجاء وفد من يثرب من الأوس إلى مكة، يبغون نصرة قريش لهم على إخوانهم الخزرج، وعليهم أبو الحيسر، أنس بن رافع، فسمع بهم رسول الله ﷺ، فأتاهم فجلس إليهم، فقال لهم: هل لكم في خير مما جئتم له؟ فقالوا له: وما ذاك؟ قال: أنا رسول الله، بعثني إلى العباد، أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً، وأنزل علي الكتاب، ثم ذكر لهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، وكان معهم غلام حدث هو إياس بن معاذ، فقال: أي قوم، هذا والله خير مما جئتم له. فأخذ أبو الحيسر حفنة من تراب البطحاء فضرب وجه إياس، وقال: دعنا منك، فلعمري لقد جئنا لغير هذا، فصمت إياس، وقام رسول الله ﷺ عنهم، وانصرفوا إلى المدينة، وكانت وقعة بعاث بين الأوس والخزرج، وقد أتت على أكثر رؤسائهم إذ لم يبق من زعماء الخزرج سوى عبد الله بن أبي بن سلول، ومن الأوس أبو عامر الراهب. وربما كان ذاك تقدمة لمقدم رسول الله ﷺ إذ أن الوجهاء عادة، يقفون أمام كل مصلح خوفاً على مصالحهم، وهذا ما كان بمكة وكذلك في يثرب إذ نلاحظ أن هذين الوجهين، كانا من أشد أعداء رسول الله ﷺ، وإن أسلم أولها ظاهراً، وكان رأس المنافقين لا يترك مناسبة إلا ويحاول فيها الوقيعة بين المسلمين أو

(1) أي: ما أدعى النبوة كاذباً أحد من بني إسماعيل.

شقّ صفوفهم أو نقداً لرسول الله ﷺ، أما الثاني فقد عادى رسول الله وخرج مغاضباً إلى مكة وسار مع أبنائها لقتاله. ومات كافراً أما إياس بن معاذ فلم يلبث أن مات ويعتقد أنه مات مسلماً إذ كانوا يسمعونه يكبر الله ويحمده ويسبحه.

وجاء الموسم، وبينما كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه على القبائل التقى بجماعة من الخزرج عند العقبة. فلما سألهم من أنتم؟ قالوا: نفر من الخزرج، قال: أمن موالي يهود؟ قالوا نعم. وكانت الغلبة في يثرب لليهود. وذلك أنه لما كانت حادثة سد مأرب وتفرق العرب من حوله، وساروا في مختلف الجهات إذ سار أزد عمان نحو عمان، وانتقل أزد شنوءة إلى بلاد عسير، واتجه المناذرة نحو العراق، وحطت رحال الغساسنة في بلاد الشام، وتوقف حارثة وولداه الأوس والخزرج في يثرب، وقد حارب العرب في البداية يهود، وانتصروا عليهم، وأصبحوا أصحاب النفوذ في يثرب، ثم تفرقت كلمتهم، ووقعت العداوة والبغضاء بين الأوس وبين الخزرج، أثارها يهود ليعود نفوذها إليهم، ولتستفيد من بيع السلاح للفريقين كعادة يهود على مدار التاريخ، وكان بين الحيين أيام وحروب، كان أخرها يوم بعاث التي كانت للأوس على الخزرج، وقد حالف بنو قينقاع وبنو النضير من يهود الخزرج، وحالف بنو قريظة الأوس. فلما لقيهم رسول الله ﷺ قال لهم: أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلى. فجلسوا معه فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن. وكانوا يسمعون من يهود في بلادهم، كلما كان بينهم شيء أن نبياً مبعوث الآن، وقد أظل زمانه، وتقول يهود: إننا نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم. فلما كلمهم رسول الله ﷺ، ودعاهم إلى الله، قال بعضهم لبعض: يا قوم، تعلموا والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود، فلا تسبقنكم إليه. فأجابوه فيما دعاهم إليه، بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا: إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فستقدم عليهم، فندعوهم إلى

أمرك وتعرض عليهم الذين أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليه، فلا رجل أعز منك. وواعدوا رسول الله ﷺ العام المقبل في الموسم.

ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا، وعدد هؤلاء النفر ستة. فلما قدموا إلى المدينة ذكروا لقومهم ما كان معهم، وحدثوهم عن رسول الله ﷺ، ودعوهم إلى الإسلام، فانتشر بينهم، فلم يبق دار من دور الأنصار إلا ويذكر فيها اسم رسول الله ﷺ.

بيعة العقبة الأولى

استدار العام، وأقبل الناس إلى الحج، وكان بين حجاج يثرب اثنا عشر رجلاً، عشرة من الخزرج واثنان من الاوس وهم: أسعد بن زرارة، وعوف ومعاذ ابنا الحارث، ورافع بن مالك، وعبادة بن الصامت، ويزيد بن ثعلبة، والعباس بن عبادة، وذكوان بن عبد قيس، وعقبة وقطبة ابنا عامر. وهؤلاء من الخزرج. وأبو الهيثم مالك بن التيهان، وعويم بن ساعدة، وهما من الاوس. وقد التقوا حسب الموعد مع رسول الله ﷺ عند العقبة، وأسلموا وبايعوا رسول الله ﷺ، ويقول عبادة بن الصامت رضي الله عنه: كنت فيمن حضر العقبة الأولى، وكنا اثني عشر رجلاً، فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء، وذلك قبل أن يفرض القتال، على أن لا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف ثم قال لنا رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «فإن وفيتم فلكم الجنة. وإن غشيتم من ذلك شيئاً، فأمركم إلى الله عز وجل، إن شاء عذب وإن شاء غفر».

وعندما غادره القوم أرسل معهم مصعب بن عمير، وأمره أن يقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين، فسار معهم، فلما وصلوا إلى يثرب نزل على أسعد بن زرارة، وكان مصعب يسمّى هناك «بالمقرىء». وقد صلى مصعب بالمدينة الجمعة لأول مرة، ولم يزد عددهم على الأربعين.

وذهب يوماً أسعد بن زرارة، ومعه مصعب بن عمير إلى بستان من

بساتين بني عبد الأشهل - أحد بطون الاوس - فجلسا فيه، واجتمع حولهما عدد من الذين أسلموا، فرآهما سعد بن معاذ وأسيد بن حضير، وهما يومئذ سيدا بني عبد الاشهل ومن سادة الأوس أيضاً، فقال سعد بن معاذ لأسيد بن حضير: لا أبا لك انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارينا ليسفها ضعفاءنا، فازجرهما وانههما عن أن يأتيا دارينا، فإنه لولا أن أسعد بن زرارة مني حيث قد علمت، كفيتك ذلك، هو ابن خالتي، ولا أجد عليه مقدماً فأخذ أسيد بن حضير حربته، ثم أقبل إليهما، فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب بن عمير: هذا سيد قومه قد جاءك، فاصدق الله فيه، قال مصعب: إن يجلس أكلمه. فوقف عليهما متشتماً، فقال ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة، فقال له مصعب: أو تجلس فتسمع، فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كُفّ عنك ما تكره؟ قال: أنصفت، ثم ركز حربته وجلس إليهما، فكلمه مصعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن، فقالا: والله لقد عرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم في إشراقه وتسهله، ثم قال: ما أحسن هذا الكلام وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين. قالا له: تغتسل فتطهر وتطهر ثوبك، ثم تشهد شهادة الحق، فقام واغتسل وطهر ثوبيه، وتشهد شهادة الحق، ثم قام فركع ركعتين، ثم قال لهما: إن ورائي رجلاً إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكما الآن، وهو سعد بن معاذ، ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه، وهم جلوس في ناديهم، فلما نظر إليه سعد بن معاذ مقبلاً، قال: أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف على النادي، قال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلمت الرجلين، فوالله ما رأيت بهما بأساً، وقد نهيتهما فقالا: نفعل ما أحببت، وقد حُدّثت أن بني حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه، وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتك، ليخفروك. فقام سعد مغضباً مبادراً، تخوفاً للذي ذكر له من بني حارثة، فأخذ الحربة من يده، ثم قال: والله ما أراك أغنيت شيئاً، ثم خرج

إليها، فلما رآهما سعد مطمئنين عرف أن أسيداً إنما أراد أن يسمع منهما، فوقف عليهما متشتماً، ثم قال لأسعد بن زرارة: يا أبا أمامة! والله لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رمت هذا مني، أتغشانا في دارينا بما نكره، وقد قال أسعد بن زرارة لمصعب بن عمير: أي مصعب، جاءك والله سيد من وراءه من قومه، إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان - فقال له مصعب: أو تقعد فتسمع، فإن رضيت أمراً ورغبت فيه قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره؟ قال سعد: أنصفت، ثم ركز الحربة وجلس، فعرض عليه الإسلام، وقرأ عليه القرآن، قالا: فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم لإشراقه وتسهله، ثم قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين؟ قالا: تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي ركعتين، فقام فاغتسل وطهر ثوبه، وتشهد شهادة الحق، ثم ركع ركعتين، ثم أخذ حربته، فأقبل عامداً إلى نادي قومه ومعه أسيد بن حضير.

فلما رآه قومه مقبلاً، قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأياً، وأيمننا نقيبة، قال فإن كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام، حتى تؤمنوا بالله وبرسوله. قالا: فوالله ما أمسى في دار بني عبد الاشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً أو مسلمة، ورجع أسعد ومصعب إلى منزل أسعد بن زرارة، فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام، حتى لم تبق دار من دور الانصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون، إلا ما كان من دار بني أمية بن زيد، وخطمة، ووائل، وواقف، وتلك أوس الله، وهم من الأوس بن حارثة، وذلك أنه كان فيهم أبو قيس بن الأسلت، وهو صيفي، وكان شاعراً لهم قائداً، يستمعون منه ويطيعونه، فوقف بهم عن الإسلام.

رجع مصعب بن عمير إلى مكة، وجاء موسم الحج، وخرج من خرج من يثرب مسلمين ومشركين، ولما قدموا مكة واعد المسلمون رسول الله ﷺ العقبة، من أوسط أيام التشريق ليلاً بعد الثلث منه. حين أراد الله بهم ما أراد من كرامته والنصر لنبيه وإعزاز الإسلام وأهله، وإذلال الشرك وأهله. وقد أمرهم ألا ينبهوا نائماً، ولا ينتظروا غائباً.

فلما فرغ الحجاج من حجهم، ونام أهل يثرب في رحالهم مسلمهم وكافرهم، ومضى ثلث الليل من يوم الموعد، خرج المسلمون من رحالهم لميعاد رسول الله ﷺ، وتسللوا تسلل القطا حتى اجتمعوا في الشّعب، وكانوا ثلاثة وسبعين رجلاً، منهم اثنان وستون من الخزرج، وأحد عشر من الأوس، ومع الرجال امرأتان هما: نسيبة بنت كعب المازنية من بني النجار وأسماء بنت عمرو من بني سلمة، ووافاهم رسول الله - ﷺ - وليس معه إلا عمه العباس بن عبد المطلب، وكان لا يزال على دين قومه ظاهراً، جاء يستوثق لابن أخيه، فقال العباس: يا معشر الخزرج، إن محمداً منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عز من قومه، ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم، واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم، فمن الآن فدعوه، فإنه في عزّ ومنعة من قومه وبلده.

قالوا: قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت.

فتكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغب في الإسلام ثم قال: أشترط لربي أن تعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئاً، ولنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم متى قدمت عليكم. فتقدم البراء بن معرور

فأخذه بيده، ثم قال: نعم، والذي بعثك بالحق نبياً، لنمنعك مما نمنع منه نساءنا، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحروب، وأهل السلاح، ورثناها كابراً عن كابر... فاعترض القول أبو الهيثم بن التيهان، والبراء يكلم رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حبالاً، وإنا قاطعوها: - يعني يهود - فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله، أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسم رسول الله ﷺ، ثم قال: بل الدم الدم، والهدم الهدم[1]، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم.

وابتدأت البيعة فبايع البراء بن معرور أول من بايع ثم تتابع الجميع ثم قال لهم رسول الله ﷺ: أخرجوا إلي منكم اثني عشر نقيباً ليكونوا على قومهم بما فيهم، فأخرجوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس وهم: البراء بن معرور، وأسعد بن زرارة، وسعد بن الربيع، وسعد بن عبادة، وعبد الله بن رواحة، وعبادة بن الصامت ورافع بن مالك، وعبد الله بن عمرو بن حرام، والمنذر بن عمرو، وهؤلاء من الخزرج، وأسيد بن حضير، وسعد بن خيثمة، ومالك أبو الهيثم بن التيهان.

وبعد البيعة قال رسول الله ﷺ: ارفضوا[2] إلى رحالكم. فقال له سعد بن عبادة: والذي بعثك بالحق، إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيافنا؟ فقال رسول الله ﷺ: لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم. فرجعوا إلى مضاجعهم فناموا حتى الصباح.

فلما أصبح الصباح جاء وفد من قريش، فقالوا لهم: يا معشر الخزرج، إنه قد بلغنا أنكم جئتم إلى صاحبنا هذا، تستخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا، وإنه والله ما من حي من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب

---

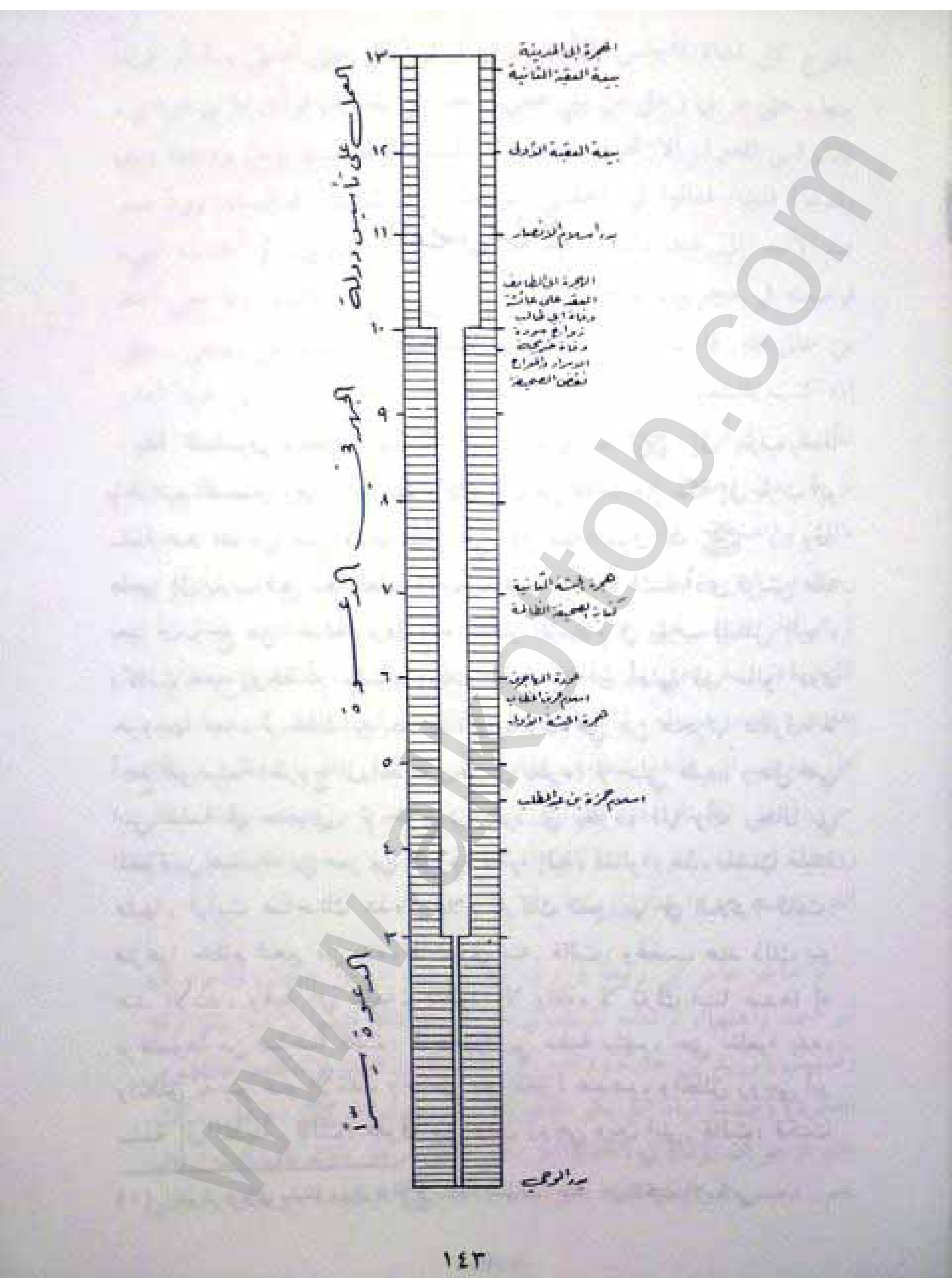
(١) العرب تقولها عند عقد الحلف والجوار، أي: دمي دمك وهدمي هدمك، فما هدمت من الدماء هدمته أنا.

(٢) ارفضوا: تفرقوا.

بيننا وبينهم منكم، أما المسلمون فقد صمتوا وكان ينظر بعضهم إلى بعض، وأما المشركون فقد اندفعوا يحلفون بالله أنه ما كان من هذا شيء، ولا يعلمون شيئاً من هذا... ثم انصرف وفد قريش، وقد صدقوا ما قيل لهم، وذهبوا إلى عبد الله بن أبي بن سلول، فسألوه، فقال والله إن هذا الأمر جسيم، ما كان قومي ليتفوتوا علي بمثل هذا، وما علمته كان... ثم انصرفوا ولما سافر حجاج يثرب.. انتشر الخبر في مكة كثيراً فوجدت قريش أن الأمر قد تمّ فخرجت في طلب القوم، فأدركت سعد بن عبادة، وكان أحد النقباء، فأخذوه أسيراً إلى مكة، وأفلت منهم المنذر بن عمرو... وقد عذّب سعد بن عبادة في مكة ثم أجاره جبير بن المطعم بن عدي، والحارث بن حرب بن أمية إذا كان يجير لهما تجارتهما في يثرب.

فلما رجع مسلمو يثرب إليها، أظهروا الإسلام فيها، وكان عمرو بن الجموح قد اتخذ في بيته صنماً إلا أن من آمن من أهله كان يلقي الصنم في الليل على المزابل فيعيده عمرو بعد أن يغسله ويطهره ويطيبه، ولما تكررت الحادثة أدرك عمرو ما قيمة الصنم فألقاه وأسلم.

أما مكة فقد اشتد أذى مشركيها على من أسلم بعد أن علموا أن محمداً ﷺ قد حالف أهل يثرب عليهم. وعندها أمر رسول الله أصحابه الذين هاجروا إلى الحبشة وعادوا، والذين معه من المسلمين بمكة بالخروج إلى المدينة، والهجرة إليها واللحوق بإخوانهم من الأنصار، أي أمر أن يتجمع المؤمنون كلهم في مكان واحد حتى تقوى كلمتهم ويمكن إقامة الدولة الإسلامية لتطبيق منهج الله في الارض.


الهجرة إلى المدينة
بيعة العقبة الثانية
بيعة العقبة الأولى
بدء إسلام الأنصار
الهجرة إلى الطائف
العقد على عائشة
وفاة أبي طالب
زواج سودة
وفاة خديجة
الإسراء والمعراج
نقض الصحيفة
هجرة الحبشة الثانية
كتابة الصحيفة الظالمة
إسلام عمر بن الخطاب
الهجرة الحبشة الأولى
إسلام حمزة بن عبد المطلب
بدء الوحي
١٣
١٢
١١
١٠
٩
٨
٧
٦
٥
٤
٣

الفصل الرابع

الهجـــرة

بدأ المسلمون ينتقلون حسب أوامر رسول الله ﷺ إلى يثرب لحاقاً باخوانهم المسلمين وفراراً بدينهم وكان أول من هاجر من مكة إلى يثرب أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومي ابن عمة رسول الله ﷺ [1]، وقد هاجر إلى يثرب قبل بيعة العقبة الثانية بعام تقريباً، إذ اشتد أذى قريش عليه بعد أن رجع من الحبشة، وعلم بدء انتشار الإسلام في يثرب فانتقل إليها، وكانت معه زوجة أم سلمة، وولده سلمة إلا أن أهلها قد حالوا دون خروجها معه، ثم لحقت به بعد مدة وتتحدث هي عن هجرتها فتقول: لما أجمع أبو سلمة الخروج الى المدينة رحّل لي بعيره، ثم حملني عليه، وحمل معي ابني سلمة في حجري، ثم خرج بي يقود بي بعيره، فلما رأته رجال بني المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، قاموا إليه، فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيت صاحبتك هذه؟ علام نتركك تسير بها في البلاد؟ قالت: فنزعوا خطام البعير من يده، فأخذوني منه. قالت: وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد، رهط أبي سلمة، فقالوا: لا والله، لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا قالت: فتجاذبوا بنيّ سلمة بينهم، حتى خلعوا يده، وانطلق به بنو عبد الأسد، وحبسني بنو المغيرة عندهم، وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة. قالت: ففرق بيني وبين زوجي وبين ابني. قالت: فكنت

---

(١) انظر ترجمته في سلسلة «بناة دولة الإسلام» للمؤلف، صدر عن المكتب الاسلامي.

أخرج كل غداة فأجلس بالأبطح، فما أزال أبكي حتى أمسي سنة أو قريباً منها، حتى مرّ بي رجل من بني عمي، أحد بني المغيرة، فرأى ما بي فرحني، فقال لبني المغيرة: ألا تخرجون هذه المسكينة، فرقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها! قلت: فقالوا لي: الحقي بزوجك إن شئت. قالت: وردّ بنو عبد الأسد إليّ عند ذلك ابني. قالت: فارتحلت بعيري، ثم أخذت ابني، فوضعته في حجري، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة. قالت: وما معي أحد من خلق الله. قالت: فقلت: أتبلغ بمن لقيت، حتى أقدم على زوجي، حتى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، أخا بني عبد الدار فقال لي: إلى أين يا بنت أبي أمية؟ قالت: فقلت: أريد زوجي بالمدينة. قال: أو ما معك أحد؟ قالت: فقلت: لا والله، إلا الله وبنيّ هذا. قال: والله مالك من مترك. فأخذ بخطام البعير، فانطلق يهوي بي، فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قط، أرى أنه كان أكرم منه، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي، ثم استأخر عني، حتى إذا نزلت استأخر ببعيري، فحط عنه، ثم قيده في الشجرة ثم تنحى عني إلى شجرة، فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرواح، قام إلى بعيري، فقدمه فرحله، ثم استأخر عني، وقال: اركبي، فإذا ركبت واستويت على بعيري، أتى فأخذ بخطامه، فقاده، حتى ينزل بي. فلم يزل يصنع بي ذلك حتى أقدمني المدينة. فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقباء، قال: زوجك في هذه القرية - وكان أبو سلمة بها نازلا - فادخليها على بركة الله، ثم انصرف راجعاً إلى مكة.

ثم هاجر عامر بن ربيعة وزوجه ليلى، وعبد الله بن جحش وأخوه عبد أبو أحمد وأهلها، ثم تتابع المسلمون حتى لم يبق بمكة منهم إلا أبو بكر وعلي وصهيب، وزيد بن حارثة، وقليل من المستضعفين الذين لم تمكنهم حالتهم من الهجرة، وعندما أراد أبو بكر الهجرة قال له رسول الله ﷺ: «على رسلك، فإني أرجو أن يؤذن لي» فقال أبو بكر: وهل ترجو ذلك بأبي أنت؟ قال: نعم. فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه، وعلف راحلتين

كانتا عنده ورق السمر استعداداً لذلك.

ولما أراد صهيب الهجرة، قال له كفار قريش: أتيتنا صعلوكاً حقيراً، فكثر مالك عندنا، وبلغت الذي بلغت ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك، والله لا يكون ذلك، فقال لهم صهيب: أرأيتم إن جعلت لكم مالي أتخلون سبيلي؟ قالوا: نعم. قال: فإني جعلت لكم مالي. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «ربح صهيب، ربح صهيب».

وأقام رسول الله ﷺ بمكة بعد أصحابه من المهاجرين، ينتظر أن يؤذن له في الهجرة، ولم يتخلف معه بمكة أحد من المهاجرين إلا من حبس أو فتن إلا علي بن أبي طالب وأبو بكر الصديق رضي الله عنهما.

أما قريش فقد علمت وسمعت كل ما حدث فتداعت إلى اجتماع في دار الندوة لتبحث بما هي فاعلة، فتشاوروا في الأمر، فاقترح بعضهم أن يدعوه يخرج لتستريح منه مكة وأبناؤها، فرفض هذا الاقتراح، إذ قالوا: تجتمع هناك حوله رجال القبائل وربما رمانا بها، واقترح بعضهم أن يصفد بالحديد ويترك، حتى يقضى عليه بالموت، فرفض أيضاً هذا الاقتراح، وقالوا: ربما حاول أتباعه أن ينقذوه فتقع الحرب بيننا، ونحن في غنى عنها. ثم تم الاتفاق على رأي اقترحه طاغيتهم أبو جهل إذ قال: أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شاباً جلداً نسيباً وسيطاً فينا، ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً، ثم يعمدوا إليه، فيضربوه ضربة رجل واحد، فيقتلوه، فنستريح منه. فإنهم إذا فعلوا ذلك، تفرق دمه في القبائل جميعاً، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً، فرضوا منا بالعقل، فعقلناه لهم.

وأعلم الله نبيه ما تم في دار الندوة، وأمره ألا يبيت هذه الليلة على فراشه، وأذن له بالهجرة. فأسرع رسول الله ﷺ فأخبر أبا بكر بذلك، وأنه صاحبه في الرحلة، فعرض عليه أبو بكر احدى راحلتيه اللتين كانتا معدتين لذلك، فجهزاهما أحسن الجهاز، ووضع الطعام في جراب، فقطعت أسماء بنت أبي

بكر قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب، واستأجر أبو بكر عبد الله بن أريقط وكان مشركاً على دين كفار قريش، فأمناه، ودفعا إليه الراحلتين، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال، وكان ابن أريقط دليلاً ماهراً، وخرّيتا في الطريق. ثم فارق رسول الله ﷺ أبا بكر، وواعده الالتقاء بعد منتصف الليل خارج مكة في مكان حدداه بالدقة. وكانت هذه ليلة التنفيذ لدى قريش لقتل رسول الله ﷺ، ولما كانت عتمة الليل اجتمعوا أمام داره يرقبونه حتى ينام، فإذا فعل انقضوا عليه. فلما رأى ذلك رسول الله ﷺ أمر ابن عمه علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن ينام على فراشه وأن يتسجّى ببرده، كعادته هو إذا نام. وكانت وظيفة علي رضي الله عنه التمويه عن رسول الله ﷺ ليلاً، وتأدية الودائع التي عند رسول الله إلى أصحابها.

وحان موعد الخروج، فخرج رسول الله من داره، وهو يتلو ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾[1]...

فألقى الله النوم عليهم حتى لم يره أحد، وسار رسول الله لموعد الصديق، فالتقيا، وانطلقا إلى غار ثور، فأقاما فيه. أما قريش فبقيت تنتظر، وينظر رجالها من خلال ثقوب الباب فيرون إنساناً نائماً، ولا يعدو عندهم محمداً، وأتاهم طارق لم يكن معهم فسألهم عما ينتظرون، فقالوا: محمداً، قال: قبحكم الله لقد خرج محمد، وانطلق لحاجته، فأسرعوا فنظروا من ثقوب الباب فرأوا النائم مكانه، فلم يصدقوا، وانبلج الصبح، واستيقظ

(١) سورة يس: ١ ـ ٩.

علي، فلما رأوه سألوه عن محمد فقال لا أدري، فانطلقوا مسرعين من كل جهة يفتشون عن رسول الله، وقادهم الطلب حتى غار ثور، إلا أن الله أعماهم عنهما، وقد بكى أبو بكر الصديق رضي الله عنه إذ لاحظ أنه لو نظر أحدهم إلى موضع قدميه لرآهما، فقال له رسول الله ﷺ «لا تحزن إن الله معنا».

وأقام رسول الله وصاحبه أبو بكر في الغار ثلاث ليال حتى قطع عنهما الطلب. وكان يبيت معهما عبد الله بن أبي بكر، ويخرج من عندهما في السحر، فيصبح مع قريش بمكة كأنه نائم بها، وفي المساء يأتي إليهما ومعه أخبار مكة وأهلها جميعاً كما يغدو ويروح عليهما عامر بن فهيرة، مولى أبي بكر ومعه عدد من الأغنام يرعاها ويتبع أثر عبد الله بن أبي بكر حتى لا يظهر، ويسقيهما من لبن الغنم. فلما انقطع الطلب خرجا، وقد جاءهما الدليل صبح ثلاث مضت.

أما قريش فقد ذهب بعض أعيانها إلى دار أبي بكر، فوقفوا على الباب، فخرجت إليهم أسماء بنت أبي بكر، فقالوا لها: أين أبوك يا بنت أبي بكر؟ فقالت: لا أدري والله أين أبي. فضرب أبو جهل خدها ضربة قاسية.

خرج رسول الله ﷺ من الغار مع صاحبه أبي بكر ومعهما عامر بن فهيرة والدليل عبد الله بن أريقط، وانطلقوا يسلكون طريق الساحل، وكانت قريش قد جعلت مائة ناقة لمن يأتي بمحمد أو صاحبه قتلاً أو أسراً، وسار أصحاب الأطماع يفتشون، وبينما كان سراقة بن مالك يجلس في نادي قومه بني مدلج، وهو ممن عرف بالعدو والصعلكة إذ يدخل رجل فيقول: لقد رأيت ثلاثة ما أظن إلا أنهم محمد وصحبه، فأومأ إليه أن اسكت، وقال: ولكنهم بنو فلان، ثم خرج هو إثرهم ويقول في ذلك «لما خرج رسول الله ﷺ من مكة مهاجراً إلى المدينة، جعلت قريش فيه مائة ناقة لمن رده عليهم، قال فبينما أنا جالس في نادي قومي إذ أقبل رجل منا، حتى وقف علينا،

فقال: والله لقد رأيت ركباً ثلاثة مروا علي آنفاً، إني لأراهم محمداً وأصحابه، قال: فأومأت إليه بعيني: أن اسكت، ثم قلت: إنما هم بنو فلان، يبتغون ضالة لهم، قال: لعله، ثم سكت. قال: ثم مكثت قليلاً، ثم قمت فدخلت بيتي، ثم أمرت بفرسي، فقيد لي إلى بطن الوادي، وأمرت بسلاحي، فأخرج لي من دبر حجرتي، ثم أخذت قداحي التي استقسم بها، ثم انطلقت، فلبست لأمتي، ثم أخرجت قداحي، فاستقسمت بها، فخرج السهم الذي أكره، قال: وكنت أرجو أن أرده على قريش، فآخذ المائة ناقة. قال: فركبت على أثره، فبينما فرسي يشتد بي، عثر بي، فسقطت عنه. قال: فقلت: ما هذا؟ قال: ثم أخرجت قداحي فاستقسمت بها، فخرج السهم الذي أكره، قال: فأبيت إلا أن أتبعه. قال: فركبت في أثره، فبينا فرسي يشتد بي، عثر بي، فسقطت عنه. قال: فقلت ما هذا؟ قال: ثم أخرجت قداحي فاستقسمت بها، فخرج السهم الذي أكره. قال: فأبيت إلا أن أتبعه، فركبت في أثره، فلما بدا لي القوم ورأيتهم، عثر بي فرسي، فذهبت يداه في الارض، وسقطت عنه، ثم انتزع يديه من الارض، وتبعهما دخان كالإعصار. قال: فعرفت حين رأيت ذلك، أنه قد منع مني، وأنه ظاهر. قال: فناديت القوم: فقلت: أنا سراقة بن جعشم انظروني أكلمكم، فوالله لا أريبكم، ولا يأتيكم مني شيء تكرهونه. قال فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر: قل له: وما تبتغي منا؟ قال: فقال ذلك أبو بكر. قال قلت: تكتب لي كتاباً يكون آية بيني وبينك. قال: اكتب يا أبا بكر. فكتب له. فرجع سراقة، وتابع رسول الله ﷺ ومن معه حتى وصل إلى قباء قبيل الظهر في اليوم الثاني عشر من ربيع الأول في السنة الثالثة عشرة للبعثة يوم الاثنين.

أقام رسول الله ﷺ بقباء في بني عمرو بن عوف مدة خمسة أيام إذ سار يوم الجمعة، وبنى هناك أول مسجد في الإسلام، ووضع رسول الله أول حجر في اتجاه القبلة، ووضع أبو بكر حجراً بجانب حجر رسول الله. وأدركته صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف إذ صلاها في بطن وادي

(رانوناء)، وكانت أول جمعة صلاها بالمدينة. وسار نحو المدينة وكانت القبائل تعترض سبيله ترجوه أن ينزل عندها وتتعهد بحمايته وإكرامه، ولكنه ﷺ كان يقول: دعوا الناقة فإنها مأمورة، فبقيت تسير حتى بركت في دار بني مالك بن النجار مكان مسجده ﷺ اليوم في محل يجفف فيه التمر، وكان يسمى مربداً، وهو لغلامين يتيمين، هما سهل وسهيل ابنا عمرو، فنزل رسول الله عن الناقة ونزل بدار خالد بن زيد أبي أيوب الانصاري، واشترى المربد من ابني عمرو، وبدأ ببناء المسجد. وعرفت يثرب بعد ذلك باسم مدينة الرسول، ثم المدينة المنورة.

ونلاحظ في هذه الرحلة الثقة التامة من الناس برسول الله والثقة التامة من رسول الله بنصر الله وتأييده، فأهل مكة من المشركين على الرغم من عدائهم لرسول الله يضعون عنده أماناتهم، وعلى الرغم من اتهاماتهم له بشتى التهم من جنون وسحر وكهانة وتفريق بين المرء وزوجه كانوا لا يجدون مكاناً لودائعهم إلا عنده، فأية أمانة وأية ثقة أكبر من هذا، عدو مأمون، ومكروه محبوب، وعلى الرغم من أن المسلمين قد تركوا أموالهم في مكة ودورهم وأملاكهم، وأن المشركين قد منعوا خروج صهيب حتى يترك ما جناه لنفسه عندهم من تعبه وعرق جبينه، فإن رسول الله لم يستحل درهماً واحداً مقابل هذا فأبقى رسول الله علياً حتى يؤدي الأمانات ويعطي الودائع، وقد تخلف علي رضي الله عنه ثلاثة أيام عن رسول الله فأدى مهمته ثم لحق برسوله الكريم، ووصل إلى قباء ولم يزل رسول الله فيها.

عندما مضت الأيام الثلاثة، ورسول الله ﷺ وصاحبه في الغار، جاءهما الدليل عبد الله بن أريقط بالراحلتين، فقدم أبو بكر أفضلهما لرسول الله، فقال له عليه الصلاة والسلام: لا أركب ما ليس لي، فقال له أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله فداك أبي وأمي، الراحلتان لك، فقال له: لا، ولكن أركبها بالثمن. وقد يستغرب المرء هذا القول، فأبو بكر قد قدم جلّ ماله في سبيل الدعوة، وهو يعطي الكثير الكثير، والآن وفي هذا الموقف الحرج يقول

رسول الله ما يقول، ولكن الامر أعمق من هذا بكثير وأبعد. فرسول الله ﷺ على الرغم مما هم فيه من موقف حرج وشدة في الطلب لا ينسى أنه المعلم وأنه الأسوة الحسنة للمسلمين على مدى الايام، فيريد أن يعلم الناس ويعرّف الدعاة أن المسلم يجب ألا يكون عالة على أحدٍ في حياته كلها مهما اشتدت به الحال، وعليه أن يسعى ويجدّ ليحصل على حاجاته كلها ومتطلباته، وأن رسول الله سيوفي ثمن الناقة عندما يتهيأ لديه المال، وأنه إذا أصابها شيء فهو صاحبها والمسؤول عنها.

انطلق رسول الله ﷺ من مكة مطارداً، خائفاً يترقب، مهدداً بالقتل، ومعرضاً للأسر، ولكنه كان واثقاً من نصر الله وتأييده إلى أبعد الحدود، فعندما أدركه سراقة بن مالك يريد ردّه لقريش قال له رسول الله ﷺ: يا سراقة ما رأيك بسواري كسرى؟ وهو في تلك الحالة يمني ملاحقه بانهيار أكبر امبراطورية وقتذاك وهي امبراطورية فارس، وأن يأخذ ذلك البدوي من بني مدلج الطامع في مائة ناقة من قريش مقابل رد رسول الله أن يجلس مكان كسرى وأن يلبس سواريه... ولقد صدق الله وعده ونصر عبده.

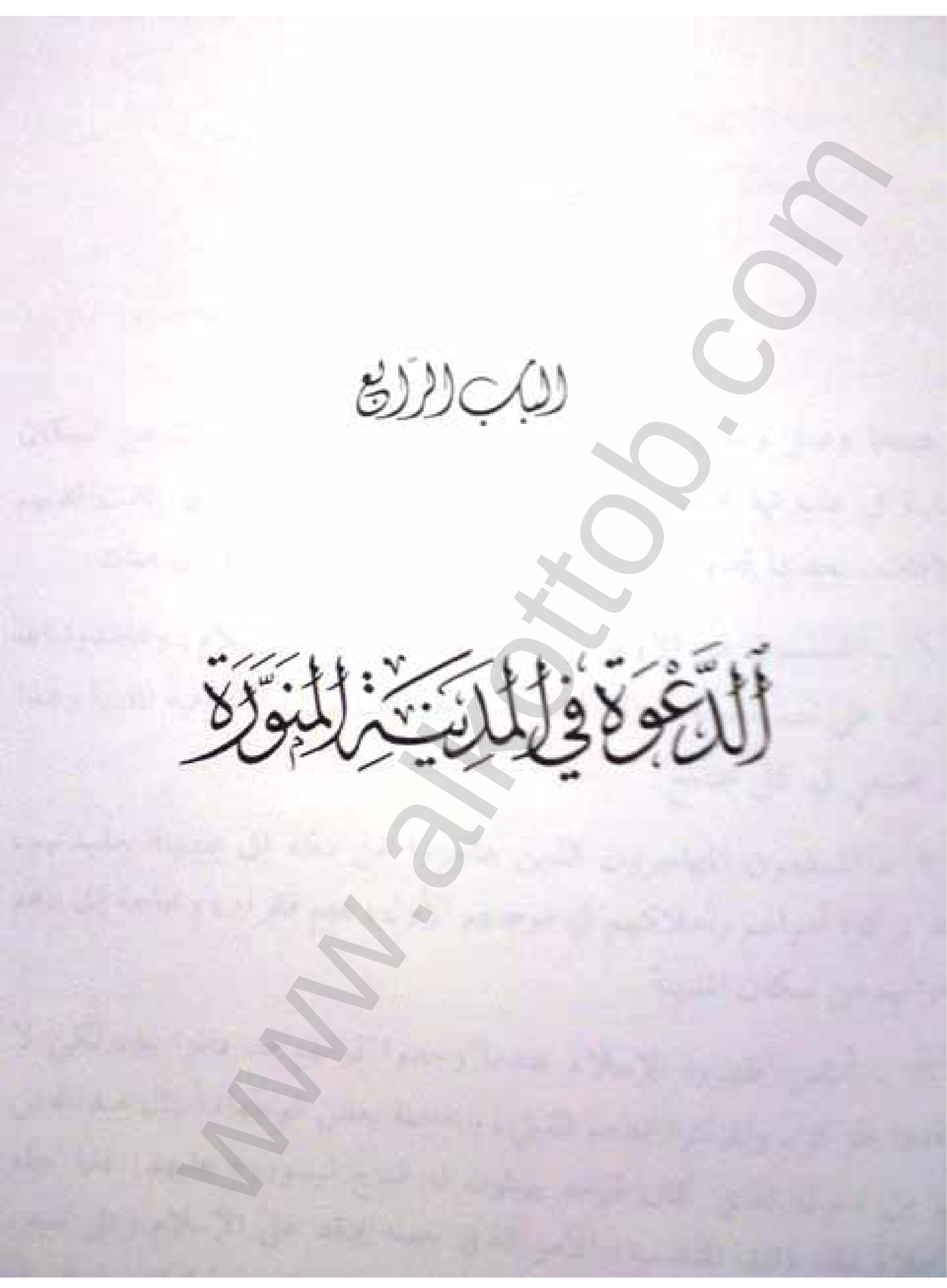
ونلاحظ أنه بهجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة التي غدت داراً للإسلام وجب على كل مسلم أن يهاجر إلى دار الإسلام. إذ تجب الهجرة إلى البلاد التي يستطيع المسلم أن يؤدي فيها شعائر دينه إذا كان في موطنه لا يستطيع ذلك. كما تجب الهجرة إذا اقتضت الظروف لتجميع المسلمين والإفادة من طاقاتهم وإمكاناتهم المادية والمعنوية والعسكرية. أما إذا كان غير ذلك بحيث يستطيع الانسان تأدية شعائره والدعوة إلى عقيدته فمن الأفضل أن يبقى حيث هو ليقوم بدوره في تبليغ الإسلام والعمل في سبيل الله.

ودار الحرب يقتضي وجودها وجود دار للإسلام، فقبل هجرة الرسول ﷺ، لم تكن توجد هناك دار إسلام وبمقتضى الحال لا توجد دار للحرب، فلم تكن مكة داراً للحرب، وعندما بدأ الإسلام يطبق في المدينة أصبحت

مكة دار حرب، وكانت الهجرة واجبة على المسلمين منها، حتى إذا فتحت أصبحت داراً للإسلام ولم تعد الهجرة واجبة منها لذلك قال رسول الله ﷺ «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية»[1]. ودار الإسلام هي الدار التي يطبق فيها شرع الله، ولو لم يكن أكثر أهلها من المسلمين، ودار الحرب هي البلاد التي لا يطبق فيها شرع الله، ولو كان سكانها جميعهم من المسلمين. وعلى هذا فإن الزمن الذي لا يوجد فيه مكان يطبق فيه الإسلام وشرعه لا توجد دار للحرب وبالتالي لا توجد دار للاسلام، وعلى كل مسلم، وعلى المسلمين جميعاً في أي مصر كانوا، أن يعملوا للاسلام، ويدعوا له، ويجاهدوا في سبيل الله، حتى إذا أمكنهم إقامة دولة إسلامية، أصبحت توجد داران أحدهما للإسلام، وأخرى للحرب وفي أية بقعة لا يتمكن مسلموها من إقامة شعائرهم فعليهم أن يهاجروا، وفي أية بقعة احتاجت منها دار الاسلام إخصائيين أو فنيين أو قادة أو أفراداً بأعينهم عليهم أن يهاجروا لتتقوى دار الاسلام، وتعمل على نشر الاسلام والدعوة له في كل مكان حتى يزول الظلم، وتنتهي الطواغيت من سطح الارض.

---

(١) متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها.



الباب الرابع

الدعوة في المدينة المنورة

الفصل الأول

تأسيس الدولة

عندما وصل رسول الله ﷺ إلى المدينة كان فيها مجموعات من السكان متباينة في عقيدتها مختلفة في أهدافها متفرقة في اجتماعاتها، كما كانت لديهم خلافات، بعضها قديم موروث، وبعضها حديث موجود، فكان هناك:

١ - المسلمون من الأوس والخزرج الذين دانوا بالإسلام، وعاهدوا الله ورسوله على نصرة نبيه، وإقامة شرعه، وهم يتفاوتون من الناحية المادية وهذا أمر طبيعي في كل مجتمع.

٢ - المسلمون المهاجرون الذين هاجروا من مكة إلى المدينة بعقيدتهم، وقد تركوا أموالهم وأملاكهم في موطنهم الأول، فهم فقراء، وبحاجة إلى دعم إخوانهم من سكان المدينة.

٣ - أناس أظهروا الإسلام عندما وجدوا قومهم قد دانوا به، لكي لا يفقدوا المركز، ويتركوا الدعم القبلي، وبخاصة بعض الوجهاء أمثال عبدالله بن أبي بن سلول الذي كان قومه يهيئون له التاج ليسودوه عليهم، فلما جاء الإسلام فقد ذلك المنصب، الأمر الذي جعله يحقد على الإسلام وعلى نبيه، ولكن لا بد له من مسايرة قومه حتى تبقى له بعض الوجاهة تمكنه من العمل ضد ما يحقد عليه، فأظهر الإسلام بعد غزوة بدر، وفي نفسه شيء.

٤ - المشركون من الأوس والخزرج الذين لم يدخلوا في الإسلام بعد. وكان لكل قبيلة ناد خاص يلتقون فيه.

٥ - اليهود وهم عدة قبائل: بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة. وكانوا يتحكمون في يثرب سياسياً واقتصادياً قبل قدوم الرسول ﷺ إليها، مستغلين أوضاعهم المالية، يوقدون نار الخلاف بين الفريقين، ويعطون السلاح لكلا الطرفين، فيتاجرون بالسلاح، ويمصون دم الحيين، ويشعرون بالسعادة حين يرون هلاك الآخرين من غير دينهم، وزيادة في الكيد فقد حالف بنو قينقاع وبنو النضير الخزرج وحالف بنو قريظة الأوس، وذلك ليتمكنوا من إثارة الخلاف وإيقاد نار البغضاء. وإضافة إلى هذه القبائل اليهودية، وجد أفراد آخرون من اليهود لا ينتمون إلى القبائل الكبرى.

وكان اليهود حينما يصطدمون مع سكان يثرب ويخسرون الجولة، يستفتحون عليهم، ويقولون لهم: لقد أظل زمان نبي من هذه البلاد، نتبعه، ونحاربكم معه، فلما جاءهم ما عرفوا، كفروا به حقداً ولؤماً فلعنة الله على الكافرين. ومن حقدهم بدأ تكذيبهم للرسول الكريم ﷺ، وإعلانهم للمسلمين أنه ليس هذا هو النبي المنتظر، ثم بدؤوا محاولة الدس والافتراء.

٦ - كان هناك خلاف مستحكم بين الأوس والخزرج، وكانت بينهم أيام وحروب في الجاهلية، وآخرها يوم بعاث، ولا يزال في النفوس شيء منها.

كان على رسول الله ﷺ أن يحل هذه المشكلات جميعها بأن يزيل آثار الماضي، ويوحد قلوب المسلمين، ويوجد حلاً للمعضلة المالية، ويؤلف بين سكان المدينة من مسلمي الأوس والخزرج والمهاجرين، ويجعلهم كتلة واحدة تقف في وجه اليهود فيما إذا أرادوا الغدر وهو ديدنهم في الحياة، وأن يعاهدهم ما دام لم يظهر منهم شيء.

كان أول عمل قام به رسول الله ﷺ أن بنى المسجد العام في الفناء الذي بركت فيه ناقته، وذلك بعد عمارة مسجد قباء، وكان الفناء مربداً للتمر وفيه قبور وشجرات نخل، وجذوع هرمة، وحفر مهجورة، فنبشت

القبور، وقطعت الجذوع، وسويت الحفر، واشترك المسلمون جميعاً في هذا العمل بما فيهم رسول الله ﷺ، وكانت تنشد الأراجيز وكان أول عمل تعاوني عام، وحد بين القلوب، وأظهر الهدف العام للعمل.

وكان لكل حي في المدينة مكان يلتقون فيه، يسمرون ويسهرون، يتقايضون، وينشدون الاشعار، فكانت هذه الحال تدل على التفرقة والاختلاف. فعندما بني المسجد كان مركز المسلمين جميعاً ومكان تجمعهم، يلتقون به في كل حين، يسألون رسول الله ﷺ، فيأخذون منه، يرشدهم ويوجههم، يبيعون ويشترون، ويستقبلون ويجتمعون، حتى إذا حدثت أصوات تزعج المصلين خصص جانب من المسجد لأعمال الدنيا، وآخر للصلاة والعبادة. بهذا تجمعت الأندية، والتقت الأحياء، واقتربت القبائل، وتحابت البطون، وانقلبت التفرقة إلى وحدة، وانتقلت التجزئة إلى انسجام، ولم تعد في المدينة جماعات بل جماعة واحدة، ولم تعد زعامات بل قائد واحد هو رسول الله ﷺ يتلقى من ربه، ويعلم أمته.

ولم يكن المسجد مركزاً لحي معين أو أسرة خاصة كدار الأرقم بن أبي الأرقم رضي الله عنه في مكة، وإنما أصبح عاماً للمسلمين كافة، يأتيه المسلم في الوقت الذي يراه، ولم تعد ضرورة لوجود جماعة إسلامية معينة ولا للدعوة السرية التي كانت موجودة في مكة، وإنما أصبح المسلمون كلهم صفاً واحداً، ترعاهم الدولة متمثلة بقيادة الجماعة التي كانت ترعى جماعة مكة. وقد خفي هذا الأمر على الكثيرين، فأنكروا قيام جماعة بعد أن اكتمل الإسلام في المدينة، وأنه لا ضرورة لوجود الجماعة بعدها حيث لم تكن في المدينة جماعة، ولكن العصر الذي نحن فيه إنما يتمثل بمكة حيث لا توجد دار إسلام ولا دار حرب.

إننا نعيش في المجتمع المكي بكل ما في هذا المجتمع من مقومات ومعان، لذا فإننا نستفيد من خطوات رسول الله ﷺ في مكة، ونسير على نهجه، وهو القدوة الحسنة لنا، ولكننا وإن كنا نعيش في مجتمع مكة إلا أننا لا نطبق

ما كان يطبقه المسلمون في مكة، ولكننا نطبق الإسلام الذي اكتمل في المدينة، قبيل وفاة رسول الله ﷺ بقليل. فلا يصح أن ندع شيئاً أنزل، أو أمر به رسول الله ﷺ أو فعله إذ قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ (١). تأخذ طريقة رسول الله ﷺ التي استطاع بها أن يتغلب على المجتمع الجاهلي في الوقت الذي نطبق على أنفسنا، ونلزمها تعاليم الإسلام كافة.

المؤاخاة: كان من نتائج العمل الأول لرسول الله، وهو بناء المسجد أن امتزجت النفوس والعقليات، وتقوت الوحدة، وتآلفت الأرواح، وتعاونت الأجسام، فكان المسجد مركزاً لعملهم وندوة لهم ـ إن صحّ هذا التعبير ـ ثم جاء عمل رسول الله ﷺ الثاني تأكيداً للأول وزيادة في مفهوم وحدة النفوس، فكانت المؤاخاة. ولم تكن المؤاخاة بين المهاجرين والانصار(٢)، وإنما بين المسلمين، ولم تكن الغاية منها مادية بحتة واقتصادية صرفة، وهو المتعارف عليه والمشهور، وعلى هذا يركز المؤرخون، إذ لو كانت كذلك لكانت فعلاً بين المهاجرين والأنصار فقط ولكننا نجد أن رسول الله آخى بينه ـ وهو سيد البشر ـ وبين ابن عمه علي بن أبي طالب وكلاهما مهاجر. وبين عمه حمزة بن عبد المطلب وبين مولاه زيد بن حارثة وكلاهما مهاجر، وبين الزبير بن العوام وعبدالله بن مسعود وكلاهما مهاجر، وبين جعفر بن أبي طالب ومعاذ بن جبل وجعفر غائب وبين بلال وعبدالله الخثعمي وكلاهما مهاجر، وكذلك كانت بين أنصاري وآخر فلو كان الجانب اقتصادياً صرفاً لما كانت المؤاخاة بهذا الشكل.. وكذلك لو كانت الغاية من المؤاخاة اقتصادية لكانت بين مهاجر وعدد من الأنصار حتى يمكنهم مساعدته فالأنصار أكثر من

---

(١) المائدة: ٤.

(٢) ترد في بعض النصوص المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار والقصد منها بين المسلمين إذ لم يكن المسلمون يومذاك إلا المهاجرون والأنصار. وهذا ما يفهم من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

المهاجرين، ويشكلون أكثر من ثلاثة أمثالهم، ثم لو كانت الغاية من المؤاخاة اقتصادية فحسب لآخى رسول الله ﷺ بين أغنياء الأنصار وفقراء المهاجرين، ولكن هذا لم يحدث أبداً. ولكن إيثار الأنصار رضوان الله عليهم وبعض المظاهر والحوادث هي التي جعلت المؤرخين ينظرون إلى هذا الجانب فقط، ويركزون عليه، الأمر الذي جعل المستشرقين يعتمدون على هذا ويبحثون في الجانب الاقتصادي، ويستنتجون أن المادة هي رائد كل موقف من مواقف المسلمين. وقد كتب حمزة بن عبد المطلب وصيته قبل غزوة أحد لأخيه زيد بن حارثة. وعندما أنشأ عمر بن الخطاب الدواوين وسأل بلالاً عن حقه، ولم يكن لبلال عقب قال: هو لأخي عبدالله بن عبد الرحمن الخثعمي أبي رويحة. ولننظر إلى سعد بن الربيع يقول لأخيه عبد الرحمن بن عوف: «إني أكثر الأنصار مالاً، فاقسم مالي نصفين، ولي امرأتان فانظر أعجبهما، فسمها لي، أطلقها، فإذا انقضت عدتها، تزوجها»[1] فأجابه عبد الرحمن: «بارك الله لك في أهلك ومالك، ولكن دلني على السوق، فإني رجل تاجر»، هذا الإيثار من الأنصار، والمساعدة التي قدموها بلا منة، والعون الذي لا ترفع فيه، إنه الحق الذي يدفعه الرجل لأخيه فيريح به نفسه، والأمانة التي يؤديها فيرفعها عن كاهله، وقد قال الله تعالى في هذا الايثار: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ۝٨ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ

---

(١) سعد بن الربيع أكثر الأنصار مالاً، وعبد الرحمن بن عوف تاجر له خبرة في التجارة حتى لا يحتاج إلى مساعدة وقد آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم، بينهما رغم غنى الأخوين.

المفلحون[1]

فلقد كان الانصار يستبقون لاستقبال المهاجرين واستضافتهم حتى أصبحوا يقترعون فيما بينهم لأخذ إخوانهم القادمين، ولا يوجد أجمل من هذه المحبة وهذه الأخوة وهذا الإيثار، ولم يعش المهاجرون عالة على الأنصار ـ كما يتصور بعضهم ـ بل انصرفوا يعملون في الزراعة والتجارة، ويجنون منها الكسب الحلال مستعينين بالصبر والنشاط وكرم إخوانهم الانصار، ولم يقبلوا أن يكونوا عالة على المجتمع، فالمسلم لا يقبل إلا أن يكون بنّاءً ومنتجاً في المحيط الذي يعيش فيه. إنه كرم الأنصار، وعفة المهاجرين، وأخوة الإيمان، وهكذا يجب أن يستقبل المسلمون في كل عصر إخوانهم الذين يأتون إليهم إما لدعم مجتمعهم الناشىء أو فراراً من حكم غاشم يريد أن يفتنهم عن دينهم ويسومهم سوء العذاب.

إن هذه المؤاخاة قد جعلت المسلمين من مهاجرين وأنصار من أوس وخزرج أمة واحدة وكتلة واحدة متراصة، يشد بعضها بعضاً، ويمكن أن يقفوا وقفة واحدة أمام يهود إذا ما حدثتهم أنفسهم بالغدر، ولم يبق للأحلاف بين يهود وسكان يثرب من الأوس والخزرج إلا أثر من خيوط واهية أوهى من خيط العنكبوت. ولم تعد هناك خلافات بين الأوس والخزرج أو بين قبيلة وثانية فالإسلام يجبّ ما قبله، وغدا الجميع أسرة إسلامية واحدة كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى. وأصبحت العقيدة هي التي تربط بين النفوس وتسمو على كل رابطة سواها من روابط الدم والنسب والعصبية والقوم والولاء، وغدا المسلمون من سكان المدينة إخواناً متحابين في الله، وكان الرجل منهم بمجرد أن يدخل في الإسلام يترك قبل انتسابه إليه كل رواسب الجاهلية من خلاف وتناحر وعصبية وتفاخر، ويدخل إليه نقي القلب طاهر النفس، ليرفد المجتمع الإسلامي، ويزيده عضواً، ويكون لبنة من لبناته يساهم في دعمه

---

(١) الحشر: ٨-٩.

وبناته، يشعر بالراحة حين يرى السعادة تخيم على الآخرين. وما استدار العام حتى لم تبق دار من دور الانصار إلا وأسلم أهلها إلا ما كان من خطمة، وواقف، ووائل، وأمية، وتلك أوس الله، وهم حي من الأوس بقوا على شركهم.

ولم تكن تلك المؤاخاة معاهدة دوّنت على الورق فحسب ولا كلمات قيلت باللسان فقط وإنما كانت مؤاخاة سجلت على صفحات القلب، وارتبطت بشغافه، فكانت أقوى من التدوين الذي يمكن أن يزول، وأمتن من الكلمات التي يمكن أن تفسر وتغيّر، كانت أسمى من كل معاهدة سطرها البشر في سجله منذ أن وجد البشر، وأسمى من كل اتفاق يمكن أن يعقده إنسان، إنها كانت عهداً أمام رسول الله ﷺ، كلمات خرجت من القلب، شهد عليها الله ورسوله وكفى بهما شهيدين، إنها مؤاخاة في القول والعمل، في المال والنفس والمتاع والأملاك، في العسر واليسر.

الموادعة: وبعد هذه المرحلة انتقل رسول الله ﷺ ليوادع يهود لتكون المدينة كلها مسلمها وكافرها يداً واحدة أمام الأعداء من الخارج، إذ أن قريشاً ربما تفكر في القيام بعمل ضد المدينة، ومن ناحية ثانية حتى يمكن تطبيق النظام داخل هذه المدينة المنبعثة من جديد. وكتب رسول الله ﷺ كتاباً بين المهاجرين والانصار، وادّع فيه يهود وعاهدهم، وأقرهم على دينهم وأموالهم، وشرط لهم واشترط عليهم: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم، فلحق بهم، وجاهد معهم أنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرين من قريش على ربعتهم[1] يتعاقلون بينهم، وهم يفدون عانيهم[2] بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو عوف على ربعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، كل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون

---

(١) الربعة: الحال التي جاء الإسلام، وهم عليها.

(٢) العاني: الأسير.

معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وإن المؤمنين لا يتركون مُفرحاً[1] بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل. وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه، وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة[2] ظلم، أو إثم، أو عدوان، أو فساد بين المؤمنين، وإن أيديهم عليه جميعاً، ولو كان ولد أحدهم، ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر، ولا ينصر كافراً على مؤمن، وإن ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم، وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس، وإنه من تبعنا من يهود، فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم، وإن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله، إلا على سواء وعدل بينهم، وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً، وإن المؤمنين يبيء بعضهم على بعض، بما نال دماءهم في سبيل الله، وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه، وإنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً، ولا يحول دونه على مؤمن، وأنه من اعتبط[3] مؤمناً قتلاً عن بيّنة، فإنه قود

---

(١) المفرح ـ بوزن معدم ـ هو المثقل بالدين والكثير العيال.

(٢) الدسيعة: العظيمة.

(٣) اعتبطه: قتله بلا جناية منه توجب قتله.

به إلا أن يرضى ولي المقتول، وإن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه، وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر، أن ينصر محدثاً ولا يؤويه، وأنه من نصره أو آواه، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل. وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء، فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد ﷺ. وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم أو أثم، فإنه لا يوتغ[1] إلا نفسه، وأهل بيته. وإن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف وإن ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف، إلا من ظلم أو أثم، فإنه لا يوتغ إلا نفسه، وأهل بيته، وإن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم، وإن لبني الشطيبة مثل ما ليهود بني عوف، وإن البر دون الإثم، وإن موالي ثعلبة كأنفسهم؛ وإن بطانة يهود كأنفسهم؛ وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ؛ وإنه لا ينحجز على ثأر جرح؛ وإنه من فتك فبنفسه فتك، وأهل بيته؛ إلا من ظلم، وإن الله على أبر هذا[2]؛ وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم؛ وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة؛ وإن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم؛ وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم؛ وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين؛ وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وإن الجار كالنفس غير مضارّ ولا آثم؛ وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها. وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مردّه إلى الله عز وجل، وإلى محمد رسول الله ﷺ، وإن الله على أتقى ما في هذه

---

(١) يوتغ: يهلك.

(٢) على أبر هذا: أي راض كل الرضى عن هذا.

الصحيفة وأبرّه، وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها، وإن بينهم النصر على من دهم يثرب، وإذا دعوا إلى صلح يصالحون ويلبسونه، فإنه يصالحونه ويلبسونه وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك، فإنه لهم على المؤمنين، إلا من حارب في الدين، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم، وإن يهود الأوس، مواليهم وأنفسهم، على مثل ما لأهل هذه الصحيفة، مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة. وإن البر دون الإثم، لا يكسب كاسب إلا على نفسه، وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره، وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم، وإنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم أو أثم، وإن الله جار لمن بر واتقى، ومحمد رسول الله ﷺ»[1].

وبهذا أصبح أهل المدينة جميعاً على اختلاف فئاتهم يداً واحدة ضد الأعداء الخارجين على تطبيق النظام، ويبدو من هذه الموادعة والمعاهدة:

١ ـ أن للجماعة الإسلامية شخصية دينية وسياسية، ومن حقها أن تؤمّن المطيع وتعاقب المفسد.

٢ ـ الحرية الدينية مكفولة للجميع ما لم يحصل من طرف ظلم أو إثم.

٣ ـ على سكان المدينة من مسلمين وغيرهم أن يتعاونوا مادياً وعسكرياً وأدبياً، وعليهم أن يردوا متساندين أي اعتداء قد يوجه لمدينتهم.

٤ ـ رسول الله ﷺ هو الرئيس الأعلى لسكان المدينة جميعهم.

٥ ـ الأمة تضم الجماعة التي تعتقد عقيدة واحدة بغض النظر عن الجوار والقرابة أو الأرض أو النسب أو المصلحة أو اللغة أو الهوى فكل هذا يداس بالأقدام أمام العقيدة، فالمسلمون يؤلفون أمة واحدة، ويؤلف اليهود أمة واحدة على الرغم من الجوار واللغة والأحلاف السابقة.

هذا بالنسبة إلى العمل داخل المدينة أو ما يسمى اليوم الجبهة الداخلية،

---

(١) سيرة ابن هشام ١/٥٠١-٥٠٤.

أما الجبهة الخارجية فعلى المسلمين أن يخضعوا القبائل التي تعيش حول المدينة والتي يحالف بعضها سكان يثرب، وكلها تعرف مداخل المدينة وعلى اتصال دائم بمن في داخلها وتفاعل تام معهم.. وذلك حتى لا يكونوا أعواناً للأعداء الخارجين، فإن أثرهم ملموس، وإن كان أقل نسبياً من أثر من يعيش في الداخل، وفي الوقت نفسه فعليهم أن تبرز قوتهم خارجياً حتى لا تطمع بهم القبائل، وتسعى قريش في القضاء عليهم هذا من جهة ومن جهة ثانية فإن القوة تساعد على انتشار الإسلام ووصول أخباره إلى بقية القبائل وفي كل الاتجاهات إذ أن الضعيف لا يهتم به أحد ولا يسمع به أحد، ويخاف الناس أن يعتنقوا فكرة أصحابها وهم على درجة من الضعف. هذا عموماً، وبالأخص في ذلك الوقت من الجاهلية التي كان فيها يأكل القوي الضعيف، ويسطو عليه، ويغزو أرضه، ويشن الغارات عليه. ولهذا رأى رسول الله ﷺ أنه لا بدّ من إرسال السرايا إلى أطراف المدينة لإثبات الوجود بالاصطلاح الحديث، ولجعل قريش تعترف بالوضع الجديد، وهذا يشبه ما يحصل هذه الأيام عندما تتسلم فئة ما الحكم في بلد، فإنه يسعى إلى أن يثبت وجوده حتى تعترف به بقية الدول.

المجتمع: اتجهت الآيات القرآنية إلى التشريع لهذا المجتمع الجديد. وتطبق هذه النظم في جميع مجالات الحياة، وعاشت المدينة الحياة الفاضلة التي يحلم بها بنو البشر، من إخوة صادقة، وصدق في المعاملات والحياة، وتكافل تام بين الأفراد جميعهم، وبقيت هذه المدينة أنموذجاً لكل من يريد السعادة في الدنيا والآخرة. ووضع رسول الله ﷺ الأسس السياسية والاقتصادية والاجتماعية للمجتمع الجديد، وأصبحت يثرب تعيش في إطار واحد في ظل نظام واحد هو النظام الإسلامي، ومحمد بن عبدالله ﷺ هو القائد الأعلى له، لذا كان السكان يؤلفون في المدينة مجتمعاً خاصاً هو المجتمع الإسلامي.

والمجتمع هو جماعة من الناس تعيش في مكان واحد، وتخضع لمنهج واحد، وليس من الضروري أن يكون كل من يخضع لنظام معين مؤمناً به،

عاملاً له، فليس كل من يعيش في ظل النظام الاشتراكي اشتراكياً يعتقد بصلاحية النظام، وليس كل من يحيا ضمن المجتمع الرأسمالي يُعدّ رأسمالياً يؤمن بصحة النظام، ويدعو له، ولكن هذا يعدّ ضمن المجتمع الرأسمالي، ويعد ذاك في عداد المجتمع الاشتراكي.

في المجتمع الواحد تختلف العقيدة، وتتباين الآراء، والنظام الذي يسود المجتمع، ويطبق عليه، هو الذي يعرف به، وعندما نقول المجتمع الإسلامي في المدينة فإنما يشمل كل من يسكن المدينة آنذاك، ويخضع لنظامها العام على الرغم من وجود عدة فئات مغايرة في الفكرة، متباعدة في الهدف، ففي المدينة المسلمون، وأهل الكتاب من اليهود، والأعراب فيها وما حولها الذين لا يزالون على الوثنية، إضافة إلى المنافقين الذين يتظاهرون بالإسلام، وهم ضده، ولكن النظام الإسلامي هو الذي كان يلفّ هؤلاء جميعاً، إذ كان محمد رسول الله ﷺ هو الرئيس الأعلى لسكان المدينة كلها - كما رأينا - فلو وقع خلاف بين مسلم ويهودي لطبق عليهما حكم الله، ونفذ على كليهما، أما إذا وقع بين يهوديين فلهما أن يتحاكما أمام لجنة يهودية، أو يحكما التوراة، والأعراف بينهما، وفي الوقت نفسه لهما أن يتحاكما إلى الشريعة الإسلامية، ولهذا نقول عن المجتمع إنه إسلامي لأنه يخضع لنظام الإسلام.

وإذا كنا قلنا عن جماعة المسلمين في مكة: إنهم يشكلون مجتمعاً إسلامياً، ولم تكن لهم هيمنة على مكة، بل لم تكن لهم سلطة، فذلك لأنهم كانوا يؤلفون مجتمعاً خاصاً منفصلاً شعورياً تمام الانفصال عن المجتمع المكي الوثني، ويعدون لأنفسهم كياناً خاصاً، ويخضعون لنظام خاص يطبقونه على أنفسهم، ولم تكن مفهومات قريش وأحكام الجاهلية لتطبق عليهم، أو لم يكن للجاهلية أي تأثير عليهم، ولهم رئيس أعلى يرجعون إليه في كل أمر، وتنفذ أحكامه بدقة، ولا يجدون حرجاً مما يقضي، ويسلمون التسليم كله.

ظنّ بعض المسلمين أنهم قد حصلوا على الراحة التامة بعد المؤاخاة التي تمت والموادعة التي حصلت مع يهود، ظنوا ذلك حسب الارتياح النفسي

والقناعة الذاتية بأنهم سيعيشون حياة فاضلة بما لحظوه في المحيط الجديد مع إخوانهم الذين يشكلون أعضاء المجتمع، ولكن رسول الله ﷺ ومن بعده أصحابه الذين عرفوا حقيقة الدعوة وطبيعتها، عرفوا أنهم سيخوضون معركة قاسية طويلة مع المجتمع الذي يعيشون فيه، ومع المحيط الذي حولهم، ثم مع العالم المعروف آنذاك، والمأهول كله. وقتذاك علموا أنهم سيحاربون على عدة جبهات، بعضها داخلية في المدينة ذاتها، وبعضها خارجية مع قريش وبقية القبائل العربية الجاهلية، ثم مع الدول الكبرى يومئذ.

الأعداء في الداخل:

أ ـ **اليهود**: سيحاربون على الجبهة الداخلية العداوة المتأصلة في طبيعة بعض العناصر الذين يشكلون جانباً من مجتمع المدينة، ويعادون كل شيء ليس لهم فيه نصيب، أو ليسوا الرأس فيه، حسداً وغيظاً، ألا وهم يهود. حدثت صفية بنت حيي بن أخطب، أم المؤمنين رضي الله عنها فقالت: كنت أحب ولد أبي إليه، وإلى عمي ياسر، فلم ألقهما قط مع ولد لهما إلا أخذاني دونه، قالت: فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة، ونزل قباء في بني عمرو بن عوف، غدا عليه أبي حيي بن أخطب وعمي ياسر بن أخطب مغلسين، فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس، فقالت: فأتيا كالين كسلانين ساقطين يمشيان الهوينا، قالت: فهششت إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما التفت إلي واحد منهما، لما بهما من الغم، قالت: وسمعت عمي ياسراً يقول لأبي حيي بن أخطب:

أهو هو؟ يعني النبي صلى الله عليه وسلم.

قال: نعم، والله.

قال: أتعرفه وتثبته؟.

قال: نعم.

قال: فما في نفسك منه؟.

قال: عداوته والله ما بقيت.

وحدّث عبدالله بن سلام ـ وكان يهودياً ثم أسلم ـ قال جئت رسول الله ﷺ فقلت له: يا رسول الله إن يهود قوم بُهت، وإني أحب أن تدخلني في بعض بيوتك، وتغيبني عنهم، ثم تسألهم عني، حتى يخبروك كيف أنا فيهم، قبل أن يعلموا إسلامي، فإنهم إن علموا بهتوني. وعابوني، قال: فأدخلني رسول الله ﷺ في بعض بيوته، ودخلوا عليه وكلموه وسألوه، ثم قال لهم: أي رجل الحصين بن سلام فيكم؟ قالوا: سيدنا وابن سيدنا، وحبرنا وعالمنا، قال: فلما فرغوا من قولهم خرجت عليهم فقلت لهم: يا معشر يهود، اتقوا الله، واقبلوا ما جاءكم به فوالله إنكم لتعلمون إنه لرسول، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة باسمه وصفته، فإني أشهد أنه رسول الله، وأؤمن به وأصدقه وأعرفه، فقالوا: كذبت ثم وقعوا بي، قال: فقلت: يا رسول الله، ألم أخبرك أنهم قوم بهت، أهل غدر وكذب وفجور؟.

هذه إحدى جبهات المعركة الداخلية التي سيخوضها المسلمون. وقد ظنّ يهود وهم من أعضاء هذه الجبهة الرئيسية أن المدة إن طالت ضاعت عليهم الفرصة، وتمكن الإسلام في المدينة، لذا لا بد من إثارة الفتنة وإيقاع الخلاف بين هؤلاء الإخوة المتحابين، وإعادة الخلافات العصبية، وإشعال نار الحرب القبلية، وصادف أن مرّ أحد زعماء يهود وهو (شاس بن قيس) على جماعة من الأوس والخزرج، وقد صفا لهم الجو، وراقت لهم الحياة، بعد أن أبعد الإسلام عنهم روح الجاهلية، فساءه هذا الاتفاق، ودعا أحد شباب يهود الذين يجلسون مع هؤلاء النفر من الأنصار، وأمره أن يذكر أمامهم يوم بعاث وما قبله، وينشد ما قيل من أشعار في تلك الأيام الجاهلية لإثارة الفتنة، ففعل، وقد كادت تقع، حتى تواعدوا ظاهر الحرة، على حين غفلة من الروح التي غرسها فيهم الإسلام، ووصل الخبر إلى رسول الله ﷺ، فأسرع إليهم، فوقف فيهم خطيباً وقال: «يا معشر المسلمين، الله الله، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام، وأكرمكم به، وقطع عنكم به أمر الجاهلية، واستنقذكم من الكفر، وألّف بين قلوبكم، فما

أن سمع الأنصار قول رسولهم حتى انقلبوا بنعمة الله إخواناً، وزالت من نفوسهم وساوس الشيطان ودعوى الجاهلية. ولكن يهود لم ينقطعوا عن الفتنة، ولم يتركوا استغلال المناسبات لإثارتها محاولين تهديم المجتمع الإسلامي وتقويض أركانه.

٢ ـ **المنافقون**: علم المسلمون أنهم سيحاربون على الجبهة الداخلية رجالاً همهم الزعامة والمصلحة والجاه، هؤلاء يظهرون وقت السلم والرخاء، ويتطلحون للقيادة، ويختفون أثناء الشدة، ليعملوا من الخلف، ويتهجموا على قائد الحركة وأصحابه وأنصاره، كان على رأس هؤلاء عبدالله بن أبي بن سلول، رأس النفاق، وهو من الخزرج، وقد اتهم رسول الله ﷺ يوم بدر بالغرور، وقد نصح أصحابه ـ بعد معركة بدر ـ أن يعلنوا إسلامهم، حين قال مشيراً إلى اشتداد شوكة المسلمين: هذا أمر قد توجه، فلا مطمع في إزالته، ثم أعلن إسلامه، وتبعه على ذلك فئات المنافقين، فتظاهروا بالإسلام، ولكنهم مع هذا ظلوا في الباطن يتربصون به الدوائر، وقد سبقه جماعة أظهروا الإسلام، والله يشهد إنهم لكاذبون. وقد بلغ بهؤلاء المنافقين الأوائل أن شيدوا مسجداً ضراراً للتفريق بين المسلمين، وهو على طبيعتهم، ظاهره العبادة، وحقيقته التجزئة، وإمكانية الحركة للمنافقين، وتنسيق جهودهم، وأخبر رسول الله ﷺ بحقيقة أمره، فأمر بهدمه، يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ. لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ

بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[1]

وبعد تهديم مسجد الضرار عاد المنافقون يجتمعون في المسجد النبوي بعضهم مع بعض، ويسخرون من المسلمين، ويهزؤون، ويشيعون الأكاذيب، وقد رآهم رسول الله ﷺ يوماً يتحدثون فيما بينهم، خافضي رؤوسهم، وقد لصق بعضهم ببعض، فأمر بهم، فأخرجوا من المسجد إخراجاً عنيفاً، ولكن المنافقين لم ينقطعوا عن الفتنة، ولم يتركوا استغلال المناسبة لإثارتها محاولين تهديم المجتمع الإسلامي، وتقويض أركانه وراء مصالحهم، ولم يفت تصرف المسلمين وحكمة رسول الله ﷺ في عضدهم كثيراً بل استمروا في غيهم.

٣ ـ **أصحاب المصالح:** علم رسول الله ﷺ أن المسلمين سيحاربون على الجبهة الداخلية الأعراب الذين في المدينة وما حولها، هؤلاء الأعراب الذين لا يعرفون من الحق إلا ما يتفق مع مصالحهم، ولا يسيرون إلا وراءه، ولا يسعون وراء البينة لذلك يقودهم هواهم، وفوق ذلك فهم جهلة سذج يستطيع أقل الناس أن يغير آراءهم، ويعدل مواقفهم، وقد أفاد يهود والمنافقون من هذه السذاجة، فكانوا يحرضونهم ضد المسلمين لأخذ أموالهم والإغارة على أملاكهم وبيوتهم، فلم يكن للأعراب موقف محدد يسلك المسلمون مقابله سلوكاً معيناً، وهذه خطورة الجهل، لذا كان الإسلام حرباً على الجهل وكل ما يمت إليه بصلة.

وقد استطاع المسلمون بفضل الله ورعاية رسول الله ﷺ، وإيمانهم، وحسن تطبيقهم، وتصرفهم، وانقيادهم لأوامر رسول الله أن يبقوا على تماسكهم، وأن يحفظوا وحدة صفهم، وبفضل هذا التماسك استطاع المسلمون

---

(١) التوبة: ١٠٧ ـ ١١٠.

أن يقفوا في وجه هذه العداوات كلها، وأن يخرجوا من معاركهم ظافرين.

إن المعارك التي خاضها المسلمون في أول عهدهم في المدينة هي نفسها التي يخوضونها اليوم في كل مكان، والأعداء هم الأعداء أنفسهم، والأسلوب هو نفسه، والجبهة هي نفسها، وإن اختلف الزمن، وتبدلت الأسماء، وتغيرت الصور، وتحولت المفاهيم، وتباينت المخططات والدراسات حيث دخلت اليوم المناهج العلمية والبحوث النفسية، فكان وقعها أشد، وأثرها أعظم، واحتمال نجاح العدو أكبر، مع ضعف المسلمين اليوم، وتركهم أوامر نبيهم وتعاليم دينهم.

الأعداء خارج المدينة: أما الجبهة الخارجية فكان القصد منها ـ كما ذكرنا ـ فرض الهيمنة على القبائل والأعراب المجاورين للمدينة، وإثبات الوجود حتى تعترف قريش بوضع المسلمين في المدينة، وإظهار القوة حتى ينتشر الإسلام بين القبائل، ويشعر الفرد المسلم أينما كان، ومن أية قبيلة كان أن هناك قوة تحميه، وينتسب إليها، وكما ذكرنا فإن الضعيف لا ينتشر اسمه، ولا يعرف خبره ولا ينتمي إليه أحد بعيد عنه، والدعوة بحاجة إلى انتشار خبرها وحماية أتباعها. وكانت هذه الغاية ـ في هذه المرحلة ـ من تأسيس الدولة. وكانت تتمثل هذه الجبهة بالدرجة الأولى في قريش التي اضطهدت رسول الله ﷺ والمسلمين معه اضطهاداً يدل على غطرستها وتكبرها، حتى خرجوا من بلدهم مكة، ثم هناك القبائل العربية التي كانت جزيرة العرب مجال تنقلها، والتي كانت تدين بالوثنية، وتخضع لأحكام جاهلية كقريش، هذا إضافة إلى كل دول العالم المعروفة آنذاك، والتي طغى عليها الكفر، وعرفت بالظلم، وخاصة دولتي فارس والروم اللتين كانتا على تخوم بلاد العرب، واللتين كان لهما نفوذ على بعض قبائل العرب المجاورة لهما، كما لا توجد بقعة في أرض العرب لا ينظر سكانها إلى هاتين الدولتين نظرة الاحترام والتقدير من جهة ونظرة الخوف والخشية من جهة ثانية، وتنظر هاتان الدولتان إلى العرب نظرة الازدراء والامتهان، وتعدهم متأخرين،

يعيشون في بواديهم وقراهم على الشح والقلة لذا فإن بدرت منهم بادرة، أسكتوهم بحفنات قليلة من المال أو الطعام، يعودون بها إلى فيافيهم شاكرين حسن الصنيع، الذي لا يضيع معهم للوفاء، فيكونون أعواناً أوفياء، أو أنصاراً عملاء. وإذا حدث خلاف بين قبائل العرب تقوّى طرف على خصمه بإحدى الدولتين، فالغساسنة أعوان الروم، والمناذرة أنصار الفرس، وامرؤ القيس يلحق بقيصر ليستعيد ملك أبيه المغتصب و....

أ ـ قريش: كان رسول الله ﷺ مطمئناً إلى أن أول صدام سيكون مع قريش عدو المسلمين الأول، والتي لا تزال تسعى للقضاء على الإسلام، وتظن أن بمقدورها ذلك، فتحبس المستضعفين في مكة، وتحول دون التحاقهم بالركب الإسلامي في المدينة.

كانت قريش تشكل مجتمعاً تجارياً، ينتقل أفرادها إلى الشمال وإلى الجنوب، في رحلتي الصيف والشتاء، وكان ذهابهم شمالاً في الصيف يتم عن طريق المدينة أو المسالك القريبة منها، فكانت هذه البقعة نقطة التماس بين الجانبين، أو ستكون، وفيها يمكن أن تدور رحى المعركة المرتقبة، لذا كان على المسلمين أن يعرفوا هذه الأرض معرفة جيدة، إذ لا يمكن لجماعة أن تخوض معركة في أرض لا تعرف معالمها، هذا بالإضافة إلى أن سكانها يمكنهم أن يلعبوا دوراً في هذه الحرب، أو تكون لهم يد في التحرش بين الطرفين بسبب غدو قوافل قريش ورواحها منها.

مضى على الهجرة ما يقرب من ستة أشهر، وطد القائد عليه الصلاة والسلام خلالها الجبهة الداخلية، ونظم أمورها، وبدأ يستعد بعدها للجبهة الخارجية والقتال المنتظر، فأخذ يسيّر السرايا، وينطلق مع الغزوات، وإن كانت استطلاعية بالدرجة الأولى غايتها معرفة الطرق التي حول المدينة، والمسالك المؤدية إلى مكة، وفجاج المنطقة التي هي ممر لقوافل قريش، ثم التعرف على القبائل التي تقيم على تلك الأرض لإمكانية كسبها للإسلام، أو

لصف المسلمين في البداية، أو لضمان حيادها على الأقل فيما إذا اندلعت نار الحرب بين المسلمين وقريش في مواطن تلك القبائل ومنازلها، ثم إن استطاعت هذه السرايا التعرض لقوافل قريش، ومنعها، أو أخذها لإضعافها اقتصادياً، وإثبات الكيان الإسلامي، وإجبار قريش على الاعتراف بهذا الكيان، ثم نشر تلك الأخبار بين قبائل العرب كلها لمعرفة قوة المسلمين وضعف قريش، وإظهار أن المسلمين قد أصبحوا أكبر قوة في الجزيرة، وإسماع أصقاع الأرض المأهولة آنذاك - إن استطاعوا - بخير هذا الدين الجديد، ومبادئه السامية التي تتماشى مع فطرة البشر، وأنه تنزيل من خالق البشر، ومدبر الكون، فيقبل عليه الناس، ولا يخشون طواغيتهم إذ أن وراءهم قوة رادعة، وبهذا تنتشر الدعوة.

الغزوات والسرايا الاستطلاعية:

بلغ عدد تلك الفرق الاستطلاعية أربع غزوات وأربع سرايا، ابتدأت في شهر رمضان من السنة الأولى، وانتهت في جمادى الآخرة من السنة الثانية للهجرة، أعقبتها سرية عبدالله بن جحش في شهر رجب لاستطلاع أخبار العدو في عقر دارهم بين الطائف ومكة في مكان (نخلة) عندما بدأ انتهاء التعرف على ساحة المعركة المنتظرة، وظهر اكتمال استعداد المسلمين نفسياً لخوض أي قتال ينشب بين الخصمين.

١ - **سرية الحمزة**: أرسل رسول الله ﷺ عمه حمزة بن عبد المطلب في ثلاثين رجلاً كلهم من المهاجرين ليعترض طريق قافلة لقريش، عائدة من الشام بإمرة أبي جهل مع ثلاثمائة رجل، فوصل حمزة رضي الله عنه، إلى ساحل البحر من جهة (العيص)، والتقى بالعير، ومع الفارق في عدد الخصمين إلا أن حمزة رضي الله عنه أصر على المواجهة مهما كانت النتائج إذ لا بد من تنفيذ أمر رسول الله ﷺ، واصطف الطرفان للقتال إلا أنه حجز بينهما أحد أفراد قبيلة جهينة وهو (مجدي بن عمرو الجهني)، ورضخ الطرفان

للتسوية، وانصرف كل إلى مقره، وقد شكر رسول الله ﷺ لمجدي صنيعه هذا لقلة عدد المسلمين يومذاك بالنسبة إلى جماعة أبي جهل.

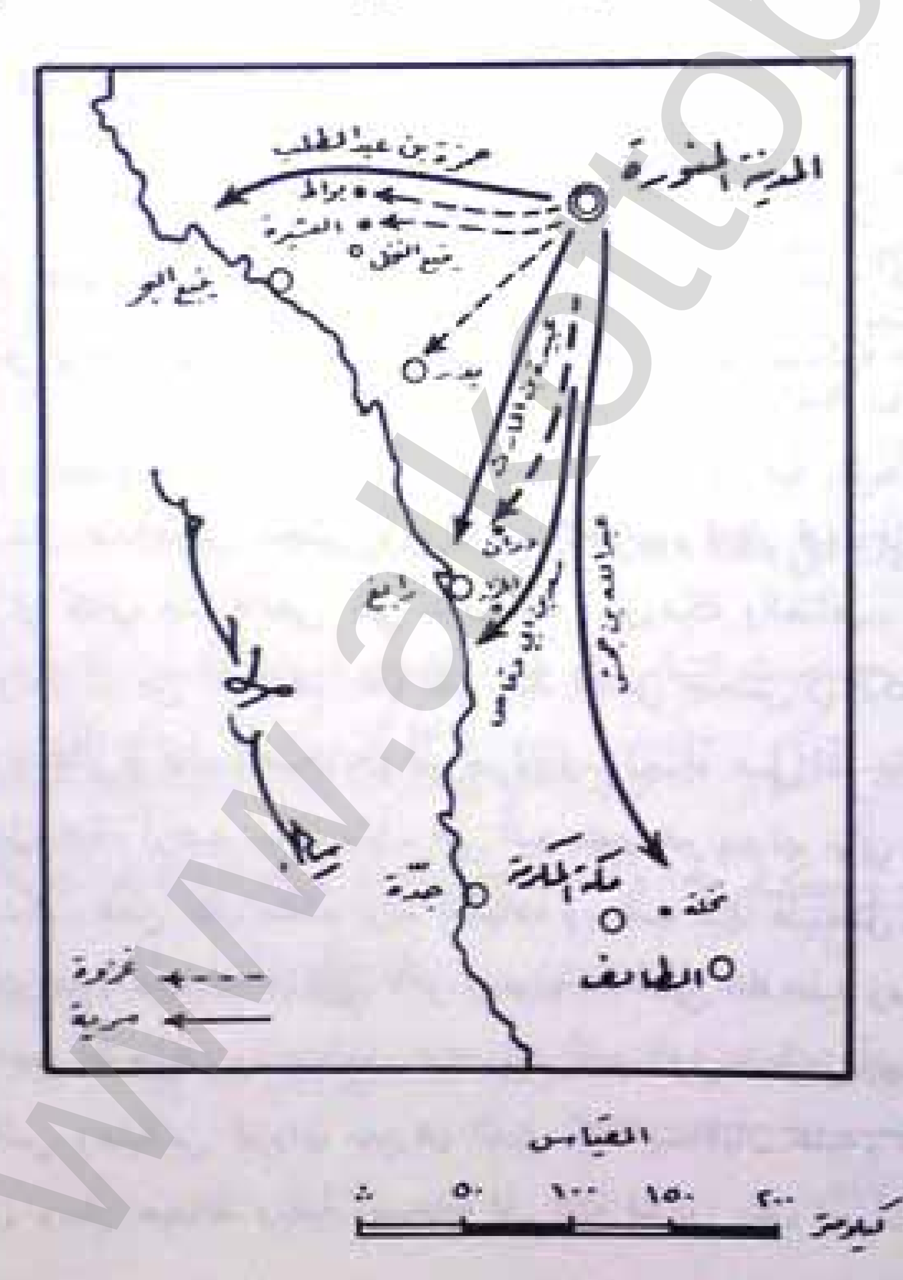
٢ - **سرية عبيدة بن الحارث:** وأرسل رسول الله ﷺ ابن عم أبيه عبيدة بن الحارث بن المطلب في شهر شوال من العام نفسه في ثمانين راكباً كلهم من المهاجرين ليعترض سبيل قافلة لقريش، تتألف من مائتي راكب، فالتقى بها قرب (رابغ) وابتدأ القتال بالرمي بالنبل، إلا أنه لم يستمر، إذ انهزم المشركون على الرغم من كثرتهم، وخافوا أن يكون المسلمون قد نصبوا لهم كميناً إذ لم يتوقعوا أن ينازل ثمانون رجلاً مائتي راكب، ولم يعرفوا بعد الروح المعنوية لدى المسلمين، وكانت عير قريش بإمرة عكرمة بن أبي جهل، وفر رجلان من المسلمين كانا مع المشركين وهما: المقداد بن عمرو وعتبة بن غزوان والتحقا بالمسلمين.

٣ - **سرية سعد بن أبي وقاص:** وأرسل رسول الله ﷺ سعد بن أبي وقاص في ثمانية رجال من المهاجرين إلى الخرار من ارض الحجاز، ولكنه لم يلق عدواً فعاد.

٤ - **غزوة ودّان:** وخرج رسول الله ﷺ بنفسه من المدينة بعد أن استخلف عليها سعد بن عبادة، وسار حتى وصل إلى (ودّان) شمال شرقي (رابغ)، وذلك من أجل أن يعترض عيراً لقريش، ولكنها فاتته، وهناك صالح بني ضمرة، وعقد معهم معاهدة على أن ينصر بعضهم بعضاً هم والمسلمون، ورجع رسول الله ﷺ بجماعته بعد غياب دام خمس عشرة ليلة.

٥ - **غزوة بواط:** لم يمكث رسول الله ﷺ في المدينة إلا قليلاً حتى بلغه أن قافلة لقريش آتية من الشام بإمرة أمية بن خلف ومعه مائة رجل، وتضم هذه القافلة ألفاً وخمسمائة بعير، فخرج رسول الله ﷺ مع مائتين من المهاجرين، باتجاه جبل رضوى، فلما وصل إلى ثنية (بواط) رأى أن القافلة قد فاتته.

٦ ـ غزوة العشيرة: ولم يمض غير وقت قصير من وصوله إلى المدينة حتى علم أن قريشاً قد أرسلت أعظم قافلة لها إلى الشام بإمرة أبي سفيان بن حرب، وليس معه إلا عدد قليل من الرجال، فخرج إليهم رسول الله ﷺ في مائة وخمسين من المهاجرين وذلك في جمادى الاولى من السنة الثانية من هجرته عليه الصلاة والسلام، واستخلف على المدينة ابن عمته أبا سلمة عبد الله بن عبد الاسد المخزومي، فلما وصل إلى (العشيرة) شمال ينبع النخل، وجد القافلة قد فاتته، فحالف بني مدلج ورجع إلى المدينة ولكنه ابقى سعيد بن زيد وطلحة بن عبيد الله ليخبراه عن عودة تلك القافلة ووجهها شمالا، إذ لاحظ رسول الله ﷺ أن الخروج والعودة دون قتال لا يمنع قوافل



قريش من التحرك نحو الشام، وتعطيل تجارتها لا يجبرها على الاعتراف بوضع المسلمين في المدينة، ولا يرتفع ذكرهم، فلا تتشجع القبائل للدخول في الاسلام إذن يجب مراقبة القافلة بل وكل قافلة أثناء حركتها، وفي أي مكان تكون كل يوم.

٧ ـ **غزوة بدر الأولى:** ولم يلبث رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة إلا قليلاً حتى أغار على المدينة (كرز بن جابر الفهري)، وهرب، فلحقه رسول الله صلى الله عليه وسلم في جماعة من قومه بعد أن استخلف على المدينة زيد بن حارثة، وتابعه حتى ناحية (سفوان) وهو أحد أودية بدر، ولكنه لم يدركه، وتسمى هذه الغزوة (بدر الأولى).

٨ ـ **سرية عبدالله بن جحش:** وعندما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة من بدر الاولى بعث في شهر رجب عبدالله بن جحش ابن عمته مع ثمانية رجال من المهاجرين، وكتب إليه كتاباً، وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين، ثم ينظر فيه، فيمضي لما أمره به، ولا يستكره من أصحابه أحداً.

فلما سار عبدالله بن جحش يومين، فتح الكتاب، فنظر فيه، فإذا فيه: إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة، بين مكة والطائف، فترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم. فلما نظر عبد الله بن جحش في الكتاب، قال: سمعاً وطاعة، ثم قال لأصحابه: قد أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أمضي إلى نخلة، أرصد بها قريشاً، حتى آتيه منهم بخبر، وقد نهاني أن أستكره أحداً منكم، فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق، ومن كره ذلك فليرجع، فأما أنا فماض لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمضى ومضى معه أصحابه، ولم يتخلف عنه منهم أحد. وفي الطريق أضل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بعيرهما الذي كانا يتعاقبان عليه، فتخلفا عن الركب، وسار عبدالله وبقية أصحابه الى نخلة فنزلوا بها، فمرت بهم قافلة

لقريش تحمل زبيباً وجلوداً، وتجارة من تجارتهم، وعليها عمرو بن الحضرمي... فلما رأوا ذلك، وكان آخر يوم من أيام رجب، رغبوا في القافلة، وخاصة أن من فيها أقل منهم عدداً، وتشاوروا في الأمر، فقال بعضهم: إن تركتم القافلة اليوم فانها ستدخل الحرم وستمتنع فيه، وتكون قد أفلتت غنيمة منكم، وقال الآخرون: لئن أخذناها لنكونن قد انتهكنا حرمة الشهر الحرام. وهذا ما أحدث التردد، وهابوا الإقدام، ثم شجعوا أنفسهم، وقرروا الهجوم على القافلة، وقتل من يمكن قتله، وأخذ العير غنيمة لهم. فتقدموا نحوها ورموها، وأصاب سهم أميرها عمرو بن الحضرمي فقتل، وأسر عثمان بن عبد الله بن المغيرة المخزومي، والحكم بن كيسان، وفر نوفل بن عبد الله بن المغيرة... وسار عبد الله بن جحش بالقافلة والأسيرين الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة. فلما وصلوا الى المدينة قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أمرتكم بالقتال في الشهر الحرام، ورفض أن يتسلم شيئاً من القافلة، وظن القوم أنهم قد هلكوا، وعنفهم إخوانهم المسلمون على ما صنعوا، واتخذت قريش ذلك ذريعة فشنت هجوماً إعلامياً على المسلمين بأن محمداً يستحل الشهر الحرام، فقد سفك أصحابه الدم فيه، وأخذوا الأموال فيه، وأسروا الرجال فيه، أما المسلمون المستضعفون في مكة فكانوا يردون على ذلك، بأن الحادثة كانت في أول شعبان.

ولما كثر حديث الناس في هذا الشأن أنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ﴾[1] وعند ذلك تسلم رسول الله ﷺ الأسيرين والعير، ولم يقبل بفداء الأسيرين بناء على طلب قريش حتى رجع سعد بن أبي وقاص وعتبة بن

---

(١) البقرة: ٢١٧.

غزوان، إذ خشي رسول الله ﷺ أن يكونا قد أسرا، وخاف عليها من قتل قريش. فلما رجعا فدى الأسيرين، فأما الحكم بن كيسان فقد أسلم وحسن إسلامه واستشهد في بئر معونة، وأما عثمان بن عبدالله فقد مات كافراً، وكانت هذه الغنيمة أول غنيمة غنمها المسلمون، وعمرو بن الحضرمي أول رجل قتلوه، والحكم وعثمان أول أسيرين أسروهما. وكان عبدالله بن جحش قد وزع على صحبه أربعة اخماس العير، وعزل الخمس الباقي لله ولرسوله، وجاء تقسيم الفيء على هذا النحو فيما بعد، وبذا يكون هذا الصحابي الجليل رضي الله عنه قد وقع على الحقيقة.

وربما كانت سرية عبدالله بن جحش إلى مكة أهم من السرايا السابقة لها رغم قلة عدد رجالها إذ كانت غزواً لقريش بعقر دارها، وذلك أنها وقعت على مقربة من مكة، كما وقع فيها قتال، وحدث أسر، وذهبت قافلة كاملة غنيمة للمسلمين، فبعُد صداها، وشعر العرب بقوة المسلمين، وارتفاع معنوياتهم، وكثرة إمكاناتهم وهذا ما يريده المسلمون، وأخذت قريش صورة مغايرة تماماً.

الشخصية المتميزة: وبينما كانت الغزوات تنطلق إلى مختلف الجهات تجوس في الأرض بين مكة والمدينة، وتدرس الطرق والفجاج، وكانت كلها من المهاجرين لأن الأنصار إنما بايعوا في العقبة على أن يحموا رسول الله ﷺ لا أن يخرجوا معه في قتال خارج المدينة، أو يتعرضوا للقوافل بعيداً عن منازلهم ولأن المهاجرين هم الذين لا يعرفون هذه البقاع من الأرض لأنهم غرباء عنها، فيجب أن يتعرّفوا عليها على حين يعرفها الأنصار ولا حاجة لمزيد من المعرفة، وبينما كانت السرايا والغزوات تسير إلى النقط المرسومة لها... كانت الجماعة الإسلامية تتكامل شخصيتها، ويتنزل التشريع يحدّد المنهج، ويرسم لها الطريقة التي توصلها إلى السعادة في الدنيا والنجاة في الآخرة.

وقد كان المسلمون يجتمعون للصلاة بمواقيتها دون دعوة، ثم فكروا أن يجعلوا بوقاً يأتي المسلمون إلى المسجد حين يسمعونه، ثم كره رسول الله ﷺ ذلك، لأنه تقليد لليهود، ثم فكروا بالناقوس، ولكن كره ذلك، وبينما هم كذلك، إذ أتى أحد الأنصار، وهو عبدالله بن زيد، وقال: يا رسول الله، إنه طاف بي هذه الليلة طائف: مرّ بي رجل عليه ثوبان أخضران، يحمل ناقوساً في يده فقلت له: يا عبدالله، أتبيع هذا الناقوس؟ قال: وما تصنع به؟ قال: قلت: ندعو به إلى الصلاة، قال: أفلا أدلك على خير من ذلك؟ قلت: وما هو؟ قال: تقول: الله أكبر الله أكبر، الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله، أشهد أن محمداً رسول الله، حي على الصلاة، حي على الصلاة، حي على الفلاح، حي على الفلاح، الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله. فقال رسول الله ﷺ: إنها لرؤيا حق، إن شاء الله، فقم مع بلال، فألقها عليه، فليؤذن بها، فإنه أندى صوتاً منك. فلما أذن بها بلال سمعها عمر بن الخطاب، وهو في بيته، فخرج إلى رسول الله ﷺ، وهو يقول: يا نبي الله، والذي بعثك بالحق، لقد رأيت مثل الذي رأى، فقال رسول الله ﷺ: فلله الحمد على ذلك. وبهذا كان للمسلمين شخصيتهم المتميزة في الدعوة إلى العبادة.

ثم اتجه المسلمون في صلاتهم إلى البيت الحرام بعد أن كانوا يتجهون إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً في المدينة، وكان رسول الله ﷺ يحب أن تكون الكعبة قبلته، وكان يقوم في الصلاة، ويدعو ربه بذلك، وبينما كان ذات يوم يصلي إذ جاءه الوحي بتحويل القبلة إلى الكعبة فتحول وتحول من وراءه، وقد فُتن بعض المسلمين بهذه الحادثة ممن كانوا ضعفاء الإيمان، وأكثر اليهود الحديث عن هذا الأمر، فكانوا يقولون: هل صلواتكم السابقة غير صحيحة؟ ولماذا هذا التحول؟ و.... فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً

وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾[1]. وبهذا كان للمسلمين قبلة، وتوجه في الصلاة متميزين عن غيرهم.

وفي شهر شعبان من السنة الثانية للهجرة فرض الله على المسلمين صوم شهر رمضان، ومن قبل كان رسول الله ﷺ يصوم في الشهر ثلاثة أيام، وصام عاشوراء، وهو ذكر خلاص سيدنا موسى عليه السلام من فرعون، وقال ليهود: نحن أولى بموسى منكم، ثم قرر صيام التاسع تمييزاً عن يهود، ولكن الله سبحانه وتعالى أوجب صوم رمضان، وأصبح للمسلمين شخصية متميزة في صومهم. كما أوجب زكاة الفطر عقب صوم رمضان.

كما أن الزكاة قد فرضت في هذا العام، وهذا النظام خاص أيضاً

---

(١) البقرة: ١٤٣-١٤٥.

بالمسلمين، وقد بيّن الشارع الوجوه التي تنفق فيها، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [1]. ولا تنفق إلا في هذه الوجوه الثمانية أما الصدقات الأخرى فحيث يرى المنفقون.

وكذلك قامت الحدود، وفرض الحلال والحرام.

وفي هذه المدة جاء رؤساء نجران وهم من النصارى إلى المدينة، وصلوا في مسجد رسول الله ﷺ، وكانت صلاتهم إلى جهة المشرق، وأسلم ملكهم، وحسن إسلامه، وأمّا هم فقد اختلفوا فيما بينهم، ورفضوا الملاعنة، وطلبوا رجلاً يحكم بينهم، فأرسل رسول الله ﷺ أبا عبيدة بن الجراح معهم.

وفي هذه المدة توفي من المهاجرين عثمان بن مظعون أخو رسول الله ﷺ من الرضاعة، وقد كان من المسلمين الأوائل، وكان أمير المهاجرين الأوائل إلى الحبشة. وتوفي من الانصار أسعد بن زرارة، أبو أمامة، أحد نقباء العقبة، وكذلك البراء بن معرور، وهو أحد نقباء العقبة أيضاً، والناطق باسمهم يومذاك. أما من المشركين في مكة فكان قد مات العاص بن وائل السهمي، أبو عمرو بن العاص، والوليد بن المغيرة المخزومي أبو خالد بن الوليد.

غزوة بدر

شعرت قريش أن طريق قوافلها إلى الشام قد أصبحت معرضة للخطر، والتجارة عماد حياتها، وأرباحها سبب سيادتها، وأكبر من هذا وذاك فإن

---

(١) التوبة: ٦٠.

المسلمين خصومهم الألداء، وأعداؤهم الأوائل قد أصبحوا على درجة من القوة، حيث يرسلون الدوريات إلى قرب مكة بالذات، وبلغت بهم الجرأة إلى أن يقتلوا من أفرادها، ويأخذوا أسلابهم، ويسوقون ما تحمله القوافل غنائم لهم، الأمر الذي جعل قريشاً تفكر في طريقة للقضاء على خصومها المسلمين الذين أصبحوا يتحكمون في طريق القوافل، وليتخلصوا منهم قبل أن يشتد ساعدهم، ويقوى عودهم أكثر مما هم عليه. ومن جهة ثانية فإن المسلمين لا يزالون يُشكّلون جماعةً صغيرةً يرعاها الله بعنايته، ويوجهها في أمورها عن طريق رسول الله ﷺ، فكان لا بدّ من دروس لتستكمل الإيمان، وتستوعب طريق الإسلام.

إن المؤاخاة التي تمت بين المسلمين على يد رسول الله ﷺ عند وصوله إلى المدينة قد أعطت صورةً صادقةً عن الأخوة الحقة، وعلى الاستعداد الكبير للتضحية بالمال والإيثار في كل شيء. وإذا كان المال يعد معادلاً للنفس في غالب الأوقات، وقد يقدم عليها أحياناً في التضحية، وذلك لما يبذل الإنسان من جهد لتحصيله، ويدفع به عن نفسه غوائل الايام وأحداث الزمان:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[1]

إلا أن بعض الرجال يجودون بالمال ولكنهم يضنّون بالنفس، ويصعب عليهم الجود بها، وخاصة في الجاهلية التي عرف فيها الكثيرون ممن وصلوا إلى الافراط في الكرم والإسراف في بذل المال. والإسلام يطالب المسلم أن يبذل في سبيل الله كل شيء: يجود بالمال ويجود بالنفس معاً، ولا يبخل بجانب من جوانب الحياة، ما دام يصل بهذا البذل إلى حياة أخرى هي النعيم الدائم والاستقرار الخالد والطمأنينة الأبدية. ولقد نجح المسلمون في بذل المال يوم

(١) الصف: ١٠ـ١١.

المؤاخاة فلا بدّ من أن يخوضوا تجربة في البذل في النفس، هذا جانب ومن جانب آخر فالدعوة لا بدّ ـ كما ذكرنا ـ من أن تعترضها العقبات، ولا بدّ من أن تخوض معارك في كل ميدان.

نصت بيعة العقبة بين رسول الله ﷺ والأنصار على أن يحموه في مدينتهم، أما خارجها فلم تنص على ذلك. وقد أصبح محتماً على المسلمين من الانصار والمهاجرين على حدٍ سواء أن يخوضوا معركة مع خصومهم في كل ساحة تفرضها المعركة وتقتضيها الدعوة، لذا يجب أن تتبدل البيعة عملياً لا نظرياً. كانت هاتان الناحيتان مهمتين:

١ ـ أن يمتحن المسلمون في خوض معركة البذل بالنفس.

٢ ـ أن يبدلوا طريقتهم في المعركة، وأن لا يتقيدوا بنصوص بيعة العقبة، وإنما المعركة هي التي تفرض ذاتها وتحدد أسلوبها.

كانت الجماعة الإسلامية تنمو وتسير برعاية الله تحت سمعه وبصره، فكان لا بد من أن يعرضها لمعركة قوية تؤمن فيها هاتان الناحيتان، وكانت المعركة المرتقبة يخطط لها من السماء، بينما يظن بعضهم أنها كانت تتم بتخطيط من قبل أهلها.

رأى رسول الله ﷺ أن المسلمين قد خرجوا من ديارهم مهاجرين، وقد تركوا كل ما كانوا يملكون في سبيل عقيدتهم، وقد أخذت قريش هذه الأموال والأملاك، وأن للمسلمين أن يعوضوا ما فقدوا، وقد أصبح بإمكانهم ذلك ما دامت قوافل قريش تغدو وتروح بالقرب من مدينتهم. وها هي قافلة أبي سفيان تحمل بضائع قريش، وفيها أموال أثريائهم وكبرائهم الذين سطوا على أموال المسلمين، فرأى رسول الله ﷺ أن يتعرض لها، وقد فاتته في الذهاب، ورأينا كيف ترك طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد يرصدانها حين عودتها. وجاء إلى رسول الله ﷺ خبر عودتها، وفيها أربعون رجلاً بينهم عمرو بن العاص، فندب المسلمين إليهم، وقال: هذه عير

قريش، فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها فخف بعضهم، وثقل بعضهم، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقى حرباً، إذ لم يجعل الخروج واجباً، فلم يكن التأهب للقتال، وإنما لأخذ القافلة، والقافلة ليس فيها سوى أربعين رجلاً، هذا ما رآه المسلمون، وهذا ما أرادوه، ولكن الله أراد غير ذلك، لقد أراد القتال: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (١).

كان أبو سفيان عند عودته ولما اقترب من الحجاز، يرسل الطلائع أمامه، ويسأل الركبان، يتحسس الأخبار، ويتلمس أحوال الطرق، خوفاً على قافلته، فأصاب خبراً من بعض الركبان أن محمداً قد استنفر أهل المدينة للقافلة، فخاف عليها، فاستأجر أحد رجال القبائل، وهو ضمضم بن عمرو الغفاري، وأرسله إلى مكة يستنفر أهلها إلى أموالهم، ويخبرهم الخبر، وما سيؤول إليه الأمر إن تأخروا في نفيرهم. فخرج ضمضم سريعاً حتى وصل إلى مكة.

وفي هذه الأثناء حدث أن رأت عاتكة بنت عبد المطلب رؤيا أفزعتها، وذلك قبل قدوم ضمضم بثلاث ليال، وبعثت إلى أخيها العباس عم رسول الله ﷺ تحدثه بها، فقالت له: يا أخي، والله لقد رأيت الليلة رؤيا أفزعتني، وتخوفت أن يدخل على قومك منها شر ومصيبة، فاكتم عني ما أحدثك به، فقال لها: وما رأيت؟ قالت: رأيت راكباً أقبل على بعير له، حتى وقف

(١) الأنفال: ٥ ـ ٧.

بالأبطح، ثم صرخ بأعلى صوته: ألا انفروا يا لَغُدُر لمصارعكم في ثلاث، فأرى الناس اجتمعوا إليه، ثم دخل المسجد والناس يتبعونه، فبينما هم حوله، مثل (قام) به بعيره على ظهر الكعبة، ثم صرخ بمثلها، ألا انفروا يا لغُدر لمصارعكم في ثلاث، ثم مثل بعيره على رأس أبي قبيس، فصرخ بمثلها. ثم أخذ صخرة فأرسلها، فأقبلت تهوي حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضّت، فما بقي بيت من بيوت مكة، ولا دار إلا دخلتها منها فلقة، قال العباس لأخته: اكتمي ذلك ولا تذكريه لأحد.

ذكر العباس هذه الرؤيا لصديقه الوليد بن عتبة بن ربيعة، واستكتمه على ذلك، وذكرها الوليد لأبيه، ففشا خبرها في مكة، وتحدث بها الناس في الأندية، فقال أبو جهل للعباس: يا بني عبد المطلب، متى حدثت فيكم هذه النبية؟ أما رضيتم أن يتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم؟ فأنكر العباس أن يكون قد سمع شيئاً. ولامت نساء بني عبد المطلب العباس على سكوته عما تحدث أبو جهل، فخرج إليه يريد أن ينال منه، وإذا بالناس يسمعون صوت ضمضم بن عمرو الغفاري، وهو يصرخ ببطن الوادي واقفاً على بعيره، وحوّل رحله، وشقّ قميصه، وهو يقول: اللطيمة اللطيمة، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه، لا أرى أن تدركوها، الغوث الغوث. وشغل العباس وصاحبه كل عن الآخر، وتجهز الناس سراعاً حاقدين، وهم يقولون: أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمي، كلا والله ليعلمن غير ذلك. فكانوا بين رجلين، إما خارج، وإما باعث مكانه غيره، وخرجت قريش كلها، فلم يتخلّف أحد من أشرافها، إلا أن أبا لهب عبد العزى بن عبد المطلب تخلّف، وأرسل مكانه العاصي بن هشام بن المغيرة.

ولما تجهزت قريش تذكّرت أن بينها وبين كنانة تارات، فخشيت إن اتجهت شمالاً أن تأتيها كنانة من خلفها، إلا أن الشيطان قد أغراهم بالخروج إلى المدينة، إذ ذكروا أن الإسلام قد حجز بينها، وأنه العدو المشترك لها، فساروا نحو الشمال.

وكان رسول الله ﷺ قد خرج من المدينة، يريد قافلة أبي سفيان، وقد استعمل عليها عبدالله بن أم مكتوم، يصلي بالناس، وخرج معه ثلاثمائة وأربعة عشر رجلاً من المسلمين، ومعهم فرسان وسبعون بعيراً، يعتقبون عليها، أما الفرسان فهما للزبير بن العوام والمقداد بن عمرو. وكان خروجه ﷺ يوم الجمعة لثمان خلون من رمضان، واتجه نحو الجنوب الغربي، حتى إذا قطع ثلاثة وأربعين ميلاً، وكان بالروحاء، أعاد أبا لبابة رفاعة بن عبد المنذر ليكون أمير المدينة. وكان الجيش يضم كتيبتين: أولاهما للمهاجرين، ويحمل لواءها علي بن أبي طالب، وتضم نيفاً وسبعين رجلاً، وأخراهما للأنصار، ويحمل لواءها سعد بن معاذ وتضم مائتين وأربعين رجلاً، وقيادة الكتيبتين العليا كانت بيد رسول الله ﷺ، ويحمل لواءها مصعب بن عمير، وكان على ميمنة الجيش الزبير بن العوام، وعلى ميسرته المقداد بن عمرو، وعلى مؤخرته قيس بن أبي صعصعة.

أرسل رسول الله ﷺ الاستطلاع أمامه، وأمر بقطع الأجراس من أعناق الإبل حذراً، وعندم غادر الروحاء، وصل إليه خبر خروج قريش، وأنها بعد ليلتين ستكون في بدر. وكان عدد قريش تسعمائة وخمسين رجلاً، معهم مائة فرس، وسبعمائة بعير.

أما أبو سفيان فبقي يسير مسرعاً باتجاه مكة، وبطريقه الطبيعي نحو بدر. ولكنه كان حذراً متيقظاً وكاد قبل أن يصل إلى بدر يلتقي بجيش المسلمين، إلا أنه لقي (مجدي بن عمرو) فسأله عن جيش رسول الله، فقال له: ما رأيت أحداً أنكره إلا أنني رأيت راكبين أناخا إلى هذا التل، ثم استقيا، وانطلقا، فأسرع أبو سفيان إلى مناخ راحلتي الرجلين، وتفحص بعراتها، فوجد فيها نوى المدينة، فعلم أنها من أصحاب رسول الله ﷺ، فعاد إلى قافلته مسرعاً وتوجه نحو الغرب باتجاه الساحل، ونجا بما معه، ولما تأكد من النجاة أرسل لقريش رسالة يقول فيها: إنكم خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم، وقد نجاها الله، فارجعوا، وقد وصلت رسالته إلى قريش، وهم في

(الجحفة). ولكن أبا جهل رفض هذه النصيحة، وأصر على استمرار السير، وقال: والله لا نرجع حتى نرد بدراً فنقيم بها ثلاثاً، تذبح الجزور، ونطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف لنا القيان، وتسمع بنا العرب، وبمسيرنا، وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبداً، فامضوا. ولكن الأخنس بن شريق الثقفي حليف بني زهرة، وقائد حملتها، قد عارض أبا جهل، وقال: يا بني زهرة، قد نجّى الله لكم أموالكم، وخلص صاحبكم (مخرمة بن نوفل)، وإنما نفرتم لتمنعوه وماله، فاجعلوا لي جبنها، وارجعوا، فإنه لا حاجة لكم بأن تخرجوا في غير ضيعة، لا ما يقول هذا. فأطاعه قومه، ورجعوا من (الجحفة)، وكانوا حوالي ثلاثمائة رجل.

أما رسول الله ﷺ فقد شعر بحراجة الموقف عندما بلغه مسير قريش، فإنه قد خرج بأصحابه يريد العير، ولا يريد القتال، إذ لم يكن المسلمون قد استعدوا لذلك، حتى لم يخرج عدد من سراة القوم من المدينة لعلمهم أن الخروج إنما كان للقافلة وليس للقتال، والقافلة لا تحتاج لجزء ممن خرج، ولو علموا القتال ما تخلفوا. فأراد رسول الله ﷺ أن يستشير القوم، وإن كان يعلم أن الله لن يضيعه، وقد أفلتت عير أبي سفيان من قبضته.

جمع كبار الصحابة، وقال: أشيروا عليّ أيها القوم، فقام أبو بكر، فقال وأحسن. ثم قام عمر بن الخطاب، فقال وأحسن. فأثنى عليهما رسول الله ﷺ، وقال أشيروا عليّ أيها القوم، فقام المقداد بن عمرو وقال: يا رسول الله، امض لما أراك الله، فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو اسرائيل لموسى: ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾. ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق، لو سرت بنا إلى بَرْك الغماد [1] لجالدنا معك من دونه، حتى تبلغه، فقال له رسول الله ﷺ خيراً، ودعا له به. ثم قال رسول الله ﷺ: أشيروا عليّ أيها

---

(١) برك الغماد: ناحية باليمن في أقصى الجزيرة.

الناس، وذلك أنه كان ﷺ يريد أن يعرف رأي الأنصار فهم أكثرية الجيش ـ كما رأينا ـ، وهم أهل المدينة، وإنهم حينما بايعوه بالعقبة، قالوا: يا رسول الله، إنا برءاء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا، فأنت في ذمتنا، نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا. فكان رسول الله ﷺ يتخوف ألا تكون الأنصار ترى نصرته خارج المدينة، وأنه ليس عليهم أن يسيروا معه إلى عدو بعيد عن ذلك. فلما قال رسول الله ﷺ: «أشيروا عليّ أيها الناس» وقف سعد بن معاذ رضي الله عنه قائد كتيبة الأنصار، وسيد الأوس فقال: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله، قال: أجل. قال: قد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا: على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته، لخضناه معك، ما تخلّف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصبر في الحرب، صدق في اللقاء. لعل الله يريك منا ما تقرّ به عينك، فسر بنا على بركة الله. فسُرّ رسول الله ﷺ بقول سعد، ونشطه ذلك، ثم قال: «سيروا وأبشروا، فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم».

تابع رسول الله ﷺ سيره باتجاه بدر، ثم نزل قريباً منها، فركب هو وأبو بكر الصديق، فالتقيا بشيخ من العرب، يقال له: سفيان الضمري، فسأله رسول الله ﷺ عن قريش، وعن محمد وأصحابه، وما بلغه عنهم، فقال سفيان: لا أخبركما حتى تخبراني من أنتما؟ فقال رسول الله ﷺ: «إذا أخبرتنا أخبرناك». قال: «أذاك بذاك»؟ قال: «نعم». قال سفيان: «فإنه بلغني أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذي أخبرني، فهم اليوم بمكان كذا وكذا، ـ للمكان الذي به رسول الله ﷺ فعلاً، مما يدل على صحة تقدير الرجل ـ وبلغني أن قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان الذي أخبرني صدقني، فهم اليوم بمكان كذا وكذا، للمكان

الذي كانت فيه قريش. فلما فرغ من خبره قال: ممن أنتما؟ فقال رسول الله ﷺ: نحن من ماء. قصد رسول الله من الجنس الذي خلق من ماء، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾[1]، وظن سفيان أنهم من أهل ماء معين. وانصرف رسول الله وابو بكر إلى المسلمين. فلما كان المساء أرسل رسول الله علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص مع نفر من الصحابة يتحسسون أخبار قريش على ماء بدر، فوجدوا رجلين يسقيان لقريش، فأتوا بهما، ورسول الله ﷺ قائم يصلي، فسألوهما، فقالا: نحن سقاة قريش، بعثونا نسقيهم من الماء. فكره القوم منهما ما قالا، ورجوا أن يكونا لأبي سفيان، فضربوهما حتى أوجعوهما، فقالا: نحن سقاة لأبي سفيان، فتركوهما، فلما انتهى رسول الله من صلاته قال: إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموهما، صدقا، والله إنهما لقريش، أخبراني عن قريش؟ قالا: هم والله وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى. فقال لهما رسول الله ﷺ: كم القوم؟ قالا: كثير، قال: ما عدتهم؟ قالا: لا ندري، قال: كم ينحرون كل يوم؟ قالا: يوماً تسعاً ويوماً عشراً، فقال رسول الله ﷺ: القوم فيما بين التسعمائة والألف، ثم قال لهما: فمن فيهم من أشراف قريش؟ قالا: عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة، وأبو البختري بن هشام، وحكيم بن حزام، ونوفل بن خويلد، والحارث بن عامر بن نوفل، وطعيمة بن عدي بن نوفل، والنضر بن الحارث، وزمعة بن الأسود، وأبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، وسهيل بن عمرو، وعمرو بن عبد ود، فأقبل رسول الله ﷺ على الناس، فقال: هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها. ثم سار رسول الله بالمسلمين حتى نزلوا بعدوة الوادي الدنيا من المدينة بعيداً عن الماء في أرض سبخة، فأصبح المسلمون عطاشاً، بعضهم جنب، وبعضهم محدث، ووسوس لهم الشيطان، بأن المشركين لا ينتظرون أكثر من أن تموتوا ظمأ، فأرسل الله لهم الغيث،

(١) الأنبياء: ٣٠.

فشربوا، وسقوا، واغتسلوا، وتوضؤوا وملؤوا أسقيتهم، وثبتت الأرض تحت أقدامهم، على حين كان هذا المطر بلاء على المشركين، إذ أصبحت أرضهم وحلاً، فلم يستطيعوا الحركة والانتقال، فبقوا في مكانهم، قال تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾[1].

ثم تحرك رسول الله ﷺ نحو ماء بدر ليسبق عدوه إليها، قبل أن يمنعوه، فلما وصل إلى أول بئر نزل بها، فقال له الحُباب ابن المنذر الأنصاري: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل، أمنزلاً أنزلكه الله، ليس لنا أن نتقدمه، ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال رسول الله ﷺ: بل هو الرأي والحرب والمكيدة، فقال: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم، فننزله، ثم نُغوّر ما وراءه من القُلُب، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماءً، ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون، فقال رسول الله ﷺ: لقد أشرت بالرأي. فنهض رسول الله بالمسلمين وسار إلى أدنى ماء من القوم، فنزل عليه، ثم أمر بالقُلُب، فغوّرت، وبنى حوضاً على القليب الذي نزل عليه فملؤوه ماء، ثم قذفوا فيه الآنية.

بناء عريش رسول الله:

وقال سعد بن معاذ رضي الله عنه لرسول الله: يا نبي الله، ألا نبني لك عريشاً تكون فيه، ونُعِدّ عندك ركائبك، ثم نلقى عدونا، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا، كانَ ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى، جلست على

---

(١) الأنفال: ١١.

ركائبك، فلحقت بمن وراءنا، فقد تخلف عنك أقوام، يا نبي الله ما نحن بأشد لك حباً منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم، يناصحونك ويجاهدون معك. فأثنى عليه رسول الله. وبُني العريش، وجلس فيه رسول الله.

وفي صباح يوم المعركة السابع عشر من رمضان تحركت قريش نحو بدر، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها، تحادُك وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني، اللهم أحنهم الغداة». ورأى رسول الله ﷺ عتبة بن ربيعة على جمل أحمر فقال: إن يكن في أحدٍ من القوم خير، فعند صاحب الجمل الأحمر إن يطيعوه يرشدوا.

المعرفة والجحود:

قدم أحد بني غفار هدايا لقريش مع ولدٍ له، وهي إبل، وطلب منه أن يسألهم إن كانوا يريدون رجالاً أو سلاحاً أمدهم بما يطلبون، فأجابت قريش: وصلتك رحم! قد قضيت الذي عليه، فلعمري لئن كنا إنما نقاتل الناس فما بنا من ضعف عنهم، ولئن كنا إنما نقاتل الله، كما يزعم محمد، فما لأحد بالله من طاقة.

الخبرة والرأي:

أرسلت قريش أحد رجال استطلاعها، بعد أن استقر بها المقام، وذلك ليتعرف على أحوال المسلمين وجيشهم، فانطلق، وهو عمير بن وهب الجمحي، فدار حول معسكر المسلمين ثم رجع فقال: ثلاثمائة رجل يزيدون قليلاً أو ينقصون، ولكن أمهلوني حتى أنظر أللقوم كمين أو مدد؟ فضرب في الوادي حتى قطع مسافة خلف جيش المسلمين فلم ير أحداً، فرجع إليهم فقال: ما وجدت شيئاً، ولكني قد رأيت، يا معشر قريش، البلايا تحمل

المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم، حتى يقتل رجلاً منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم، فما خير العيش بعد ذلك؟ فروا رأيكم.

وسمع أحد أشراف قريش وهو حكيم بن حزام ما قاله عمير بن وهب فمشى بين الناس، فأتى عتبة بن ربيعة فقال له: يا أبا الوليد، إنك كبير قريش وسيدها، والمطاع فيها، هل لك إلى أن لا تزال تذكر فيها بخير إلى آخر الدهر؟ قال: وما ذاك يا حكيم؟ قال: ترجع بالناس، وتحمل أمر حليفك عمرو بن الحضرمي [1]، قال: قد فعلت، أنت عليّ بذلك إنما هو حليفي، فعليّ عقله [2] وما أصيب من ماله، فأت ابن الحنظلية (يعني أبو جهل)، فاني لا أخشى ألا يخالف غيره.

الحكيم الذي لا يطاع:

ووقف عتبة بن ربيعة فقال: يا معشر قريش، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه، قتل ابن عمه أو ابن خاله، أو رجلاً من عشيرته، فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب، فإن أصابوه فذلك الذي أردتم، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرّضوا منه ما تريدون.

الحماقة والغطرسة:

وسار حكيم بن حزام إلى أبي جهل، فقال: يا أبا الحكم، إن عتبة أرسلني إليك بكذا وكذا، فقال: انتفخ والله سحره [3] حين رأى محمداً وأصحابه، كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، وما بعتبة ما قال، ولكنه

---

(١) عمرو بن الحضرمي: هو الذي قتلته سرية عبدالله بن جحش في نخلة.

(٢) عقله: ديته.

(٣) انتفخ سحره: ظهر جبنه وخوفه.

قد رأى محمداً وأصحابه أكلة جزور وفيهم ابنه [1]، فقد تخوفكم عليه.

ثم بعث أبو جهل إلى عامر بن الحضرمي، فقال: هذا حليفك، يريد أن يرجع بالناس، وقد رأيت ثأرك بعينك. فقم فانشد خفرتك [2]، ومقتل أخيك.

فقام عامر بن الحضرمي، وبدأ يصرخ واعمراه واعمراه، فحميت الحرب، واجتمع الناس، وظهر الشر، وأفسد الرأي الذي اقترحه عتبة وهو الرجوع بالناس.

الصريع الأول:

بينما كان المسلمون لا يحتاجون إلى الماء، فحوضهم مليء، وبئرهم وافرة المياه، كانت قريش بحاجة ماسة إلى ذلك، فقد ظمىء أفرادها، وخرج منهم الأسود بن عبد الأسد المخزومي أخو أبي سلمة، وكان رجلاً شرساً سيء الخلق، فقال: أعاهد الله لأشربن من حوضهم، أو لأهدمنه، أو لأموتن دونه، فما خرج من بين قومه حتى خرج له حمزة بن عبد المطلب، فلما التقيا ضربه حمزة ضربة أطاحت بنصف ساقه، فوقع على الأرض، ومع هذا فقد بدأ يحبو نحو الحوض، فأتبعه بأخرى أودت بحياته.

المبارزة:

ثم خرج عتبة بن ربيعة، بين أخيه شيبة، وابنه الوليد بن عتبة، يدعو إلى المبارزة رداً على أبي جهل الذي اتهمه بالجبن والخوف من المعركة، فخرج لهم فتية من الأنصار هم: عبدالله بن رواحة، وعوف بن الحارث، وأخوه معوذ بن الحارث، فقال عتبة: من أنتم؟ فقالوا: رهط من الأنصار، قال القرشيون: ما لنا بكم من حاجة. ثم نادى مناديهم: يا محمد، أخرج إلينا أكفاءنا من

---

(١) ابن عتبة: أبو حذيفة كان بجانب المسلمين.

(٢) اطلب من قريش عهودهم إذ كان حليفاً لهم وجاراً.

قومنا. ويبدو من هذا أن المشركين يرون أن رابطة العقيدة فوق كل رابطة ولا قيمة لرابطة الدم أو القوم فمن هم أكفاؤهم الذين يريدون أن يقتلوهم؟ أليسوا من قومهم؟ أليسوا الأهل والأقارب؟ أليسوا الأبناء والآباء؟ فقال رسول الله ﷺ: قم يا عبيدة بن الحارث، وقم يا حمزة بن عبد المطلب، وقم يا علي بن أبي طالب، فلما قاموا، ودنوا منهم، قالوا من أنتم؟ فعرّف الصحابة أنفسهم، فقال المشركون: نعم أكفاء كرام. فوقف عبيدة، وكان أسن القوم، أمام عتبة، ووقف حمزة أمام شيبة، ووقف علي أمام الوليد. أما حمزة وعلي فلم يمهلا صاحبيهما أن قتلاهما، وأما عبيدة وعتبة فقد ضرب كل منهما الآخر، فأسرع حمزة وعلي فضربا عتبة فقتلاه، وحملا عبيدة إلى صفوف المسلمين، وكان جريحاً ينزف الدم من رجله، فأضجعوه إلى جانب رسول الله، فأفرشه رسول الله قدمه الشريفة، فوضع خده عليها، وبشّره عليه السلام بالشهادة فقال: وددت والله أن أبا طالب كان حياً ليعلم أننا أحق منه بقوله:

ونسلمه حتى نصرع حوله ونذهل عن أبنائنا والحلائل[1]

ثم لم يلبث أن فارق الحياة رضي الله عنه.

التقاء الفريقين:

وتقدم كل جيش من الآخر، وأمر رسول الله ﷺ أصحابه ألا يحملوا حتى يأمرهم، وقال: إن اكتنفكم القوم فانضحوهم عنكم بالنبل.

وخرج رسول الله ﷺ يسوي الصفوف، وفي يده سهم يُعدل به القوم، فمر بسوّاد بن غزية، وهو بارز قليلاً في النسق الأول، فأصابه السهم، وقال رسول الله ﷺ: استو يا سوّاد، فقال: يا رسول الله أوجعتني وقد بعثك الله بالحق والعدل، قال: فأقدني. فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه، وقال: استقد، فاعتنقه سوّاد فقبّل بطنه، فقال رسول الله ﷺ: ما حملك على ذلك

(١) هذا بيت من قصيدة طويلة لأبي طالب يستعطف فيها قريشاً، وهي في ابن هشام ٢٧٢/١.

يا سواد؟ فقال: يا رسول الله، حضر ما ترى، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك. فدعا له رسول الله بخير. ورجع رسول الله إلى العريش بعد أن سوى الصفوف.

التباين بين الجيشين:

رأينا أن جيش قريش منقسم على نفسه بعضه يريد العودة، وبعضه متغطرس يريد القتال، وهو ممتلىء حقداً، بعضه يتهم الآخرين بالجبن والخور، الحكيم فيهم غير مطاع، والسيد غير مسموع الكلمة، وأبو جهل يفرض نفسه على الجيش وأشراف قريش، أما المسلمون فكتلة واحدة، يأتمرون بأمر رسول الله ﷺ، وهم على الطاعة والسمع كأحسن ما يكون جندي لقائده بل إنسان لنبيه وسيده وحبيبه، يفدونه بأنفسهم وأموالهم، لا يصدر أمر إلا عنه، ولا يتكلم متكلم إلا بأمره، ولا يشير مشير إلا بإذنه، وهو في منتهى التواضع والتقدير.

مناشدة الرسول ربه:

عاد رسول الله ﷺ بعد أن عدّل الصفوف إلى العريش ومعه أبو بكر، فكان رسول الله يناشد ربه ويقول اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد. ويقول له أبو بكر: يا نبي الله: بعض مناشدتك ربك، فان الله منجز لك ما وعدك. ثم أخذت رسول الله سنة من النوم، ثم صحا فقال: أبشر يا أبا بكر، أتاك نصر الله، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده، على ثناياه النقع.

وخرج رسول الله ﷺ من العريش إلى الناس يحرضهم على القتال، فقال: والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيُقتل صابراً محتسباً، مقبلاً غير مدبر، إلا أدخله الله الجنة. فقال عمير بن الحُمام وفي يده تمرات يأكلهن: بخ بخ، أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء، ثم قذف التمرات من يده، وأخذ سيفه، فقاتل حتى قتل. وبهذه الروح المعنوية

خاض المسلمون المعركة فانتصروا، وخاضوها، في بقية المعارك، فكتب الله لهم النصر، ولكن عندما أضاعوها، وأهملوا الايمان كانت عاقبتهم الهزيمة. فالجندي المؤمن عندما يدخل المعركة لا يهاب الموت، وإنما يطلبه، ولأن المشتاق إلى الجنة، لا يمكن أن تقف الرجال أمامه، ولا تحد الأسلحة من زحفه، ولكن إذا زج الجندي في الميدان زجاً وليس له هدف، ولا رغبة، فانه يدافع عن تراب، أو يقاتل من أجل أمور زائلة، وشعارات فارغة فلن يثبت في الساحة، وإنما ينتهز فرصة غياب العيون عنه ليولي الأدبار، لا يسأل عن شيء، لأن الذي يعمل من أجله شيء زائل، يعوض ويستبدل.

ولما التقى الفريقان، قال أبو جهل: اللهم أقطعنا للرحم، وآتانا بما لا يُعرف، فأحنه[1] الغداة، فكان هو المستفتح[2].

ثم إن رسول الله ﷺ أخذ حفنة من الحصباء، فاستقبل قريشاً بها، ثم قال: شاهت الوجوه، ثم نفحهم بها. وأمر أصحابه. فقال: شدّوا؛ فكانت هزيمة قريش بإذن الله. وقال رسول الله ﷺ لأصحابه يومئذ: إني عرفت أن رجالا من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرهاً لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي منكم أحداً من بني هاشم فلا يقتله. ومن لقي أبا البختري بن هشام بن حارث بن أسد فلا يقتله، ومن لقي العباس بن عبد المطلب، عم رسول الله ﷺ فلا يقتله، فانه إنما خرج مستكرهاً، قال أبو حذيفة: أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخوتنا وعشيرتنا، ونترك العباس، والله لئن لقيته لألحمنّه السيف، فبلغ رسول الله ﷺ، فقال لعمر بن الخطاب: يا أبا حفص أيضرب وجه عم رسول الله بالسيف؟ فقال عمر: يا رسول الله، دعني فلأضرب عنقه بالسيف، فوالله لقد نافق. يقول عمر: والله إنه لأول يوم كنّاني فيه رسول الله ﷺ بأبي حفص. ويقول أبو حذيفة: ما أنا بآمن من تلك الكلمة التي قلت يومئذ،

---

(١) أحنه: أهلكه.

(٢) المستفتح: الحاكم على نفسه بالدعاء.

ولا أزال منها خائفاً إلا أن تكفرها عني الشهادة[1].

واقتضت حكمة الله تعالى أن يرفع معنويات المسلمين، فقد رأى رسول الله، ﷺ، المشركين في المنام قلة، مما شجعه، لأنه لو رآهم كثرة لكثر النقاش في الموضوع المتعلق بالحرب، ولأنهم إنما خرجوا للعير ثم رأى المسلمون المشركين قلة أثناء اللقاء للسبب نفسه، فكان كل فرد منهم مقداماً، وفي الوقت نفسه فقد رأى المشركون المسلمون قلة حتى يندفعوا أيضاً للحرب إذ لو رأوهم كثرة لهابوهم، ولاستمعوا لكلام عتبة بن ربيعة في ترك القتال، كل ذلك لتكون النتيجة التي أرادها الله للفريقين، لتتم بأيدي الطرفين لا بمعجزة فالإسلام يطبق بأيدي أتباعه، لا بالمعجزات، هكذا أراد الله لدينه، ويقول تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤٣) وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾[2].

وكذلك فقد أنزل الله سبحانه وتعالى ملائكة ليطمئن المسلمون، ولتثبت أقدامهم، لا ليقاتلوا[3]، إذ لو كان ذلك لكفى ملك واحد ليهلك ما شاء الله له أن يهلك، بل لكفى أن تكون إرادة الله في قتلهم، ليقتلوا جميعاً ولو كان عددهم عدد الحصى... ولكن كان إنزال الملائكة بهذه الأعداد ليثبت المسلمون، وتطمئن نفوسهم، يقول تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ

---

(١) استشهد رضي الله عنه في اليمامة أثناء قتال المرتدين.

(٢) الأنفال: ٤٣ - ٤٤.

(٣) اختلفت آراء العلماء حول مباشرة الملائكة للقتال، ويبدو - والله اعلم - من آيات سورة الأنفال أنهم قاتلوا.

فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . وقال تعالى: إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ



(١) الأنفال: ٩ ـ ١٠.

﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ۝١٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝١٣ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝١٤﴾ [1]

وكانت المعركة وفاز المسلمون كل الفوز، ونجحوا في البذل في النفس، ونجحوا في تحقيق معاني الأخوة الصحيحة، فكانت فوق القرابة والأرحام، وفوق كل ما يمت بصلة سوى صلة العقيدة، فقد قتل المسلم أباه المخالف له، وقتل أخاه المغاير له في العقيدة، لم يقتله في الحرب فقط، وهو ثائر متحمس، لا يعي، ولا يفكر، ويخشى على نفسه من أن تنتاشه سيوف الأعداء ورماحهم قبل أن ترتفع كلمة الله، وهو يحيا لتعلو، وإنما أيضاً يريد قتله وهو أسير بين يديه بعد نهاية المعركة، وهو ينظر اليه نظرة الانسان الضعيف، وتنبعث في نفسه ذكرى الأيام الخالية التي قضياها معاً، أو ربّى فيها أحدهما الآخر، وكان العطف يغمر نفسيهما، ولكن هذا كله يداس بالأقدام إذ لا يجتمع الايمان مع الكفر. لقد قتل أبو عبيدة بن الجراح أباه، وقتل عمر بن الخطاب خاله العاص بن هشام المخزومي، ورغب أبو بكر بمنازلة ابنه الرحمن ولكن الولد كان يفر من وجه أبيه.

كانت معركة بدر تشير إلى أن الفئة المؤمنة إن استقامت على الطريق، وأخذت بأسباب النصر، لا بد من أن يأتيها نصر من الله بغض النظر عن العدد وتكافؤ السلاح، كانت أول معركة في الاسلام، وكانت الاشارة الخالدة لهذه الحقيقة: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [2].

كانت معركة بدر تتمة لبيعة العقبة التي تقضي بالدفاع عن الاسلام في

---

(١) الانفال: ١٢ ـ ١٤.

(٢) البقرة: ٢٤٩.

يثرب، وتشمل مجالا أرحب يجمع العالم كله، يقاتل فيه المسلمون عامة في كل ميدان تفرضه المعركة، ويدافعون عن العقيدة في كل بقعة تقتضيها الدعوة، ولم تعد المدينة وحدها مجال الدفاع عن رسول الله ﷺ والمهاجرين.

كانت معركة بدر المعركة التي أثبتت أن الأخوة في الإيمان أقوى من رابطة النسب والجنس بل لا قيمة لأية رابطةٍ سواها أمامها، وقد تجلّت ببذل النفس في سبيل العقيدة، كما تجلت المؤاخاة ببذل المال بين المسلمين في يثرب يوم وصل إليها رسول الله ﷺ، هذه الحقيقة الخالدة قد سُجلت في أول معركة من معارك المسلمين فكانت فرقاناً بين الحق والباطل.

ولم تتغير الجبهات التي يقاتل المسلمون ضدها اليوم، فالطغاة اليوم في كل أرض وحتى من الذين ينتسبون للإسلام، وأصحاب المصالح والأهواء في كل مكان، والحاقدون من أهل الديانات الأخرى، وتمدُّ كل هذه الفرق أيضاً دول العالم اليوم، فعلى المسلمين اليوم أن يتبعوا الخطة نفسها التي سار عليها رسول الله ﷺ.

على المسلمين أن يدرسوا الارض التي يتوقعون أن تدور عليها المعركة الفاصلة بينهم وبين أعدائهم، وهي البقعة التي تصلح لإقامة الحكم الاسلامي، ويجب أن تكون هذه الدراسة كاملة، ويعرفوا أن عليهم أن يخوضوا عليها أولى معاركهم ضد خصومهم، وأن يوجهوا عنايتهم التامة نحو هذه المعركة المنتظرة.

على المسلمين أن يكونوا على وعي تام فلا يجرهم الخصوم الى معركة قبل أن ينتهوا من استعدادهم، عليهم أن يقرروا زمن المعركة ومكانها هم لا خصومهم، وهي نقطة أساسية وحساسة جداً، إذ أن المسلمين يسعون لاستكمال استعدادهم وقبل أن يتم استعدادهم يجرهم العدو إلى معركة بسبب العناصر الانتهازية أو التي تسعى وراء الشهرة وبذا تتأخر الدعوة وتتراجع الحركة، ويبدأ العمل ثانية من جديد من نقطة الصفر وقبل أن يعدوا العدة

اللازمة تُعاد إليهم الضربة بجرهم لمعركة أخرى وهكذا... هذا الامر الذي يصاب فيه المسلمون اليوم في كل أرض تقوم عليها حركتهم.

على المسلمين أن يرسلوا الدعاة إلى المناطق المجهولة، والقبائل التي لا تزال وثنية، والتي تسكن المناطق النائية في الغابات والصحارى، والتي اتجه نحوها المنصّرون من النصارى، وأهملها المسلمون، فاكتفوا بما وصل إليه الاسلام في المناطق المعروفة، فقد انطلق المسلمون الاوائل إلى القبائل المشركة يكسبونهم إلى صفهم أو يدخلونهم في الاسلام.

على المسلمين أن يتجردوا من كل رابطة سوى رابطة الفكرة والعقيدة تجرداً تاماً، فليس الأب ولا الأخ ولا الزوج ولا أي نوع من القرابة يجب أن يكون له أهمية إذا تعارضت أفكاره في أي نقطة مع الاسلام.

على المسلمين الاستعداد التام للقتال في كل ميدان، فليست المنطقة القريبة منهم هي الواجب عليهم القتال فيها، وإنما في كل منطقة تقتضيها ظروف الدعوة، وفي كل بقعة تحتم الدعوة القتال فيها، وهذا بالتالي يستدعي التعرف على أوضاع المسلمين وبلادهم في كل أرجاء العالم، والتعرف كذلك على البلاد التي لم يصل اليها الاسلام بعد، وعلى سكانها، وإمكانية نشر الدعوة بينهم.

وانتهت معركة بدر بنصر عظيم للمسلمين، وهزيمة ساحقة للمشركين الذين فقدوا في ساحة المعركة أكثر من سبعين قتيلا، بينهم زعماؤهم والذين وقفوا في وجه الدعوة، وآذوا رسول الله ﷺ، ومثلهم من الأسرى وفيهم بقية الزعماء والقادة، فكان من بين القتلى، عتبة بن ربيعة، وابنه الوليد بن عتبة، وشيبة بن ربيعة أخو عتبة، وحنظلة بن أبي سفيان، وعقبة بن أبي معيط، وعبيدة بن سعيد بن العاص، والعاص بن سعيد بن العاص، وأبو البختري العاص بن هشام، ونوفل بن خويلد أخو أم المؤمنين خديجة، والنضر بن الحارث بن كلدة، وأبو جهل عمرو بن هشام، والعاص بن هشام

المخزومي وأبو قيس بن الوليد أخو خالد بن الوليد، وأمية بن خلف وابنه علي بن أمية.

وكان من بين أسرى قريش: العباس بن عبد المطلب عم رسول الله، وعقيل بن أبي طالب أخو علي بن أبي طالب، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب ابن عم رسول الله، وعمرو بن أبي سفيان، وأبو العاص بن الربيع ختن رسول الله زوج ابنته زينب، وأبو عزيز بن عمير أخو مصعب بن عمير، وسهيل بن عمرو.

وأمر رسول الله ﷺ بالقتلى فنقلوا من مصارعهم التي كان رسول الله أخبر بها قبل المعركة إلى قليب بدر فدفنوا فيه، ثم قام على ظهر راحلته على شفة قليب، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: يا فلان بن فلان! ويا فلان بن فلان! أيسركم أنكم كنتم أطعتم الله ورسوله، فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً، فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله، ما تكلم من أجساد لا أرواح فيها فقال: فوالذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم. وتقول عائشة رضي الله عنها: إنما قال، إنهم الآن ليعلمون أن ما كنت أقول لهم حق.

وروي أنه لما سحب عتبة بن ربيعة الى القليب نظر رسول الله في وجه أبي حذيفة بن عتبة فاذا هو كئيب قد تغيّر لونه، فقال: يا أبا حذيفة، لعلك قد دخلك من شأن أبيك شيء؟ فقال: والله يا رسول الله، ما شككت في أبي ولا في مصرعه، ولكنني كنت أعرف من أبي رأياً وحلماً وفضلا، فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام، فلما رأيت ما أصابه، وذكرت ما مات عليه من الكفر، بعد الذي كنت أرجوه له، أحزنني ذلك، فدعا له رسول الله.

ثم أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن أبي رواحة مبشراً أهل العوالي، وزيد بن حارثة مبشراً أهل السافلة، وقد وصلا إلى المدينة وقت انصراف المسلمين من دفن رقية بنت رسول الله زوج عثمان بن عفان، فسُر

المسلمون من سكان المدينة بما حمله المبشران، أما المنافقون والكفار واليهود فقد بدأوا يرجفون برسول الله والمسلمين، ويقولون: لقد عاد هذان منهزمين من المعركة.

وساق رسول الله ﷺ الأسرى أمامه وعاد باتجاه المدينة، وكان قد ترك من المسلمين أربعة عشر شهيداً في معركة بدر. وعندما أمر أن يُجمع ماحواه الناس من الغنائم اختلف المسلمون في ذلك، اختلف الجامعون والمقاتلون، اختلف الذائدون عنها والذائدون عن رسول الله... فجعل الله ذلك كله لله ولرسوله ثم أمر أن توزع بالتساوي على أن تكون أربعة أخماس الغنائم للمقاتلين والخمس الباقي لله ولرسوله، يوزعها رسول الله على الفقراء، وقد جعل رسول الله بين المقاتلين أشخاصاً لم يحضروا بدراً، منهم: سعيد بن زيد وطلحة بن عبيد الله، وكانا ينتظران عودة العير من الشام، وقد كلفهما بذلك رسول الله عندما فاتته العير، وهي في طريقها الى الشام، وأبو لبابة، وقد خلفه رسول الله أميراً على المدينة، والحارث بن حاطب وكلفه رسول الله بمهمة في بني عمرو بن عوف، والحارث بن الصمة، وقد كسر بالروحاء، ولم يتمكن من السير، وعثمان بن عفان وكان رسول الله قد تركه عند زوجه المريضة، رقية بنت رسول الله، وعاصم بن عدي وكان أميراً على أهل قباء والعالية من قبل رسول الله، ثم شهداء معركة بدر الأربعة عشر ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

لقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يعطي درساً للمسلمين بأن المعركة كانت فرقاناً، وهي أعظم بكثير من هذه الغنائم والأموال التي مآلها إلى

---

(١) الانفال: ٤١.

الزوال بينما المعركة هي فاصل هام في تاريخ البشرية كلها، وقد تمت بتدبير الله وقدرته، في كل حركة وفي كل خطوة حدثت فيها، ليقضي من وراء ذلك أمراً عظيماً أراده هو، فلم يكن هذا النصر وما وراءه من عظائم الأمور دون تدبير، وسواء أكانت تلك الغنائم أم نتائجها الكبيرة فكلها من فعل الله وتدبيره.

وصل رسول الله ﷺ إلى المدينة، وتبعه الأسرى بعد يوم، فاستشار عليه السلام أصحابه فيما يفعل بالأسرى، فقال أبو بكر: يا رسول الله، هؤلاء أهلك وقومك قد أعطاك الله الظفر والنصر عليهم، أرى أن تستبقيهم، وتأخذ الفداء منهم، فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار، وعسى أن يهديهم الله بك فيكونوا لك عضداً. وقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله، قد كذبوك وقاتلوك وأخرجوك فأرى أن تمكنني من خالي خالد بن هشام بن المغيرة، فأضرب عنقه، وتمكن حمزة من أخيه العباس، وعلياً من أخيه عقيل، وهكذا حتى يعلم الناس أنه ليس في قلوبنا مودة للمشركين، ما أرى أن يكون لك أسرى، فاضرب أعناقهم، هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم، ووافقه على ذلك سعد بن معاذ، وعبد الله بن رواحة. فقال ﷺ: إن الله ليلين قلوب أقوام حتى تكون ألين من اللين، وإن الله ليشدد قلوب أقوام حتى تكون أشد من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم إذ قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١)، وإن مثلك يا عمر مثل نوح إذ قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ (٢).

وأخذ رسول الله ﷺ برأي أبي بكر، ثم قال لأصحابه: أنتم اليوم عالة فلا يفلتن أحد من أسراكم إلا بفداء، ووصاهم عليه السلام بهم، وكان قد فرقهم بين أصحابه، وقال: استوصوا بالأسارى خيراً. قال أبو عزيز بن

---

(١) إبراهيم: ٣٦.
(٢) نوح: ٢٦.

عمير ـ وكان أحد الأسارى ـ مرّ بي أخي مصعب بن عمير، ورجل من الأنصار يأسرني، فقال: شد يديك به، فإن أمه ذات متاع، لعلها تفديه منك، قال: وكنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر، فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم خصوني بالخبز، وأكلوا التمر، لوصية رسول الله ﷺ إياهم بنا، ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحني بها. قال: فأستحيي، فأردها على أحدهم، فيردها علي ما يمسها، وكان أبو عزيز زرارة بن عمير صاحب لواء المشركين بعد النضر بن الحارث، وقد أسره أبو اليسر، وعندما قال مصعب بن عمير لأبي اليسر ما قال، قال له أخوه أبو عزيز: يا أخي، هذه وصاتك بي، فقال له مصعب: إنه أخي دونك. وقد فدته أمه بأربعة آلاف درهم، وهذا المبلغ أعلى مبلغ فدي به قرشي في بدر.

وصول خبر بدر إلى قريش:

وصل خبر معركة بدر ونتائجها إلى قريش عن طريق الحيسمان بن عبد الله الخزاعي فإنه أول من قدم مكة بذلك الخبر، فقالوا، ما وراءك؟ قال: قتل عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو الحكم بن هشام، وأمية بن خلف، فلما صار يعدد أشراف قريش لم يكد يصدق من يستمع إليه، وظنوا أنه مجنون حتى إن صفوان بن أمية بن خلف، وكان جالساً في الحجر قال سلوه عني، لعليّ بين القتلى، فلما سألوه عنه، قال لهم: ها هو ذاك جالساً في الحجر، وقد والله رأيت أباه وأخاه قتلا.

وعندما تأكدت قريش من الخبر ناحت على قتلاها، ثم قالت: لا تفعلوا فيبلغ محمداً وأصحابه، فيشمتوا بكم، ولا تبعثوا في فداء أسراكم، ولكن تأخروا في ذلك، كي لا يشتد محمد في الفداء فيطلب الكثير.

ثم بعثت قريش في فداء أسراها، ولم يبالغ رسول الله في الفداء، إذ لم يكن المال شاغله ولا شاغل أصحابه، وإنما هداية الناس، وإعلامهم رأيه ليجذبهم

إلى الدين، وإبلاغهم دعوة الله. فعندما جاء مكرز بن حفص في فداء سهيل ابن عمرو قال عمر بن الخطاب لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، دعني أنـزع ثنيتي سهيل بن عمرو، ويدلع لسانه، فلا يقوم عليك خطيباً في موطن أبداً، فقال رسول الله ﷺ: لا أمثل به، فيمثل الله بي، وإن كنت نبياً. وروي أنه قال: إنه عسى أن يقوم مقاماً لا تذمه.

قال ابن اسحاق: فلما قاولهم مكرز، وانتهى إلى رضاهم، قالوا: هات الذي لنا، قال: اجعلوا رجلي مكان رجله، وخلوا سبيله حتى يبعث إليكم بفدائه، فخلوا سبيل سهيل، وحبسوا مكرز مكانه عندهم، حتى أرسل سهيل الفداء.

ورفض أبو سفيان أن يفدي ابنه عمراً، وكان ابنه الآخر حنظلة قد قتل فصعب عليه أن يفقد الولد ويدفع المال، وبقي ابنه في الأسر حتى احتجز أبو سفيان سعد بن النعمان الذي جاء معتمراً، وكان شيخاً هرماً، فافتداه رسول الله بترك عمرو بن سفيان يرجع إلى مكة.

وكان من بين الأسرى أبو العاص بن الربيع ختن رسول الله ﷺ إذ كانت عنده زينب بنت رسول الله، وهو ابن خالتها هالة بنت خويلد، وتزوجها قبل البعثة، وعندما أوحي لأبيها محمد ﷺ أسلمت، وبقي زوجها على شركه، وفرّق بينهما رسول الله ولكنه لم يستطع عزلها لما كان فيه من الاضطهاد. وبينما طلق عتبة بن أبي لهب زوجه رقية بنت رسول الله، وترك أخوه عتيبة بن أبي لهب زوجه أم كلثوم بنت رسول الله بناء على رأي وجهاء قريش في سبيل إضعاف رسول الله وزيادة الهم عليه، وتتعهد قريش بتزويجها فتاتين من قريش يختارانها، ولكن رفض أبو العاص ذلك وقال: لا أرضى بديلا بزينب. ولما كانت بدر خرج أبو العاص مع قريش، وكان بين الأسرى، وأرسلت زينب مالا وقلادة كانت قد أهدتها لها أمها خديجة فلما رأى ذلك رسول الله ﷺ رقّ لها رقة شديدة، وقال: إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتعيدوا لها مالها فافعلوا، فقالوا: نعم، وفعلوا ذلك، وقد أخذ رسول الله

عهداً على ختنه أن يرسل زينب من مكة لتلحق بأبيها في المدينة حيث لا يجمع بينهما دين، فلما أطلق سراح أبي العاص، ووصل إلى مكة، أرسل زينب إلى أبيها، وكان رسول الله قد أرسل زيد بن حارثة ورجلا من الانصار ليصحباها في الطريق، وقبل أن تصل إليهما مع أخي زوجها كنانة بن الربيع، روعها هبّار بن الأسود، وكانت حاملا، فأسقطت، وأصابها النزيف حتى وصلت إلى المدينة، فأصابها المرض، وخاصة أنها اضطرت إلى أن تعود إلى مكة، وتخرج ثانية على حين غفلة من أهلها، إذ خرجت في الأولى علانية وعلى رؤوس الاشهاد الأمر الذي جعل هبّاراً وغيره يتبعانها. أما زوجها أبو العاص فقد بقي على شركه وفي مكة على حين مكثت هي عند أبيها في المدينة إذ فرق الاسلام بينها وبين بعلها. وخرج أبو العاص في تجارة لقريش إلى الشام، وأثناء عودته وقع في قبضة سرية لرسول الله ﷺ، فأخذت ما معه، وفر هارباً، حتى إذا كان الليل دخل المدينة سراً، ولجأ إلى بيت زينب، واستجار بها فأجارته، فطلب رسول الله ﷺ من السرية التي أخذت ماله أن ترده عليه إن شاءت، وإن أبت فهو لها، فرد رجال السرية كل ما كان لديهم، فاحتمله أبو العاص وسار به إلى مكة، فلما وصل إليها أعطى كل ذي حق حقه من أهل مكة ثم قال: يا معشر قريش، هل بقي لأحد منكم عندي مال لم يأخذه؟ قالوا: لا، فجزاك الله خيراً، فقد وجدناك وفياً كريماً، قال: فأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، والله ما منعني من الاسلام عنده إلا تخوف أن تظنوا أني إنما أردت أن آكل أموالكم، فلما أداها الله إليكم، وفرغت منها، أسلمت. ثم خرج حتى قدم على رسول الله ﷺ مسلماً، فرد رسول الله عليه زوجه زينباً بنكاح ثان.

وكذلك فقد منّ رسول الله على بعض الأسرى الآخرين من غير فداء، فقد أطلق سراح المطلب بن حنطب بن الحارث المخزومي، وكان قد أسره خالد بن زيد أبو أيوب الأنصاري كما أطلق سراح، صيفي بن أبي رفاعة المخزومي، وأبو عزة، عمرو بن عبد الله الجمحي، وكان فقيراً، ذا بنات، وقد

أخذ عليه عهداً ألا يظاهر على المسلمين. أما العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ، وهو أحد الأسرى، فقد أمره رسول الله أن يفدي نفسه، وأن يدفع الفداء عن ابني أخيه عقيل بن أبي طالب، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب، كما أمره أن يدفع عن حليفه عتبة بن عمرو بن جحدم، فاعتذر محتجاً بأنه لا مال له، فقال له رسول الله ﷺ: أين المال الذي وضعته عند أم الفضل، وقلت لها: إن أصبت فللفضل كذا، ولعبيد الله كذا، قال: والذي بعثك بالحق، ما علم أحد غيري وغيرها، وإني لأعلم أنك رسول الله، وفدى نفسه وابني أخويه وحليفه، وكان المسلمون قد أخذوا أربعين أوقية من الذهب من العباس بن عبد المطلب أثناء غزوة بدر عند أسره، وعندما جاء وقت إطلاق الأسرى، طلب العباس من رسول الله ﷺ أن يحسب كمية الذهب التي أخذت منه من الفداء، فرفض رسول الله ذلك، وقال: لا، ذلك شيء أعطاناه الله عز وجل، أي أصبح غنيمة للمقاتلين المسلمين بعد أخذها منه أثناء القتال.

وقد جاء عتاب من الله سبحانه وتعالى لرسوله الكريم في شأن فداء الأسرى، فقال جل جلاله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[1] ويبدو - والله أعلم - أن هذه الآية قد نزلت أثناء معركة بدر إذ كان بعض المسلمين يحرصون على الأسر أكثر مما يحرصون على القتل، وقد تمعر وجه سعد بن معاذ لما يفعله بعض هؤلاء، فأنزل الله هذه الآية[2]، ثم عفا الله عنهم فقال: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

---

(١) الانفال: ٦٧ - ٦٨.
(٢) انظر تفسير هذه الآية عند ابن عطية.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

وروى مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: دخلت على رسول الله ﷺ بعد أن قضى بافتداء الأسرى فاذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدين يبكيان. فقلت: يا رسول الله، أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك؟ فان وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما. فقال رسول الله ﷺ: «أبكي للذي عرض علي أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عرض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة» (شجرة قريبة من رسول الله ﷺ).

---

(١) الأنفال: ٦٩ ـ ٧٠.

الفصل الثاني

محاولة القضاء على الدولة الإسلامية الأولى

أقام رسول الله ﷺ الدولة الاسلامية الاولى في المدينة بعد هجرته إليها، وكانت هذه الدولة، ولا تزال المثل الأعلى لكل حكومة يقيمها المسلمون في أي عصر، ولكل مجتمع يريد أن يحيا حياة فاضلة كريمة، وكان قائدها رسول الله ﷺ المثل الأعلى لكل قائد أو حاكم مسلم، ولكل زعيم يريد لشعبه الخير والسعادة وإنقاذه من الجهالة والظلم والظلمات. ولهذا ـ وغيره كثير ـ فإن على دعاة الاسلام اليوم أن يوضحوا للناس معالم هذه الدولة وأن يدعوا إلى القيام بدولة مثلها، وهي التي لا يستطيع إنسان مهما أوتي من شجاعة وجرأة وعلم ونفاذ بصيرة أن يضع أقل نقد فيها، أو أن تكون له ملاحظات عليها ـ إلا من طمس الله على قلبه وبصيرته ـ وهذا لا نعيره اهتماماً، لأننا إنما ندعو المسلمين وإليهم نتوجه في هذا الأمر، وعلى هؤلاء الدعاة أن يأخذوا المفاهيم التي كانت تسود مجتمع المدينة آنذاك، ويدعوا إليها بتدبر وحكمة ويقظة وبصيرة حتى تعم المجتمع الذي نعيش فيه، وتكون مجال بحث ودراسة، حتى إذا تم ذلك الخير، وأضحى الأمل قريباً، وفي أخذ هذه المفاهيم رد على سواها لما فيها من قوة وبيان.

بنى رسول الله ﷺ المسجد النبوي لتظهر شعائر الاسلام، وترتفع كلمة الحق، فتعطي مظهر المجتمع في عقيدته، كما كان هذا المسجد المكان الذي يتلقى فيه المسلمون أمور دينهم وتوجيهاته، والمنتدى الذي تتآلف فيه العناصر القبلية المختلفة التي باعدت بينها النزعات الجاهلية، وتأخذ المفاهيم الاسلامية

الواحدة، وتستقي الدروس من المبدأ الجديد، فكان مركز حزب الله، وكان القائد ﷺ يلقي المحاضرات المنتظمة في كل أسبوع في خطبة الجمعة، ثم محاضرات إضافية كلما دعت اليها الحاجة خلال الاسبوع يوضح فيها الخط، ويرسم الطريق، ويبين المنهج الذي يجب أن يسلكه الأعضاء. ومن هذا المنطلق يجب أن تكون اليوم جماعة مخططة ومنظمة بشكل دائم، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتقف في وجه الانحراف كلما وجد، وتبقى على تنظيمها ولو صار المجتمع إسلامياً، ولو غدا الحكم بيدها، خوفا من الانحراف، إذ أنها هي صمام الأمان، وقد كان رسول الله ﷺ يعد رأس التنظيم، وأصحابه رضوان الله عليهم أعضاؤه وحفظة الخط الذي يوجههم إليه قائدهم، وبانتهاء جيل الصحابة بدأت زاوية الانحراف بالانفراج وإن كانت على قدر بسيط إلا أنه بدأ يزداد مع الزمن، فالجماعة هي التي تحافظ على سير الدعوة، وتحول دون الانحراف. وإذا لم يكن تنظيم الصحابة قائماً بالمفهوم الحالي للتنظيم إلا أنه موجود من حيث الفكرة وطريقة التطبيق، إذ تلقى الجميع من مدرسة واحدة ومن معلم واحد، تلقياً ليس بالسماع، وتعلماً ليس بالرواية، وإنما بالعمل والتجربة والصحبة، ومن هنا يجب أن يكون التلقي اليوم من مصدر واحد والاستقاء من منهل واحد لتتوحد الافكار وتكون المشارب مشرباً واحداً، فانه عندما كثرت المدارس وتعددت المناهل زاد الانفراج في زاوية الانحراف ثم بدأ الاختلاف.

أعلن رسول الله في دولته أن المسلمين أمة واحدة من دون الناس، فالأمة جماعة من الناس تعيش بعقيدة واحدة، بغض النظر عن انتماء أبنائها لمجموعات من الأجناس أو الشعوب أو العروق، وبغض النظر عن اللغة التي يتكلمها أفرادها واختلافها، وبغض النظر عن كل شيء سوى العقيدة.

أقام رسول الله ﷺ الحكومة الإسلامية في المدينة، وكان عليه الصلاة والسلام رأس هذه الحكومة، يطبق منهج الله، ويقيم حدوده، وكان أصحابه رضوان الله عليهم مستشارين ووزراء له. كما كان عليه الصلاة والسلام قائد

الجيش، فإذا سار إلى حرب ولّى مكانه أحد أصحابه على المدينة، وإذا مكث عيّن أحد صحابته على الجيش، هذه الأعمال التي قام بها رسول الله ﷺ من رئاسة للدولة، وقيادة للجيش، وتعيين مقر عام لتلقي الافكار والتعاليم لمبدأ الإسلام وإلقاء المحاضرات لتلك الغاية وتحديد الروابط التي تجمع بين الناس، هي تعريف خاص للأمة المسلمة من دون الأمم، وتنظيم وإعداد لهذه الأمة إعداداً خاصاً، وإيجاد مفاهيم خاصة بها، والاعتماد على مستشارين يرجع إليهم في الملمات، وعقد المعاهدات، وتحديد الصلات مع غير المسلمين، كل هذه من الأمور السياسية الأساسية التي يجب أن يقوم بها أولو الأمر، وكان رسول الله ﷺ يجمع إلى جانب هذه الامور النواحي الدينية، فهو رسول الله إلى الناس كافة، ولما كان أسوة حسنة، وقائداً لكل حاكم، ورائداً لكل صاحب سلطة، فهذه الأمور كلها من اختصاص الحكام، بل لا يحق لحاكم ترك جانب منها، فالدين يشمل جميع جوانب الحياة من سياسية ودينية واقتصادية واجتماعية، بل تقع كلها ضمن إطار الدين، وتحت عنوانه، وما دام الحاكم يمارس الإشراف على الحياة لرعاياه فهو يشرف على هذه الجوانب كلها. ولم يكن رسول الله ﷺ ليقصر في ناحية على حساب أخرى، ولا يهمل جانباً لتقوية آخر. وكذا كان اختصاص كل خليفة جاء من بعده، ولم يخطر في خلد أحدهم أن هناك نواحي يجب أن يمارسها وأخرى عليه أن يهملها ليمارسها غيره، كما لم يحاول أحد من المسلمين أن يفصل الأمور السياسية عن الدين، أو أن ينتقد الحكام المسلمين بأنهم يمارسون السياسة والدين، واستمر هذا الأمر بشكل طبيعي حتى سيطر الأجانب على بلاد المسلمين بالقوة، وأرادوا الإبقاء على الأوضاع التي مكنتهم من السيطرة لاستمرارهم فيها، إلا أنهم اصطدموا بمقاومة المسلمين العنيفة التي تنبع من دينهم الذي يمنع أتباعه من قبول الخضوع لغير المسلمين، أو للحكام الذين لا يطبقون منهج الله ولو كانوا من المسلمين فوجد الأجانب أن أفضل طريق لهم هو عزل الدين عن الحياة، كما هي الحال في دينهم الذي لا تشريع فيه، وإنما

يمارس رجال الدين فيه الطقوس الدينية على حين ينفرد الحكام بتسيير الأمور الدنيوية، وتكون هناك ازدواجية في السلطة، رجال الدين يشرفون على الأمور الدنيوية داخل كنائسهم وصوامعهم، ورجال الحكم يشرفون على الأمور الدنيوية من داخل قصورهم، وعندما يحدث خلاف لا بد من أن يرضخ أحدهما للآخر، الأمر الذي جعل صراعاً مريراً يقع بين الكنيسة والملوك، انتصر فيه الملوك في النهاية، واعتزل رجال الدين في كنائسهم، ليقوموا ببعض التراتيل والطقوس التي شعر الناس في النهاية أنها لا فائدة منها، وإنما هي أمور ميتة لا تضر ولا تنفع، لا تزيد إيماناً، ولا تدفع بالعقيدة لتلهب الروح وتنطلق بالحياة وتنعشها بالحضارة، وإنما غايتها أن يُحيي منها رجال الدين بعض ما فقدوه في الصراع، وليظهر أنهم يمارسون سلطة ولو داخل جدران أربعة، وهذا جهد هؤلاء الأجانب على إيجاد فكرة الفصل بين الدين والحياة (الدولة) في بلاد المسلمين، فزعموا أن في هذا الحضارة، وأن التقدمية تستدعي ذلك، وأشاعوا أن للمسلمين الإشراف على الأمور الدينية، ولا علاقة لهم بالسياسة، بينما هم ـ الأجانب ـ يسيّرون أمور الدولة، ولا يتدخلون في جانب الدين ما داموا من غير المسلمين أيضاً، وفي هذا تقسيم الحياة. وقد وافقهم على فكرتهم هذه المغرضون من أصحاب المصالح والهوى، والذين يقبلون الدنية، والذين يريدون إرضاء الحكام بتأييدهم في كل تصرفاتهم، ليتسنى لهم التقرب منهم، والإفادة من ذلك بحكم قربهم في إرواء شهواتهم، والذين يريدون أن يهيئوا أنفسهم أو يهيئهم الحكام الأجانب ليحلوا محلهم إذا رأوا في ذلك مصلحة، بحيث تؤمن مصالحهم بل ويحافظ عليها الحكام الجدد، ويمارسون الطريقة نفسها التي كان يمارسها الحكام الاجانب في عزل الدين عن الحياة، ويمارسون الضغط على المسلمين الذين يرغبون في تطبيق منهج الله، ويكيلون لهم التهم وشتى أنواع العذاب، بل ربما كان بعضهم ـ مع الأسف ـ من الذين يحملون جانباً من العلم، أو يلبسون زي أهله، في هذا العصر الذي ابتدع فيه لهم زي خاص، بل وربما يعطون الفتاوى في ذلك،

ويتصدون لإصدارها، وفي كل عصر لا يعدم الحكام الوسيلة للوصول إلى غايتهم عن طريق هؤلاء فإن في كل مجتمع طلاب مصلحة وزعامة، ومن لا يردعه دينه فإنه يركب كل مركب للوصول إلى هدفه، وسار بعض المسلمين وراء هؤلاء مخدوعين، أو على بيّنة، حتى عمي على الكثيرين الأمر عندما رأوا أدعياء العلم أمامهم، وظنوا أن السياسة شيء، والدين شيء آخر، ونال أعداء الإسلام ما أرادوا في عزل الدين عن واقع الحياة. وعلينا بعد هذا أن نعود لرسول الله صلى الله عليه وسلم نقتبس من هديه، ونأخذ منه الأسوة الحسنة، ونقتدي بسلوكه وعمله في المدينة عندما كان الحاكم عليها، ليعود إلينا الأمر، ونرد على كل دعي.

بعد النصر:

لقد كانت معركة بدر، وكان للمسلمين فيها النصر، وليس نجاح الحق في معركة معناه أن يجني رجالها الراحة إثرها، وإنما التعب، والدخول في معركة جديدة مزدوجة تضم أولئك الذين كانوا ينتظرون نتيجة القتال، ويتمنون الأماني وعند انتصار الحق يعميهم ظهوره فينطلقون يقاتلونه، ويحرضون عليه، كما تضم أولئك الموتورين الذين يطمعون بالثأر، ويرغبون في إطفاء شعلة الإيمان الذي يقف أمام مصالحهم وأهوائهم.

وعندما وصل نبأ القتال إلى المدينة انطلقت الشائعات ضد المسلمين، وتوقع المغرضون ما لم يحدث، وانبثت الأراجيف في كل مكان على لسان اليهود والمنافقين، وعندما وصل خبر نتيجة المعركة، بدأ السخر والتهكم من حلته، وقالوا هذا زيد بن حارثة قد رجع على ناقة محمد (ﷺ)، ووصل رسول الله فخرست بعض الألسن عن هذا، ولكن استمرت ألسن أخرى تتحدث عن هزيمة المسلمين ووصول فلولهم الواحد إثر الآخر، ولكنهم شدهوا عندما وصل الجيش يسوق سادة قريش أسارى مكبلين، وانقدحت نار الحقد فجأة.

اليهود أدركوا نتيجتهم لما يعلمون ما في نفوسهم من ضغائن وحقد، فأظهروا ما في نفوسهم من كره للمسلمين، وبدت البغضاء من أفواههم، وما تخفي صدورهم أكبر، وانتهكوا حرمة سيدة من نساء الأنصار قدمت بحلي لها لتبيعه في سوق بني قينقاع، ولما جلست إلى صائغ هناك، اجتمع حولها عدد من اليهود يتحرشون بها، ويجرحون شعورها، وأرادوا أن تكشف وجهها رغبة في إضعاف الإيمان من النفوس بترك جزء بعد جزء تهاوناً في شأنه واستصغاراً له، ولكنها رفضت، فعقد أحد هؤلاء اليهود طرف ثوبها إلى ظهرها على حين غفلة منها، فلما قامت انكشف جزء من عورتها، فبدأ اليهود يضحكون ويسخرون، ويقولون ترفض كشف الوجه ولكنها تكشف العورة، فاستغاثت، فإذا بأحد المسلمين وكان حاضراً في السوق يثب على اليهودي ويقتله، فحمل اليهود على المسلم فاغتالوه وهكذا اندلعت شرارة الحرب بين المسلمين ويهود بني قينقاع. وسار رسول الله مع بعض أصحابه إلى سوق بني قينقاع، فجمع تلك الفئة من اليهود، وقال لهم: يا معشر اليهود، احذروا من الله عز وجل مثل ما نزل بقريش من النقمة، وأسلموا، فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل تجدون ذلك في كتابكم، وفي عهد الله إليكم. قالوا: يا محمد، إنك ترى أنا كقومك! لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصة، إنا والله لئن حاربتنا لتعلمن أنا نحن الناس، وأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾[1] فلما فرغ جبريل عليه السلام من هذه الآية، قال رسول الله ﷺ: إني أخاف من بني قينقاع. وسار إليهم في شهر شوال من السنة الثانية أي بعد معركة بدر بأقل من شهر، وكانوا قد اعتصموا في حصونهم، فحاصرهم مدة خمس عشرة ليلة، ثم فك الحصار عنهم بعد إلحاح رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول الخزرجي، وقد كانوا حلفاء الخزرج، ثم أمر بإجلائهم عن المدينة بعد أن نزلوا على حكمه بإجلاء الذراري وغنيمة السلاح والعتاد، ولم تكن لهم

---

(١) الانفال: ٥٨

أراضٍ ، وإنما كان عملهم الصياغة. وكانوا أشجع يهود المدينة ، ولم يجرؤ بقية اليهود على مساندتهم خوفاً من المسلمين، على الرغم من كرههم الشديد للمسلمين وحقدهم الدفين. وكان الذين قاد حصارهم أبو لبابة بشير بن عبد المنذر، والذي ساقهم خارج المدينة عبادة بن الصامت، وقد انتقلوا إلى أذرعات (درعا) من بلاد الشام، ولم يستدر عليهم العام حتى هلكوا. وكذلك فإن كعب بن الأشرف أحد زعماء بني النضير حيث كانت أمه منهم، قد آلمه انتصار المسلمين في بدر، فقال: بطن الأرض خير من ظهرها، وكان أحد الأغنياء المعروفين، وعرف أنه من كبار المرابين، ولم يتعظ بما أصاب بني قينقاع، ولم يحسب حساباً للمعاهدة التي بين المسلمين ويهود والتي تنص على عدم مظاهرة قريش أو تأييدها بل نكث بالعهد، وخرج من المدينة يحرض قبائل العرب على رسول الله ﷺ ويدعوهم إلى حربه، حتى وصل إلى مكة، فشجع قريشاً على قتال المسلمين وأثار حقدها، ووعد بدعمها، وأجاب أبا سفيان في مكة بأن قريشاً أكثر هداية من المسلمين فأنزل الله في حقه:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾[1].

ورجع من رحلته، فأقام بالمدينة يحرض على قتال المسلمين، ويتغزل بنسائهم، ويذكر أسماءهن صراحة، الأمر الذي آذى المسلمين أشد الإيذاء، وبهذا لم تعد له ذمة ولم يبق له عهد، والتف حوله جماعة من اليهود أغراهم بماله ليناشوه ويظهروا حقيقة ما في نفوسهم، وأصبح خطراً على المسلمين، يخشى بأسه، ويجب القضاء عليه قبل أن يشتد ساعده، فأرسل له رسول الله ﷺ محمد بن مسلمة الأنصاري مع جماعة من الانصار قاموا بقتله خارج حصنه المنيع في

---

(١) النساء: ٥١ - ٥٢.

ضواحي المدينة بعد أن استدرجوه منه. وبعد هذا القتل لجأ اليهود إلى السكوت، وخافوا من أن يقوموا بأية حادثة، وأظهروا أنهم على عهودهم ومواثيقهم.

أما المنافقون فقد أجمعوا كيدهم، وأعلن رأسهم عبد الله بن أبي بن سلول أن الأمر قد توجه، فأظهر إسلامه، ودعا جنده لإظهار إسلامهم، واستمر عملهم الخفي لتهديم المجتمع الإسلامي، ونسف جذوره، فقد شعروا بمصيرهم وهم على علم بما يبطنون من حقد، وبما تخفي نفوسهم من شر، فالإيمان لم يدخل قلوبهم، وبقي في نفوسهم شيء يريدون أن يفعلوه ضد المسلمين عندما تتهيأ لهم الفرص، وقد أظهروا الاسلام خوفاً وتخطيطاً وعملوا بجانب اليهود، فلما نزل يهود بني قينقاع على حكم رسول الله، قام إليه عبد الله بن أبي بن سلول فقال: «يا محمد، أحسن في مواليّ، فأبطأ عليه رسول الله ﷺ، فكرر عبد الله بن أبي طلبه، فأعرض عنه رسول الله، فأدخل ابن أبي يده في جيب درع رسول الله، فتغير لون النبي عليه الصلاة والسلام، وقال له: أرسلني، وغضب ﷺ حتى رأوا لوجهه ظللاً، ثم أعاد رسول الله، وهو مغضب (أرسلني ويحك) فقال ابن أبي: لا والله لا أرسلك حتى تحسن في مواليّ، أربعمائة حاسر، وثلاثمائة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود، تحصدهم في غداة واحدة، إني والله امرؤ أخشى الدوائر فقال رسول الله: هم لك.

هذا ما كان داخل المدينة من يهود والمنافقين أما خارجها فالأعراب في المدينة وما حولها ساءهم انتصار المسلمين في بدر، لأن هذا الانتصار معناه سيطرة القانون الإسلامي الذي سيحول بينهم وبين السلب والنهب الذي اعتادوا عليه، أو قانون الغاب الذي يطبقونه على أنفسهم، ولم يكن أثر انتصار المسلمين على هؤلاء الأعراب يحمل وجهة نظر سياسية أو عقيدية، وإنما فقط خوفاً من أن يحرموا ما اعتادوا عليه. وقد بدأت بعض القبائل تتجمع بعضها مع بعض، وتشكل أحلافاً تريد غزو المدينة، وإظهار قوتها، بعد هزيمة قريش سيدة العرب، ولسلب أموال المدينة التي غدت غنية بعد

انتصارها، وغدت محط أنظار القبائل التي اعتادت أعمال الإغارة.

غزوة بني سليم:

بلغ رسول الله ﷺ أن قبائل غطفان وسليم قد كونت حلفاً فيما بينها تريد غزو المدينة، وقد أخذت في الاستعداد لذلك، فرأى أن يداهمها في عقر دارها قبل أن يشتد ساعدها فسار اليها بمائتي راكب، وباغتها في مكان تحشدها في (قرقرة الكدر) على الطريق التجارية الشرقية بين مكة والشام، ففر الأعداء بعد أن علموا بالهجوم المفاجىء، وتركوا في الوادي خمسمائة بعير، فغنمها رسول الله فأعطى أربعة أخماسها لجنوده، فكان لكل رجل منهم بعيران، وبقي في أرضهم ثلاثة أيام ثم عاد إلى المدينة، ولما ينقض شهر شوال من السنة الثانية، وما كان هذا البقاء إلا لإظهار قوة المسلمين.

غزوة ذي أمر:

واحتشدت جموع من بني ثعلبة، وهم فرع من غطفان، وجموع من بني محارب، في (ذي أمر) يريدون الإغارة على المدينة، فسار إليهم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، على رأس حملة قوامها أربعمائة وخمسون مقاتلاً بين راكب وراجل، وخلف على المدينة عثمان بن عفان، ولما علم الاعداء بمسير المسلمين إليهم فروا إلى رؤوس الجبال، ووصل المسلمون إلى مكان تجمعهم في ذي أمر، ولم يجدوا أحداً، فمكثوا مدة ليرهبوا الاعداء، ولتسمع الاعراب بقوتهم فيخافوهم فلا تحدثهم أنفسهم بغزو المدينة. وهطلت الأمطار على تلك الديار، فابتلت ثياب رسول الله، فانزوى جانباً يجففها على شجرة، واضطجع ينتظر جفافها، وكان جنده مشغولين، كل بأعماله الخاصة، ويظهر أن الأعداء كانوا يرقبونهم من بعض التلال، فلما رأى ذلك قائد جيش العدو (دعثور بن الحارث الغطفاني)، تسلل بين صفوف المسلمين، على غفلة منهم، ووصل إلى رسول الله، فرآه مضطجعاً، فوقف على رأسه، شاهراً سيفه يريد الفتك به، والنبي ﷺ أعزل ليس في يده سلاح، فقال دعثور للنبي ﷺ:

من يمنعك مني الآن؟ فقال له رسول الله، الله، وبينما هما كذلك، إذ وقع دعثور على ظهره، وسقط السيف من يده، فأخذه رسول الله، ووقف على رأس دعثور، فقال له: من يمنعك مني الآن؟ فقال دعثور: لا أحد، ثم أعلن إسلامه، فأعاد له رسول الله سيفه، وتوجه دعثور إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما حدث معه، وأن الذي أوقعه على الارض رجل طويل دفعه في صدره، ولا شك أنه ملك... وعاد المسلمون إلى المدينة يحملون الروح المعنوية العالية.

غزوة بحران:

وبلغ رسول الله ﷺ أن بني سليم عادوا لحشد قوات لغزو المدينة، فأسرع إليهم بقوة قوامها ثلاثمائة مقاتل، فلما بلغهم ذلك تفرقوا في الجبال، فبقي في ديارهم شهرين تخويفاً لهم، وإرهاباً لبقية الاعراب.

وأما أولئك الموتورون من قريش فقد بدأوا بالاستعداد للأخذ بالثأر، والتخلص من الإسلام ورسوله مباشرة، ورأى بعضهم أن أقرب طريق إلى ذلك إنما هو التخلص من محمد ﷺ وذلك قبل البدء بالمعركة. فقد كان عمير بن وهب من شياطين قريش، ومن الذين آذوا رسول الله والمسلمين أشد إيذاء. وقد وقع ابنه وهب بن عمير في أسر المسلمين يوم بدر، فجلس يوماً في الحجر يتحدث مع صفوان بن أمية الذي قتل أبوه وأخوه في بدر، فقال عمير: أما والله لولا دين عليّ ليس له عندي قضاء، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدي، لركبت إلى محمد حتى أقتله، فإن لي قبلهم علة، ابني أسير في أيديهم (أي له في ذهابه إلى المدينة حيلة هي فكاك أسر ابنه) فاغتنم ذلك صفوان، فقال له: علي دينك، أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالي أواسيهم ما بقوا، لا يسعني شيء ويعجز عنهم، فقال عمير: فاكتم شأني، فقال: أفعل. ثم أمر عمير بسيفه فشحذ له وسم، ثم سار حتى أتى المدينة، فرآه عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين أناخ على باب المسجد متوشحا السيف، فقال:

هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب والله ما جاء إلا لشر، وهو الذي حرش بيننا، وحزرنا للقوم يوم بدر. ثم دخل عمر على رسول الله ﷺ فقال: يا نبي الله، هذا عدو الله عمير بن وهب قد جاء متوشحاً سيفه، قال: فأدخله علي، فأقبل عمر إلى عمير، وأخذ بحمالة سيفه في عنقه فلببه بها، وقال لرجال ممن كانوا معه من الأنصار: ادخلوا على رسول الله ﷺ، فاجلسوا عنده، واحذروا عليه من هذا الخبيث، فإنه غير مأمون. ثم دخل على رسول الله ومن معه، فلما رآهم رسول الله، قال لعمر: أرسله يا عمر، ادن يا عمير، فدنا ثم قال: أنعموا صباحاً.

فقال رسول الله: قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير بالسلام: تحية أهل الجنة.

قال عمير: أما والله يا محمد، إن كنت بها لحديث عهد.

قال رسول الله: فما جاء بك يا عمير؟

قال عمير: جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا فيه.

قال رسول الله: فما بال السيف في عنقك؟

قال عمير: قبحها الله من سيوف، وهل أغنت عنا شيئاً؟.

قال رسول الله: اصدقني، ما الذي جئت له؟.

قال عمير: ما جئت إلا لذلك.

قال رسول الله: بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر، فذكرتما أصحاب القليب من قريش، ثم قلت: لولا دين علي وعيال عندي، لخرجت حتى أقتل محمداً، فتحمل لك صفوان بدينك وعيالك، على أن تقتلني له، والله حائل بينك وبين ذلك.

قال عمير: أشهد أنك رسول الله، قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله، فالحمد لله الذي هداني للإسلام، وساقني هذا المساق، ثم شهد شهادة الحق. قال رسول الله: فقهوا

أخاكم في دينه، وأقرئوه القرآن وأطلقوا له أسيره. ففعلوا.

قال عمير بعد أن عزم على السفر والعودة إلى مكة: يا رسول الله، إني كنت جاهداً على إطفاء نور الله، شديد الأذى لمن كان دين على الله عز وجل، وأنا أحب أن تأذن لي، فأقدم مكة، فأدعوهم إلى الله تعالى، وإلى رسوله ﷺ، وإلى الإسلام، لعلّ الله يهديهم وإلا آذيتهم في دينهم، كما كنت أؤذي أصحابك في دينهم، فأذن له رسول الله ﷺ. فلحق بمكة. وكان صفوان بن أمية حين خرج عمير بن وهب يقول: أبشروا بوقعة تأتيكم الآن في أيام، تنسيكم وقعة بدر، وكان صفوان يسأل عنه الركبان، حتى قدم راكب فأخبره عن إسلامه، فحلف ألاّ يكلمه أبداً، ولا ينفعه أبداً.

غزوة السويق:

لقد تأثر أبو سفيان كثيراً لغزوة بدر، وخاصة أنه لم يحضرها، وقد قتل ابنه حنظلة، وأسر ابنه الثاني عمرو، فأقسم ألا يمس رأسه الماء حتى يغزو محمداً في المدينة، فخرج في مائتي راكب من قريش، وسار بهم حتى اقترب من المدينة، فانتظر حتى أقبل الليل، فدخلها تحت جنح الظلام خائفاً يترقب، وقد اتجه إلى حيي بن أخطب أحد زعماء بني النضير من اليهود، فرفض استقباله، فسار إلى سلام بن مشكم، وكان سيد بني النضير، فاستقبله وأكرمه، وأخذ منه أخباراً عن المسلمين، ثم عاد في ليلته إلى أصحابه وهم ينتظرونه خارج المدينة، وبعث رجالاً من قريش ليفسدوا في الارض، فحرقوا بعض النخل فيها، ووجدوا رجلاً من الانصار فقتلوه، وولوا هاربين، وانطلقوا مع جمعهم نحو مكة لا يلوون على شيء، وقد تخففوا من كل شيء حتى من أزوادهم، وكان أكثرها من السويق، وهو من الحنطة المحمصة المطحونة، وبعضها ممزوج بالعسل والسمن، أو مجبولة بالماء، ووصل الخبر إلى رسول الله فتبعهم مسرعاً بمائتي مقاتل، وترك على المدينة أبا لبابة بشير بن عبد المنذر، ولكنهم فاتوه، وغنم المسلمون كميات من الزاد، من السويق، الأمر الذي جعل الغزوة تعرف بذلك، وكانت هذه الغزوة في أوائل

ذي الحجة من العام الثاني للهجرة.

سرية زيد بن حارثة:

خافت قريش من إرسال قوافلها الى الشام عن طريق الغرب بعد الذي كان في بدر، الامر الذي جعلها تلجأ إلى الطريق الشرقية عن طريق نجد، وأرسلت قافلة كبيرة فيها أبو سفيان بن حرب، ومعه كميات من الفضة، وفيها صفوان بن أمية وغيرهما من وجهاء قريش، وكان دليلها فرات بن حيان، وعلم رسول الله بهذه القافلة فأرسل لها سرية بإمرة زيد بن حارثة فلقيهم على ماء (القردة) من مياه نجد، وما إن وجدوا سرية رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى هرب رجال القافلة وتركوا عيرهم غنيمة للمسلمين، فأخذها زيد، وسار بها إلى المدينة، فخمسها رسول الله.

غــزوة أحُــد

بعد معركة بدر والمعارك الأخرى التي سبقتها والتي تلتها والتي كان النصر فيها كلها للمسلمين ظن بعضهم أن النصر سيكون حليفهم كيفما فعلوا ما داموا على دين الله، وغيرهم كفاراً، وسواء استعدوا أم لم يستعدوا، وأخذوا بالأسباب أم لم يأخذوا فإن الله ناصرهم ومؤيدهم بدعم من عنده، وخاصة أنهم رأوا الملائكة في بدر بجانبهم، تثبتهم وتطمئن نفوسهم، فأراد الله سبحانه وتعالى أن يعلمهم درساً من أن النصر لا يكون إلا بأخذ الأسباب والاستعداد للقتال، والله بعدئذ يؤيد بنصره من يشاء، ولم يكن الدرس بآيات قرآنية تتنزل على رسوله يتلوها عليهم، ولم تكن توجيهاً، وإنما كانت درساً عملياً قاسياً، ذاقوا مرارته فقد خلفوا في ساحة المعركة شهداء كراماً منهم حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، أسد الله وأسد رسوله، وعبد الله بن جحش ابن عمة رسول الله، وسعد بن الربيع أحد وجهاء الانصار، ومصعب بن عمير حامل لواء المسلمين، وعمرو بن معاذ

أخو سعد بن معاذ سيد الاوس، وخمسة وستون آخرون كما جرح أكثر من مائة وخمسين، وفوق كل هذا وأصعب من كل هذا فقد جرح رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكسرت رباعيته، ودخلت حلقتان من حلقات المغفر في وجنته الشريفة، ووقع في الحفرة، وكان من نتائج هذا كله هزة في النفوس، وصدمة لم تكن متوقعة بعد النصر العجيب في بدر حتى لقد قال المسلمون حين أصابهم ما أصابهم: «أنى هذا؟» وكيف تجري الامور معنا هكذا ونحن المسلمون؟.

والقرآن الكريم يرد المسلمين هنا الى سنن لله في الارض، يردهم إلى الأصول التي تجري وفقها الامور، فهم ليسوا بدعاً في الحياة، فالنواميس التي تحكم الحياة جارية لا تتخلف، والامور لا تمضي جزافاً إنما هي تتبع هذه النواميس، فإذا هم درسوها، وأدركوا مغزاها، تكشف لهم الحكمة من وراء الاحداث، وتبينت الاهداف من وراء الوقائع، واطمأنوا إلى ثبات النظام الذي تتبعه الأحداث، وإلى وجود الحكمة الكامنة وراء هذا النظام. واستشرفوا خط السير على ضوء ماكان في ماضي الطريق، ولم يعتمدوا على مجرد كونهم مسلمين، لينالوا النصر والتمكين، دون الأخذ بأسباب النصر، وفي أولها طاعة الله وطاعة الرسول[1].

وفي معركة بدر ومن خلال المعارك التي سبقتها والتي تلتها تبين أن أمر المسلمين قد توجه كما قاله كبير المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول فمن لم يكن قد آمن أظهر الايمان، ومن لم يكن قد أسلم أظهر الاسلام، ومنهم عبد الله بن أبي الذي كان يطمع أن يكون ملكاً على المدينة بعد يوم بُعاث ذلك اليوم الذي ذهب فيه أكثر زعماء الحيين من الأوس والخزرج سكان المدينة وبقي ابن أبي، وقد كانوا يعدون له التاج، فلما جاء الاسلام، وهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم، لم يعد يلتفت اليه أحد لأنه لم يسلم، فضاع مع

---

(١) في ظلال القرآن ـ سيد قطب. الجزء الرابع ص ٧٨.

من ضاع، أسلم قومه وتوانى هو، فاعتقد أن رسول الله قد سلبه ملكه، وأضاعه عليه، فحقد عليه وعلى الاسلام، وعلى قومه الذين أسلموا، وعلى حد زعمه الذين نصروا محمداً فأعطوه هذا المركز، وبوؤوه هذا المنصب، فلما وجد أن أمر الاسلام قد قوي، وانتصر المسلمون في كل ميدان، وفي كل ساحة التقوا فيها مع أعدائهم، لم يعدَّ هذا تأييداً من الله ودعماً، بل عدَّه قوة وشجاعة، فأظهر الاسلام، وطلب من أنصاره أن يظهروا ذلك، وهكذا اختلط أمر المنافقين بين المسلمين، وقد كانوا يظهرون الورع فيسرعون الى الصلاة في الصف الأول، وإن كانوا لا يتركون فرصة تناسبهم إلا ويعملون فيها ضد المسلمين ونبيهم عليه الصلاة والسلام، وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد أطلع رسوله عليهم، وعلى أعمالهم، إلا أن حكمته جل شأنه قد اقتضت أن يضع أعمال المنافقين والذين في قلوبهم مرض أمام الملأ جلية مكشوفة في العراء، وأن يكرم المؤمنين والذين لم ترتب قلوبهم بإحدى الحسنيين فإما الثبات وزيادة الايمان والنصر على أنفسهم وعلى أعدائهم، وإما الشهادة في سبيل الله متخذاً منهم شهداء يقول تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ

تَنظُرُونَ [1]. فكانت حكمة الله تقضي بتنقية الصف صف المسلمين من الذين دخلوا معهم من المنافقين، وصاروا جزءاً منهم حسب الظاهر، وتنقية الصف تكون بعزل المنافقين عن الصف الاسلامي لترتفع الجماعة الاسلامية الصافية الخالية من كل شائبة الى مستوى الدور المقدر لها، وليتحقق على يديها قدر الله الذي ناطه بها.

هذه إرادة الله ـ والله أعلم ـ وتتحقق على أيدي خلقه من الفريقين فلننظر الى الدوافع ومجريات الأحداث في المعركة التي جعلت كل فريق يقوم بأعمال معينة تؤدي في النتيجة الى ما أراده الله جل شأنه وتكون الحكمة الربانية في تمييز الشخصية المسلمة وإقامة الحجة على شخصية النفاق، وإنزال العقوبة على شخصية الكفر.

وعندما هزمت قريش في معركة بدر، ولحقها من الخزي والعار ما لحقها قررت الأخذ بالثأر والقضاء على المسلمين، وغزوهم في عقر دارهم وذلك لإعادة هيبتها واستعادة مركزها بين قبائل العرب، وزادها تصمياً على ذلك غنيمة المسلمين للعير التي سلكت الطريق الشرقية بعد أن قطعت الأمل بالطريق الغربية السهلة القريبة من المدينة وبهذا توقفت تجارة قريش الى الشام تماماً إذا لم تقم بعمل حاسم، وهذا ينطبق على ما قاله صفوان بن أمية عندما قرروا التحول الى الطريق الشرقية «إن محمداً وصحبه عوّروا علينا متجرنا، فما ندري ماذا نصنع بأصحابه وهم لا يبرحون الساحل، وأهل الساحل قد وادعوهم، ودخل عامتهم معه، فما ندري أين نسلك، وإن أقمنا في ديارنا هذه أكلنا رؤوس أموالنا فلم يكن لها من بقاء، وإنما حياتنا بمكة على التجارة الى الشام في الصيف والى اليمن في الشتاء». ولكن ذلك لم يقدهم شيئاً إذ وقعت قافلتهم، وهو فيها، وقد فر من وجه زيد بن حارثة، وذلك عندما

---

(١) آل عمران: ١٣٧ ـ ١٤٣.

انتقلوا الى الطريق الشرقية ـ كما ذكرنا ـ.

بدأ النشاط للاستعداد لمعركة مقبلة، وكان أكبر المتحمسين لها بنو مخزوم، وخاصة عكرمة بن أبي جهل، وعبد الله بن أبي ربيعة إضافة الى أبي سفيان وصفوان بن أمية. فقد حرضوا قريشاً ومن جاورها من ثقيف وكنانة. واجتمعت قريش في دار الندوة، وقرر المجتمعون بالاجماع أن يكون تجهيز الجيش المرتقب إرساله الى المدينة من أموال قافلة أبي سفيان التي نجت من قبضة المسلمين قبيل غزوة بدر، لذا فقد احتجزت تلك الأموال في دار الندوة، ولم يدفع لأصحابها شيء منها. وانطلقت قريش تحرض القبائل الأخرى، وخاصة كنانة، وقد نجحت في مسعاها إذ تطوع عدد من أفراد هذه القبيلة للقتال وتكامل الجيش، وكان عدده ثلاثة آلاف مقاتل، ألفان وتسعمائة من قريش والأحابيش من بني المصطلق وبني الهون، ومائة من كنانة، ومع الجيش ثلاثة آلاف بعير أي أنهم جميعاً من الركبان، ومع الجيش أيضاً مائتا فرس، لم يمتطوها حتى وصلوا إلى أحد. إضافة الى ٧٠٠ درع، وقد أخرجوا معهم النساء تشجيعاً لهم، وظناً منهم أن ذلك أدعى للثبات، وكان قائد الجيش أبو سفيان بن حرب، وحامل اللواء طلحة بن أبي طلحة العبدري، وقائد سلاح الفرسان خالد بن الوليد، وعكرمة بن أبي جهل، وخرج مع الجيش أبو عزة الجمحي وقد حرضه على ذلك صفوان بن أمية، وكان قد وقع أسيراً في بدر ومنّ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم يومذاك، كما خرج أبو عامر الراهب الأوسي الذي فارق المدينة كرهاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وخرجت مع قريش القيان يعزفن على الدفوف. وكانت النقمة أكبر ما تكون على حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله لما أبلاه في بدر من البلاء الحسن، لذا دعا جبير بن مطعم بن عدي غلاماً حبشياً يدعى وحشي، وكان يرمي بالحربة، وقلما يخطىء بها، وطلب منه أن يضرب حمزة، وأنه حر إن قتله.

انطلق جيش مكة الى عسفان ومنها إلى خُليص، الجحفة، رابغ، الأبواء،

المدينة... واقترحت هند بنت عتبة زوج أبي سفيان قائد الجيش العام، أن تنبش قريش قبر آمنة بنت وهب أم رسول الله صلى الله عليه وسلم الموجود في الأبواء حيث دفنت هناك أثناء زيارة لها للمدينة، ومعها رسول الله وكان في السادسة من عمره، إلا أن هذا الاقتراح قد رفض.

وصل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر مسيرة قريش الى المدينة عن طريق عمه العباس بن عبد المطلب الذي لم يخرج هذه المرة مع قريش معتذراً بما أصابه في بدر، وقد قرأ رسالة العباس لرسول الله أبي بن كعب، وكتم الخبر عن سكان المدينة على الرغم من استعدادها... وبعد التأكد استنفر المسلمون، وكانوا على حذر، فلم يتركوا سلاحهم حتى أثناء صلواتهم، كما نشطت دوريات المدينة الاستطلاعية، وجاءت بخبر قدوم جيش مكة عن طريق وادي العقيق حتى إذا وصل الى (ذو الحليفة) تحرك نحو اليسار في غربي الحرة الغربية ثم استقر في السبخة من وادي قناة الواقع شمالي المدينة بالقرب من جبل الرماة.

ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام رؤيا تشير إلى حصول أشياء كثيرة، قال: رأيت بقراً لي تذبح؟ ورأيت في ذباب سيفي ثلماً، ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة، فأولها بقوله: أما البقر فهم أناس من أصحابي يقتلون، وأما الثلم فهو رجل من أهل بيتي يقتل، وأما الدرع فهي المدينة.

مشاورة المسلمين:

استشار رسول الله أصحابه عن المكان الذي سيواجهون فيه قريشا، وقد كان رأيه أن يبقوا في المدينة، وأن تكون هي وشوارعها ساحة المعركة فقال: فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا، فان أقاموا أقاموا بشر مقام، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها. وكان عبد الله بن أبي رأس المنافقين يحضر هذه المشاورة بصفته أحد زعماء الخزرج، ويرى هذا الرأي فقال: يا رسول الله أقم بالمدينة ولا تخرج اليهم، فوالله ما خرجنا منها الى

عدو لنا قط، إلا أصاب منا، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه، فدعهم يا رسول الله، فإن أقاموا، أقاموا بشر محبس، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا.

أما الصحابة الذين فاتتهم بدر، فقد كانوا متحمسين للخروج ولقاء المشركين خارج المدينة، وكذا أغلبية الشباب، وحجتهم في ذلك حتى لا يرموا بالجبن، وكان على رأس الذين يرون الخروج حمزة بن عبد المطلب إذ قال لرسول الله: والذي أنزل عليك الكتاب لا أطعم طعاماً حتى أجالدهم بسيفي خارج المدينة، ومالت الأكثرية الى هذا الرأي، إذ كانوا يرون أنهم منصورون لا محالة ـ بإذن الله ـ ومن يستشهد في سبيل الله فيا حبذا الجنة، ومن لا يطلبها من المسلمين؟ وهذا الأمر الذي كان يدفعهم لطلب الخروج فهي إحدى الحسنيين: الشهادة لمن يستشهد، والنصر لمن يبقى ليجاهد في المستقبل.

رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أكثرية المسلمين ترى الخروج، وعلى خلاف رأيه، فعدل عن رأيه، واستجاب للأغلبية، وأعلن أنه خارج لمقاتلة العدو حيث هو في وادي قناة. وكان يوم جمعة الرابع عشر من شوال، وبعد أن صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الجمعة بالمسلمين، وصلى على جنازة مالك بن عمرو النجاري، دخل بيته، وتسلح فلبس درعاً فوق درع، وخرج على المسلمين، وأذن فيهم بالخروج إلى العدو. وندم أولئك الذين ألحوا عليه بالخروج حيث شعروا أنهم استكرهوه على ذلك، فأبدوا طاعتهم له، وندمهم على ما ظهر منهم، وأنهم تركوا الأمر لله ولرسوله، وأنهم على استعداد للتنازل عن رأيهم والعودة إلى رأيه، فقال لهم عليه الصلاة والسلام: «ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه، وقد دعوتكم الى هذا الحديث فأبيتم إلا الخروج، فعليكم بتقوى الله والصبر عند البأس وانظروا ما آمركم به فافعلوا».

واجتمع الجيش وتجهز، فقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم المقاتلين إلى ثلاثة كتائب:

١ ـ كتيبة المهاجرين: وأعطى لواءها لمصعب بن عمير.

٢ ـ كتيبة الأوس: وتسلم لواءها أسيد بن حضير.

٣ ـ كتيبة الخزرج: وأخذ لواءها الحباب بن المنذر.

وكان عدد الجيش الاسلامي ما يقرب من ألف مقاتل، معهم مائة درع، ولم يكن معهم من الخيل إلا فرس الزبير بن العوام.

وسأل الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا رسول الله ألا نستعين بحلفائنا من يهود ضد هؤلاء الأعداء فقال: «لا نستنصر بأهل الكفر على أهل الشرك»، فالكافر لا يمكن أن يقاتل باخلاص إذ لا إيمان يدفعه، وهو عدو ظاهر للاسلام، وإنما يقاتل لمصلحة، فان وجد في قتاله مصلحة في الغنيمة أو في شيء آخر جالد وإلا ترك ساحة المعركة وانصرف، وعندها يكون عامل إضعاف وخذلان إذ يقع الوهن في صفوف المحاربين الآخرين، بل وربما يتعاون مع أهل الشرك ضد الاسلام، وأثناء احتدام المعركة يقلب ظهر المجن، وينتقل إلى صفوف الأعداء، وعندها تكون الطامة الكبرى كمن يستجير من الرمضاء بالنار، إذن لا يمكن الاستنصار بأهل الكفر أبداً، وخاصة إذا وجد المسلمون في أنفسهم الامكانية التامة والروح المعنوية العالية والاستعداد لمجابهة الخصوم وهذا ما كان أثناء سير رسول الله صلى الله عليه وسلم لغزوة أحد، أما إذا وجد المسلمون في أنفسهم ضعفاً، وأمنوا أهل الكفر كلياً ـ وهذا لا يمكن ـ، ولم يكونوا في قتال لأهل مكة هؤلاء الكفار بالذات، فيمكن الاستعانة بهم مع بقاء الحذر، والقتال يكون متميزاً كل فريق يقاتل وحده.

استعمل رسول الله على المدينة ابن أم مكتوم، وانطلق بالجيش نحو العدو، وفي الطريق استعرض الجند فأجاز من أجاز، وأعاد من أعاد الى المدينة إذ

رأى في بعضهم سناً صغيراً لا تؤهلهم لخوض معركة قاسية تحتاج إلى صلابة في العود، ومراس على الصبر، وصبر على الشدة وتحمل المشاق، إلا أن الروح الايمانية كانت تدفع هؤلاء الشباب لطلب القتال حباً في الشهادة ورغبة في قتال أهل الباطل، فقال رافع بن خديج أحد هؤلاء الذين طلب منهم رسول الله العودة: يا رسول الله إني ماهر في الرمي، وشهد بذلك من يعرفه، فأجازه... وعندها قال سمرة بن جندب وهو من الذين استصغرهم رسول الله: يا رسول الله، إني أصرع رافعاً، فطلب رسول الله المصارعة، فصرع سمرة رافعاً، فأجاز رسول الله سمرة أيضاً، وأعاد عبد الله بن عمر بن الخطاب، وأسامة بن زيد، وزيد بن ثابت، والبراء بن عازب، وأسيد بن ظهير، وعمرو بن حزم.

وبات رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة مع المسلمين بين المدينة وأحد، وصلى هناك المغرب والعشاء. وقام خمسون من المسلمين بحراسة المعسكر ليلاً بإمرة محمد بن مسلمة، على حين تولى حراسة القيادة الخاصة برسول الله ذكوان بن عبد قيس.

وانطلق رسول الله بالجيش قبل الفجر، واقترب من العدو، وأدركته هناك صلاة الفجر، فصلى بالناس وعليهم السلاح، حيث كانوا على رؤية من العدو إذ يرى كل منهم الآخر. وفي هذه الساعة الحرجة انخزل عبد الله بن أبي بن سلول بثلث الناس عن المسلمين يريد أن تضعف المعنويات، وينزل الوهن ويحل الضعف، وقال: أطاعهم وعصاني، ما ندري علام نقتل أنفسنا ها هنا أيها الناس! فرجع بمن تبعه من قومه من أهل النفاق والريب، فلحق بهم عبدالله بن عمرو بن حرام الأنصاري يطلب منهم العودة والانضمام إلى الجيش قائلا لهم: أذكركم الله ألا تخذلوا قومكم ونبيكم، عندما حضر عدوهم، فقالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم، ولكننا لا نرى أنه يكون قتال، وأصروا على الانصراف، وعندها قال لهم: أبعدكم الله يا أعداء الله فسيغني الله عنكم نبيه. وهذا شأن المنافقين في كل زمان وفي كل ميدان، يسيرون مع من

يرونه قوياً، فاذا أحسوا منه ضعفاً تركوه، ويكونون مع الحاكم ما دام يقبض على السلطة بيد قوية فاذا لاحظوا ضعف القبضة تراخوا في مساندته ودعمه، حتى إذا ضعف تماماً انقلبوا عليه، وتركوه حتى يسقط، فاذا قام عهد جديد انتظروا حتى إذا لمسوا منه قوة ساروا معه، كما فعلوا مع سابقه. وقد لاحظ عبد الله بن أبي والمنافقون معه أن المشركين أكثر عدداً وأكثر عدة ومتاعاً، وهذا عندهم سبيل النصر، فخافوا أولا على أنفسهم فانخذلوا، وفي الوقت نفسه ظنوا أنه سيكون لهم أياد بيضاء عند المشركين الذين سيكون النصر بجانبهم على هذا الانسحاب الذي جاء في الوقت المناسب، هذا مع ملاحظة الكراهية والحقد الذي في نفوسهم على المسلمين، وربما يكون خذلانهم سبباً في الانتهاء من المسلمين في المدينة على الأقل، وعودة الزعامة لرئيس المنافقين عبد الله بن أبي الذي كان مرشحاً لأن يكون ملكاً على يثرب، وما منع الأمر أن يتم له إلا انتشار الاسلام وهجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يثرب حيث أصبح سيدها، وحاز على درجة من المحبة من أهلها الذين أسلموا لا يحلم بها أحد. هذا ما أراده المنافقون وكادوا ينجحون إذ همّ بنو حارثة من الأوس، وهمّ بنو سلمة من الخزرج بالانسحاب والعودة الى المدينة ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [1]. ولكن الله أراد غير هذا، أراد أن يميز الخبيث من الطيب، وأن يصفي صفوف المؤمنين من كل شائبة حتى تبقى صفوفاً نقية سليمة مؤمنة، خارجة لله، تقاتل في سبيله، لا تبغي عرضاً من أعراض الدنيا، ولا تختلف أثناء القتال، ولا تفترق ساعة المعركة. وبعد هذا الانشقاق وقع خلاف بين المسلمين حياله، ففريق يرى أنه يجب تأديب هؤلاء المتمردين الذين لا يختلفون كثيراً عن أعدائهم الذين أمامهم، فما انسحابهم إلا مناصرة لهؤلاء الاعداء ودعم وتقوية، وفريق آخر يرى إهمالهم وترك أمرهم لله. لأن

---

(١) آل عمران: ١٢٢.

في قتالهم خوفاً على المسلمين من أن يقعوا بين نارين نار المنافقين من جهة، ونار المشركين من جهة ثانية، وربما كان هذا هو هدف المنافقين في انسحابهم، إذ أن عدد المنافقين ليس قليلا حيث يقدرون بنصف عدد المسلمين، وما إن يرى المشركون المسلمين قد بدأوا بقتال المنافقين حتى يعملوا فيهم السيف. وإذا لم يحدث هذا مع احتماله الكبير، فان قتال المسلمين للمنافقين يضعفهم بأن يقلل من عددهم، وينهكهم في القتال، وعندها يصبحون لقمة سهلة الابتلاع عند المشركين، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرى هذا الرأي الأخير، ومادام المسلمون قد بقوا كتلة واحدة من الايمان فلم يمكن أن يصدروا عن غير رأي رسولهم الكريم، قال تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾[1].

سار رسول الله صلى الله عليه وسلم بأصحابه نحو جبل أحد، وقد سار في طريق يوصلهم الى الجبل من غير أن يمروا على معسكر قريش الموجود في وادي قناة منذ وصولهم الى ذلك المكان قبل خروج المسلمين من المدينة، وكان دليلهم في هذه الطريق أبو خيثمة أحد الانصار من الخزرج، ورغبة رسول الله بالوصول الى (أحد) كي يحمي ظهره بالجبل، وقطع المسلمون وادي قناة حتى إذا وصل الى فم الشعب من جبل أحد عسكر هناك في عدوة الوادي الى الجبل، فجعل ظهره الى الجبل، وكان قد بقي عدد المسلمين سبعمائة مقاتل يقابلهم ثلاثة آلاف من قريش وأحلافها.

بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم في تعبئة الجيش للقتال، فاختار من عسكره خمسين مقاتلا، وضعهم على جبل الرماة بإمرة عبد الله بن جبير، وأمرهم بأن ينضحوا المشركين بالنبل، وألا يغادروا أمكنتهم مهما كانت

(١) النساء: ٨٧.

النتائج سواء انتصر المسلمون أم هزموا، وذلك خشية أن يلتف المشركون على المسلمين من وراء الجبل، فان لدى المشركين قوة من الفرسان بقيادة خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل تسهل عليهم الحركة والالتفاف، فقال مخاطباً عبد الله بن جبير: انضح الخيل عنا بالنبل، لا يأتون من خلفنا، إن كانت لنا أو علينا، فاثبت مكانك، لا نؤتين من قبلك. ثم رتب باقي الجند صفوفاً وهيأهم للقتال، وقال لهم: «ما أعلم من عمل يقربكم الى الله تعالى إلا وقد أمرتكم به، ولا أعلم من عمل يقربكم الى النار إلا وقد نهيتكم عنه، وإنه قد نفث الروح الأمين في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها لا ينقص منه شيء، وإن أبطأ عنها، فاتقوا الله وأجملوا في طلب الرزق، لا يحملنكم استبطاؤه أن تطلبوه بمعصية الله، والمؤمن من المؤمن كالرأس من الجسد، إذا اشتكى تداعى إليه سائر جسده». وجعل في مقدمة صفوف المسلمين: حمزة بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن جحش، وأبا بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وطلحة بن عبيد الله، ومصعب بن عمير، وسعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، وسعد بن الربيع، وأبا دجانة، وأنس بن النضر، والزبير بن العوام وهو الفارس الوحيد في صفوف المسلمين والمقداد بن عمرو. وقد أوكل رسول الله إلى الزبير والمقداد مهمة الصمود أمام خيل قريش التي يقودها خالد وعكرمة.

وأخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم سيفا، وقال: من يأخذ هذا السيف بحقه؟ فقام اليه رجال منهم الزبير وعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب فأمسكه عنهم، حتى قام أبو دجانة، فقال: أنا، وما حقه يا رسول الله؟ قال: أن تضرب به العدو حتى ينحني، قال: أنا آخذه بحقه يا رسول الله، فأعطاه إياه. وكان أبو دجانة رجلا شجاعا يختال عند الحرب، إذا كانت. فلما أخذ السيف من يد النبي عليه الصلاة والسلام أخرج عصابة حمراء، فعصب بها رأسه، وجعل يتبختر بين الصفين.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا

الموطن.

وعندما انتهت تعبئة رسول الله للمسلمين قال لهم: لا تبدؤوا حتى آمركم.

أما قريش فقد عبأت جيشها كذلك على شكل صفوف على غير عادتها وكان على الميمنة خالد بن الوليد، وهو على الخيل، وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل، وعلى المشاة صفوان بن أمية، وعلى الرماة عبدالله بن أبي ربيعة، وكان أبو سفيان هو القائد العام للجيش، ويحمل اللواء طلحة بن أبي طلحة العبدري. وقد اتجه أبو سفيان إلى حملة اللواء من بني عبد الدار فحرضهم على القتال قائلاً لهم: يا بني عبد الدار، إنكم قد وليتم لواءنا يوم بدر، فأصابنا ما قد رأيتم، وإنما يؤتى الناس من قبل راياتهم، إذا زالت زالوا، فإما أن تكفونا لواءنا، وإما أن تخلوا بيننا وبينه، فنكفيكموه، فهمّوا به، وتواعدوه، وقالوا: نحن نسلم إليك لواءنا؟ ستعلم غداً إذا التقينا كيف نصنع.

وكانت نسوة قريش خلف الرجال يضربن بالدفوف ويحرضنهم على القتال، ومنهن: هند بنت عتبة زوج أبي سفيان، وأم حكيم بنت الحارث بن هشام زوج عكرمة، وبرزة بنت مسعود زوج صفوان بن أمية، وفاطمة بنت الوليد زوج الحارث بن هشام وهي أخت خالد بن الوليد، وريطة بنت منبه بن الحجاج زوج عمرو بن العاص، وخناس بنت مالك أم أبي عزيز بن عمير وهي أم مصعب بن عمير، وسلافة بنت سعد زوج طلحة بن أبي طلحة، أي أن النسوة كن نساء زعماء قريش.

وكان أبو عامر الفاسق عبد عمرو بن صيفي أحد زعماء الأوس قبل الإسلام فلما انتشر الإسلام في المدينة شعر هذا الفاسق أن أمره قد ضعف. فذهب مغاضباً إلى قريش مع عدد من أتباعه يحرضهم على قتال المسلمين، ويعدهم أنه لو لقي قومه لم يختلف عليه منهم رجلان، فلما كان يوم أحد، ووصلت قريش إلى مكان معسكرها قام هذا الفاسق بحفر بعض الحفر

وتغطيتها ليقع فيها أبطال المسلمين. ولما التقى الجمعان كان أول من لقيهم أبو عامر في الأحابيش وعبدان أهل مكة ومن معه من الأوس الذين خرجوا معه مغاضبين قومهم. وعددهم مختلف فيه بين الخمسة عشر والخمسين رجلاً، فنادى: يا معشر الأوس، أنا أبو عامر، قالوا: فلا أنعم الله بك عينا يا فاسق وكان أبو عامر يسمى في الجاهلية بالراهب فسماه رسول الله بالفاسق فلما سمعهم وما قالوا، قال: لقد أصاب قومي بعدي شر. ولقد قاتل هذا الفاسق قتالاً شديداً، وكان يرمي المسلمين بالحجارة.

وطلب أبو سفيان قائد جيش قريش من الانصار التخلي عن محمد فهو دخيل عليهم، وأنه من قريش فهم أولى به، وأن قريشاً لم تأت لتقاتل أهل المدينة، إنما أتت لقتال قومها الذين جاءوا إلى المدينة دخلاء. إلا أن الانصار ردوا عليه رداً عنيفاً، وأسمعوه ما أغاظه.

كان جيش مكة بين معسكر المسلمين والمدينة، وفي مكان أدنى من جيش المدينة إذ كان في وسط وادي قناة على حين كان جيش المسلمين على العدوة الشمالية للوادي في السفوح الجنوبية لجبل أحد.

بدأت المعركة بهجوم من قبل ميمنة جيش مكة بقيادة (أبو عامر الفاسق) تساندهم الخيل بقيادة خالد بن الوليد على ميسرة جيش المسلمين، إلا أن الرماة الذين على الجبل قد نضحوا الخيل بالنبال فتراجعت، وتقهقرت أمام الزبير ومن معه... وتكرر الهجوم مرات ثلاثة على هذا الجانب وما اختلفت النتيجة في المرات الثلاثة، هذا خالد بن الوليد الذي عرف عنه أنه ما تراجع أمام عدو، ولم يتراجع فعلاً أمام باطل ولكنه تقهقر هنا لأنه أمام حق، فالحق أقوى من أن يقف أمامه باطل خالد وغير خالد.

وقام المسلمون بهجوم معاكس، وركزوا هجومهم على حملة اللواء، فاللواء عنوان النصر أو الهزيمة، وطلب حامل لواء قريش طلحة بن أبي طلحة المبارزة فتقدم إليه الزبير بن العوام، وعاجله بطعنة قبل أن ينزل عن جمله،

ووثب حتى صار معه على الجمل، ورماه، وبرك فوقه، واحتز رأسه بالسيف. وأخذ لواء المشركين أبو شيبة عثمان بن أبي طلحة بعد أخيه، فقتله حمزة بن عبد المطلب، فرفع اللواء أخوهما الثالث أبو سعيد بن أبي طلحة، فرماه سعد بن أبي وقاص فقتله، فأخذ الراية القرشية مسافع بن طلحة بن أبي طلحة، فرماه عاصم بن ثابت بن الأقلح فقتله، فأخذها أخوه كلاب فقتله الزبير بن العوام، فرفعها الجلاس أخوهما فطعنه طلحة بن عبيد الله فقتله، وتتالى أبناء عبد الدار يرفعون اللواء حتى قتلوا جميعاً وعددهم عشرة أفراد يعدون من أبطال قريش المشهورين، وأخذه بعدهم رجل قاتل أفضل منهم حتى قتل، وسقط اللواء، وديس بالأقدام، واندفع المسلمون اندفاع رجل واحد، وتسابق حمزة وأبو دجانة في حصد الاعداء، وهزم المشركون - باذن الله - على كثرتهم، إذ كان كل واحد من المسلمين يقابل أكثر من أربعة من المشركين، ومع ذلك فقد ولّت قريش الأدبار لا تعي على شيء وبدت المعركة أنها قد انتهت.

وفي هذه الأثناء بينما كان حمزة بن عبد المطلب يحصد في القوم إذ جاءته حربة من وحشي عبد جبير بن مطعم، وقعت في ثنته[1] وخرجت من بين رجليه، فوقع، ومات رضي الله عنه. وقد حدث وحشي نفسه بعد إسلامه عن قتل حمزة فقال: كنت غلاماً لجبير بن مطعم، وكان عمه طعيمة بن عدي قد أصيب يوم بدر، فلما سارت قريش إلى أحد، قال لي جبير إن قتلت حمزة عم محمد بعمي، فأنت عتيق، قال فخرجت مع الناس، وكنت رجلاً حبشياً أقذف بالحربة قذف الحبشة، قلّما أخطىء بها شيئاً، فلما التقى الناس خرجت أنظر حمزة وأتبصره، حتى رأيته في عرض الناس مثل الجمل الأورق، يهد الناس بسيفه هداً، ما يقوم له شيء، فوالله إني لأتهيأ له، أريده واستتر منه بشجرة أو حجر، ليدنو مني، إذ تقدمني إليه سباع بن عبد العزى، فلما رآه حمزة قال له: هلم إلي يا ابن مقطعة البظور. قال فضربه ضربة

(١) الثنة: ما بين أسفل البطن إلى العانة.

ما أخطأ رأسه. قال: وهززت حربتي، حتى إذا رضيت منها دفعتها عليه، فوقعت في ثنته، حتى خرجت من بين رجليه، وذهب لينوء نحوي، فغلب، وتركته وإياها حتى مات ثم أتيته، وأخذت حربتي، ثم رجعت إلى العسكر، فقعدت فيه، ولم يكن لي بغيره حاجة، وإنما قتلته لأعتق[1]. وكانت هند بنت عتبة كلما مرت بوحشي تقول له: ويها أبا دسمة اشف غليلي. وعندما مرت هند على جثة حمزة بقرت بطنه، وأخذت كبده، فلاكتها، فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها. وأعطت وحشياً خدمها وحليها. وعلت يومذاك على صخرة مشرفة بعد انتهاء المعركة وقالت:

نحن جـزينـاكم بـيـوم بـدر	والحرب بعد الحرب ذات سعر
ما كان عن عتبة[2] لي من صبر	ولا أخي[3] وعمه[4] وبكري[5]
شفيت نفسي وقضيت نذري	شفيت وحشي غيل صدري
فشكـر وحشي علي عمـري	حتى تـرم أعظمـي في قـبري

وقتل من المسلمين في هذه الأثناء مصعب بن عمير حامل لواء المسلمين،

---

(١) أعتق وحشي عندما عاد إلى مكة، وأقام بها حتى فتحها رسول الله ﷺ، فهرب إلى الطائف، فمكث بها حتى أسلمت، وتحير إلى أين يذهب، ثم قدم على رسول الله بمكة وتشهد أمامه شهادة الحق، وحدثه عن قتله حمزة بناء على طلب رسول الله، ثم قال له: ويحك غيب عني وجهك فلا أرينك، فكان يحرص ألا يراه. ولما خرج المسلمون إلى اليمامة لقتال المرتدين، خرج وحشي معهم وقتل مسيلمة الكذاب بالحربة نفسها التي قتل فيها حمزة، فكان يقول: قتلت خير الناس بعد رسول الله ﷺ، وقد قتلت شر الناس. وبقي حتى أيام معاوية بن أبي سفيان بحمص، وكان مدمناً على الخمر، وحدّ عليها كثيراً حتى خلع من الديوان، فكان عمر بن الخطاب يقول: قد علمت أن الله تعالى لم يكن ليدع قاتل حمزة.

(٢) عتبة بن ربيعة: أبو هند وقد قتل يوم بدر بالمبارزة، وطعنه عبيدة بن الحارث وعاونه حمزة وعلي بالاجهاز عليه.

(٣) أخوها الوليد بن عتبة قتل يوم بدر بالمبارزة، وقتله علي بن أبي طالب.

(٤) عمه: عم أخيها أي شيبة بن ربيعة قتل يوم بدر بالمبارزة، وقتله حمزة بن عبد المطلب.

(٥) بكرها: حنظلة بن أبي سفيان قتل يوم بدر.

وقد قتله ابن قميئة الليثي، وهو يظن أنه رسول الله ﷺ، فرجع إلى قريش فقال: قتلت محمداً، وتسلم لواء المسلمين بعده علي بن أبي طالب.

أما أبو دجانة فقد كان أيضاً يحصد في جيش المشركين، والتقى أثناء عمله هذا ببطل يرتدي لباس الميدان فرفع عليه السيف يريد حصاده، فإذا بها امرأة إذ رفعت صوتها مولولة عندما رأت الموت يدنو منها، فرفع السيف عنها، فإذا بها هند بنت عتبة. يقول أبو دجانة: رأيت يوم أحد إنساناً يحمس الناس حماسة شديدة فصمدت له، فإذا امرأة فأكرمت سيف رسول الله ﷺ أن أضرب به امرأة، وكانت المرأة هند بنت عتبة.

ولما بدت المعركة أنها قد انتهت وولّى المشركون الأدبار، وركب المسلمون ظهورهم يعملون فيهم قتلا وأسراً وغنيمة، وراية قريش قد ألقيت على الأرض تدوسها الأقدام، عندها رأى بعض أفراد رماة المسلمين الذين يرابطون في الجبل أن ينزلوا من مكانهم الذي وضعهم فيه رسول الله ﷺ، ليشاركوا إخوانهم في مطاردة أعدائهم، وليجمعوا الغنائم المبعثرة على الارض، فإن القتال قد انتهى حسبما رأوا، وإن النفس قد بدأت تفكر بالغنيمة. ولكن قائد الرماة عبد الله بن جبير كان يرى غير هذا الرأي، إذ كان يرى أن يبقى في مكانه لا يحيد عنه، وقد وضعه فيه رسول الله، وتعاليم رسول الله يجب أن تنفذ حرفياً، ولهذا أصر على البقاء حتى تأتيه تعاليم رسول الله، وأمام هذا الإصرار تمرد أكثر الرماة على قائدهم، وتركوا مواقعهم، والتحقوا بالجيش يعملون في جمع الغنائم. وبهذا انكشفت مؤخرة المسلمين إذ لم يبق على الجبل سوى عشرة رماة مع قائدهم، واهتبل قائد ميمنة قريش خالد بن الوليد قائد الفرسان هذا النزول، فأسرع بخيله، وارتقى الجبل من الخلف، وقتل من عليه ممن بقي من الرماة بعد أن قاتلوا بضراوة ولكنهم عشرة أمام مائتين من الفرسان فقتلوا كلهم وقائدهم عبد الله بن جبير. وأصبح المسلمون بين نارين، إذ نزل خالد بن الوليد من خلفهم بخيله بعد أن قضى على الرماة، والتفت المشركون ورأوا ما حدث، وقد سمعوا صياح خالد، فانقلبوا وقاموا

بهجوم معاكس، وأسرعت إحدى النساء القرشيات من اللواتي كن مع القوم، وهي عمرة الحارثية، فرفعت اللواء وتنادت قريش وقد رأت لواءها قد رفع، وعاد المنهزمون، وبدأت المعركة من جديد... وفقد المسلمون تنظيمهم، وعمت بينهم الفوضى، وبدأ بعضهم يقتل بعضاً، وخاصة عندما ارتفع صياح ابن قميئة قتلت محمداً. فرسول الله قائد المعركة وعنوانها، وقتل القائد بداية الهزيمة، وقد قتل اليمان (حسيل بن جابر) والد حذيفة بيد المسلمين، ولم ينتبهوا إلى أنفسهم، حتى قال حذيفة: أبي أبي، فعرفوا أن بعضهم يقتل بعضاً، ولكن اليمان كان قد قتل.

كان المسلمون ساعة التفاف خالد من الخلف على شكل تجمعات. فجماعة صغيرة مع رسول الله ﷺ لا تفارقه، وتعد هيئة الأركان. وجماعة أخرى صغيرة أيضاً لم تبتعد في مطاردة العدو، والجماعة الثالثة ـ وهي أكثرية الجيش ـ قد استمرت في ملاحقة العدو، واحتلت مقر قيادته، واستولت على ما فيه، فعندما جاء خالد من الخلف، وقعت هذه الجماعة بين نارين فطوقت، وقتل عدد منها، حتى انهزم بعضها نحو المدينة، وفكر بعضها الآخر في الاستسلام، ولكن شجع بعضهم بعضاً، ورغبوا في الشهادة، ومن هؤلاء أنس بن النضر إذ قال لهم: مالكم هكذا؟ فقالوا له: قتل رسول الله. فقال: فماذا تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا وموتوا على ما مات عليه رسول الله. واستقبل المشركين بسيفه، وظل يقاتل، وهو يقول: اللهم إني أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء (المشركون)، وأعتذر إليك مما يقول هؤلاء (المسلمون)، واستمر في جهاده حتى استشهد، ومنهم ثابت بن الدحداح الذي استشهد مع جماعة من قومه استبسلوا في القتال. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ

﴿عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

كان رسول الله ﷺ يراقب الموقف بشكل جيد، ولما رأى ما رأى من هزيمة المسلمين وانخفاض الروح المعنوية، وجد أنه من الضروري بمكان أن يعلن عن مكان وجوده مع ما في ذلك من مخاطرة على نفسه إذ أنه هو الهدف لا بصفته القائد فحسب وإنما بصفته صاحب الدعوة. فإن هذا الإعلان يؤدي إلى:

١ - تجمع الناس غير المطوقين حوله، ويستطيع أن يقوم بهم بهجوم معاكس يجعل جماعة خالد محصورة بين نارين.

٢ - ارتفاع الروح المعنوية عند الناس المطوقين، فيقاتلون بحماسة عندما يعلمون أن نبيهم لا يزال على قيد الحياة، وأن المعركة لا تزال قائمة.

٣ - اتجاه عدد من المقاتلين المشركين نحو المكان الذي فيه رسول الله حيث هو الهدف الأول من المعركة الأمر الذي يخفف الضغط عن المسلمين المطوقين.

وتترس رسول الله بسفح جبل أحد، وبدأ ينادي بأعلى صوته: هلموا إلي أنا رسول الله. قال تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ﴾[2] وما أن سمع المسلمون صوت نبيهم حتى اطمأنت نفوسهم، وارتفعت معنويات المقاتلين المطوقين، واستطاعوا شق طريقهم عبر صفوف أعدائهم غير مبالين بما يصيبهم، ووصلوا إلى رسول الله، كما تجمع حوله أولئك المبعثرون من المسلمين، والتف

---

(١) آل عمران: ١٥١

(٢) آل عمران: ١٥٢

التجمع حول قيادتهم من جديد ، وكذلك فقد اتجهت جموع المشركين نحو مركز قيادة رسول الله اذ عرفوا مكانه ، وأصبح هدفهم القائد والتجمع الجديد . ودارت المعركة مرة أخرى وبشكل أشد عنفاً وأكثر ضراوة ، وكان الهدف الرئيسي رسول الله ﷺ فتترس المسلمون أمامه ، وجعلوا حوله سوراً من الأبطال ، وقاتلوا دونه ، ومن هؤلاء الأبطال سعد بن أبي وقاص الذي دافع بسهامه هو وأبو طلحة زيد بن سهل ، وسهل بن حنيف ، وطلحة بن عبيد الله ، وأبو دجانة الذي جعل ظهره هدفاً لسهام المشركين من أجل أن يحمي رسول الله ﷺ ، وحاطب بن أبي بلتعة الذي انتقم من عتبة بن أبي وقاص عندما ضرب رسول الله بحجر فكسر رباعيته ، فقتله ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وأبو بكر الصديق ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعمر بن الخطاب ، وعلي بن أبي طالب ، وسعد بن معاذ ، وسعد بن عبادة ، وقتادة بن النعمان ونسيبة بنت كعب وغيرهم وقد حمل على رسول الله أحد فرسان المشركين ابن قميئة الذي قتل مصعب بن عمير ، وقد ضربه بسيفه ضربة قوية ذهبت في درع رسول الله وآذته ، وضربه ضربة أخرى فدخلت حلقتان من حلق مغفر رسول الله في وجهه فجرح من أثرها في وجنته الشريفة ، وبدأ الدم الشريف يسيل ، وشجّه في وجهه عبد الله بن شهاب الزهري ، وضربه عتبة بن أبي وقاص بحجر فكسرت رباعيته السفلى ، وانشقت شفته ، ووقع في حفرة فجرحت ركبتاه ، وأغمي عليه ، فأخذ بيده علي بن أبي طالب ورفعه طلحة بن عبيد الله. وعندما سال الدم على وجهه الشريف أخذ رسول الله يمسحه ويقول: كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم ، وهو يدعوهم إلى ربهم فأنزل الله قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [1] .

لاحظ رسول الله ﷺ قلة جنده فأراد أن ينقذهم من خطر الإحاطة

---

(١) آل عمران: ١٢٨ .

بهم، فلما اجتمع جمعهم حوله، انسحب بهم عبر الشعب إلى الجبل الذي ما اختار رسول الله مكان المعركة إلا ليستفيد منه في مثل هذه الساعة، وكان الانسحاب منظماً بحيث تنسحب جماعة جماعة تحت حماية مجموعة مقاتلة، وهجم أحد المشركين وهو أبي بن خلف الجمحي على رسول الله، فوقف له النبي ﷺ وقذفه بحربة قبل أن يصل إليه فأرداه قتيلاً، وهو الرجل الوحيد الذي قتله رسول الله بيده الكريمة، وارتقى المسلمون هضبة عالية في جبل أحد فتحصنوا بها، وصدوا جميع المحاولات التي قام بها المشركون للقضاء على رسول الله والمسلمين الذين معه، لأنهم كانوا في مكان حصين يستطيعون منه بالنبال صد أي هجوم. وصعد رسول الله على صخرة ليشرف منها على تحرك المشركين، ولكنه لم يستطع الارتقاء إلا على ظهر طلحة بن عبيد الله لما أصابه من إعياء وتعب، وطلب الماء، فأتاه علي بن أبي طالب ببعض الماء فغسل به وجهه لأنه لم يكن صالحاً، ثم جاءه محمد بن مسلمة بماء عذب فشرب منه، وصلى قاعداً للسبب نفسه.

ثم قام المشركون بآخر هجوم بقيادة أبي سفيان وخالد بن الوليد إلا أن رماة المسلمين خاصة سعد بن أبي وقاص قد ردوهم على أعقابهم خاسرين، وقاد الدفاع عمر بن الخطاب. ولما فشل هذا الهجوم القرشي يئس المشركون من أن ينالوا شيئاً من المسلمين، وكان التعب قد أضناهم، والإعياء قد أنهكهم، لما وجدوه من ضراوة قتال الصحابة وشدة بأسهم عليهم وبصورة خاصة في بدء المعركة عندما كانت الجولة للمسلمين. ولهذا قرر أبو سفيان القائد العام لجيش قريش إنهاء القتال.

أمر أبو سفيان الجند بالتهيؤ للرحيل، ولما تم ذلك، ارتقى على تلة قريبة من المسلمين وقال: أنعمت فعال. ثم خاطب المسلمين قائلاً: الحرب سجال، يوم بيوم، يوم علينا ويوم لنا، ويوم نُساء ويوم نُسر. ثم قال: اعلُ هبل. فأمر النبي ﷺ عمر بن الخطاب قائلاً: قم يا عمر فأجبه فقال: الله أعلى وأجل، لا سواء قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار فقال أبو سفيان: العزى لنا

ولا عزى لكم، فأجابه المسلمون حسب أوامر رسول الله: الله مولانا ولا مولى لكم.

ثم قال منادياً المسلمين بأعلى صوته: أفيكم محمد؟ فلم يجيبوه. ثم نادى: أفيكم ابن أبي قحافة؟ فلم يجيبوا.

ثم نادى: أفيكم عمر بن الخطاب؟ فلم يجيبوه. ولم يسأل إلا عن هؤلاء الثلاثة. ولما لم يجبه أحد، التفت إلى جيش قريش، وقال: أما هؤلاء فقد كفيتموهم، أي قتلوا. ولكن عمر بن الخطاب لم يملك نفسه من أن يجيب عندما سمع أبا سفيان وقوله لجنده، فأجابه: يا عدو الله، إن الذين ذكرتهم أحياء، وقد أبقى الله لك ما يسوؤك. فلما سمع أبو سفيان صوت عمر، طلب مقابلته، فقال: هلم إلي يا عمر. فأمر رسول الله عمر أن يستجيب ويلبي... فلما التقيا، قال أبو سفيان: أنشدك الله يا عمر، أقتلنا محمداً؟ فقال عمر: اللهم لا، وإنه ليسمع كلامك الآن.

فقال أبو سفيان: أنت أصدق عندي من ابن قميئة وأبر.
ثم وقف أبو سفيان مرة أخرى على التلة وخاطب المسلمين قائلاً: إنكم ستجدون في قتلاكم مثلة، والله ما رضيت، وما سخطت، وما نهيت، وما أمرت.

ولما انصرفت قريش نادى أبو سفيان: إن موعدكم بدر للعام القابل، فقال رسول الله ﷺ لرجل من أصحابه: قل لهم: هو بيننا وبينكم موعد.

وبعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب، فقال: اخرج في آثار القوم، فانظر ماذا يصنعون وما يريدون؟ فإن كانوا قد جنبوا الخيل، وامتطوا الابل فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الابل فإنهم يريدون المدينة، والذي نفسي بيده، لئن أرادوها لأسيرنّ إليهم فيها، ثم لأناجزنهم. ولما خرج علي في أثرهم وجد أنهم قد جنبوا الخيل، وامتطوا الابل، واتجهوا نحو مكة.

وبعد أن انصرفت قريش التفت المسلمون يبحثون عن قتلاهم وجرحاهم، فقال رسول الله ﷺ : من رجل ينظر لي ما فعل سعد بن الربيع؟ أفي الأحياء هو أم في الأموات؟ فقال محمد بن مسلمة: أنا أنظر لك يا رسول الله مافعل سعد، فنظر فوجده جريحاً في القتلى وبه رمق. قال: فقلت له: إن رسول الله ﷺ أمرني أن أنظر، أفي الأحياء أنت أم في الأموات؟ قال: أنا في الأموات، فأبلغ رسول الله ﷺ عني السلام، وقل له: إن سعد ابن الربيع يقول لك: جزاك الله عنا خير ما جزى نبياً عن أمته، وأبلغ قومك عني السلام، وقل لهم: إن سعد بن الربيع يقول لكم: إنه لاعذر لكم عند الله، إن خلص إلى نبيكم ﷺ، وفيكم عين تطرف، ولم يلبث أن فارق سعد الحياة ولم يغادره بعد محمد بن مسلمة.

وقد بلغ عدد خسائر المسلمين في معركة أحد ما يقرب من سبعين شهيداً أي عشر عدد المقاتلين، منهم أربعة فقط من المهاجرين، وهم: حمزة بن عبد المطلب، وعبد الله بن جحش، ومصعب بن عمير، وشماس بن عثمان المخزومي. أما عدد شهداء الأنصار فكان خمسة وستون شهيداً منهم أربعة وعشرون من الأوس، وواحد وأربعون من الخزرج، ومن أشهر شهداء الأوس، عمرو بن معاذ أخو سعد بن معاذ سيد الأوس، وحنظلة بن أبي عامر الذي كان أبوه أبو عامر الفاسق مع قريش، وقد كان حنظلة رضي الله عنه عروساً يوم الاستعداد للخروج إلى أحد فلما سمع صيحة الجهاد ترك عروسه، وحمل سلاحه، وخرج بسرعة، والتحق برسول الله ﷺ، ولم يغتسل من الجنابة، فلما استشهد، قال رسول الله ﷺ : إن صاحبكم لتغسله الملائكة فاسألوا أهله ما شأنه؟ فقالت زوجه جميلة بنت أبي بن سلول: خرج وهو جنب حين سمع الهاتفة، لذا شُهر باسم (غسيل الملائكة). وقد التقى حنظلة هذا في ساحة المعركة أثناء احتدامها بأبي سفيان، قائد جيش المشركين، فعقر حنظلة فرس أبي سفيان فوقع أبو سفيان على الارض فعلاه حنظلة، وبرك على صدره وأراد أن يذبحه فلاحظ أحد مرافقي أبي سفيان هذا المنظر، وهو

شداد بن الأسود المعروف بابن الشعوب، فأسرع لإنقاذ قائده، وضرب حنظلة بالسيف فقتله وهو فوق أبي سفيان، ومنهم عبد الله بن جبير أمير جماعة الرماة، ومن أشهر شهداء الخزرج: سعد بن الربيع، وأنس بن النضر، وعمرو بن الجموح، وعبد الله بن عمرو بن حرام، أما عدد الجرحى فكان يزيد على المائة والخمسين جريحاً، ولم يقع أسرى من المسلمين بيد المشركين. أما عدد قتلى المشركين فكان اثنين وعشرين قتيلاً. ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بدفن الشهداء بدمائهم في ثياب المعركة، ولم يصل عليهم، ولم يغسلوا. وقد دفن أكثر من شهيد في قبر واحد، فقد دفن حمزة بن عبد المطلب وابن أخته عبد الله بن جحش في قبر واحد، وعبد الله بن عمرو بن حرام وعمرو بن الجموح في قبر واحد، ودفن سعد بن الربيع وخارجة بن زيد في قبر واحد. وبلغ رسول الله أن بعض الناس قد نقلوا شهداءهم إلى المدينة، فأمر بأن يعادوا إلى مضاجعهم في مكان المعركة.

وكان بين صفوف المسلمين رجلان قاتلا معهم من غير إيمان، أحدهما يدعى قزمان وهو من أعراب المدينة، قاتل دفاعاً عن أرض المدينة كي لا تطأها قريش، وكان شجاعاً مقداماً، قتل أحد عشر بطلاً من أبطال المشركين، وكانت نتيجته أن انتحر بعد أن اشتد ألمه من كثرة الجراح، وكان من أهل النار، كما حدث رسول الله ﷺ عندما سأل أحد المسلمين رسول الله فقال: يا رسول الله أيهم في سبيل الله الرجل يقاتل رياء أم يقاتل حمية أم يقاتل شجاعة، قال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»، وكذلك قاتل بجانب المسلمين أحد اليهود، واسمه مخيريق، قاتل على ما قاتل عليه قزمان، وكره أن تصل قريش إلى المدينة. ورأى أن يدافع عن مدينته، وأن يشترك مع المسلمين في هذا الدفاع، تنفيذاً للموادعة التي بين يهود المدينة والمسلمين، ولم يوافق يهود على اعتذارهم، بأن ذلك اليوم كان يوم السبت، وهو يوم عيدهم، ثم حمل سلاحه وقاتل يوم أحد مع المسلمين، وقتل، ولكنه من أهل النار، فالدفاع عن الأرض وعن الجنس لا يغني شيئاً.

وخرج مع المسلمين يوم أحد رجل من الأوس يدعى (الأصيرم) يقاتل في سبيل الله، وعلى عقيدة الإسلام، ولم يكن قبلها مسلماً، بل يكره ذلك، ويعيب على قومه اتباع محمد ﷺ، وأصيب يوم أحد، ومات، وكان في عداد الشهداء على حين أنه لم يصل ولم يصم.

ولما انتهى المسلمون من دفن موتاهم تحركوا نحو المدينة، وخرج من فيها لاستقبالهم والسؤال عنهم، وكان من بين من خرج امرأة من بني دينار تسأل عن رسول الله وأهلها، فنعي إليها أبوها وأخوها وابنها وزوجها فلم تكترث، وسألت عن رسول الله، فقيل لها بخير، فقالت أرونيه، فلما رأته، قالت: كل مصيبة بعدك جلل. والتقى رسول الله ﷺ في طريقه بحمنة بنت جحش فقال لها: احتسبي، فقالت من يا رسول الله؟ فقال: خالك حمزة، قالت: إنا لله وإنا إليه راجعون، غفر الله له، هنيئاً له الشهادة. فقال لها: احتسبي، فقالت من يا رسول الله؟ قال: أخاك عبدالله بن جحش، قالت: وإنا لله وإنا إليه راجعون، غفر الله له، هنيئاً له الشهادة. ثم قال لها: احتسبي، فقالت: من يا رسول الله؟ فقال لها: زوجك مصعب بن عمير. فقالت: واحزناه، وصاحت وولولت، ثم قال لها: لم قلت هذا؟ قالت: تذكرت يتم بنيه، فراعني. فدعا لها رسول الله ﷺ. ثم جاءت إلى رسول الله أم سعد بن معاذ سيد الأنصار، وكان يركب فرسه وابنها سعد آخذ بلجامها. فقال سعد: أمي يا رسول الله، فقال مرحباً بها، فلما اقتربت منه عزاها بابنها عمرو بن معاذ، فقالت: أما إذ رأيتك سالماً فقد هانت مصيبتي. فدعا لها رسول الله ﷺ وقال لها أبشري وبشّري أهلهم أن قتلاهم ترافقهم في الجنة جميعاً وقد شفعوا في أهلهم جميعاً، بعد أن دعا لأهلهم.

وكانت من عادة العرب أن تنوح النساء على القتلى، وقد ارتجت المدينة بأصوات الباكيات النائحات، ومرّ رسول الله على دور بني عبد الاشهل، فسمع نواح النساء، فقال: ولكن حمزة لا بواكي له... فأمر سعد بن معاذ أن يبكين على حمزة ففعلن، فقال لهن رسول الله: «ارجعن يرحمكن الله فقد

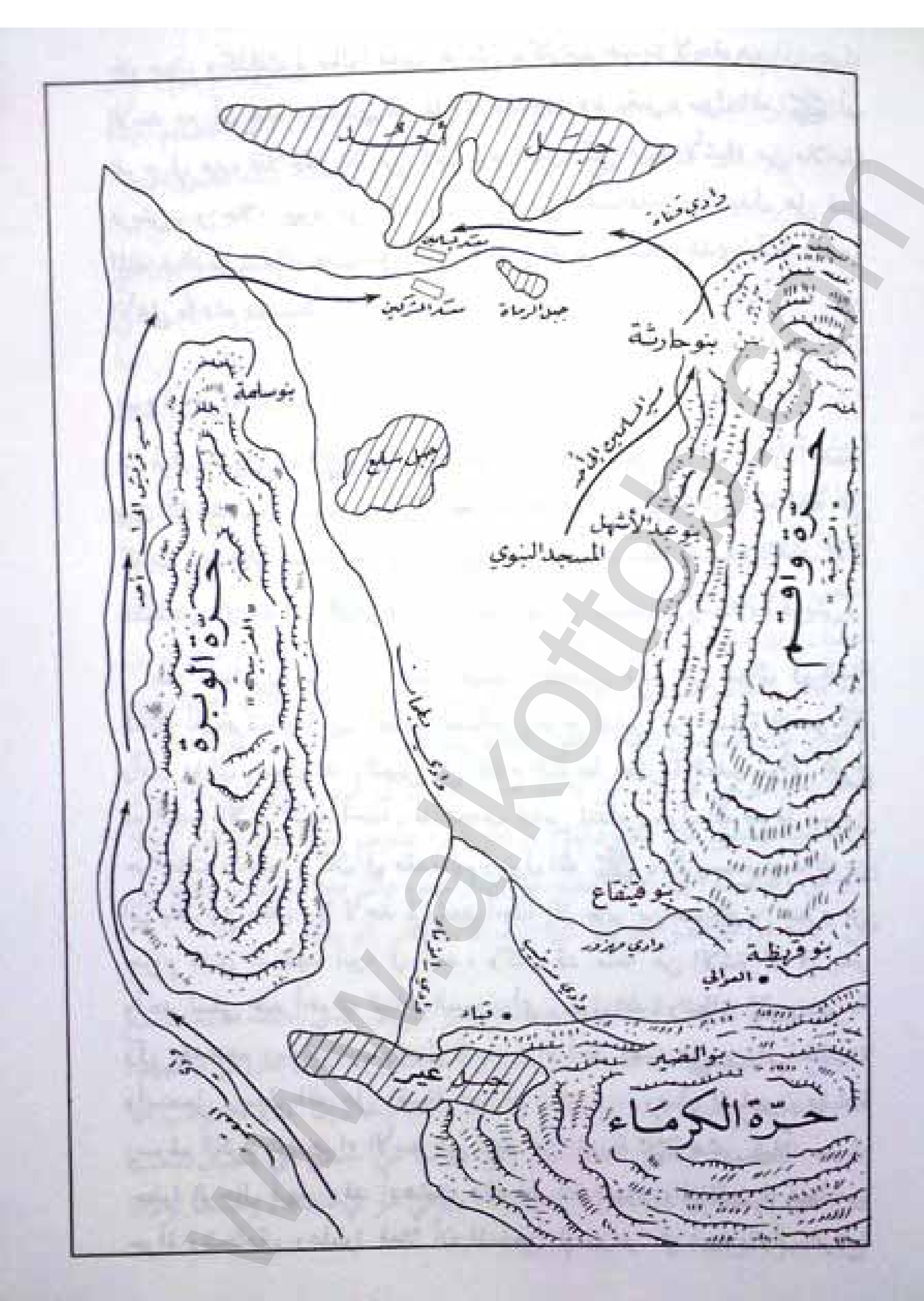
آسيتن بأنفسكن »، ثم نهى رسول الله عن النياحة أبداً بعدئذ.

لقد كانت معركة أحد نصراً اسمياً لقريش إذ استطاعت أن تقتل سبعين رجلاً من المسلمين، وأن تحصر جماعة منهم، وأن تعمل فيهم السيف، كما أنها حاصرت المسلمين في مكان من الجبل، إلا أن هذا كله لا يعد نصراً في الاعتبارات العسكرية إذ لا تعد الانتصارات بعدد الضحايا من الخصم، وإنما بالنتائج فلو أن جيشاً استطاع أن يهزم عدوه في معركة، ويتقدم حتى يحصره في قلعة يتحصن بها، ثم لا يستطيع أن يقتحمها عليه، ولا يبقى محاصراً، وإنما يضطر إلى مغادرة ميدان المعركة بسرعة، دون أن يحقق شيئاً، هل نعد هذا نصراً؟ وقال قائدها: الحرب سجال يوم بيوم، ثم انسحب مسرعاً لم ينسحب ليدخل عاصمة عدوه المكشوفة الخالية من أي مقاتل، ولكنه انسحب فراراً إذ قطع في اليوم الأول أكثر من ستين كيلو متراً ليبتعد عن المكان الذي يسيطر عليه المسلمون خائفاً منهم فقد لقي منهم في المعركة شدة لم يعهدها من غيرهم، وكان بينه وبين الموت لحظة إذ عقر حنظلة بن أبي عامر فرسه، وألقاه على الأرض وبرك فوقه يريد ذبحه، حتى أيقن أبو سفيان بالهلاك ولكن مشيئة الله فوق كل مشيئة إذ ضُرب حنظلة بالسيف فمات ونجا أبو سفيان. وكذلك عدّ المنافقون واليهود والأعراب الذين من حول المدينة أن معركة أحد كانت نصراً اسمياً لقريش شماتة وحقداً. أما المسلمون فقد عدّوها نصراً لهم أيضاً، فقد انتصروا في بداية المعركة وأعملوا السيف في خصومهم، كما فعل أعداؤهم في نهاية المعركة، وصمدوا ثانياً لقريش صموداً قوياً حتى أنها لم تستطع أن تزيلهم عن مواقعهم التي تحصنوا فيها، ولا أن تتقدم إليهم، ثم فرّت قريش من ميدان المعركة فراراً، لا انسحاباً تسير فيه ببطء تتبختر بنصرها، وتفتخر بالظفر الذي حصلت عليه. وهذا يدل على المعنويات الضعيفة بل المنهارة التي كانت عند جند قريش لا على التعب، فلو كان التعب لفكرت قريش أن تأخذ شيئاً من الراحة قريباً من ساحة المعركة ما دامت لا تبالي بخصم، ولا تهتم بجيش المدينة. ولم تفكر قريش آنذاك بالتوجه نحو

المدينة على حين فكر المسلمون بذلك، وتوقعه اليهود والمنافقون، وإنما كانت تفكر بالفرار مباشرة ولكن بعد أن قطعت مسافة، وأخذ أفرادها قسطاً من الراحة، وتنفسوا الهواء بطلاقة خطر على بالهم: أن لو دخلوا المدينة قاعدة المسلمين، وفعلوا فيها ما فعلوا أو ما شاء لهم هواهم أن يفعلوا. ولاحظ المسلمون أن مدينتهم بقيت كما هي لم تمس بأذى، ومعنوياتهم بقيت مرتفعة عالية، لم يستطع العدو أن يحطمها حسبما كان يتراءى له، وعندهم من القوة في نهاية المعركة ما يمكنهم من منازلة العدو مرة ثانية أو تجديد المعركة والبدء فيها من جديد، وهذا ما سنلاحظه، إذ عدّوا أنفسهم قد انتصروا، فلم يبالوا باليهود، وأجلوا قبيلة أخرى من يهود غير مبالين بهم ولا بحلفائهم، كما دخلوها من غير اهتمام بالمنافقين الذين انخذلوا عنهم ولا بالأعراب الذين حول المدينة والذين كانوا من وراء المنافقين أيضا وإنما عادوا ليهددوهم وليتلوا عليهم القرآن الذي يتوعدهم، وينذرهم والكفار من أهل الكتاب والمشركين من قريش وغيرها من الأعراب بنار جهنم والعذاب في الدنيا والآخرة. وعادوا إلى المدينة ليلاحقوا قريشاً ولينازلوها من جديد، ومع هذا فقد عدّت أحد هزيمة لسببين:

١ ـ لكثرة عدد الضحايا التي فقدت في المعركة، وبينهم عدد من صناديد القتال أمثال حمزة بن عبد المطلب، وعبدالله بن جحش، وسعد بن الربيع، وأنس بن النضر وغيرهم، كما فقد حامل اللواء مصعب بن عمير مقرىء المدينة وحامل لواء الدعوة فيها قبل أن يهاجر إليها رسول الله ﷺ.

٢ ـ لما أصيب به رسول الله ﷺ من جروح وكسور وتعب وإنهاك، وكان هذا أصعب شيء عليهم في الدنيا، وهذا ما أغمّهم، وأبقى أثراً كبيراً في النفوس، وكلما تذكروا ذلك شعروا أن المعركة لم تكن في صالحهم، وشعروا بالضيق، فلهذا لم يعدّوا غزوة أحد لصالح المسلمين. ويجب ألا ننسى أبداً أن المسلمين لم يبالوا بعدد قريش الكبير ولا بانسحاب المنافقين وانخذالهم عنهم، وبقائهم قلة، ولا بيهود الذين في المدينة مع أن قوات المسلمين



جبل أحد
وادي قناة
جبل الرماة
بنو حارثة
بنو ساعدة
جبل سلع
بنو عبد الأشهل
المسجد النبوي
حرة الوبرة
حرة واقم
بنو قينقاع
بنو قريظة
العوالي
قباء
جبل عير
بنو النضير
حرة الكرماء

خارجها، وكذلك لم يبالوا بعدد قريش وكثرتهم عندما لاحقوهم إلى حمراء الأسد مع أن عدد المسلمين قد قلّ بما فقدوه، ولم يقبل رسول الله ﷺ أن يخرج في هذه الملاحقة إلا من كان يوم أحد. كل هذه الأشياء من ملاحقة قريش، وإجلاء يهود بني النضير، والتصدي للمنافقين، لا يدل على فعل المنهزم الذليل، وإنما يدل على عمل المنتصر المعتز بعقيدته الذي يشعر أنه هو الأعلى ما دام متمسكاً بإيمانه.

غزوة حمراء الاسد:

أراد رسول الله ﷺ أن يرد على يهود والمنافقين والأعراب رداً عملياً يبين أن المسلمين يتمتعون بروح معنوية عالية، وأن بإمكانهم المحافظة على كيانهم، والحماية للمدينة، والرد على كل من تحدثه نفسه بالحاق أذى بالمسلمين، وأراد أن يكون هذا الرد هو الخروج بالمسلمين ومطاردة قريش.

عاد المسلمون من أحد مساء السبت الخامس عشر من شوال في السنة الثالثة للهجرة، وما إن أصبح الصباح وخرج الناس من صلاة الفجر إلا وأذن مؤذن رسول الله بالتهيؤ على جناح السرعة لمطاردة العدو، وألا يخرج مع الناس إلا من شهد أحداً، فاستجاب الناس لنداء رسول الله مع ما بهم من جراحات وتعب، وكان في مقدمتهم رسول الله ﷺ، ولم يسمح لعبدالله بن أبي بالخروج معه، ولا لأحد لم يشهد أحداً إلا جابر بن عبدالله بن عمرو بن حرام الذي استشهد أبوه في أحد، وكان قد منعه من الاشتراك في بدر وأحد ليبقى عند أخواته البنات السبع برأي رسول الله، وانطلق القوم بسرعة وفي مقدمتهم رسول الله، ويحمل اللواء لواء أحد نفسه علي بن ابي طالب، واستعمل رسول الله على المدينة ابن أم مكتوم. ووصل المسلمون بقيادة رسولهم الكريم إلى حمراء الأسد التي تبعد عن المدينة ثلاثة عشر كيلاً، حيث حطوا الرحال فيها. وقد أدهشت هذه الحركة اليهود والمنافقين لما فيها من جرأة وشجاعة، وعلموا فعلاً أن المسلمين لم يهزموا في أحد، وأن الروح

المعنوية عندهم عالية، وانهم لو هزموا لما عملوا على مطاردة قريش، وأن حالتهم لو كانت ضعيفة لما تحركوا بهذه السرعة، ولما كان تجاوبهم بهذه الحالة، ولو كان عندهم شيء من الخوف لما غادروا المدينة بهذه الصورة.

وفي الوقت نفسه كانت قريش قد حطت الرحال في منطقة الروحاء التي تبعد عن المدينة ثمانية وأربعين كيلاً وفي مكان غير بعيد عن حمراء الأسد التي نزل فيها المسلمون، وفي الروحاء وبعد أن أخذ جند قريش قسطاً من الراحة بدؤوا يتساءلون، إذا كانت هزيمة المسلمين في أحد كبيرة كما تتبجح قادة قريش، فلماذا لم نتوجه إلى المدينة، ونقض على من فيها، ونأخذ السبايا منها؟ وما دمنا قد حصلنا على النصر الكبير الأكيد فلماذا لا نرجع الآن إلى المدينة ونقضي على الجيش المدني الذي وصل اليها مثقلاً بالجراح منهكاً بالتعب فنقضي عليه نهائياً؟ ولكن القادة يعرفون تمام المعرفة أن نصرهم كان اسمياً، وأن الخوف يملأ قلوبهم، وخاصة أبا سفيان القائد العام وصفوان بن أمية قائد المشاة، وبدأت المناقشة حول العودة، وبينما هم كذلك إذ فاجأتهم الاخبار بأن المسلمين بقيادة النبي الكريم يطاردونهم وقد نزلوا حمراء الأسد فأخذ الخوف من قريش كل مأخذ إذ اعتقدت أن محمداً ﷺ قد جاء بمدد من المدينة وعمل على مطاردتهم، وزاد الأمر عندهم يقيناً عندما جاء معبد الخزاعي وقال لهم: إن محمداً مصر على منازلتهم، وأن معه قوة لم ير مثلها من قبل، وأنه من الأفضل لقريش أن تتابع الانسحاب إلى مكة.

خاف أبو سفيان أن تذهب سمعة النصر المزيف الذي حققه عندما تسمع القبائل أن المسلمين قد طاردوه لمنازلته ولكنه خشي لقاءهم، ففر من وجههم، لذا فقد بقي قليلاً في (الروحاء) يتظاهر بالثبات، وإن كان قد رغب ألا يلحقه المسلمون فيظهر للملأ أنهم على خوف من جيش أبي سفيان بسبب هزيمتهم، وينسحبوا إلى المدينة بالتهديد، ويبقى هو في مكانه، وعندما تزداد قوة النصر المزيف.

ووجد الفرصة مناسبة له إذ رأى جماعة من بني عبد القيس يتجهون إلى المدينة فحملهم رسالة إلى محمد ﷺ مفادها أن قريشاً قد وافقت على النزال بل أصرت عليه، وأنها سائرة إلى حيث يعسكر في حمراء الأسد. وعندما وصل الخبر إلى رسول الله رغب في هذا اللقاء، ومكث ينتظر قدوم قريش، ويوقد النار طوال الليل ليؤكد على بقائه، ويعلم عن موقعه ومكث ثلاثة أيام على هذه الحال، إلا أن قريشاً عندما لاحظت إصرار المسلمين على القتال، وعدم خوفهم علمت قوتهم وارتفاع معنوياتهم فخافت مغبة الأمر، وخاصة القادة منها، ففضلوا الانسحاب وعدم اللقاء، وتابعوا المسير نحو مكة، وبعد أن سارت قريش آيبة إلى بلدها رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة وقد حقق ما خرج من أجله في إظهار قوة المسلمين وقدرتهم على القتال على الرغم مما يشيعه اليهود والمنافقون في المدينة من هزيمة المسلمين في أحد، وأنهم قد غدوا جماعة ضعيفة لا تستطيع حماية نفسها والمحافظة على كيانها.

يوم الرجيع:

وظن الاعراب كما ظن اليهود والمنافقون أن المسلمين لن تقوم لهم قائمة إلا بعد مدة من الزمن لذا طمعوا في المدينة ولكن أنى لهم هذا، وقتال المسلمين يرعبهم، ونزالهم يقطع القلوب، لذا لجأ الاعراب إلى الخداع والحيل الرخيصة التي يلجأ إليها الجبان، والتي لا يقدم عليها إلا الوضيع، وجاء رجال قبيلة عضل ورجال قبيلة القارة إلى رسول الله ﷺ، وقالوا: يا رسول الله إن فينا إسلاماً فابعث معنا نفراً من أصحابك يفقهونا في الدين، ويقرئونا القرآن، ويعلمونا شرائع الإسلام فبعث رسول الله ﷺ ستة من أصحابه وهم: مرثد بن أبي مرثد الغنوي، وهو أمير القوم، وخالد بن البكير الليثي، وعاصم بن ثابت بن أبي الاقلح، وخبيب بن عدي، وزيد بن الدثنة، وعبدالله بن طارق. فخرجوا معهم، وساروا باتجاه مكة، حتى إذا صاروا على ماء الرجيع بين عسفان ومكة، غدر بهم رجال القبائل، إذ بينما هم على الماء مطمئنون انسحب رجال القبائل من بينهم، واستصرخوا رجال هذيل

ليساعدوهم عليهم، وبينا المسلمون على حالهم إذ بأكثر من مائتي رام يحيطون بهم وقالوا لهم: والله ما نريد قتلكم، ولكنا نريد أن نصيب بكم شيئاً من أهل مكة، ولكم عهد الله وميثاقه أن لا نقتلكم.

أما مرثد وعاصم وخالد فقد قالوا: لا نقبل من مشرك عهداً ولا عقداً أبداً، فقاتلوا القوم حتى قتلوا، أما الثلاثة الباقون فقد سلموا أيديهم لأعدائهم، فأسروهم، وساقوهم أمامهم. وأرادت هذيل أن تأخذ رأس عاصم لتبيعه لسلافة بنت سعد بن شهيد التي كانت قد نذرت حين قتل ولديها مسافع والجلاس ابني طلحة العبدريين، وقد حملا لواء المشركين يوم أحد، فرماهما عاصم، فكان الواحد منهما يأتي أمه سلافة، فيضع رأسه في حجرها، فتقول: يا بني، من أصابك؟ فيقول: سمعت رجلاً حين رماني يقول: خذها وأنا ابن أبي الأقلح. فنذرت إن أمكنها الله من رأس عاصم، أن تشرب فيه الخمر، وكان عاصم قد عاهد الله ألا يمس مشركاً أبداً، ولا يمسه مشرك. فحمته الدبر عندما أرادت هذيل أخذه، إذ تجمعت الدبر عليه بكثرة، فقالوا: ننتظر حتى يمسي، فلما جاء المساء حتى جرى السيل في الوادي، واحتمل رأس عاصم.

وسارت هذيل ورجال القبائل بأسراها الثلاثة حتى إذا كانوا بالظهران عند الحديبية، نزع عبدالله بن طارق يديه من الحبل الذي يشدهما. وأخذ سيفه، فخافه القوم، وابتعدوا عنه، ورموه بالحجارة حتى قتلوه. ثم واصلوا السير بالأسيرين إلى مكة فباعوهما بأسيرين من هذيل كانا عند قريش. وقد ابتاع صفوان بن أمية زيد بن الدثنة ليقتله بأبيه أمية بن خلف الذي قتل في بدر، وقد بعثه مع مولى له يقال له نسطاس إلى التنعيم ليقتله هناك، والتنعيم خارج الحرم، في الحل، وخرج عدد من قريش ليحضروا هذا القتل، بينهم أبو سفيان بن حرب، فقال أبو سفيان لزيد حين قدم ليقتل: أنشدك الله يا زيد، أتحب أن محمداً عندنا الآن في مكانك تضرب عنقه، وأنت في أهلك؟ قال: والله ما أحب محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه،

وأنا جالس في أهلي. فقال أبو سفيان ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً، ثم قتل رضي الله عنه.

وأما خبيب بن عدي فقد ابتاعه رجل يقال له حجير ليقتله بأحد أقربائه، فوضعه عند مولاة له يقال لها ماوية، فحدثت بعد أن أسلمت فقالت: كان خبيب عندي، حبس في بيتي، فلقد اطلعت عليه يوماً، وإن في يده لقطفاً من عنب، مثل رأس الرجل، يأكل منه، وما أعلم في أرض الله عنباً يؤكل، وكذلك حدثت فقالت: قال لي حين حضره القتل: ابعثي لي بحديدة أتطهر بها للقتل، قالت فأعطيت ابني الموسى، فقلت: ادخل بها على هذا الرجل البيت: قالت: فوالله ما هو إلا أن ولى الغلام بها إليه، فقلت: ماذا صنعت! أصاب والله الرجل ثأره، بقتل هذا الغلام، فيكون رجلاً برجل، فلما ناوله الحديدة أخذها من يده، ثم قال: لعمرك، ما خافت أمك غدري حين بعثتك بهذه الحديدة إليّ، ثم خلّى سبيله. ثم خرجوا بخبيب إلى التنعيم ليصلبوه، فقال لهم: إن رأيتم أن تدعوني حتى أركع ركعتين، فافعلوا، قالوا دونك فاركع. فركع ركعتين أتمهما وأحسنهما، ثم أقبل على القوم، فقال: أما والله لولا أن تظنوا أني إنما طولت جزعاً من القتل، لاستكثرت من الصلاة. فكان خبيب أول من سنّ هاتين الركعتين عند القتل، ثم رفعوه على الخشبة، فلما شدّوا وثاقه، قال: اللهم إنا قد بلغنا رسالة رسولك، فبلغه الغداة ما يصنع بنا؛ ثم قال: اللهم أحصهم عدداً واقتلهم بدداً، ولا تغادر منهم أحداً. ثم قتلوه رضي الله عنه. وكان معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه يقول: حضرته يومئذ فيمن حضره مع أبي سفيان، فلقد رأيته يلقيني إلى الأرض، فرقاً من دعوة خبيب.

بئر معونة:

وحدثت حادثة ثانية من الغدر تشبه الأولى، فقد أقبل على رسول الله ﷺ في المدينة، في شهر صفر من السنة الرابعة للهجرة أي بعد أربعة أشهر

من غزوة أحد أبو براء عامر بن مالك ملاعب الأسنة ، فعرض عليه رسول الله الإسلام ، ودعاه إليه ، فلم يسلم ولم يبعد من الإسلام ، إلا أنه قال : يا محمد لو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد ، فدعوهم إلى أمرك ، رجوت أن يستجيبوا لك ، فقال رسول الله ﷺ : إني أخشى عليهم أهل نجد ، قال أبو براء : أنا لهم جار ، فابعثهم ، فليدعوا الناس إلى أمرك . فبعث رسول الله ﷺ أربعين رجلاً من أصحابه ، وجعل عليهم المنذر بن عمرو الأنصاري ، فساروا حتى نزلوا بئر معونة إلى الجنوب الشرقي من المدينة بين حرة بني سليم ومنازل بني عامر ، فلما نزلوها أرسلوا كتاب رسول الله ﷺ إلى عامر بن الطفيل مع رجل منهم فلما سلمه الكتاب ، قتله دون أن ينظر فيه ، ثم استصرخ عليهم بني عامر ، فلم يطيعوه ، وقالوا : لن نخفر أبا براء في جواره ، فاستصرخ عليهم قبائل من بني سليم من عُصية ، ورعل وذكوان ، فأجابوه إلى ذلك ، فخرجوا حتى غشوا المسلمين ، وأحاطوا بهم من كل جهة ، فاستل المسلمون سيوفهم ، وقاتلوا حتى قتلوا جميعاً ، لم ينج منهم أحد سوى كعب بن زيد ، سقط جريحا بين الموتى ، ثم صحا بعد مدة ، وسار حتى لحق بالمدينة ، وشهد الخندق واستشهد فيها ، كما نجا رجلان منهم ، كانا يرعيان للقوم هما : عمرو بن أمية الضمري ، والمنذر بن محمد ، ولم يعرفا مصرع القوم إلا من الطير ، فاتجهوا نحو المكان ، فإذا إخوانهم صرعى ، وأعداؤهم لا يزالون في أماكنهم ، فقال المنذر لعمرو : ما ترى ؟ قال : أرى أن نلحق برسول الله ﷺ ، فنخبره الخبر ، فقال المنذر : لكني ما كنت لأرغب بنفسي من موطن قتل فيه المنذر بن عمرو ، ثم قاتل حتى قتل ، وأخذ عمرو أسيراً ، ثم أطلقه عامر بن الطفيل ، فوجد أثناء عودته رجلين من بني عامر ، فتركهما حتى ناما ، فعدا عليهما ، وقتلهما ، ولم يعلم أن معهما عقداً من رسول الله ، فلما وصل عمرو إلى رسول الله ﷺ ، وأخبره الخبر ، دفع رسول الله ديتهما .

إجلاء بني النضير:

ووقعت حادثة غدر أخرى، ولكنها من سكان المدينة من يهود، الذين يحقدون على الإسلام وعلى رسوله الكريم، وهؤلاء يعلمون قوة المسلمين حق العلم لمجاورتهم إياهم، وكلما ظنوا أن أمرهم قد ضعف، وأنه آن ليهود أن تتحرك، وجدوا أن القوة لدى المسلمين كبيرة، وأنه ليس بإمكانهم فعل شيء، وأن عليهم أن يعودوا إلى جحورهم، يختبئون فيها، وأخيراً رأت فرقة منهم أن يغدروا برسول الله ﷺ، وخرج محمد عليه الصلاة والسلام إلى بني النضير في شهر ربيع الأول من السنة الرابعة للهجرة يستعينهم في دفع دية ذينك الرجلين من بني عامر الذين قتلهم عمرو بن أمية الضمري، فوافق بنو النضير، وقالوا: نعم يا أبا القاسم، نعينك على ما أحببت، مما استعنت بنا عليه. وكان رسول الله ﷺ جالساً بجانب جدار لهم. فقال بعضهم لبعض: من يستطيع أن يعلو البيت، ويلقي صخرة على محمد عليه الصلاة والسلام، فتعهد بذلك أحدهم وهو عمرو بن جحاش بن كعب، فصعد إلى السطح، وهمَّ بذلك، ولكن رسول الله قد أخبر بذلك من السماء، فترك مكانه من بين أصحابه الذين كانوا معه، متشاغلاً ببعض حاجته، ورجع إلى المدينة، فلما تأخر عن أصحابه، قاموا يسألون عنه، فالتقوا مع رجل قادم من المدينة، فأخبرهم أن رسول الله ﷺ قد دخلها، فلحقوا به، حتى انتهوا إليه، فأخبرهم بما كان من يهود ومحاولة الغدر به، وأمر رسول الله ﷺ الناس بالتهيؤ لحربهم، والسير إليهم. ولما استعد الناس سار إليهم، واستعمل ابن أم مكتوم على المدينة، حتى إذا وصل إلى منازلهم تحصنوا بحصونهم، وكان عبدالله بن أبي كبير المنافقين، قد وعدهم بالنصر، وأمرهم بالثبات، وقال لهم: إن قوتلتم لنقاتلن معكم، ولئن أخرجتم لنخرجن معكم، ولا نطيع فيكم أحداً، وإنا لن نسلمكم أبداً، إذ كان بينهم حلف. وحاصرهم رسول الله ﷺ ست ليالٍ وهم متحصنون في حصونهم، ثم أمر رسول الله بقطع النخيل وحرقه، فنادوه من وراء الحصون: أن يا محمد، قد كنت تنهى عن الفساد،

وتعييه على من صنعه، فما بال قطع النخيل وتحريقها؟ واليهود أحرص الناس على الحياة وعلى الأموال. وقذف الله الرعب والخوف في نفوس المنافقين، فلم يجرؤوا على نصرتهم، وألقاه في قلوب يهود، فطلبوا من رسول الله أن يجليهم عن المدينة، ويكف عن دمائهم، على أن يكون لهم أخذ ما تحمله الإبل دون السلاح، فوافق رسول الله. فمنهم من سار إلى خيبر، ومنهم من رحل إلى الشام. ومن أشرافهم الذين نزلوا بخيبر: سلام بن أبي الحقيق، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، وحيي بن أخطب، فلما نزلوا فيها قدّمهم أهل خيبر عليهم، ودانوا لهم. وقسّم رسول الله ﷺ أموالهم على المهاجرين الأولين دون الأنصار الذين لم يعط منهم سوى أبي دجانة وسهل بن حنيف لفقرهما. وأنزل الله في حق بني النضير سورة الحشر كاملة. وهكذا لم يبق في المدينة من يهود سوى بني قريظة.

غزوة ذات الرقاع:

تأثر رسول الله ﷺ مما حدث من الاعراب في ماء الرجيع وبئر معونة وما حدث من يهود بني النضير إذ كل منهم كان يفكر في أن يغتنم فرصة ما حلّ بالمسلمين في أحد، ويغدر ما يسمح له هواه من الغدر، فأجلى بني النضير، وأراد الالتفات إلى الاعراب، فجاءه خبر تجمع في نجد لغزو المدينة علناً من قبائل محارب وثعلبة من غطفان، فسار في الناس إليهم بعد أن استعمل على المدينة أبا ذر الغفاري، حتى إذا وصل إلى ذات الرقاع، وكان الفريقان قريبين بعضهما من بعض، فوجد رسول الله جوعاً غفيرة من غطفان، وخاف كل طرف من الآخر، فصلى رسول الله بالناس صلاة الخوف، ولم يحدث حرب بين الجانبين، ورجع رسول الله بالناس في جمادى الأولى. وفي هذه الغزوة حاول أحد جند بني محارب قتل رسول الله بعد أن طلب من رسول الله سيفه لينظر فيه، ولقد همّ بالفعل ولكنه لم يستطع، وردّ إلى رسول الله السيف. ولم يحدث قتال في هذه الغزوة إلا أنها أرهبت هؤلاء

الاعراب، وأعلمتهم أن لدى المسلمين قوة كبيرة وأن لديهم معنوية عالية.

غزو بني أسد:

وصلت الأخبار إلى رسول الله ﷺ بأن بني أسد بزعامة طليحة بن خويلد يتجمّعون لغزو المدينة، فأرسل لهم سرية قوامها مائة وخمسون راكباً من المهاجرين والانصار بإمرة أبي سلمة عبدالله بن عبد الأسد المخزومي، فسارت السرية في كتمان شديد، تتحرّك ليلاً وتكمن نهاراً، حتى فاجأت العدو قبل أن يتهيأ، ففرّ بنو أسد، وغنم المسلمون كثيراً من الإبل والأغنام. وتعدّ بنو أسد من القبائل القوية الكبيرة في جزيرة العرب.

تأديب هذيل:

وجاءت الأخبار إلى المدينة أن خالد بن سفيان الهذلي يحشد الجموع، ليقوم بالإغارة على المدينة، ولما كانت ديار هذيل قريبة من مكة، لم يكن من المصلحة إرسال غزو إلى تلك الديار النائية عن المدينة، والتي يمكن أن تجعل قريشاً وبني سليم وغيرها من القبائل تناصر هذيلاً، وبالتالي تكون النتيجة غير سليمة، ولكن لا بدّ من تأديب هذيل، لذا فقد أرسل رسول الله ﷺ عبدالله بن أنيس ليستطلع الأمر، وإذا وجد الخبر صحيحاً، فعليه أن ينتهي من خالد بن سفيان المحرض على الحشد، وصاحب الكلمة المسموعة هناك. وقد وجد عبدالله بن أنيس الجهني أن الخبر كان صحيحاً، وقد عرف حقيقة الأمور عن قرب، ففتك بخالد بن سفيان، وأراح المسلمين من الحركة.

وهكذا كان تأديب القبائل كل واحدة في موطنها الأمر الذي يدلّ على قوة المسلمين، وكان تأديب اليهود بإجلاء بني النضير عن ديارهم، ولم يبق إلا قريش العدو الأول، وكان العام قد استدار على أحد، وجاء الموعد المضروب من أبي سفيان للّقاء في بدر.

غزوة بدر الآخرة:

خرج أبو سفيان من مكة على رأس قوة قوامها ثلاثة آلاف مقاتل، وفي نفسه رغبة ألا يحدث هذا اللقاء الذي ينتظر نتيجته كثير من رجال القبائل والأعراب وأهل المدن، إذ قضت المدينة ومكة عاماً في الاستعداد له، وكان في خروج أبي سفيان محاولة لإخافة المسلمين وإرهابهم كي لا يخرجوا، فيكونوا هم الذين نكلوا عن الخروج، وقد بعث للغرض نفسه نعيم بن مسعود ليُخيف المسلمين في المدينة من كثرة أعداد قريش وقوتها، وجعل له عشرين بعيراً إن أدّى هذه المهمة، ولم يخرج محمد، وقال له: إنه بدا لي أن لا أخرج، وأكره أن يخرج محمد، ولا أخرج أنا، فيزداد المسلمون جرأة، فلأن يكون الخلف من قبلهم أحبّ إلي من أن يكون من قبلي، فالحقْ بالمدينة، وأعلمهم أنا في جمع كثير، ولا طاقة لهم بنا، ولك عندي من الإبل عشرون، أدفعها لك على يد سهيل بن عمرو.

وصل نعيم بن مسعود إلى المدينة، وبدأ يبث إشاعاته، وساعده على ذلك المنافقون واليهود، وقالوا: لا يفلت محمد من هذا الجمع... ولعبت هذه الإشاعات دورها، وسار أبو بكر وعمر بن الخطاب إلى رسول الله ﷺ، وقالا له: يا رسول الله، إن الله مظهر نبيه ومعزّ دينه، وقد وعدنا القوم موعداً لا نحبّ أن نتخلّف عنه، فيرون أن هذا جبن، فسِرْ لموعدهم، فوالله إن في ذلك لخيراً. فسُرّ النبي عليه الصلاة والسلام مما قاله صاحباه، وأعلن أنه في طريقه إلى بدر، وقال: والذي نفسي بيده لأخرجن وإن لم يخرج معي أحد. ونادى في الناس للخروج، فاجتمع حوله ألف وخمسمائة مقاتل، وسار بهم إلى بدر، بعد أن أناب عنه على المدينة عبدالله بن عبدالله بن أبي.

وصل رسول الله ﷺ إلى بدر في جيشه، وعسكر هناك وبقي ثمان ليال ينتظر قريشاً، ولكنها لم تأت، إذ عادت جموعها من عسفان، خوفاً من اللقاء حقيقة، وحجتها في ذلك أن الظروف غير ملائمة للحرب، إذ كانت سنوات

قحط وجدب.

وهكذا دان عدو المسلمين الأول، وهو قريش، وهي أقوى قوة في الجزيرة، وجيشها أكثر الجيوش تنظيماً وعتاداً، وكانت هي المتحدية، وهي الفارّة من اللقاء، وخافت القبائل، وأجلي جزء من يهود، وبدا أن غزوة أحد لم تكن ضربة أليمة يخنع المسلمون بعدها. ودان كذلك رجالات الأعراب فيما حول المدينة والمنطقة كلها. وأثناء وجود رسول الله ﷺ في بدر جاء مخشي بن عمرو الضمري إليه، وقال له: يا محمد أجئت للقاء قريش على هذا الماء الواقع في أراضي بني ضمرة؟ أي يريد أن يقول تتحدّى بني ضمرة، ولم تحسب لهم حساباً، وكأن البئر وما حولها مشاع لكم ـ وكان بين رسول الله وبني ضمرة معاهدة عدم اعتداء منذ غزوة (ودان) قبل غزوة بدر الكبرى ـ فقال له رسول الله ﷺ: نعم، يا أخا ضمرة وإن شئت مع ذلك رددنا إليك ما كان بيننا وبينك، فلما رأى الضمري شدة رسول الله وثقته بالله، قال: لا والله يا محمد ما لنا بذلك من حاجة.

غزوة دومة الجندل:

لم تتأدّب القبائل كلها، بل تأدّبت التي وصل المسلمون إلى ديارها فقط، واغترّ غيرها من الاعراب، وظنّوا أن بإمكانهم غزو المدينة، وأن غيرهم ليس مثلهم، فهم يستطيعون تحقيق ما لا يستطيعه غيرهم، ومن هؤلاء المغرورين الأعراب الذين حول دومة الجندل، والذين بدأوا يتجمعون للإغارة على المدينة، وعندما وصل خبرهم إلى رسول الله ﷺ، أسرع إليهم بألف مقاتل، ففرّوا من وجهه، وأخذ المسلمون كثيراً من حيوانات القوم، وأثناء العودة عقد رسول الله مع (عيينة بن حصن) معاهدة عدم اعتداء، وسمح الرسول لعيينة أن يرعى بأراضي المسلمين التي تقع على بعد ستين كيلا لأنه اشتكى جدب أراضي فزارة.

غزوة بني المصطلق:

وظن بنو المصطلق بأنفسهم قوة، وغرّتهم كثرة أعدادهم، وموقعهم بين مكة والمدينة حيث كان الناس يجاملونهم أثناء مرورهم بمنازلهم في طريقهم إلى الشام أو آيبين منها، وحسبوا أن خزاعة كلها تناصرهم ما داموا بطناً منهم، فأخذوا يستعدون للإغارة على المدينة، وبلغ رسول الله ﷺ خبرهم، فأرسل إليهم بريدة بن الحصيب يستوضح الأمر، فإذا به حق. فأسرع إليهم رسول الله، وخرج معه في هذه المرة المنافقون الذين يطمعون في الغنيمة، كما يطمعون ببذر الخلاف. وكان زعيم بني المصطلق الحارث بن أبي ضرار قد أرسل عيونه يستطلعون له الطريق قبل سيره، ويُنبّئونه عن حركات المسلمين وتحركاتهم، فالتقى المسلمون بأحد هؤلاء العيون، فسيق إلى رسول الله فعرض عليه الإسلام فأبى، ولما كان رسول الله يريد مفاجأة القوم لذا فقد أمر بإعدام هذا الجاسوس، فضرب عمر بن الخطاب عنقه، وعلم بنو المصطلق بما حدث فأصابهم ذعر شديد الأمر الذي جعل أعداداً منهم تتفرّق عن ذلك التجمّع، وفاجأهم رسول الله وهم على ماء (المريسيع)، فدعاهم إلى الإسلام فأبوا، فحمل عليهم المسلمون وأحاطوا بهم من كل مكان، ولم يفلت منهم رجل واحد، وقتل منهم عشرة أفراد، ثم استسلموا جميعاً، وغنم المسلمون ديارهم وأملاكهم، وسبوا نساءهم. وزادت الغنائم على ألفي رأس من الإبل وخمسة آلاف من الأغنام، وبلغ عدد السبايا سبعمائة فتاة. وقد أطلق سراح بعض الأسرى والسبايا، وافتدي بعضهم، ولم يقتل أحد من الأسرى. وتزوّج رسول الله جويرية بنت الحارث سيد بني المصطلق بعد أن كاتبت ثابت بن قيس بن شماس الذي كانت من نصيبه، ثم جاء أبوها ليفتديها فخطبها رسول الله ﷺ من أبيها وتزوجها على مهر قدره أربعمائة درهم، وأسلم أبوها بعد أن رأى معجزة من رسول الله، كما أسلم بنو المصطلق جميعاً وعندها أطلق الناس ما بأيديهم من الأسرى والسبايا إكراماً لنبيهم الكريم.

وحدثت في هذه الغزوة حادثتان كان لهما وقع شديد في نفوس المسلمين،

أما أولاهما: فهي أن رجلاً حليفاً للأنصار من جهينة تخاصم مع رجل من غفار حليف للمهاجرين، فدعوا بدعوى الجاهلية إذ نادى أحدهما يا لكنانة، وصرخ الثاني يا للأنصار، فأخذت الحمية بعض الصحابة وكادت تقع فتنة لولا أن أسرع رسول الله ﷺ إلى ذلك المكان مستنكراً ما حدث، وقال: ما بال دعوى الجاهلية، دعوها فإنها منتنة، من دعا بدعوى الجاهلية كان من جُثا جهنم، وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم، وقد انتهت هذه الفتنة، وتنازل الجهني عن حقه في الضرب.

وغضب عبدالله بن أُبيّ كبير المنافقين لما تم، وغضب على ضرب الرجل الانصاري، وهو يعد نفسه كبير الأنصار، وغضب على هدوء الفتنة بهذه السرعة التي تم فيها، وهو يريد أن تشتعل فقال ـ وعنده رهط من قومه بينهم شاب حدث اسمه زيد بن أرقم ـ: أو قد فعلوها، قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما أعدّنا وجلابيب[1] قريش إلا كما قال الأول: سمّن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. ثم اتجه إلى من كان عنده فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير دياركم. ومشى زيد بن أرقم إلى رسول الله وأخبره بما حدث، وكان عمر بن الخطاب عند رسول الله فغضب رسول الله غضباً شديداً حتى تغيّر وجهه، فقال عمر: مر به عبّاد بن بشر[2] فليقتله، فقال رسول الله ﷺ: فكيف يا عمر إذا تحدّث الناس أن محمداً يقتل أصحابه! لا ولكن أذّن بالرحيل، وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها، فارتحل الناس، وسار بهم رسول الله جاداً بالرحيل مدة تقرب من ثلاثين ساعة، وذلك ليشغل

---

(١) جلابيب قريش: لقب المهاجرين المسلمين، لقبهم بذلك كفار قريش، إذ كانوا يأتزرون بأزرة غليظة.

(٢) عباد بن بشر بن وقش من الأوس من الأنصار، احد الأشداء من بني عبد الأشهل، وذكر ذلك عمر حتى يكون قاتله من الأنصار من سكان المدينة لا من المهاجرين إليها.

الناس عن الحديث الذي تحدث به عبدالله بن أُبَيّ، ثم نزل بالناس، فلم يلبثوا أن وقعوا نياماً بمجرد أن جلسوا. وجاء أُسيد بن حضير إلى رسول الله وهو من سادات الأوس من الأنصار، وقال له أثناء الرحيل: يا نبي الله، والله لقد رحت في ساعة منكرة، ما كنت تروح في مثلها، فقال له رسول الله ﷺ: أو ما بلغك ما قال صاحبكم؟ قال: وأي صاحب يا رسول الله، قال: عبدالله بن أُبَيّ، قال: وما قال؟ قال: زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخرجنّ الأعز منها الأذلّ، قال: فأنت يا رسول الله، والله لتخرجنه منها إن شئت، هو والله الذليل وأنت العزيز، ثم قال: يا رسول الله، ارفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك، وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوّجوه، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكاً.

وعاتب ابن أُبَيّ قومه، وقالوا له: يا أبا الحباب، إن كنت قلت ما نقل عنك، فأخبر به النبي، فليستغفر لك ولا تجحده فينزل ما يكذبك، وإن كنت لم تقله فأت رسول الله ﷺ فاعتذر له. فحلف لقومه بالله العظيم أنه ما قال من ذلك شيئاً، ثم مشى إلى رسول الله وأخذ يحلف له بالله أنه لم يقل شيئاً مما نقله إليه زيد بن أرقم.

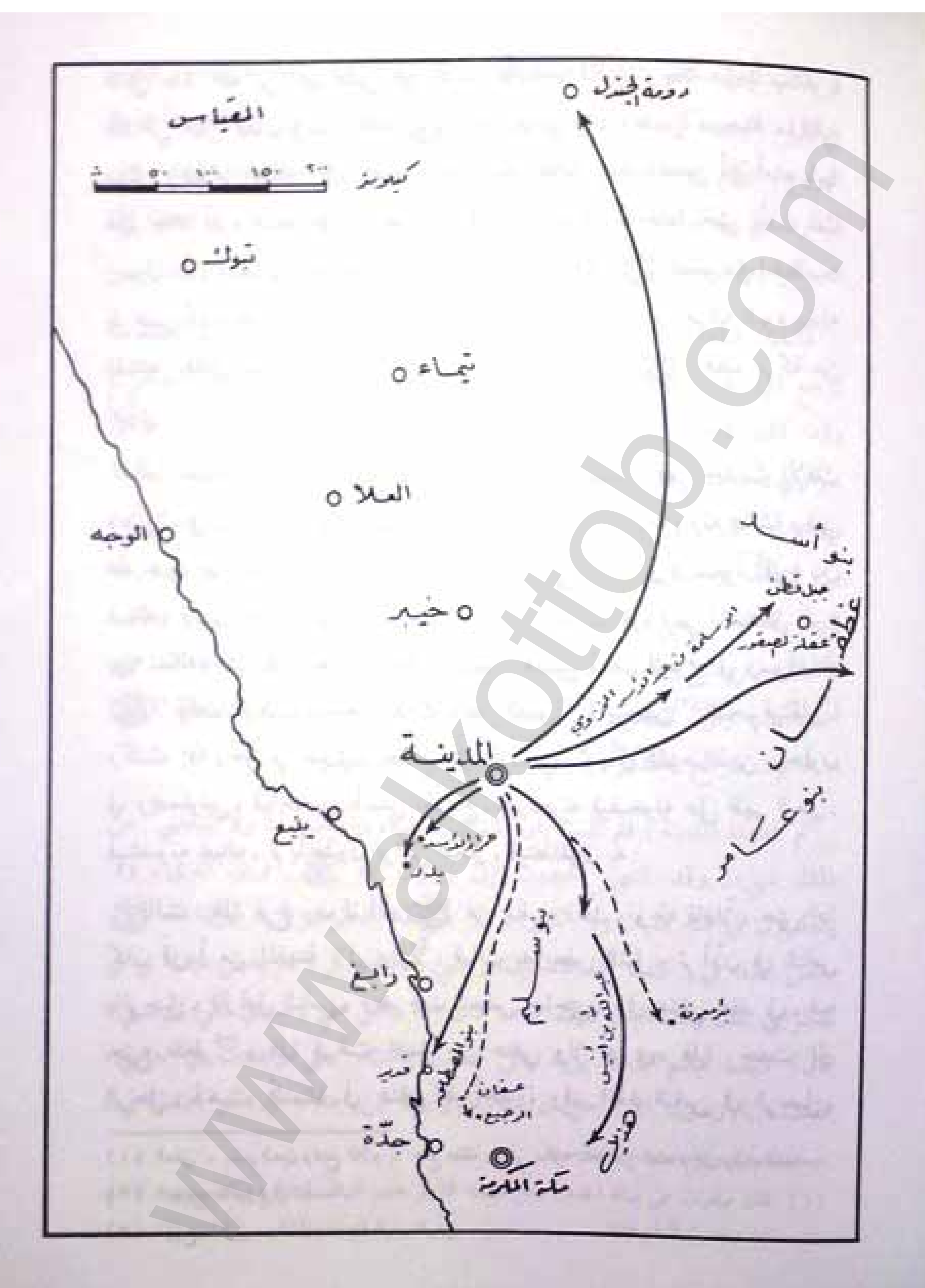
وأنزل الله سورة (المنافقون) في حق ابن أُبَيّ يقول جل شأنه: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝٦ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ...﴾[1].

والواقع أن ابن أبي لم يعرف حقيقة الايمان لذا لم يدرك حبّ أصحاب رسول الله لنبيهم، ومن هذا كان يظنّ أنه سيد في قومه، وقد يطيعونه في أمر صدّ رسول الله، ولو عرف الايمان، وأدرك حب الصحابة لمحمد عليه الصلاة والسلام، لعرف مركزه وعلم وزنه، وتكلم على ذلك القدر. ولننظر إلى بعض هذا الحب الذي يبدو من هذه الحادثة فقط.. فقد رأينا كلام أسيد بن حضير رضي الله عنه، وكذلك زيد بن أرقم الذي نقل الحديث لرسول الله، فقد لامه بعض المنافقين على هذا النقل فأجابه وهو الغلام الحدث: والله لو تكلم أبي كلمة عن رسول الله ﷺ لأخبرته. وحتى ابن عبد الله بن أبي بالـذات عبد الله جاء إلى رسول الله ﷺ فقال له: يا رسول الله، إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه، فإن كنت لا بد فاعلاً، فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبرّ بوالده مني، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى

---

(١) المنافقون: ١ - ٨.



المقياس
كيلومتر
٠ ٥٠ ١٠٠ ١٥٠ ٢٠٠
دومة الجندل
تبوك
تيماء
العلا
الوجه
خيبر
بنو أسد
جبل قطن
غطفان
المدينة
بنو عامر
ينبع
بدر
رابغ
بئر معونة
قديد
عسفان
الرجيع
جدة
مكة المكرمة
هذيل

قاتل عبد الله بن أبي يمشي في الناس فأقتله، فأقتل رجلاً مؤمناً بكافر، فأدخل النار فقال رسول الله ﷺ: بل نترفق به، ونحسن صحبته ما بقي معنا. وعندما وصلوا إلى المدينة وقف عبد الله بن عبد الله بن أبيّ أمام بابها فلما جاء أبوه منعه من الدخول، وقال: والله لا تدخلها حتى يأذن لك رسول الله، وتقول: إنه العزيز، وإنك الذليل. وقال ﷺ لعمر بن الخطاب: يا عمر أما والله لو قتلته يوم قلت، لأرعدتْ له أنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته. فقال عمر: قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري.

أما الحادثة الثانية التي وقعت إثر غزوة بني المصطلق فهي حديث الإفك وهو الذي تولى كبره المنافقون وأشاعوه، وأكتفي بذكر ما روته عائشة رضي الله عنها عن نفسها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه، فلما كانت غزوة بني المصطلق أقرع بين نسائه، كما كان يصنع، فخرج سهمي عليهن معه، فخرج بي رسول الله ﷺ. قالت: وكان النساء إذ ذاك يأكلن العلق[1] لم يهجهن[2] اللحم فيثقلن، وكنت إذا رحل لي بعيري، جلست في هودجي، ثم يأتي القوم الذين يرحلون لي ويحملونني، فيأخذون بأسفل الهودج، فيرفعونه فيضعونه على ظهر البعير، فيشدونه بحباله، ثم يأخذون برأس البعير، فينطلقون به.

قالت: فلما فرغ رسول الله ﷺ من سفره ذلك، وجّه قافلاً، حتى إذا كان قريباً من المدينة نزل منزلاً، فبات به بعض الليل، ثم أذّن في الناس بالرحيل، فارتحل الناس، وخرجت لبعض حاجتي، وفي عنقي عقد لي، فيه جزع ظفار[3]، فلما فرغت انسل من عنقي ولا أدري، فلما رجعت إلى الرحل، ذهبت ألتمسه في عنقي فلم أجده، وقد أخذ الناس في الرحيل،

---

(١) العلق ـ بضم العين وفتح اللام ـ جمع علقة، وهي ما فيه بلغة من الطعام إلى وقت الغداء.

(٢) التهيج كالورم في الجسد.

(٣) الجزع: الخرز، وظفار: مدينة قرب اليمن.

فرجعت إلى مكاني الذي ذهبت إليه، فالتمسته حتى وجدته، وجاء القوم خلافي، الذين كانوا يرحلون لي البعير، وقد فرغوا من رحلته، فأخذوا الهودج، وهم يظنون أني فيه، كما كنت أصنع. فاحتملوه، فشدّوه على البعير، ولم يشكّوا أني فيه، ثم أخذوا برأس البعير فانطلقوا به، فرجعت إلى العسكر وما فيه من داع ولا مجيب، قد انطلق الناس.

قالت: فتلففت بجلبابي، ثم اضطجعت في مكاني، وعرفت أن لو افتقدت لرجع إليّ. قالت: فوالله إني لمضطجعة إذ مرّ بي صفوان بن المعطل السلمي، وقد كان تخلف عن العسكر لبعض حاجته[1]، فلم يبت مع الناس فرأى سوادي، فأقبل حتى وقف عليّ، وقد كان يراني قبل أن يضرب علينا الحجاب، فلما رآني قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، ظعينة رسول الله ﷺ! وأنا متلففة في ثيابي، قال: ما خلفك يرحمك الله؟ قالت: فما كلمته، ثم قرب البعير فقال: اركبي، واستأخر عني. قالت: فركبت، وأخذ برأس البعير، فانطلق سريعاً، يطلب الناس، فوالله ما أدركنا الناس، وما افتقدت حتى أصبحت، ونزل الناس، فلما اطمأنوا طلع الرجل يقود بي، فقال أهل الإفك ما قالوا، فارتجّ العسكر، ووالله ما أعلم بشيء من ذلك.

ثم قدمنا المدينة، فلم ألبث أن اشتكيت شكوى شديدة، ولا يبلغني من ذلك شيء. وقد انتهى الحديث إلى رسول الله ﷺ. وإلى أبوي، ولا يذكرون لي منه قليلاً ولا كثيراً، إلا أني قد أنكرت من رسول الله ﷺ بعض لطفه بي، كنت إذا اشتكيت رحمني، ولطف بي، فلم يفعل ذلك بي في شكواي تلك، فأنكرت ذلك منه، كان إذا دخل علي وعندي أمي تمرضني، قال: كيف تيكم؟، لا يزيد على ذلك. قالت: حتى وجدت في نفسي، فقلت: يا رسول الله، حين رأيت ما رأيت من جفائه لي: لو أذنت لي،

---

(١) كان صفوان على ساقة الجند، ومن مهمته التأخر عنهم قليلاً، ليفتش مكانهم بعد ارتحالهم، فإن وجد شيئاً حمله.

فانتقلت إلى أمي، فمرضتني؟ قال: لا عليك. قالت: فانتقلت إلى أمي، ولا علم لي بشيء مما كان، حتى نقهت من وجعي بعد بضع وعشرين ليلة، وكنا قوماً عرباً، لا نتخذ في بيوتنا هذه الكنف التي تتخذها الأعاجم، نعافها ونكرهها، إنما كنا نذهب في فسح المدينة، وإنما كانت النساء يخرجن كل ليلة في حوائجهن، فخرجت ليلة لبعض حاجتي ومعي أم مسطح بنت أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف، وكانت أمها بنت صخر بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم، خالة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، قالت: فوالله إنها لتمشي إذ عثرت في مرطها، فقالت: تعس مسطح! ومسطح لقب واسمه عوف، قالت: قلت: بئس لعمر الله ما قلت لرجل من المهاجرين، قد شهد بدراً، قالت: أو ما بلغك الخبر يا بنت أبي بكر؟ قالت: قلت: وما الخبر؟ فأخبرتني بالذي كان من قول أهل الافك، قالت: قلت: أوقد كان هذا؟ قالت نعم والله لقد كان، قالت: فوالله ما قدرت أن أقضي حاجتي، ورجعت، فوالله ما زلت أبكي حتى ظننت أن البكاء سيصدع كبدي، قالت: وقلت لأمي: يغفر الله لك، تحدث الناس بما تحدثوا به، ولا تذكرين لي من ذلك شيئاً! قالت: أي بنية، خففي عليك الشأن، فوالله لقلّما كانت امرأة حسناء، عند رجل يحبها، لها ضرائر، إلا كثّرن، وكثّر الناس عليها. قالت: وقد قام رسول الله ﷺ في الناس يخطبهم، ولا أعلم بذلك، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، ما بال رجال يؤذونني في أهلي، ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه إلا خيراً، وما يدخل بيتاً من بيوتي إلا وهو معي.

قالت: وكان كبر ذلك عند عبد الله بن أبي بن سلول، في رجال من الخزرج، مع الذي قال مسطح وحمنة بنت جحش، وذلك أن زينب بنت جحش كانت عند رسول الله ﷺ، ولم تكن من نسائه امرأة تناصيني[1] في المنزلة عنده غيرها، فأما زينب فعصمها الله تعالى بدينها، فلم تقل إلا خيراً، وأما حمنة بنت جحش، فأشاعت من ذلك ما أشاعت، تضادني لأختها،

---

(١) من المناصاة: وهي المساواة.

فشقيت بذلك.

فلما قال رسول الله ﷺ تلك المقالة، قال أسيد بن حضير: يا رسول الله إن يكونوا من الأوس نكفكهم، وإن يكونوا من إخواننا من الخزرج، فمرنا بأمرك فوالله إنهم لأهل أن تضرب أعناقهم، قالت: فقام سعد بن عبادة، وكان قبل ذلك يرى رجلاً صالحاً، فقال: كذبت لعمر الله، لا تضرب أعناقهم، أما والله ما قلت هذه المقالة إلا أنك قد عرفت أنهم من الخزرج، ولو كانوا من قومك ما قلت هذا. فقال أسيد: كذبت لعمر الله، ولكنك منافق، تجادل عن المنافقين، قالت: وتساور الناس حتى كاد يكون بين هذين الحيين في الأوس والخزرج شر. ونزل رسول الله ﷺ، فدخل عليّ. قالت فدعا علي بن أبي طالب رضوان الله عليه، وأسامة بن زيد فاستشارهما، فأما أسامة فأثنى عليّ خيراً، ثم قال: يا رسول الله، أهلك و لاتعلم منهم إلا خيراً، وهذا الكذب والباطل، وأما علي فإنه قال: يا رسول الله إن النساء لكثير، وإنك لقادر على أن تستخلف، وسل الجارية، فإنها ستصدقك. فدعا رسول الله ﷺ بريرة ليسألها، قالت: فقام إليها علي بن أبي طالب، فضربها ضرباً شديداً، ويقول: أصدقي رسول الله ﷺ، قالت: فتقول: والله ما أعلم إلا خيراً، وما كنت أعيب على عائشة شيئاً، إلا أني كنت أعجن عجينتي، فآمرها أن تحفظه، فتنام عنه، فتأتي الشاة فتأكله.

قالت ثم دخل عليّ رسول الله ﷺ، وعندي أبواي، وعندي امرأة من الانصار، وأنا أبكي، وهي تبكي معي، فجلس فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يا عائشة، إنه قد كان ما قد بلغك من قول الناس، فاتقي الله وإن كنت قد قارفت سوءاً مما يقول الناس، فتوبي إلى الله، فإن الله يقبل التوبة عن عباده، قالت فوالله ما هو إلا أن قال لي ذلك، فقلص دمعي، حتى ما أحس منه شيئاً. وانتظرت أبويّ أن يجيبا عني رسول الله ﷺ، فلم يتكلما، قالت: وأيم الله لأنا كنت أحقر في نفسي وأصغر شأناً من أن ينزل الله في قرآناً يقرأ به في المساجد، ويصلى به، ولكني قد كنت أرجو أن يرى

رسول الله ﷺ، في نومه شيئاً يكذب به الله عني، لما يعلم من براءتي، أو يخبر خبراً، فأما قرآن ينزل فيّ، فوالله لنفسي كانت أحقر عندي من ذلك. قالت: فلما لم أر أبوي يتكلمان، قالت: قلت لهما: ألا تجيبان رسول الله ﷺ؟ قالت: فقالا: والله ما ندري بماذا نجيبه، قالت، ووالله ما أعلم أهل بيت دخل عليهم ما دخل على آل أبي بكر في تلك الأيام. قالت: فلما استعجما علي، استعبرت فبكيت، ثم قلت: والله لا أتوب إلى الله مما ذكرت أبداً، والله إني لأعلم لئن أقررت بما يقول الناس، والله يعلم أني منه بريئة، لأقولن ما لم يكن، ولئن أنا أنكرت ما يقولون لا تصدقونني. قالت: ثم التمست اسم يعقوب فما أذكره، فقالت: ولكن سأقول كما قال أبو يوسف ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ قالت: فوالله ما برح رسول الله ﷺ مجلسه حتى تغشاه من الله ما كان يتغشاه، فسجي بثوبه، ووضعت له وسادة من أدم تحت رأسه، فأما أنا حين رأيت من ذلك ما رأيت، فوالله ما فزعت ولا باليت، فقد عرفت أني بريئة، وأن الله عز وجل غير ظالمي. وأما أبواي، فوالذي نفس عائشة بيده، ما سري عن رسول الله ﷺ حتى ظننت لتخرجن أنفسهما، فرقاً من أين يأتي من الله تحقيق ما قال الناس، قالت: ثم سري عن رسول الله ﷺ، فجلس، وإنه ليتحدر منه مثل الجمان في يوم شات، فجعل يمسح العرق عن جبينه، ويقول: أبشري يا عائشة. فقد أنزل الله براءتك، فقالت: قلت: بحمد الله، ثم خرج إلى الناس، فخطبهم، وتلا عليهم ما أنزل الله عليه من القرآن في ذلك، ثم أمر بمسطح بن أثاثة، وحسان بن ثابت، وحمنة بنت جحش، وكانوا ممن أفصح بالفاحشة فضربوا حدهم.

أما المؤمنون فقد قالوا مذ سمعوا الإشاعة إن هذا بهتان وباطل وكذب صريح، وما ظنوا إلا خيراً، وما قالوا إلا كذلك، وكان ظنهم أحسن مما يظنون هم بأنفسهم، ويكفي أن نأخذ مثلاً على ذلك أبا أيوب خالد بن زيد

الذي قالت زوجه أم أيوب، ألا تسمع ما يقول الناس في عائشة؟ قال: بلى، وذلك الكذب، أكنت يا أم أيوب فاعلة؟ قالت لا والله ما كنت لأفعله، قال: فعائشة والله خير منك. كما نعرف رأي المؤمنين تماماً مما أنزل الله، وأنه ما كانت الشائعات إلا من المنافقين، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾[1].

وقال أبو بكر الصديق: والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً. وذلك بعد أن قال عن عائشة ما قاله الناس، وكان من قبل ينفق عليه لقرابته وحاجته. فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2]. فقال أبو بكر بعد ذلك: بلى والله، إني لأحب أن يغفر الله لي فأرجع إلى مسطح نفقته التي كان ينفقها عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبداً.

غزوة الخندق

يحقد اليهود على الناس جميعاً، ويقولون: ليس علينا في الأميين سبيل،

---

(١) النور: ١١ - ١٣

(٢) النور: ٢٢

وأكثر حقدهم على المسلمين، وقد حرصوا على ضرب الدعوة الإسلامية في مهدها الاول، ولكن لم يتمكنوا من ذلك بل رُدّ كيدهم في نحرهم، وأجلوا عن المدينة فرقة بعد فرقة، فلما أجلي بنو النضير، زاد حقد قادتهم، وخاصة الذين أقاموا منهم بخيبر، إذ أن الإسلام تزداد قوته يوماً بعد يوم، وكلما أرادت فئة أن تغير على أبنائه، أصابتها الضربة القاسية، ونزلت المصيبة بديارها وخرج المسلمون أقوى مما كانوا. لذا فكر الحاقدون أن يُحزّبوا الاحزاب من كل الجهات والقبائل، وأن يقوموا بحملة رجل واحد على المدينة، فيقضوا على الإسلام، ويجتثوا جذوره، وينالوا ثأرهم، فخرج لهذا الغرض من خيبر حيي بن أخطب، وسلام بن أبي الحقيق، وكنانة بن أبي الحقيق، وهوذة بن قيس الوائلي وغيرهم واتجهوا إلى مكة قاعدة قريش العدو الاول للمسلمين، ودعوها إلى حرب رسول الله ﷺ، وقالوا لها: إنا سنكون معكم حتى نستأصله، فسرّت قريش، وأعدّت العدة لتلك الحرب المرتقبة. وسأل القريشيون اليهود، فقالوا لهم: يا معشر يهود، إنكم أهل الكتاب الأول، والعلم بما أصبحنا فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟ قالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه، فأنزل الله فيهم

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [1]

وقد تركوا قريشاً بعد أن تواعدوا، واتجهوا إلى غطفان فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ، وأخبروهم بأنهم سيكونون معهم عليه، وأن قريشاً قد اتفقت معهم، فوافقوا على ذلك، ووافقوا على الموعد المضروب بين قريش ويهود.

---

(١) النساء: ٥١ - ٥٢.

خرجت قريش حسب الموعد المقرر بإمرة أبي سفيان بن حرب، وخرجت من غطفان فزارة، ومرة، وأشجع، بإمرة عيينة بن حصن الفزاري، والحارث بن عوف المري، ومسعر بن رخيلة الأشجعي. ولما وصل خبرهم إلى رسول الله ﷺ جمع أصحابه، واستشارهم فأشاروا عليه بحفر الخندق حول المدينة، وقيل: إن سلمان رضي الله عنه هو الذي أشار عليه بحفر الخندق فابتدؤوا بالعمل فيه، وكان رسول الله ﷺ يعمل معهم ويشجعهم. أما المنافقون فكانوا يختفون عن العمل ويفرّون منه دون إذن.

وما أن انتهى العمل من الخندق بين الحرتين حتى جاءت قريش، ونزلت عند مجتمع الأسيال (التقاء وادي قناة مع وادي العقيق) وكان عددها مع الأحابيش، ومن وافقها من كنانة وأهل تهامة عشرة آلاف مقاتل. وجاءت غطفان ومن سار معها من أهل نجد ونزلت قرب جبل أحد قريباً من التقاء وادي بطحان ووادي قناة الى يمين ذلك. وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مع المسلمين وجعلوا جبل سلع إلى ظهورهم، وكان بين الفريقين الخندق الذي حفر.

وخرج حيي بن أخطب حتى أتى كعب بن أسد القرظي في ديار بني قريظة فردّه، فبقي يحاوره حتى أجابه، وعاهده أن ينقض ما كان بينه وبين رسول الله من عهد. وصعب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان من بني قريظة من يهود، إذ أن ديارهم إلى الجنوب من المدينة الى جهة الشرق، وليس من فاصل بينها وبين سكان المدينة التي خلت تقريباً من المحاربين إذ لم يبق فيها الا النساء والأطفال، فأرسل إليهم وفداً يستطلع أخبارهم، فوجدهم الوفد على أخبث حال، وتنكروا أن يكون بينهم وبين رسول الله عهد أو ميثاق.

عظم البلاء على المسلمين، واشتد الخوف، وأتاهم العدو من فوقهم ومن أسفل منهم، وإذ زاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، وداخلهم كل ظن،

وظهر المنافقون، وقالوا: إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فرارا.

ولما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين وما هم عليه، أراد أن يفرق الاحزاب فأرسل وفدا الى غطفان يدعوهم الى ترك مواقعهم، والسفر الى بلادهم، وتكون لهم ثلث ثمار المدينة، فوافقوا، وكتبت بذلك الكتابة، وبقي التوقيع على ذلك. فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم الى سيدي الانصار سعد بن عبادة، وسعد بن معاذ يستشيرهما في ذلك بصفتها سادة سكان المدينة وأهل الزروع فيها، فقالا له: يا رسول الله، أمراً تحبه فتصنعه، أم شيئاً أمرك الله به، لا بد لنا من العمل به، أم شيئا تصنعه لنا؟ قال: بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع إلا لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، وكالبوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما، فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله، قد كنا وهؤلاء القوم على شرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلا قرى أو بيعاً، أفحين أكرمنا الله بالاسلام، وهدانا له، وأعزنا بك وبه، نعطيهم أموالنا؟ والله مالنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف، حتى يحكم الله بيننا وبينهم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فأنت وذاك فتناول سعد بن معاذ الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب، ثم قال ليجهدوا علينا.

حاول بعض فرسان قريش اقتحام الخندق، ومنهم عمرو بن عبد ود العامري، وعكرمة بن أبي جهل المخزومي وهبيرة بن أبي وهب المخزومي، وضرار بن الخطاب المحاربي، وقد لبسوا للقتال، وطلبوا من قومهم التهيؤ له، فلما وصلوا الى الخندق، وقفوا عليه، وقالوا: والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها. ثم ذهبوا الى مكان ضيق فضربوا خيلهم، فاقتحمت الخندق، فخرج عليهم علي بن أبي طالب في نفر من المسلمين، فوقفوا حيالهم، فقال عمرو بن عبد ود: من يبارز؟ فبرز له علي بن أبي طالب، فقال

له يا عمرو: إنك كنت قد عاهدت الله ألا يدعوك رجل من قريش الى إحدى خلتين إلا أخذتها منه، قال له أجل، قال له علي: فاني أدعوك إلى الله والى رسوله، والى الاسلام، قال: لا حاجة لي بذلك، قال: فإني أدعوك الى النزال، فقال له: لم يا بن أخي؟ فوالله ما أحب أن أقتلك، قال له علي: لكني والله أحب أن أقتلك. فأخذت عمرواً حينئذ الحمية، فنزل عن فرسه، وعقره، وضرب وجهه، ونزل لعلي، فقتله علي ـ بإذن الله ـ وفرّت خيل المشركين مقتحمة الخندق.

وأصيب سعد بن معاذ بسهم، فقطع منه الأكحل، وشعر بالألم، فقال اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقني لها، فإنه لا قوم أحب إلي أن أجاهدهم من قوم آذوا رسولك وكذبوه وأخرجوه، اللهم وإن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعلها لي شهادة، ولا تمتني حتى تقرّ عيني من بني قريظة.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشعر بما حلّ بالمسلمين، وما هم عليه من الجوع والتعب، ومن الصبر على ذلك، والثبات على الحق، ولكن لا يملك إلا الدعاء، وهو واثق بنصر الله وتأييده، وجاء نصر الله، وكان من أسبابه أن رجلا من أشجع، وهو نُعيم بن مسعود قد أسلم ساعتذاك، فجاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له: يا رسول الله، إني قد أسلمت، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي، فمرني بما شئت، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنما أنت فينا رجل واحد، فخذّل عنا إن استطعت، فان الحرب خدعة. فخرج نعيم بن مسعود إلى بني قريظة، وكان لهم نديماً في الجاهلية، فقال يا بني قريظة، قد عرفتم ودّي إياكم، وخاصة ما بيني وبينكم، قالوا: صدقت، لست عندنا بمتهم، فقال لهم: إن قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم، البلد بلدكم، فيه أموالكم، وأبناؤكم ونساؤكم، لا تقدرون على أن تتحولوا منه إلى غيره، وإن قريشاً وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره، فليسوا كأنتم، فان رأوا نهزة

أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم، يكونون بأيديكم ثقة لكم، على أن تقاتلوا معهم محمداً حتى تناجزوه، فقالوا له: لقد أشرت بالرأي. وكان اليهود قد وعدوا قريشاً وغطفان أن يباشروا بالقتال بمجرد أن يصطدموا بالمسلمين فيأتونهم من الخلف، ولكن لم يحدث هذا الصدام، ولم تتحرك بنو قريظة رسمياً، إلا أنها قد أرسلت قافلة للمشركين مؤلفة من عشرين بعيراً تحمل زبيباً وتمراً وتيناً، ولكنها لم تصل إليهم إذ استولى عليها المسلمون، حيث التقوا بها عرضاً بينما كانوا يدفنون أحد موتاهم، فأخذوها، ووجدوها لقمة سائغة أثناء اشتداد أزمة الجوع عليهم، إذ كانت سنتهم عام قحط وجدب. كما أن قريشاً وغطفان قد طلبوا من بني قريظة أن يشاغلوا المسلمين ويتحرّشوا بهم حتى يتمكنوا من اقتحام الخندق، وقد حاولوا ذلك، ولكن الخوف جعل الحذر منهم شديداً، ولم يتمكنوا من أن يقوموا بعمل ـ بإذن الله ـ.

ثم خرج نُعيم حتى أتى قريشاً، فقال لأبي سفيان بن حرب ومن معه من رجال قريش: قد عرفتم ودي لكم وفراقي محمداً، وإنه قد بلغني أمر قد رأيت عليّ حقاً أن أبلغكموه، نصحاً لكم، فاكتموا عني، فقالوا: نفعل، قال: تعلمون أن معشر يهود قد ندموا على ما فعلوا فيما بينهم وبين محمد، وقد أرسلوا إليه: إنا قد ندمنا على ما فعلنا، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين، من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم، فنعطيكهم، فتضرب أعناقهم، ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم؟ فأرسل إليهم: أن نعم. فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون منكم رهناً من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلا واحداً. وكانت قريش قد يئست من القتال، فقد طال عليهم الوقت، ولم تدخل معركة حاسمة، وكانت العادة في القتال الكر والفر، فلما لبثوا ما يقرب من عشرين ليلة دون قتال ضاقوا ذرعاً به، وإن استمروا هذه المدة كلها يحاولون اقتحام الخندق، مفتشين عن أضيق نقطة فيه،

ليشغلوا المسلمين، وليجعلوهم في ذعر شديد، وخوف كبير، وقد حدث هذا، إلا أن الايمان تغلب، وثبت المسلمون ثباتاً لا يعادله ثبات. وشعرت قريش أن تفوقها العددي إذ أن جيشها يزيد على عشرة آلاف على حين أن جيش المسلمين لا يصل الى ثلاثة آلاف على أكبر تقدير إذ أن بعضهم يقدره بتسعمائة مقاتل فقط، إن هذا التفوق العددي لا يساوي شيئاً أمام الايمان، وهذا ما جعل اليأس يقع في صفوف جند قريش بل في نفوس قادتها.

ثم خرج نعيم بن مسعود حتى أتى غطفان، فقال: يا معشر غطفان إنكم أصلي وعشيرتي، وأحب الناس إلي، ولا أراكم تتهموني. قالوا: صدقت: ما أنت عندنا بمتهم. قال: فاكتموا عني، قالوا، نفعل، فما أمرك؟ قال لهم مثل ما قال لقريش، وحذرهم ما حذرهم.

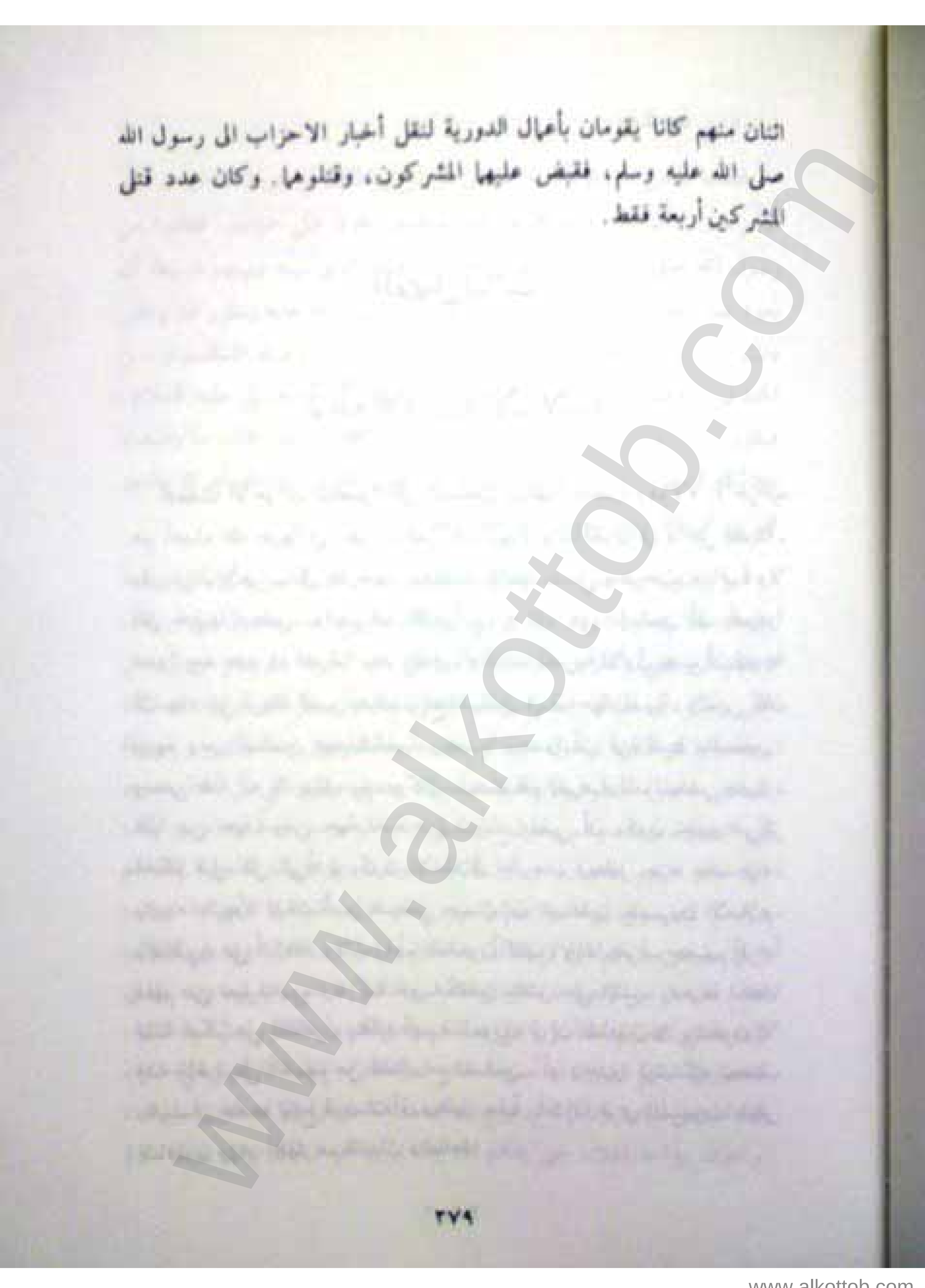
أرسل أبو سفيان عكرمة بن أبي جهل مع نفر من قريش وغطفان إلى بني قريظة يحثونهم على مناجزة المسلمين والبدء بالقتال حتى يلتفت إليهم رسول الله ويتمكن الأحزاب من اقتحام الخندق، وكان يوم السبت الخامس من شوال سنة خمس، فقال لهم عكرمة: إنا لسنا بدار مقام، قد هلك الخف والحافر، فاغتدوا للقتال حتى نناجز محمداً، ونفرغ منها بيننا وبينه. فقالوا له: إن اليوم يوم السبت، وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً، وقد كان أحدث فيه بعضنا حدثاً، فأصابه ما لم يخف عليكم، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمداً حتى تعطونا رهناً من رجالكم، يكونون بأيدينا ثقة لنا، حتى نناجز محمداً، فإنا نخشى إن ضرستكم الحرب، واشتد عليكم القتال أن تنشمروا الى بلادكم وتتركونا، والرجل في بلدنا، ولا طاقة لنا بذلك منه. فلما رجع عكرمة مع من كان معه الى الاحزاب، وأخبروهم بالذي قالت بنو قريظة، قالت قريش وغطفان: صدق والله نعيم، فأرسلوا إليهم: إنا والله لا ندفع إليكم رجلا واحداً من رجالنا، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا، فقالت بنو قريظة: صدق والله نعيم، ما يريد القوم إلا أن يقاتلوا، فان رأوا فرصة انتهزوها، وإن كان غير ذلك انشمروا الى بلادهم، وخلوا بينكم وبين الرجل

في بلدكم. فأرسلوا الى قريش وغطفان: إنا والله لا نقاتل معكم محمداً حتى تعطونا رهناً، فأبوا عليهم، ووقع الخلاف بينهم.

وجاء نصر الله، إذ هبّت عليهم ريح عاصف في ليلة شاتية شديدة البرد، فانقلبت قدورهم، وأزيلت خيامهم، وعمّتهم الفوضى. وعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم بما حدث من خلاف بين يهود والاحزاب، فأرسل حذيفة بن اليمان ليدخل في القوم، ولينظر ماذا يصنعون، وأمره ألا يحدث شيئاً حتى يعود. قال حذيفة: فذهبت فدخلت في القوم والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل، لا تقرّ لهم قدراً ولا ناراً ولا بناء. فقام أبو سفيان، فقال: يا معشر قريش، لينظر امرؤ من جليسه؟ قال حذيفة: فضربت بيدي على يد الذي عن يميني، فأخذت بيده، فقلت: من أنت؟ قال: معاوية بن أبي سفيان، ثم ضربت بيدي على يد الذي عن شمالي، فقلت: من أنت؟ قال: عمرو بن العاص.

ثم قال أبو سفيان: يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع والخف، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من شدة الريح ما ترون، ما تطمئن لنا قدر، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا فإني مرتحل. ثم قام إلى جمله فامتطاه. وأعطى أوامره للفرسان بحماية الانسحاب، ففعلوا، وغادرت قريش مواقعها، وغادرت غطفان مواقعها، ثم انسحب الفرسان، ولما أصبح الصباح وجد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الاحزاب قد ذهبوا، فانصرف إلى المدينة راجعاً، ووضع المسلمون السلاح. وانتهت غزوة الأحزاب، وانتهت مؤامرة اليهود وباء الجميع بالفشل، وكانت هذه آخر إغارة على المدينة أو آخر حرب يشنّها المشركون واليهود إذ أصبح المسلمون بعدها هم الأقوياء ويقومون بالجهاد ونشر الدعوة، وقتال كل من يقف في وجه الاسلام مهما بلغت قوته.

وقد استشهد ثمانية من المسلمين في هذه المعركة، وكلهم من الأنصار،



اثنان منهم كانا يقومان بأعمال الدورية لنقل أخبار الاحزاب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقبض عليهما المشركون، وقتلوهما. وكان عدد قتلى المشركين أربعة فقط.

الفصل الثالث

توسع الدولة الإسلامية

تجمعت الأحزاب ليقضوا على المسلمين وينتهوا منهم، وهؤلاء الأحزاب هم أعداء الله جميعاً في الجزيرة العربية. اليهود والمنافقون في داخل المدينة، وقريش والأعراب في خارجها. وفشلت الاحزاب بل وخرجت متنافرة ولا يثق بعضها ببعض. وانصرف الأحزاب. وكان على المسلمين أن يضربوا عدواً بعد عدو إذ افترقوا بعد اتفاق. وكانت الضربة الأولى يجب أن تتوجه الى يهود بني قريظة الذين يعيشون مع المسلمين في ضاحية المدينة، والذين كان بينهم وبين المسلمين عهد فنقضوه، عندما وجدوا أن قوة تحيط بالمسلمين، ومعنى هذا أنه لا يوثق بهم، وكلما سنحت لهم الفرصة قاموا بغدر جديد، هذا من جهة، ومن جهة ثانية فان التوسع يقضي أن يكون تطهير مركز الحكم قبل كل شيء ثم يكون الانطلاق خارجه، ويطهر جزء بعد جزء، والبدء باليهود لذلك أمر طبيعي حيث إن المنافقين يظهرون الاسلام، ويحقدون على أتباعه، ولا يعرفهم المسلمون كلهم، وإنما يعرف بعضهم أفراداً منهم من تصرفاتهم، ولما كنا غير مكلفين بالشق على القلب ومعرفة الخفايا فاننا نحكم على الظاهر، وعليه فهم مسلمون، ثم إن المنافقين لا ينشطون إلا إذا خافوا على أنفسهم من القتال مع المسلمين، أو وجدوا قوة تكاد تعصف بالمسلمين عندها يبزغ قرن النفاق ويظهر جلياً، أما إذا قوي المسلمون اختفى المنافقون وزاد إظهارهم للنسك والطاعة.

غزوة بني قريظة:

عندما نقض بنو قريظة يدهم من قريش وغطفان في غزوة الاحزاب آخر الأمر، رأوا أن يناوروا ويخاتلوا على المسلمين خوفاً على حياتهم، فطلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعيدوا العهد الذي بينه وبينهم شريطة أن يعود بنو النضير إلى ديارهم إلا أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد رفض ذلك لما رأى من غدرهم. فلما انصرف الأحزاب، وعاد المسلمون من الخندق، ووضعوا السلاح، إذا بأمر من السماء يأتي به جبريل عليه السلام، فيقول له: أوقد وضعت السلاح يا رسول الله، قال: نعم، قال: ما وضعت الملائكة السلاح، وما رجعت الآن إلا من طلب القوم، إن الله يأمرك بالمسير الى بني قريظة، فإني عامد إليهم فمزلزلهم.

أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم مؤذناً، فأذن في الناس: من كان سامعاً مطيعاً، فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة، فأسرع المسلمون إلى بني قريظة، ومنهم من صلى بالطريق، وأخذ الأمر على باب السرعة، ومنهم من لم يصل حتى وصل الى هناك حسب الأمر فصلى متأخراً، وفي غير وقت الصلاة، وعندما ذكر ذلك لرسول الله: لم يعنف أحد الطرفين. ولما رأى بنو قريظة المسلمين دخلوا حصونهم، واعتصموا بها، ودخل معهم حي بن أخطب سيد بني النضير، وحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خمساً وعشرين ليلة، فلما طال عليهم الحصار، ورأوا أنهم سيموتون جوعاً إن استمر، قال لهم سيدهم كعب بن أسد: يا معشر يهود، قد نزل بكم من الأمر ما ترون، وإني عارض عليكم خلالا ثلاثاً، فخذوا أيها شئتم؛ قالوا: وما هي؟ قال: نتابع هذا الرجل ونصدقه، فوالله لقد تبين لكم إنه لنبي مرسل، وإنه للذي تجدونه في كتابكم، فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم؛ قالوا: لا نفارق حكم التوراة أبداً، ولا نستبدل به غيره؛ قال فاذا أبيتم علي هذه، فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج الى محمد وأصحابه رجالا مصلتين السيوف، لم نترك وراءنا ثقلا، حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، فان نهلك نهلك، ولم

نتوك وراءنا نسلا نخشى عليه، وإن نظهر فلعمري لنجدن النساء والأبناء، قالوا: نقتل هؤلاء المساكين! فما خير العيش بعدهم؟ قال: فإن أبيتم علي هذه، فإن الليلة ليلة السبت، وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنونا فيها، فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرة، قالوا: نفسد سبتنا علينا، ونحدث فيه ما لم يحدث من كان من قبلنا إلا من قد علمت، فأصابه ما لم يخف عليك من المسخ! قال: ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازماً. وألقى باللوم على حيي بن أخطب الذي حملهم على الغدر بالمسلمين ونقض عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وطلب بنو قريظة من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسمح لهم بالجلاء عن ديارهم بالشروط التي جلا فيها بنو النضير، بحيث يحملون أموالهم معهم، ويتركون سلاحهم. فلم يقبل رسول الله منهم، وإنما طلب منهم أن ينزلوا بحكمه دون شروط، ثم طلبوا منه أن يرسل إليهم أحد حلفائهم من الاوس ليستشيروه، وهو أبو لبابة بشير بن عبد المنذر، فأرسله إليهم، فلما رأوه قام إليه الرجال، وبكت النساء والاولاد في وجهه فأشفق عليهم، وسألوه: هل ننزل على حكم محمد؟ قال: نعم، وأشار بيده إلى حلقه، أي أنه الذبح. قال أبو لبابة: فوالله مازالت قدماي من مكانها حتى عرفت أني خنت الله ورسوله، ثم انطلق أبو لبابة على وجهه، ولم يأت رسول الله صلى الله عليه وسلم بل ذهب الى المسجد فربط نفسه في أحد أعمدته، وقال: لا أبرح مكاني حتى يتوب الله علي مما صنعت، وعاهد الله، ألا يطأ بني قريظة أبداً، حتى لا يرى أبداً في بلد خان فيه الله ورسوله.

استبطأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا لبابة فسأل عنه، فقيل له: فعل كذا وكذا، فقال عليه الصلاة والسلام: «أما إنه لو جاءني لاستغفرت له، فأما إذ قد فعل ما فعل، فما أنا بالذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه»، ثم تاب الله عليه وأنزل في توبته ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا

صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ [(1)].

وعندما علم أبو لبابة بما أنزل الله في توبته أراد أن يتصدق بكل ماله تتمة لتوبته ولكن رسول الله قال له: يجزئك الثلث أن تتصدق به.

انهارت معنويات بني قريظة رغم أنهم داخل حصونهم، وفيها مؤنهم، على حين كان المسلمون في العراء، ويتعرضون للفحات برد الشتاء القارصة، ومع الجزع الشديد الذي أصاب اليهود، إلا أنهم ماطلوا في الاستسلام مع أنهم لم يكونوا ينتظرون نجدة من أية جهة، واشتد على المسلمين الموقف، ورأوا ما أصاب اليهود من انهيار، لذا هدد المسلمون بني قريظة باقتحام الحصون عليهم إن لم يسرعوا في التسليم، ولم يكن بدّ عند اليهود من ذلك لما لحقهم من خوفٍ وذعر، وخاصة عندما وجدوا المسلمين قد هموا فعلاً بالانطلاق، فأعلن بنو قريظة استسلامهم، وفتحوا أبواب حصونهم، وألقوا سلاحهم، وخرجوا، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن توضع القيود في أيدي الرجال، ويعزلوا في جانب بإشراف محمد بن مسلمة، ثم نقلوا الى المدينة حيث سجنوا في دار أسامة بن زيد. أما النساء والاطفال فقد عزلوا في جانب آخر، ونقلوا إلى المدينة أيضاً حيث انزلوا في دار احدى النساء من بني النجار، وكان ينزل فيها الوفود عادة. وكان عدد الرجال تسعمائة مقاتل، والنساء والاطفال يقاربون ذلك أو يزيدون قليلاً، وقد يصلون الى الالف.

وقد ذكرنا أنه كانت في الجاهلية أحلاف بين يهود وسكان المدينة من الاوس والخزرج، وكان الاوس قد حالفوا بني قريظة، على حين حالف الخزرج بني قينقاع وبني النضير. ولقد شفع الخزرج في حلفائهم بني قينقاع وبني النضير عندما أجلوا عن المدينة كما مر معنا، وقد لعب آنذاك عبد الله بن أبيّ دوراً في ذلك حيث يُعدّ من وجهاء الخزرج وأعيانهم. ولما رأى الاوس بني قريظة في سجنهم، وذكروا قبول وساطة الخزرج بحلفائهم عند

---

(1) التوبة: ١٠٣.

رسول الله صلى الله عليه وسلم، ذهب بعضهم إلى الرسول وقالوا له: يا رسول الله إنهم كانوا موالينا دون الخزرج، وقد فعلت في موالي إخواننا بالأمس ما قد علمت. فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؟ قالوا: بلى، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فذاك سعد بن معاذ. فطمع الأوس في أن ينجو بنو قريظة من القتل على الرغم من معرفتهم بما ارتكبوه من جريمة شنعاء في حق المسلمين في الغدر بهم ونقض عهودهم، وأسرع عدد من الاوس إلى سيدهم سعد بن معاذ يطلبون منه الرأفة بمواليه، وكان سعد جريحاً مما أصابه يوم الخندق، ومقيماً في خيمة في المسجد النبوي، وتشرف عليه رفيدة إحدى الصحابيات الجليلات، فحملوا سعداً إلى رسول الله على حمار، ولما كلموه في الرحمة والرفق بمواليه أجابهم: لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم، عندها يئس الاوس من الرفق ببني قريظة، وعلموا أن مصيرهم الإعدام لا محالة.

وصل سعد بن معاذ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله للأنصار قوموا إلى سيدكم فأنزلوه[1]، فقاموا وأنزلوه، فقال له رسول الله: احكم فيهم يا سعد. فقال سعد: الله ورسوله أحق بالحكم. فقال عليه الصلاة والسلام: قد أمرك الله أن تحكم فيهم. فوقف سعد واتجه إلى الاوس خاصة وإلى من في المعسكر عامة، وقال: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أن الحكم كما حكمت، قالوا: نعم، ثم اتجه إلى الجهة التي فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو مطرق رأسه إجلالاً لرسول الله وإكباراً، وقال: وعلى من هنا وأشار بيده الى جهة رسول الله، فقال نبي الله عليه أفضل الصلاة والسلام: نعم، ثم اتجه الى بني قريظة المسجونين فقال لهم: أترضون بحكمي؟ فقالوا:

---

(١) يستدل بعضهم بهذا الحديث على وجوب القيام للرجل الكبير أو العالم أو... ولا دلالة فيه، لأن سعداً رضي الله عنه كان جريحاً يحتاج الى المساعدة لينزل عن الدابة كما ان هناك فرقاً بين القيام الى فلان والقيام له، وكان الصحابة لا يقومون لرسول الله ﷺ لما يعلمون من كراهته لذلك.

نعم، ومع خوفهم الشديد وارتجاف حواسهم كلها، فقد بقي عندهم أمل من الرجاء في العفو. واتجهت الانظار نحو سعد لا تكاد تتحرك شاخصة كأنها تريد ان تستخرج الكلمة من لسان سعد، فإذا به يقول: أحكم في بني قريظة ان تُقتل الرجال، وأن تُسبى النساء، وأن تكون أموالهم غنيمة للمحاصرين لهم من المسلمين، وأن تكون ديارهم كلها للمهاجرين دون الانصار. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد: لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات. ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفر خنادق في سوق المدينة، وضربت أعناق بني قريظة، جماعات جماعات، وألقيت جثثهم في الخندق، وكانوا إثر قتل كل جماعة يوارون جثثهم بالتراب. وكان بين القتلى امرأة واحدة اسمها (مزنة) قتلت خلاد بن سويد بحجر طاحون من فوق الحصن، وكان خلاد يستظل في ظل الحصن أثناء الحصار، فعدّت بين المقاتلين وقتلت. ووزعت الغنائم بين المحاربين بعد استبقاء خمسها، كما وزعت السبايا وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا يفرق بين الأم وولدها، وعن عبادة بن الصامت، ان النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا يفرق بين والدة وولدها» فقيل: إلى متى؟ قال: «حتى يبلغ الغلام وتحيض الجارية».

أما سعد بن معاذ لم يلبث أن انفجر عليه جرحه ومات شهيداً رضي الله عنه، وهكذا فقد تحققت أمنيته، وسُمع دعاؤه بألا يموت حتى تقرّ عينه من بني قريظة، وذلك حين أصيب يوم الخندق إذ قال - كما ذكرنا - اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً، فأبقني لها، فإنه لا قوم أحب إلي أن أجاهدهم، من قوم آذوا رسولك وكذبوه وأخرجوه، اللهم وإن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعلها لي شهادة، ولا تمتني حتى تقرّ عيني من بني قريظة.

وكان تقتيل بني قريظة بعد غدرهم الذي قاموا به، ونقضهم العهد الذي فعلوه، يدل على حكمة بالغة، إذ أن كثيراً من الناس يطمع في رحمة المسلمين، وإنسانيتهم، وعدم حبهم لسفك الدماء، وعفوهم بعد المقدرة،

والظن بهم خيراً بعد أن يقعوا في قبضتهم، وكان هذا ما يشجعهم على القيام بأعمال ضد المسلمين ثم يرجون العفو....

وهذا ما كان يطمع به بنو قريظة، إلا ان سعداً رضي الله عنه حين حكم عليهم هذا الحكم كان يشعر أن غدرهم لو نجح لعصف بالكيان الإسلامي كاملاً. لذا كان معهم حازماً، وهذا ما يجب أن يعرفه المسلمون وأعداؤهم على سواء أن الحكمة قد تكون في الشدة، وأن للعطف موضعه، وأن للحزم موضعه أيضاً، وان الاعداء عندما يتمادون في غيهم لا بد من أخذهم بالشدة والضرب على أيديهم بقوة ولو أدى الأمر إلى إبادتهم جميعاً كما أبيد بنو قريظة الذين كان إعدامهم درساً لمن عاش أيامهم ولمن يعيش من بعدهم. وكان في مقتل بني قريظة الانتهاء من العدو الداخلي، والاتجاه نحو العدو الخارجي.

قتل سلام بن أبي الحقيق:

كان من الذين حزبوا الاحزاب سلام بن أبي الحقيق، وهو من زعماء بني النضير الذين أقاموا في خيبر بعد أن أجلاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المدينة. وقد خرج خمسة رجال من المدينة من الانصار من الخزرج بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى خيبر، وقتلوا هذا الطاغية في بيته ليعلم الطغاة ان أيدي المسلمين بإمكانها أن تصل إليهم، وتنال منهم، ولو كانوا داخل بيوتهم، في منأى من الأرض، حتى لا يعودوا إلى معاداة المسلمين والعمل ضدهم، وضد دعوتهم، ويجب أن ينتبه الدعاة إلى أن فعل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، هذا لم يكن إلا بعد أن صار للمسلمين دولة.

زواج رسول الله صلى الله عليه وسلم بزينب بنت جحش:

كانت حياة زينب بنت جحش رضي الله عنها ساحة لتطبيق بعض الأحكام، وتغيير بعض المفاهيم. لقد كانت زينب ابنة عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم أميمة، وكان لها من طيب الأصل والجمال ما تفتخر به على

غيرها . وأراد رسول الله ان يزوجها من مولاه زيد بن حارثة رضي الله عنهما فأبدت هي وأهلها جفاء وتمنعاً من هذا الزواج إذ وجدوا هذا الزوج غير كفء لابنتهم الجميلة ذات الشرف والجاه، لأنه من الموالي، إلا أن الاسلام لا يعرف هذه الطبقات التي اعتاد الناس أن يصنفوا أنفسهم فيها ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[1] لذا لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقبل هذا التمنع منهم، وأصر على ذلك، ولم يكن لهم من الأمر شيء ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾[2] . وتم الزواج.

وأراد الله ـ عز وجل ـ أن يلغي التبني، إذ أن هذه الظاهرة كانت شائعة في الجاهلية، واستمرت في الاسلام، حتى أراد الله عزّ شأنه أن يلغي تلك الظاهرة المضرة بكيان الأسرة، وما يتعلق بذلك من إرث وغيره. وكان رسول الله قد تبنّى زيداً، لذا كانوا يدعونه زيد بن محمد. فأنزل سبحانه وتعالى: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[3] . إلا أن الحياة الزوجية لم تستقم بين زيد وزينب، ولم يطيقاها، واستشار زيد رسول الله صلى الله عليه وسلم في طلاق زينب ، وبيّن له بعض الأسباب الداعية إلى

---

(١) الحجرات: ١٣ .

(٢) الأحزاب: ٣٦ .

(٣) الأحزاب: ٥ .

ذلك ، فطلب منه رسول الله أن يتريث ، مع العلم أن الله سبحانه وتعالى قد أخبر رسوله بأنه سيتزوج زينب بعد أن يطلقها زيد ، وتنقضي عدتها ، إلا أن رسول الله كان يخشى إظهار ذلك لأن الناس سيقولون : إن محمداً قد تزوج زوجة متبناه وكان هذا محرماً في الأعراف التي كانت سائدة آنذاك ، إذ يعدون المتبنى كابن المتبني فعلاً ، ولم يحرمه الاسلام بعد ، ولكن الله سيأمر بذلك ، وسيطلق زيد زينب ، وسيتزوجها محمد ، لأنه الوعد قال تعالى : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾[1].

وهكذا ألغي التبني ، وتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم بزينب بنت جحش رضي الله عنها . وفرض الحجاب ، كما فرض الحج في هذه الآونة .

أما العدو الثالث فقد كان الاعراب ، فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يؤدبهم ، قبيلة قبيلة ، ما داموا متفرقين ، حتى لا يفكروا أبداً في الإغارة على المدينة بعد ذلك ، ولكيلا يفكروا في التجمع وتأليف الاحزاب في محاولة للهجوم على المدينة والقضاء فيها على الاسلام . وجهز لذلك السرايا وسار في الغزوات ، ومنها :

١ - سرية محمد بن مسلمة :

أرسله في بداية السنة السادسة للهجرة في ثلاثين راكبا لشن غارة على بني بكر بن كلاب الذين كانت منازلهم إلى الشمال الشرقي من المدينة وعلى بعد ثمانين ومائتي كيلومتر على طريق البصرة ، واستطاع أن يفاجئهم في ديارهم

---

(١) الأحزاب : ٣٧ .

فقتل عشرة منهم وفرّ الباقون، ورجع محمد بن مسلمة إلى المدينة ومعه الغنائم من الأنعام والأغنام. وأثناء عودته أسر ثمامة بن أثال أحد وجهاء بني حنيفة في نجد، وبقي ثلاثة أيام في المدينة أسيراً، وقد رفض أن يسلم، ثم أطلقه رسول الله بعد أن أكرمه، ثم عاد فأسلم، وثبت حين ارتدّ قومه.

٢ ـ غزوة بني لحيان:

غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم بني لحيان الذين قتلوا عاصم بن ثابت في حادث ماء الرجيع، بعد أن أظهر أنه يريد الشام، وقد كان معه مائتا راكب، ووصل الى ماء الرجيع، فتفرق بنو لحيان في الجبال، وأرسل وراءهم من يطاردهم، فلم يعثروا على أحد، كما أرسل بعض أصحابه إلى عسفان لكي يعلم عن طريقهم أهل مكة فيقع الرعب في نفوسهم، ثم عاد مع أصحابه.

٣ ـ غزوة الغابة:

أغار عيينة بن حصن في أربعين راكباً على الغابة التي تبعد ٤٠ كيلا عن المدينة الى جهة الشرق، والتي يوجد فيها عشرون من الابل لرسول الله، فاستاقها من راعيها، وفرّ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في أثره بعد أن أرسل له من يشاغله حتى تصل النجدة، ولكنه نجا، إلا أن المسلمين قد خلصوا أكثر الإبل التي سرقت.

٤ ـ سرية عكاشة بن محصن:

كان بنو أسد يؤذون من يمر ببلادهم من المسلمين، فأرسل لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عكاشة بن محصن في أربعين راكباً ليُغير عليهم، فلما علموا، هربوا من وجه عكاشة، وغنم المسلمون في هذه السرية مائة من الإبل.

٥ ـ سرية محمد بن مسلمة الثانية:

أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم محمد بن مسلمة في عشرة من المسلمين

للإغارة على الأعراب الذين يقيمون قرب المدينة، وقد بلغه أنهم يريدون الإغارة على إبل المسلمين هناك، فكمن الأعراب لسرية المسلمين، وتمكّنوا من قتلهم، ولم ينج منهم إلا أمير السرية محمد بن مسلمة ظناً منهم أنه قد قتل فعاد إلى المدينة، فأرسل لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا عبيدة بن الجراح ليثأر منهم، فلما علموا به فرّوا من وجهه.

٦ ـ سرية زيد بن حارثة:

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة على رأس سرية لتغير على بني سُليم الذين كانوا مع الأحزاب، فلما وصل إلى ديارهم، تفرقوا، وفرّوا من أمامه، وعادت السرية بالغنائم من الأنعام والأغنام.

٧ ـ سرية زيد بن حارثة الثانية:

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة على رأس مائة وسبعين راكباً، ليعترض قافلة لقريش آتية من الشام في طريقها إلى مكة، واستطاع زيد أخذ القافلة وأسر رجالها وفيهم أبو العاص بن الربيع زوج زينب بنت رسول الله، ولم يكن قد أسلم بعد، فاستجار بزوجه زينب فأجارته، فقال عليه الصلاة والسلام «المسلمون يد واحدة يجير عليهم أدناهم وقد أجرنا من أجرت» وردّ رسول الله إليه ماله كله، فسار إلى مكة، فأعطى الأمانات، وأدّى لكل رجل ماله، ورجع إلى المدينة مسلماً.

٨ ـ سرية زيد بن حارثة الثالثة:

وانطلق زيد بن حارثة للإغارة على بني ثعلبة الذين قتلوا أصحاب محمد بن مسلمة، وكان في خمسة عشر مقاتلاً، فلما رآهم بنو ثعلبة ظنّوا أنهم طليعة جيش المسلمين الكبير، ففرّوا وتركوا حيواناتهم، فاستاقها المسلمون، وعادوا بها إلى المدينة.

سرية زيد بن حارثة الرابعة:

٩ ـ كان زيد في تجارة في الشام فلما عاد تعرّض له بنو فزارة المقيمون في وادي القرى، فأخذوا تجارته، وكادوا يقتلونه، فلما وصل إلى المدينة، أرسله رسول الله صلى الله عليه وسلم مع رجاله للإغارة على بني فزارة المعتدين، فسار إليهم حتى داهمهم، وأحاط بهم، وقتل منهم عدداً كبيراً.

١٠ ـ سرية عبد الرحمن بن عوف:

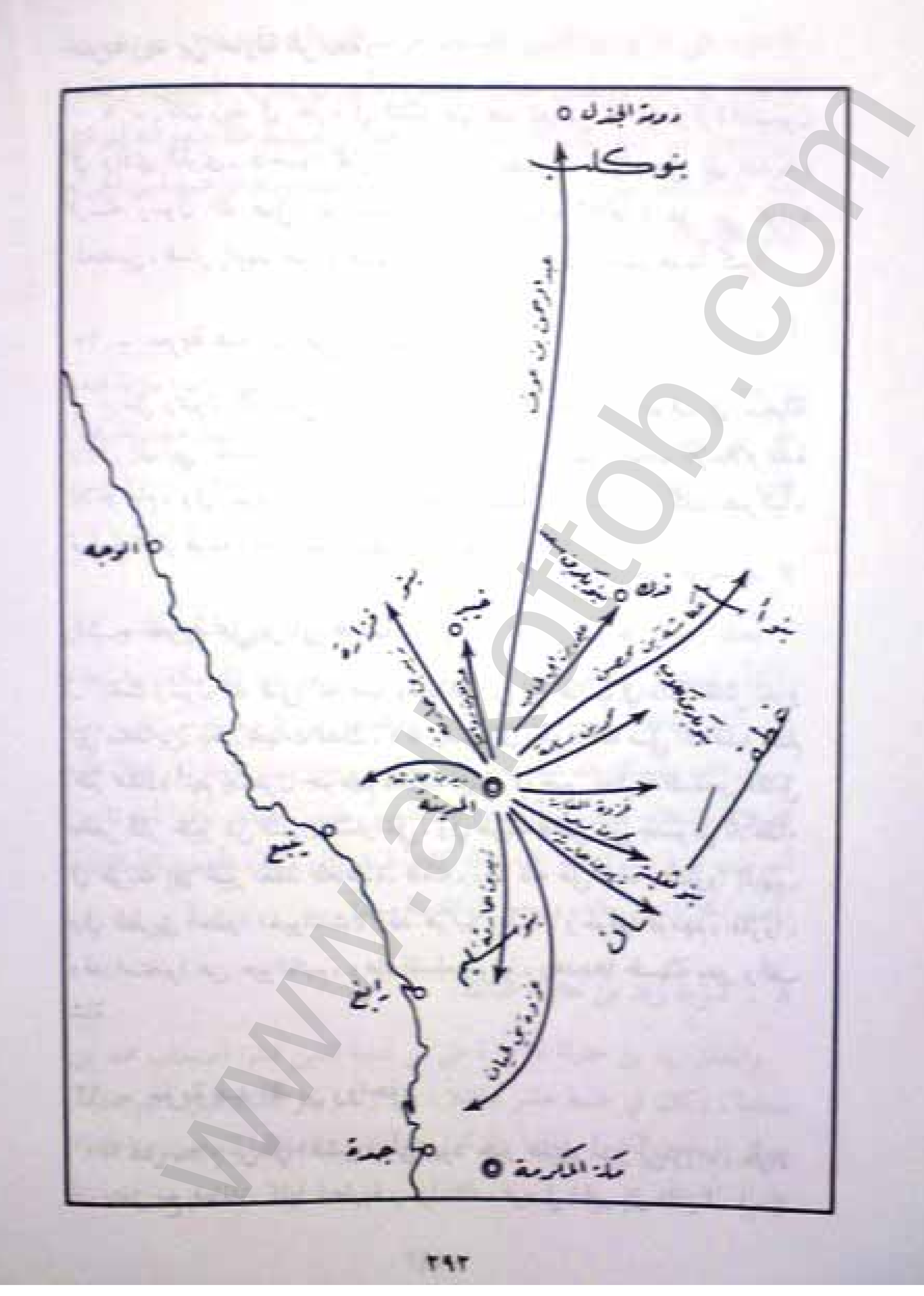
أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الرحمن بن عوف في سبعمائة رجل إلى بني كلب في دومة الجندل، فلما وصل إليهم دعاهم للإسلام مدة ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع أسلم رئيسهم الأصبغ بن عمرو، وكان نصرانياً، ثم أسلم أكثر قومه، ومن بقي منهم قبل بدفع الجزية.

١١ ـ سرية علي بن أبي طالب:

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب في مائة مقاتل لغزو بني سعد بن بكر بجهات فدك، لأنه وصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر مفاده أنهم يجمعون جوعهم لمعاونة اليهود في خيبر لمحاربة المسلمين مقابل بعض ثمار خيبر من التمر، فسار عليّ، وفي طريقه قبض على جاسوس للأعداء في طريقه إلى خيبر لعقد المعاهدة، فأمّنه، وقد دلّه على قومه، فساروا إليهم، وفي الطريق أخذوا الحيوانات، وقد هرب رعاتها، وخوّفوا قومهم، ففرّوا، وقد استغنوا عن حيواناتهم، وعاد المسلمون بها، وعددها خمسمائة بعير وألف شاة.

١٢ ـ سرية عبد الله بن رواحة:

لما قتل سلام بن أبي الحقيق، ولّى يهود خيبر عليهم أسير بن رزام، فأراد أن يتفق مع غطفان كلها لمحاربة رسول الله، فوصل الخبر إلى المدينة، فبعث


دومة الجندل
بنو كلب
عبد الرحمن بن عوف
الوجه
فدك
خيبر
ينبع
المدينة
رابغ
جدة
مكة المكرمة

رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن رواحة في ثلاثين راكباً من الأنصار، فعرضوا على أسير بن رزام أن يسير إلى المدينة، فيوليه رسول الله على خيبر فيكون عاملاً لرسول الله على اليهود فيها، ويترك ما عزم عليه من الحرب، ويعيش اليهود عندها بسلام، فوافق أسير على ذلك.

كان هدف رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينتهي من الجبهة الشمالية التي قوامها اليهود، ليلتفت إلى الجبهة الجنوبية التي قوامها قريش.

سار أسير بن رزام إلى المدينة مع ثلاثين من اليهود، كل يهودي رديف لمسلم، فلما كانوا في الطريق ندم أسير بن رزام على ما فعل، ورأى أن يقتل المسلمين، فمدّ يده إلى سيف عبد الله بن رواحة يريد انتزاعه منه وقتله به، فقال له عبد الله بن رواحة: أغدراً يا عدو الله! ثم نزل وقتله، وقام المسلمون على من معهم من اليهود وقتلوهم جميعاً.

١٣ ـ أرسل أبو سفيان رجلا ليغدر برسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة، ولكنه كُشف أمره، وأسلم الرجل، وأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن أمية الضمري ورفيقاً له ليقتلا أبا سفيان جزاءً له، فلما وصلا إلى مكة طافا بالبيت قبل القيام بالمهمة، فعرفهما أهل مكة، فلم يجدا بدأ من الهرب.

١٤ ـ جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة جماعة من قبيلة عكل وعرينة، وأظهروا الاسلام، وبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم يوافقهم جو المدينة، فأصابهم المرض، فأرسلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مع راع وإبل إلى خارج المدينة، فعُوفوا، وكان جزاء الإحسان، أن قتلوا الراعي، واستاقوا الابل، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم في أثرهم كرز ابن جابر الفهري في عشرين فارساً، فلحقوا بهم، وقبضوا عليهم جميعاً، وأعادوهم إلى المدينة، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُمثّل بهم كما مثلوا بالراعي، كمعاملة بالمثل حتى لا يطمع المشركون في رحمة المسلمين.

لقد كانت أخبار هذه الغزوات والسرايا تصل إلى الأعراب وإلى أكثر سكان الجزيرة العربية، فهاب الأعراب المسلمين، وعرف سكان جزيرة العرب مكانة المسلمين وقوتهم، واعترفوا بهم كقوة في المنطقة، وأصبح كل إنسان يريد أن يتعرّف على هذا الدين الجديد، وبهذا تنتشر الدعوة، ويعلم أنه إذا دخل في الإسلام، فإن هناك من يحميه، وإذا هاجر إلى المدينة فقد وصل إلى مأمنه.

صُلحُ الحُدَيْبيَة

رأى رسول الله ﷺ أن العدوّ الداخلي قد انتهى أمره، وأن جو المدينة قد خلص من كل شائبة ظاهرة، وأن الأعراب لا يمكنهم في تلك الظروف القيام بعمل حربي، وأن الخطر إنما يأتي من جبهتين وهما: الجبهة الجنوبية، حيث قريش العدوّ الأول، وبإمكانها القيام بحركة وخاصة إذا حرّضها ماكر، والجبهة الشمالية، حيث اليهود في خيبر، ولا يمكنهم التحرك وحدهم، ولكن عندهم إمكانية التحريض، والعمل على تأليف الأحزاب، وهذه طريقتهم المعروفة، ومكرهم الكبير، وعمل المسلمين يجب أن يكون على إحدى هاتين الجبهتين ليتخلص من إحداهما ثم يلتفت إلى الثانية، وما دامت الجبهة الشمالية لا يمكنها التحرك لذا اتجه المسلمون نحو الجنوب، فإن البدء والعمل من الافضل أن يكون على الجبهة الجنوبية... إذ لو تحركوا نحو الشمال ربما هاجمتهم قريش من الجنوب، واستغلّت خلو المدينة من جيشها وانصرافه إلى تأديب اليهود الذين لا يمكنهم الهدوء وترك الناس في راحة، بل لا بدّ من إشعال الحروب ورمي القبائل بعضها مع بعض.

رأى ﷺ في نومه أنه دخل وأصحابه البيت الحرام آمنين مُحلّقين رؤوسهم ومقصّرين، فأخبر المسلمين أنه يريد العمرة، وفي العمرة عبادة، وفيها جسّ لنبض قريش ومعرفة لأحوالها، وفيها اعتراف ضمني من قريش

بالمسلمين الذين دخلوا عليها مكة، وفيها إظهار لقوة المسلمين الذين جاءوا إلى قاعدة قريش لا يهابوها، وفيها نصر للمسلمين بين الأعراب، وفيها تعظيم لبيت الله كسائر العرب، البيت الذي بناه أبواهم إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام فهم على الحنيفية السمحاء وليسوا بصابئين كما تزعم قريش، إضافة إلى إشعار المستضعفين من المسلمين والموجودين في مكة بقرب الخلاص وبداية الفرج.

واجتمع الأنصار والمهاجرون حول رسول الله ﷺ للخروج إلى العمرة، وأبطأ عليه الأعراب الذين استنفرهم وظنّوا ألا ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً، وادّعوا أنهم شغلتهم أموالهم وأهلوهم، وطلبوا الاستغفار من رسول الله ﷺ لهم. وخرج المسلمون وعددهم ١٥٠٠ رجل، وخرج مع رسول الله أم سلمة رضي الله عنها زوجه، وولّى رسول الله ابن أم مكتوم على المدينة، وأرسل العيون أمامه ليأتوه بأخبار قريش، وأحرم من ذي الحليفة، وساق الهدي أمامه، دلالة على أنه لا يريد الحرب، وسار نحو مكة، حتى إذا كان بعسفان لقيه بشر بن سفيان، فقال له: يا رسول الله هذه قريش، قد سمعت بمسيرك، فخرجوا معهم العوذ المطافيل[1]، قد لبسوا جلود النمور، وقد نزلوا بذي طوى، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدموها إلى كُراع الغميم. فقال رسول الله ﷺ: يا ويح قريش! لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلّوا بيني وبين سائر العرب، فإن هم أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فما تظنّ قريش، فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به، حتى يظهره الله، أو تنفرد هذه السالفة. ثم قال رسول الله ﷺ: من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم فيها؟ فسار بهم رجل من أسلم في طريق ذات أحجار، ثم سلك بهم رسول الله ﷺ طريقاً حتى خرج من ثنية المرار. وهناك بركت ناقة رسول الله فلم تتحرك،

(١) العوذ المطافيل: يعني خرجوا بأبنائهم ونسائهم، والاصطلاح استعارة من الإبل التي ولدت حديثاً، والإبل التي معها أولادها.

فقال الناس خلأت القصواء، فقال ﷺ: ما خلأت، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة، ثم قال: والذي نفسي بيده، لا يسألونني خطة يُعظِّمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها ثم زجرها فوثبت، فعدل حتى نزل بأقصى الحديبية على حفرة قليلة الماء، فقال للناس: انزلوا، فقالوا: يا رسول الله، ما بالوادي ماء ننزل عليه، فأخرج سهماً من كنانته، فأعطاه رجلا من أصحابه، فنزل به في قليبٍ من تلك القُلُب فغرزه في جوفه، فجاش بالرَّواء. ولما جلس رسول الله ﷺ وأصحابه هناك جاءهم بُديل بن ورقاء الخزاعي مع رجال من قومه، فسألوا رسول الله: ما الذي جاء به؟ فأخبرهم أنه لا يريد حرباً، وإنما جاء معتمراً ومُعظِّماً لبيت الله، فرجعوا إلى قريشٍ وأخبروهم بما قال محمد ﷺ، فاتهموهم لأن بني خزاعة كانوا نصحة لرسول الله، لا يكتمون عنه خبراً من أخبار مكةَ، وقالت قريش: وإن كان جاء ولا يريد قتالا، فوالله لا يدخلها علينا عنوةً أبداً، ولا تحدّثُ بذلك عنا العرب. ثم عادت قريش فأرسلت مكرز بن حفص بن الاخيف، فكان أمره كأمر بديل، ثم بعثت الحُليس بن علقمة، وهو يومئذ سيد الأحابيش، فلما رأى الهدي عاد إلى قريش قبل أن يصل إلى رسول الله ﷺ، إعظاماً لما رأى. وعندما لم تسمع منه قريش غضب وقال: يا معشر قريش، والله ما على هذا حالفناكم، ولا على هذا عاقدناكم، أيُصدّ عن بيت الله من جاء معظماً له! والذي نفس الحليس بيده لتُخلُنّ بين محمد وبين ما جاء له، أو لأنفرنّ الأحابيش نفرة رجلٍ واحدٍ. فبدؤوا يسترضونه. وبعثوا إلى رسول الله عروة بن مسعود الثقفي، فجاءه فجلس بين يديه، ثم قال: يا محمد أجمعت أوشاب الناس، ثم جئت إلى بيضتك لتفضّها بهم، إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل، قد لبسوا جلود النمور، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبداً. وأيم الله، لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً. فقال أبو بكر له: امصص بظر اللات، أنحن نكشف عنه؟ قال: من هذا يا محمد؟ قال ابن أبي قحافة، قال: أما والله لولا يد

كانت لك عندي لم أكافئك بها لأجبتك، ولكن هذه بها، وجعل عروة يتناول لحية رسول الله ﷺ وهو يكلمه، فجعل المغيرة بن شعبة يقرع يده، ويقول له: اكفف يدك عن وجه رسول الله ﷺ قبل ألا تصل إليك، فيقول له عروة: ويحك! ما أفظك وأغلظك! فتبسم رسول الله ﷺ، فقال له عروة: من هذا يا محمد؟ قال: هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة، قال: أي غدر، وهل غسلت سوءتك إلا بالأمس، (ذلك أن المغيرة قد قتل قبل الاسلام ثلاثة عشر رجلاً من بني مالك، فدفع عروة ديتهم عنه، حتى أصلح الأمر بعد هياج الحيين). ثم رجع إلى قريش فقال لهم: يا معشر قريش، إني قد جئت كسرى في ملكه، وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه. وإني والله ما رأيت ملكاً في قوم قط مثل محمد في أصحابه، ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه أبداً، فروا رأيكم.

وبعث رسول الله ﷺ خراش بن أمية الخزاعي إلى قريش، ليخبر أشرافهم عن سبب مجيء محمد وأصحابه إلى البيت، وأنهم ما جاءوا إلا معتمرين، فعقروا به الجمل، وأرادوا قتله، فمنعته الأحابيش، فخلوا سبيله حتى رجع إلى رسول الله ﷺ.

وبعثت قريش خمسين مقاتلاً من رجالها، يجولون حول معسكر المسلمين، علّهم يصيبون أحداً، فقبض المسلمون عليهم وسيقوا إلى رسول الله ﷺ فعفا عنهم، مع أنهم قد رموا العسكر بالحجارة والنبال.

ودعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب، ليبعثه إلى قريش، فيخبرها بالذي جاء له رسول الله، فقال عمر: يا رسول الله، إني أخاف قريشاً على نفسي، وليس بمكة من بني عدي بن كعب أحد يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي لها، وغلظتي عليها، ولكني أدلك على رجل أعز بها مني، عثمان بن عفان. فدعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفان، فأرسله إلى أبي سفيان وأشراف قريش. يخبرهم بالذي جاء له رسول الله.

خرج عثمان بن عفان إلى مكة، وفي الطريق التقى بأبان بن سعيد بن

العاص، فأجاره، وسار معه حتى دخل مكة، فأتى أبا سفيان وعظماء قريش، وبلّغهم رسالة رسول الله ﷺ، وقالت قريش لعثمان: إن شئت فطف بالبيت، فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف رسول الله ﷺ. وتأخر عثمان عن العودة، وشاع خبر بأن قريشاً قتلت عثمان.

وبلغ رسول الله ما أشيع فقال: لا نبرح حتى نناجز القوم، ودعا إلى البيعة، فكانت بيعة الرضوان، وبايع الناس جميعاً، ولم يتخلّف إلا الجد بن قيس. ثم ظهر أن تلك الاشاعة كانت باطلة. وأرسلت قريش سهيل بن عمرو ليصالح المسلمين على ألا يدخلوا مكة عامهم هذا، فجاء سهيل رسول الله، وتمّ الصلح بعد محادثات، ولم يبق إلا الكتابة. فوثب عندها عمر بن الخطاب، فأتى أبا بكر فقال يا أبا بكر، أليس برسول الله؟ قال: بلى، قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: بلى، قال أوليسوا بالمشركين؟ قال: بلى، قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ قال أبو بكر: يا عمر، الزم أمره، فإني أشهد أنه رسول الله، قال عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله، ثم أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ألست برسول الله؟ قال: بلى: أولسنا بالمسلمين؟ قال بلى، قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: بلى، قال فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ قال: أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره، ولن يضيعني! فكان عمر يقول: ما زلت أتصدق وأصوم وأصلي وأعتق، من الذي صنعت يومئذ مخافة كلامي الذي تكلمت به، حتى رجوت أن يكون خيراً.

ثم دعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب فكتب الصلح ونص على ما يلي:

١ - أن تضع الحرب أوزارها بين الطرفين مدة عشر سنوات، يأمن فيهن الناس، ويكفّ بعضهم عن بعض.

٢ - أن من يأتي محمداً من قريش دون إذن وليه يردّه إليهم.

٣ - من جاء قريشاً من مع محمد لم يردّوه عليه.

٤ - ألا يكون بين الطرفين عيبة مكفوفة، ولا إسلال ولا إغلال أي لا

تظهر عداوة ولا خيانة ولا سرقة خفية.

٥ - من أحب من القبائل أن يدخل في عقد محمدٍ وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريشٍ وعهدهم دخل فيه. فقالت خزاعة: نحن في عقد محمد وعهده، وقالت بنو بكر: نحن في عقد قريش وعهدهم.

٦ - أن يرجع المسلمون عن مكة هذا العام، ويأتوا في عام قابل، ويمكثوا في مكة ثلاثة أيام، وليس معهم إلا سلاح الراكب، السيوف في القُرُب.

ولقد كان في هذا الصلح فائدة للمسلمين كبيرة، فالهدنة فسحت المجال للدعوة، وأعطت الفرصة ليتفرغ المسلمون للانتهاء من الجبهة الشمالية والتخلّص من خطر اليهود نهائياً. أما إعادة من جاء مسلماً دون إذن وليه، فإن من مصلحة المسلمين أن يكون لهم عيون بين المشركين يخبرونهم بكل خبر، ويرسلون إليهم خبر كل كيد يحاول المشركون أن يكيدوهم به، هذا بالاضافة إلى ما يمكن أن يكون لهم من تأثير على معارفهم وأقربائهم، وما يكون من سلوكهم، فانتشار الاسلام لا يكون بطريقة واحدة، وإنما بعدة طرق، منها الدعوة، ومنها التأثير في السلوك، ومنها القوة.... وأما عدم إعادة قريش من جاءهم مرتداً، فإنا نكره أن يكون بيننا عيون لأعدائنا، وبالأصل فلا خير فيمن يرتد، بل لو بقي في صفوفنا لوجب قتله ردّةً. وكذلك فان في هذا الصلح اعترافا صريحاً من المشركين بالمسلمين بوضعهم وقوتهم، ولقد حرص المسلمون على ذلك مدة ليست بالقصيرة ولربما كان ذلك منذ أن وصل رسول الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة، وأسس دولته فيها، وكان من هذا الاعتراف أن دخلت قبائل في حلف مع المسلمين مثل خزاعة على الرغم من قرب منازلها من ديار قريش. وأما ما كانوا سيستفيدونه من العمرة، فإنه سيتم في العام المقبل. ولكن المسلمين آنذاك لم يدركوا أبعاد هذا الصلح لذا بدا منهم ما بدا من عمر بن الخطاب، ولربما حدثت بعض الأحداث زادت من هذا الشعور أو أوجدته، إذ بينما كان رسول الله ﷺ

يكتب كتاب الصلح هو وسهيل بن عمرو ، وقد انتهى من الاتفاق كل شيء ، إذ جاء جندل بن سهيل بن عمرو يرسف بالقيود إلى رسول الله ﷺ ، فقام سهيل إلى ابنه أبي جندل يضربه على وجهه ، ويجذبه جذباً شديداً ليرده إلى قريش ، ويقول يا محمد لقد انتهت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا ، قال رسول الله ﷺ . صدقت وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين ، أأرد إلى المشركين يفتنوني في ديني ؟ فزاد ذلك الناس إلى ما بهم ، فقال رسول الله ﷺ : يا أبا جندل ، اصبر واحتسب ، فان الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً ، إنا عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً ، وأعطيناهم على ذلك ، وأعطونا عهد الله ، وإنا لا نغدر بهم . وأسرع عمر بن الخطاب نحو أبي جندل ، ومشى إلى جانبه ، وصار يقول له : اصبر ، ولكنه يدني منه السيف ، فكأنه يقول له تناوله واضرب به رأس أبيك سهيل بن عمرو ، ثم انج بنفسك إلى جانب المسلمين . وهكذا كانت عهود المسلمين لا تنقضها أمور نفسية أو عواطف أو مصالح دنيوية ، وإنما يستمسك بها ما تمسك بها الآخرون .

وتم عقد الصلح ، وما على المسلمين بعده إلا الحل والرجوع إلى المدينة ، فطلب رسول الله ﷺ من أصحابه الحل ، فتوانوا جزعاً مما حدث ، فدخل رسول الله ﷺ إلى خيمته وفيها زوجه أم سلمة ، فقال : يا أم سلمة ، هلك المسلمون ، فقالت : وما صنعوا ؟ فقال : أمرتهم فما أطاعوا ، طلبت منهم أن يحلوا فلم يفعلوا ، فقالت رضي الله عنها : لو فعلت أمامهم لاتبعوا ، فخرج رسول الله ﷺ فحلق رأسه ، ونحر هديه ، فتسابق المسلمون إلى ذلك محلقين رؤوسهم ومقصرين ، وكل يسرع إلى هديه ينحره .

وعاد رسول الله ﷺ وأصحابه إلى المدينة ، وما أن وصلوا إليها حتى أتاهم أبو بصير ، عتبة بن أسيد بن جارية ، وكان ممن حبس في مكة التي كان فيها عدد من أمثاله كالوليد بن الوليد ، وسلمة بن هشام ، وعياش بن أبي ربيعة ، وما إن وصل أبو بصير حتى جاء في أثره رجل من بني عامر بن لؤي ،

ومعه مولى، وقد قدما إلى رسول الله ﷺ بكتاب من الأخنس بن شريق وأزهر بن عبد عوف، فقال رسول الله ﷺ: يا أبا بصير، إنا قد أعطينا القوم ما قد علمت، ولا يصلح لنا في ديننا الغدر، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، فانطلق إلى قومك، قال: يا رسول الله تردني إلى المشركين يفتنوني في ديني قال: يا أبا بصير، انطلق، فان الله تعالى سيجعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً. فانطلق معهما، حتى إذا كانوا بذي الحليفة، أخذ سيف العامري، وقتله به، وهرب المولى راجعا إلى رسول الله، وكذا رجع أبو بصير، وقال: يا رسول الله، وفت ذمتك، وأدى الله عنك، أسلمتني للقوم، وقد امتنعت بديني أن أفتن، أو يعبث بي، فقال رسول الله ﷺ: ويل أمه مسعر حرب، لو كان معه رجال.

وخرج أبو بصير حتى نزل العيص على ساحل البحر بين مكة والمدينة على طريق قريش التي كانوا ينتقلون عليها إلى الشام، وخرج بعض المستضعفين من مكة إلى أبي بصير، فاجتمع عنده سبعون منهم، يقتلون من قريش من وجدوا منها، ويأخذون من العير ما التقوا بها، حتى ضاقت قريش بهم ذرعاً، وكتبت إلى رسول الله ترجوه أن يؤويهم، وتسأله ذلك بأرحامها، فاستدعاهم رسول الله ﷺ، فقدموا المدينة، وأقاموا بها.

وجاءت إلى رسول الله ﷺ بالمدينة أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، فخرج أخواها عمارة والوليد ابنا عقبة، حتى قدما المدينة ليرداها وفق صلح الحديبية، فرفض رسول الله ذلك.

غزوة خيبر

رجع رسول الله ﷺ من الحديبية في أواخر ذي القعدة، وأقام في المدينة ما يقرب من شهر ونصف، ثم أمر بالاستعداد للمسير إلى خيبر، ولم يوزّ رسول الله في حركته هذه. وكان أهل خيبر لا يشكون في أنه سيسير إليهم عندما تتهيأ الفرصة المناسبة، بعد أن فعلوا ما فعلوه من تحريض على غزو

المدينة، وجمع الأحزاب في غزوة الخندق.

وأراد الأعراب أن يسيروا معه في هذه الغزوة، وهم الذين تخلفوا عنه يوم الحديبية، وظنوا أن لن ينقلب هو والمسلمون إلى أهليهم أبداً، وادّعوا يومذاك أنهم قد شغلتهم أموالهم وأهلوهم، فلما عاد المسلمون من الحديبية ظافرين، وأرادوا التوجّه إلى خيبر، رغب الأعراب في المشاركة في هذا السير، وما شكّوا أنهم سيحصلون على مغانم كثيرة يأخذونها، إلا أن الرسول ﷺ رفض أن يصحب معه إلا من سار إلى الحديبية، إذ هؤلاء الأعراب لم تكن غايتهم الجهاد في سبيل الله ولا صحبة رسول الله، ولا قتال أعداء الله، وإنما المغانم فقط.

ولننظر إلى الوضع في المدينة قبل أن يتحرك الجيش نحو خيبر، لقد استاء المنافقون كثيراً من تحرك المسلمين نحو خيبر، وعلموا أن وضع اليهود هناك سينتهي، وسينتهي معه كل قاعدة يمكن أن يستندوا عليها، لذا فقد أخبر رأس المنافقين عبد الله بن أبيّ يهود خيبر بتحرك المسلمين، وشجّعهم على الثبات والمقاومة. وكان في المدينة أيضاً بعض اليهود على شكل أسر أو مجموعات صغيرة، لم يشاركوا في غدر بني قريظة، لذا لم يتعرض لهم المسلمون، وإنما تركوهم يعيشون في كنفهم آمنين مطمئنين على أملاكهم وأموالهم وأعراضهم، في ذمة الله وذمة رسوله وعهده. وكانت حالة هؤلاء اليهود المادية جيدة، وأكثر المسلمين يستدين منهم، وما إن شعر هؤلاء اليهود برغبة المسلمين في غزو خيبر حتى ثار حقدهم، وبدت ضغائنهم، وظهرت عصبيتهم، على الرغم من قلتهم، وحياتهم في أمن وطمأنينة، وأن ثروتهم إنما جمعت تحت رعاية المسلمين وفي ظل حمايتهم، فأخبروا يهود خيبر بتحركات المسلمين أولاً، وأرادوا إضعاف معنوياتهم بالتحدث عن قوة يهود خيبر، ثم رغبوا في إحراج المسلمين بطلب ديونهم والاستعجال في ذلك. فقد روى الواقدي أن أحد جند المسلمين إلى خيبر قال: فلما تجهزنا نريد خيبر، لم يبق أحد من يهود المدينة له على أحد من المسلمين حق إلا لزمه، وكان لأبي

الشحم أحد اليهود عند عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي خمسة دراهم في شعير أخذه لأهله، فلزمه، فقال أجّلني فإني أرجو أن أقدم عليك فأقضيك حقك - إن شاء الله -، إن الله عز وجل قد وعد نبيه خيبر أن يغنمه إياها، وكان عبد الله بن أبي حدرد ممن شهد الحديبية، فقال: يا أبا الشحم، إنا نخرج إلى ريف الحجاز (يعني خيبر) في الطعام والأموال، فقال أبو الشحم: أتحسب أن قتال خيبر مثل من تلقونه من الاعراب، فيها - والتوراة - عشرة آلاف مقاتل، قال ابن أبي حدرد: أي عدو الله تخوفنا بعدونا وأنت في ذمتنا وجوارنا، والله لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، ألا تسمع إلى ما يقول هذا اليهودي، وأخبرته بما قال أبو الشحم، فسكت رسول الله ﷺ ولم يرجع إليه شيئاً، إلا أني رأيت رسول الله ﷺ يحرك شفتيه بشيٍ لم أسمعه، فقال اليهودي لرسول الله ﷺ: يا أبا القاسم هذا قد ظلمني وحبسني بحقي وأخذ طعامي، قال رسول الله ﷺ: أعطه حقه. قال عبد الله: فخرجت فبعت أحد ثوبي بثلاثة دراهم، وطلبت بقية حقه فقضيته، ولبست ثوبي الآخر، وكانت عليّ عمامة فاستدفأت بها، وأعطاني سلمة بن أسلم ثوباً آخر في ثوبين مع المسلمين، ونفلني الله خيراً، وغنمت امرأة بينها وبين أبي الشحم اليهودي قرابة فبعتها منه بمال[1].

تحرك الجيش الاسلامي نحو خيبر وعدده ألف وخمسمائة مقاتل، ومنهم مائتا فارس، وقد أمن الجبهات الأخرى، فهناك هدنة مع قريش، والاعراب لا يستطيعون القيام بعمل بعد الغزوات والسرايا التي سارت إلى كل جهة منطلقةً من المدينة، ويهود المدينة ليسوا سوى أفراد لذا فلن يوضعوا بالحساب كما سبق أن قلنا: إن الوضع الداخلي في المدينة قد خلا من كل شائبة أي: ذات قوة. ولما كان وضع المنافقين واليهود في المدينة - كما علمنا - ولا بد لهم من إعلام يهود خيبر، وقد فعلوا، لذا أعلن رسول الله ﷺ أنه قاصد خيبر، ولم يورِّ كعادته.

---

(١) الواقدي: الجزء الثاني ص ٦٣٤.

وصلت أخبار المدينة إلى خيبر، وبدأ اليهود بالاستعداد، وفرّوا إلى حصونهم، وأخلوا الحصون الامامية من النساء والاطفال، فنقلوهم إلى الحصون الخلفية التي ملؤوها بالمؤن والعتاد حساباً لكل طارىء. أما القتال فقد اختلفوا فيه، فبعضهم رأى أن يقاتلوا ـ كعادتهم ـ من وراء الحصون، حتى يمل المسلمون من الحصار فينسحبوا فاشلين، ورأى بعضهم الآخر أن يواجهوا المسلمين في العراء حتى إذا دعت الحاجة رجعوا إلى حصونهم، ورأى بعضهم أن يسرعوا فيغزوا المدينة قبل ان يتحرّك المسلمون منها، ويستنجدوا باليهود في فدك، وتيماء، ووداي القرى، والأعراب من أهل الشرك حيث إن المسلمين عدو مشترك لهم جميعاً ولكن فكرة القتال داخل الحصون هي التي غلبت، وإن كانت طلبات النجدة قد حصلت على الموافقة، وبالفعل فقد جاءت نجدات لا تقلّ عن ألف مقاتل من غطفان وبطونها فزارة، وبني أسد، وكانوا بقيادة عيينة بن حصن الفزاري، وطلحة بن خويلد الأسدي، وفي الوقت نفسه فقد وعدوا بتجهيز أربعة آلاف مقاتل تكون سنداً وقت الطلب، ودخلت الفرقة الأولى مع اليهود في حصونهم، فكان عدد الذين داخل الحصون أحد عشر ألفاً من المقاتلين، ولكن بعض الاعراب قد رفضوا نجدة يهود خيبر، ومنهم بنو مرّة الذين شاركوا في غزوة الاحزاب، وهم الآن يرفضون الاشتراك في القتال، بل نصحوا غيرهم بعدم تورطهم في مساندة اليهود الذين سيغلبون، حسبما سمعوا من أحبار يهود أنفسهم، إلا أن النصح لم يفد هؤلاء الاعراب، وأصرّوا على البقاء بجانب حلفائهم اليهود، كما أن رسول الله ﷺ حرص على ألا يشترك الاعراب بمناصرة اليهود خوفاً على جنده من الحصار فيما إذا تحرك الاعراب خلف المسلمين بعد مغادرتهم المدينة، واقترابهم من خيبر، واتصل بزعماء الاعراب بواسطة الرسل، ولكن ذلك لم يفد أيضاً.

سار جيش المسلمين نحو خيبر، تتقدمه جماعة من الاستطلاع بإمرة عباد ابن بشر أحد قادة الحرس النبوي خوفاً من كمائن العدو ولكشف الطريق،

والقبض على الجواسيس قبل أن يتعرفوا على الجيش الاسلامي. وأثناء تحرك الجيش نحو الشمال اندفعت وراءه قوة الاعراب المؤلفة من أربعة آلاف مقاتل، ولكنها لم تلبث أن ولّت الادبار باتجاه ديارها إذ خطر لها أن يكون في بلادها قوات تسوق الذراري والانعام، ورجالها عنها بعيدون.

وربما يتساءل بعض الناس كيف خاطر رسول الله ﷺ بجيشه الذي لا يزيد على الألف وخمسمائة مقاتل بالسير إلى خيبر وفيها أحد عشر ألفاً من المقاتلين، تحميهم حصونهم، وتجمع أبنيتهم الأقوات الكثيرة، وفوق كل هذا فهناك أربعة آلاف من المقاتلين الاعراب الذين يمكنهم أن يتحركوا خلف الجيش الاسلامي، ويجعلوه محصوراً بين قوتين أقلها أكثر من ضعفه، وأكبرها تزيد على ستة أضعافه، وأن حركة الجيش كله ستكون فوق أرض العدو، وأكثر المسلمين يجهلونها؟ والواقع فان كل المعارك التي خاضها المسلمون أول عهدهم لم تكن لينطبق عليها التقويم والتقدير العسكري، فهي خاسرة كلها بالحساب العسكري، ولكنها نجحت جميعها، وكانت نتيجتها النصر المؤزر، بل نستطيع أن نقول: إن أكثرها معارك حاسمة، والسبب في ذلك المعنويات القتالية العالية التي كان يتمتع بها المسلمون فثقتهم بنصر الله وتأييده تلعب الدور الرئيسي، وشجاعتهم بل ومخاطرتهم في القتال من أجل كسب النصر أو الحصول على الشهادة كانت السبب الثاني في غلبتهم لأعدائهم، ثم هناك عدم تفكيرهم إلا في الحرب وترك كل ما يجول في أذهانهم من أمور الدنيا، وجعل القتال خالصاً في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، وعبقرية القائد العسكرية، والرعب الذي يتملك نفوس أعدائهم، وحرص خصومهم على الدنيا، كل هذه الأشياء لعبت دورها في تلك المعارك، وما كانت غزوة خيبر إلا إحدى هذه المعارك وصورة عنها.

وصل رسول الله ﷺ مع جيشه إلى ضواحي خيبر فبات هناك، وفي الصباح توجه إلى خيبر كعادته في عدم الهجوم ليلاً، وأرسل علياً فدعا أهل خيبر إلى الاسلام، فلم يقبلوا، فبدأ الهجوم الاسلامي، وكانت خيبر قسمين:

القسم الأول يمثل خط الدفاع الاول، وفيه خمسة حصون: ثلاثة منها في منطقة تسمى «النطاة»، واثنان في منطقة تسمى «الشق» والقسم الثاني: يمثل خط الدفاع الثاني، وفيه ثلاثة حصون.

بدأ الهجوم الاسلامي من الناحية الشمالية حتى لايهرب اليهود باتجاه إخوانهم في تيماء ووادي القرى وفدك ونحو بلاد الشام. وكان الهجوم باتجاه منطقة النطاة، وقد لقي المسلمون مقاومةً عنيفةً، حتى فتح اليهود عدة مرات أبواب الحصون، واندفعوا نحو المسلمين يقاتلونهم، حتى إذا رُدّوا على أعقابهم دخلوا الحصون، وأغلقوا عليهم الابواب. وقد أصيب عدد من المسلمين يومذاك بجراح نتيجة رمي نبال اليهود من داخل حصونهم، فوجد المسلمون أن موقعهم كان غير مناسب إذ كانوا عرضة للنبال فالمكان مكشوف، والحصون مرتفعة تطل على معسكر المسلمين بسهولة، إضافة إلى أن المعسكر وجد في منطقة موبوءة بين النخيل، الأمر الذي استدعى إلى تغيير مكان المعسكر في الليل بعد أن أتموا نهارهم الأول في القتال.

قاوم اليهود في النطاة مقاومةً عنيفةً، وخاصة أمام أول الحصون وهو حصن (ناعم) الذي لم يفتح حتى قتل قادة المدافعين عنه وهم: مرحب وأخواه الحارث أبو زينب وياسر، وبعد ذلك اقتحمه المسلمون بقيادة علي بن أبي طالب، ثم انتقل المسلمون لحصار الحصن الثاني في منطقة (النطاة) بقيادة الحباب بن المنذر، وقد تم الاستيلاء عليه بعد قتال عنيف، وخرج اليهود عدة مرات يشنون الهجوم على المسلمين، وقد قتل فيه سلاّم بن مشكم، وحصل منه المسلمون على غنائم كثيرة، فرّجت عنهم ما كانوا فيه من ضائقة، هذا بالإضافة إلى الأسلحة الكثيرة التي حصلوا عليها منه، أما الحصن الثالث فقد قاوم مدة، ثم قطع المسلمون المياه عنه بعد أن عرفوا منابعها من أحد اليهود، فاضطر اليهود للخروج منه والقتال بضراوة ولكنهم هزموا، ودخل المسلمون الحصن، وبذا انتهت منطقة النطاة كلها.

وفتح المسلمون حصون منطقة «الشق» بعد قتال عنيف، وأخذوا منها

السبايا، ومنهن صفية بنت حيي بن أخطب، وكانت زوج كنانة بن أبي الحقيق، ثم تزوجها رسول الله ﷺ بعد أن أعتقها.

وزحف المسلمون إلى الشطر الثاني من خيبر، ودخلوا الحصن الاول، فانهارت معنويات اليهود، واستسلموا، واتفقوا مع رسول الله ﷺ على أن يخلي اليهود الحصون كلها، ويسلموا ما فيها إلى المسلمين إضافة إلى أسلحتهم، وأن يجلوا عن خيبر إلى الشام، وأن يأخذوا من الاموال ما يمكن حمله، وأن يدلوا على كنوزهم، وألا تسبى الذراري على الرغم من أن البلاد تعدّ قد فتحت عنوة إذ انهارت كل مقاومة لليهود، ولكن رسول الله ﷺ قد تسامح معهم. ثم سمح الرسول لليهود بالبقاء في خيبر ليعملوا أجراء في الارض مقابل جزء من المحصول يتفق عليه الطرفان، واتفق على أن يكون لهم نصف الثمار، ويحق للمسلمين أن يخرجوا اليهود منها في أي وقت شاؤوا.

وبعد الغزوة أهدت زينب بنت الحارث زوج سلاّم بن مشكم شاة مذبوحة مسمومة لرسول الله ﷺ، وما إن تناول منها قليلا حتى شعر أنها مسمومة، فمنع أصحابه عن متابعة الأكل منها، فمات منهم من مات، وبقي رسول الله ﷺ يعاني من أثر السم حتى توفي بعد أربع سنوات. وكانت زينب متأثرة لقتل أبيها الحارث وعميها ياسر ومرحب وزوجها سلاّم بن مشكم، وقد قُتلت بعد اعترافها وكان قتلها قصاصاً بموت بشر بن البراء الذي مات مسموماً بالشاة. وقد استشهد من المسلمين في خيبر ستة عشر رجلا، وقتل من اليهود ثلاثة وتسعون رجلا.

وبعد انتهاء المعارك وصل إلى خيبر جعفر بن أبي طالب من مهاجري الحبشة، وقد فرح رسول الله ﷺ بقدوم جعفر فرحاً شديداً.

الصلح مع أهل فدك:

عندما سار رسول الله ﷺ إلى خيبر أرسل رسولاً له إلى يهود فدك، يدعوهم إلى الاسلام، فماطلوا في الجواب بانتظار نتيجة الحرب في خيبر، فلما

وصل إليهم خبرها، صالحوا رسول الله ﷺ على نصف الأرض، دون أن يسير إليهم، وقد بقوا في بلدهم حتى أجلاهم الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع يهود خيبر إلى الشام.

قتال يهود وادي القرى:

كانت جماعات من اليهود تقيم في وادي القرى، ولها حصون ومناعة، وقوة لا بأس بها، فلما انتهى رسول الله ﷺ من خيبر سار إليهم، وقبل أن يدعوهم إلى الاسلام حاولوا الهجوم على المسلمين، ومع ذلك فقد وجه إليهم النداء حقناً للدماء، فأسرعوا بالحرب، واستمر القتال يوماً مبارزة وقد قتل منهم كل من برز للقتال، وفي اليوم الثاني بدأ الهجوم الاسلامي، فاستسلم اليهود، فعقد معهم صلحاً يقضي ببقائهم في أرضهم والعمل فيها مقابل نصف الثمار. ولم يسلب أحد منهم إذ صدر عفو عام عنهم.

وربما فعل رسول الله ﷺ هذا مع يهود خيبر وفدك ووادي القرى حتى يستثمروا الارض، فلا تبقى دون استثمار فيما إذا أجلوا عنها، إذ لم يكن يرغب أن يشتغل المسلمون بالأرض، ويخلدوا إليها، ويتركوا الدعوة والفتوحات والجهاد في سبيل الله.

يهود تيماء:

وعندما وصل خبر اليهود في شمال المدينة إلى يهود تيماء، أرسلوا إلى رسول الله ﷺ يطلبون منه قبول الجزية منهم، وعدّهم ذميين في ظل الدولة الاسلامية، فوافق رسول الله ﷺ على ذلك، وأخذ منهم الجزية. وعندما أجلى سيدنا عمر بن الخطاب اليهود من قراهم إلى الشام لم يجل أهل تيماء، باعتبارهم ذميين، وأبقاهم في بلدهم.

وأراد بنو فزارة قطع الطريق على رسول الله ﷺ أثناء عودته من خيبر، علّهم يحصلون على بعض المغانم مما غنمه من حركته على اليهود، إلا أن

الرسول الكريم أعلن استعداده لملاقاتهم، فانهارت معنوياتهم، وأصابهم الخوف، وولوا هاربين.

بعد خيبر:

أصبحت قوة المسلمين بعد فتح خيبر أكبر قوة في الجزيرة العربية، ولكن القبائل العربية التي اعتادت الإغارة، وتعودت الكر والفر، لم تعترف تماماً بهذه القوة، بل غرّها أبناؤها وكثرة أفرادها، وفكرت في الإغارة على المسلمين، وخاصة القبائل الكبيرة أمثال هوازن، وغطفان وغيرها، لذا فكّر رسول الله ﷺ بإرسال السرايا إليها لإخضاعها.

أرسل رسول الله ﷺ سرية استطلاعية عدد أفرادها ثلاثون رجلاً بإمرة عمر بن الخطاب إلى ديار هوازن في (تُربة) التي تبتعد أكثر من أربعمائة كيلومتر عن المدينة، وعلى هذه السرية أن تسير هذه المسافة ضمن ديار قبائل لا تزال كلها على الوثنية وتعادي الاسلام، فسار سيدنا عمر بأفراد سريته إلى حيث وُجّه غير وجل ولا خائف، حتى وصل إلى تربة، وعندما سمعت هوازن القبيلة الكبيرة بهذه السرية فرت من وجهها، فعادت السرية إلى المدينة دون أن تجد شيئاً، وكأن هذه الحركة كانت استعراضية، ولكنها إن دلت على شيء، فإنما تدلّ على ما أصبح عليه المسلمون من قوة.

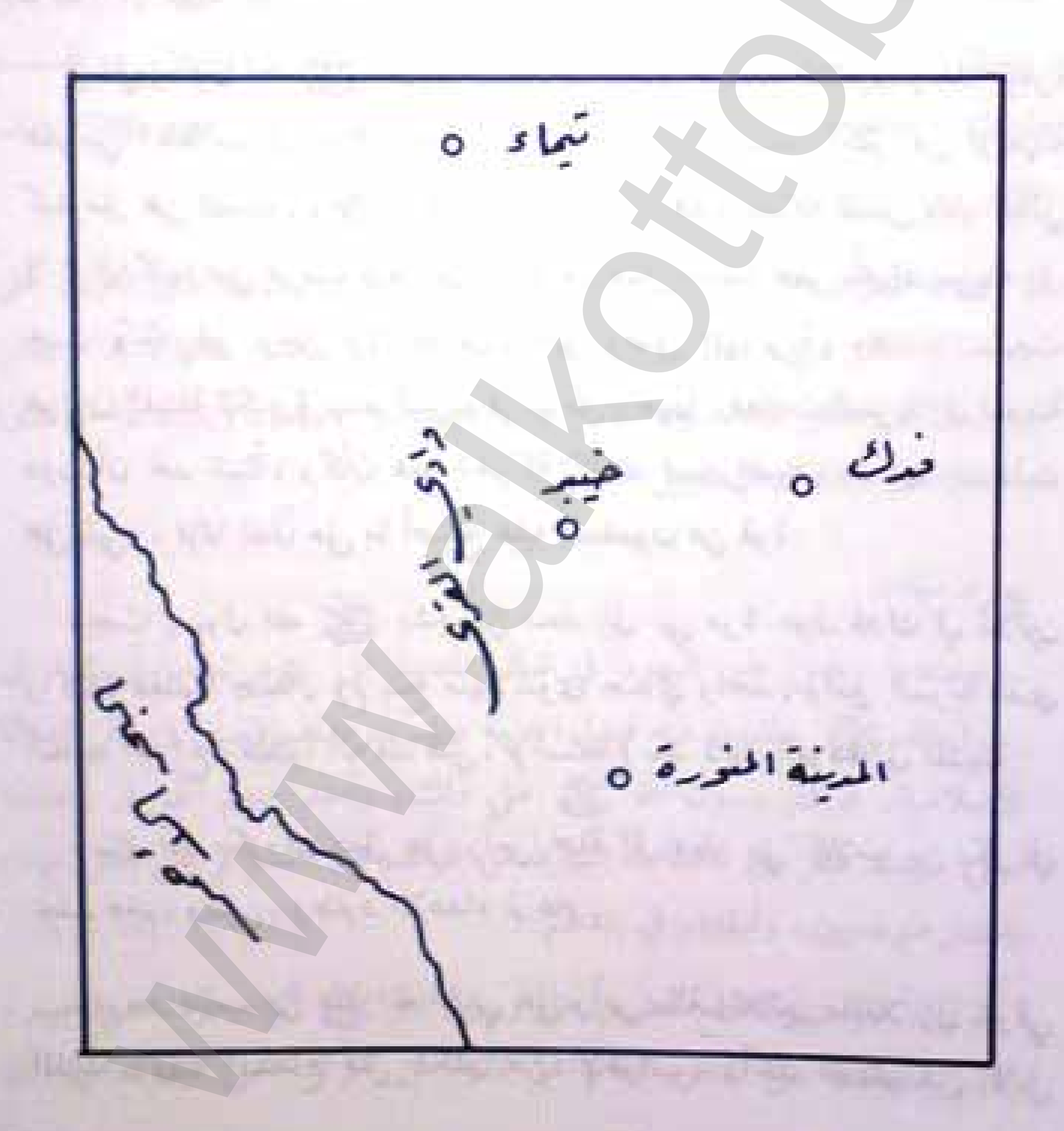
وبعث رسول الله ﷺ بشير بن سعد إلى بني مرة حول فدك في ثلاثين راكباً، فقتلوا جميعاً، ولم ينج منهم سوى جندي واحد، وأمير السرية الذي أثخنته الجراح، فظنوا أنه قد قُتل، ثم استطاع بعد ذلك العودة إلى المدينة.

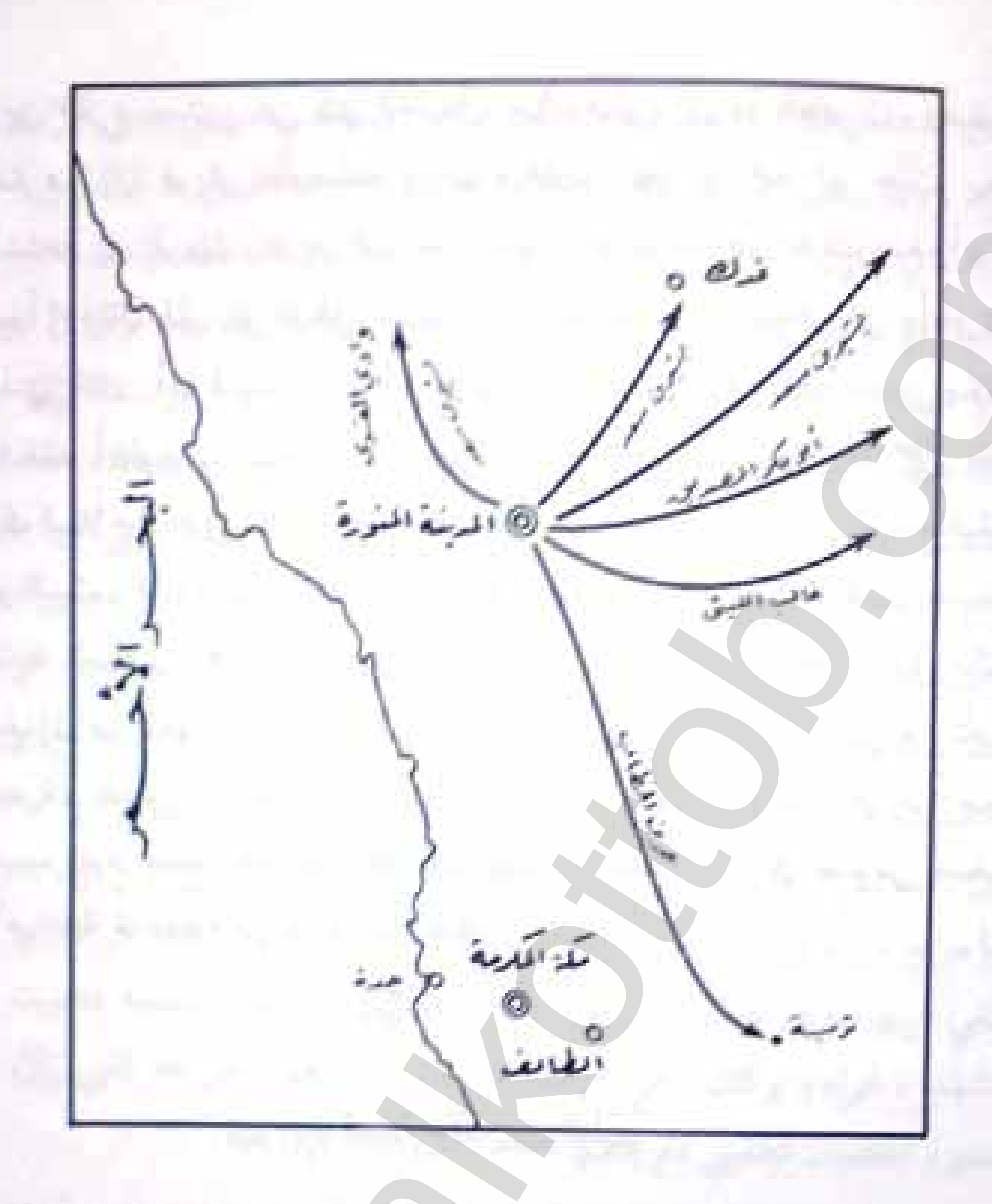
وسار أبو بكر الصديق على رأس حملة إلى ديار بني كلاب بن بكر في نجد، فغنم، وسبى، وطارد الاعداء ثم عاد.

وتوجه غالب بن عبد الله الليثي على رأس مائة وثلاثين مقاتلاً إلى شرقي المدينة، وقد استطاع قتل الكثير من الاعراب، وأخذ الغنائم من الإبل

والاغنام، ولم يقع بيده أحد من الأسرى. وفي هذه السرية التقى أسامة بن زيد برجل كان ضمن معسكر المشركين، فرفع أسامة السيف عليه، فقال ذلك الرجل، وهو مرداس بن نهيك: أشهد أن لا إله إلا الله، إلا أن أسامة اعتقد أن هذا الرجل ما نطق بالشهادة إلا خوفاً من القتل وأجهز عليه، وقتله وعند عودة السرية، أخبر رسول الله ﷺ، فأجرى تحقيقاً مع أسامة الذي قال: إن مرداساً لم ينطق بالشهادة إلا خوفاً من القتل، فقال رسول الله ﷺ: «هلا شققت على قلبه؟».

وانطلقت حملة إلى وادي القرى لتأديب القبائل التي عمل عيينة بن حصن





على تجميعها للاغارة على المدينة، وكانت هذه الحملة بإمرة بشير بن سعد، فهزم الأعداء، واستاق الأنعام، وأخذ أسيرين، فأسلما..

عُمْرَةُ القَضَاء

كان العام قد استدار على صلح الحديبية، وأهلَّ شهر ذي القعدة من العام السابع لهجرة المصطفى، فسار رسول الله ﷺ مع ألفي مسلم ليؤدوا العمرة، وقد أخذوا معهم السلاح الكامل، ومائتي فرس بقيادة محمد بن مسلمة احتساباً لكل طارىء، وأحرم رسول الله والمسلمون من باب المسجد حيث ساروا عن

طريق الفرع بعيدين عن ذي الحليفة. فلما وصلوا إلى مرّ الظهران، وصلت أخبارهم إلى قريش فأرسلت رسلها. فقالوا له: يا محمد لِمَ جئت بهذه الأسلحة إلى قومك، تريد أن تغدر بهم، وما عرفنا هذا عنك صغيراً ولا كبيراً؟ فقال لهم: لن أدخل عليهم بها. فعادت الرسل إلى قريش وأخبرتهم بالذي كان. أما قريش فقد شق عليها أن ترى محمداً وصحبه داخل مكة، لذا فقد أخلوها، وصعدوا إلى الجبال المحيطة بها. أما رسول الله ﷺ فقد ترك السلاح والخيل خارج الحرم، وعندها مائتا مسلم يحمونها، وسار مع البقية نحو البيت، فأدوا مناسك العمرة، وصعد بلال على ظهر الكعبة فأذن بذلك النشيد السماوي، فتأثرت قريش تأثراً بليغاً. ثم إن رسول الله، أرسل مائتي مسلم إلى مرّ الظهران ليحموا السلاح والخيل ليتمكن حماتها الأوائل من تأدية العمرة، ففعلوا. وبعد ثلاثة أيام من دخول المسلمين مكة، خرجوا منها حسب بنود صلح الحديبية. وقد كان لعمرة القضاء أثر في نفوس بعض الأفراد لما شاهدوه من نظام ومن قوة.

إسلام خالد بن الوليد

لما كان لبعض الشخصيات أثر في التاريخ من ناحية القدوة أو المعارك التاريخية الحاسمة كان لابد من بحث الأمور التي غيّرت مجرى حياتهم. وخالد بن الوليد من هذه الشخصيات، وقد غيّر دخوله في الإسلام مجرى حياته، ولما كان له دور في قيادة الجيوش الإسلامية كان لا بد من دراسة دخوله في هذا الدين هو وأمثاله. لقد كان خالد أحد فرسان قريش المعروفين بل قائد فرسانها في المعارك التي يشترك فيها بلا منازع وأبوه الوليد ابن المغيرة أحد أثرياء قريش وزعمائها، ومن الذين وقفوا في وجه الدعوة الإسلامية بكل إمكاناتهم، وقد توفي وهو مشرك في مكة قبل غزوة بدر، وبموته برز ابنه خالد كقائد لفرسان قريش، وقد اشترك مع المشركين في

قتال المسلمين يوم أحد، ويوم الأحزاب، وفي الحديبية، ثم اعتنق الإسلام، وقد روى رضي الله عنه قصة إسلامه فقال: لما أراد الله بي ما أراد من الخير قذف في قلبي الإسلام، وحضرني رشدي، فقلت: قد شهدت هذه المواطن كلها على محمد ﷺ، فليس في موطن أشهده إلا أنصرف وأنا أرى في نفسي أني موضع في غير شيء، وأن محمداً سيظهر، فلما خرج رسول الله ﷺ إلى الحديبية خرجت في خيل من المشركين فلقيت رسول الله في أصحابه بعسفان، فقمت بإزائه وتعرضت له فصلى بأصحابه الظهر أمامنا فهممنا أن نغير عليهم ثم لم يعزم لنا ـ وكانت فيه خيرة ـ فاطلع على ما في أنفسنا من الهم به فصلى بأصحابه صلاة العصر صلاة الخوف، فوقع ذلك منا موقعاً، وقلت: الرجل ممنوع فاعتزلنا، وعدل عن سير خيلنا وأخذ ذات اليمين، فلما صالح قريشاً بالحديبية ودافعته قريش بالرواح قلت في نفسي: أي شيء بقي؟ أين أذهب إلى النجاشي! فقد اتبع محمداً، وأصحابه عنده آمنون، فأخرج إلى هرقل فأخرج من ديني إلى نصرانية أو يهودية، فأقيم في عجم، فأقيم في داري بمن بقي فبينا أنا في ذلك إذ دخل رسول الله ﷺ في عمرة القضية فتغيبت ولم أشهد دخوله، وكان أخي الوليد بن الوليد[1] قد دخل مع النبي ﷺ في عمرة القضية، فطلبني فلم يجدني فكتب إليّ كتاباً فإذا فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد، فإني لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام وعقلك عقلك! ومثل الإسلام جهله أحد؟ وقد سألني رسول الله ﷺ عنك وقال: أين خالد؟ فقلت: يأتي الله به، فقال: مثله جهل الإسلام؟ ولو كان جعل نكايته وجده مع المسلمين كان خيراً له، ولقدمناه على غيره، فاستدرك يا أخي ما قد فاتك من مواطن صالحة. قال: فلما جاءني كتابه

---

(1) الوليد بن الوليد: شهد بدراً مع المشركين، وأسر يومذاك، ثم افتداه أخوه هشام، ثم بعد فكاك أسره، وحبس في مكة، ثم خرج هارباً منها، حيث التحق بأبي بصير قائد ثوار العيص، وبعد أن أعيت الحيلة قريشاً، طلبت من رسول الله قبولهم في المدينة، فانتقلوا إليها، وخبث عليه جرح أصابه في الحرة فمات من أثره.

نشطت للخروج وزادني رغبة في الإسلام وسرني سؤال رسول الله ﷺ عني، وأرى في النوم كأني في بلاد ضيقة مجدبة فخرجت في بلاد خضراء واسعة، فقلت: إن هذه لرؤيا، فلما أن قدمت المدينة قلت لأذكرنها لأبي بكر، فقال: مخرجك الذي هداك الله للإسلام، والضيق الذي كنت فيه من الشرك، قال: فلما أجمعت الخروج إلى رسول الله ﷺ، قلت: من أصاحب إلى رسول الله ﷺ؟ فلقيت صفوان بن أمية، فقلت: يا أبا وهب أما ترى ما نحن فيه، إنما نحن كأضراس، وقد ظهر محمد على العرب والعجم فلو قدمنا على محمد واتبعناه فإن شرف محمد لنا شرف، فأبى أشد الإباء فقال: لو لم يبق غيري ما اتبعته أبداً. فافترقنا، وقلت: هذا رجل قتل أخوه وأبوه ببدر، فلقيت عكرمة بن أبي جهل، فقلت له مثل ما قلت لصفوان بن أمية، فقال لي مثل ما قال صفوان بن أمية، قلت: فاكتم علي، قال: لا أذكره. فخرجت إلى منزلي، فأمرت براحلتي، فخرجت بها إلى أن لقيت عثمان بن طلحة، فقلت: إن هذا لي صديق فلو ذكرت له ما أرجو، ثم ذكرت من قتل من آبائه فكرهت أن أذكره، ثم قلت: وما علي وأنا راحل من ساعتي فذكرت له ما صار الأمر إليه، فقلت: إنما نحن بمنزلة ثعلب في جحر، لو صب فيه ذنوب من ماء لخرج، وقلت له نحواً مما قلت لصاحبي فأسرع الإجابة، وقلت له: إني غدوت اليوم، قال: وأنا أريد أن أغدو، وهذه راحلتي بفخ مناخة، قال: فاتعدت أنا وهو (يأجج) إن سبقني أقام وإن سبقته أقمت عليه، قال: فأدلجنا سحراً، فلم يطلع الفجر حتى التقينا في (يأجج)، فغدونا حتى انتهينا إلى (الهدة) فنجد عمرو بن العاص بها، قال: مرحباً بالقوم، فقلنا: وبك، فقال: إلى أين مسيركم؟ فقلنا وما أخرجك؟ فقال: وما أخرجكم؟ قلنا: الدخول في الإسلام واتباع محمد ﷺ، قال: وذاك الذي أقدمني، فاصطحبنا جميعاً حتى دخلنا المدينة فأنخنا بظهر الحرة ركابنا، فأخبر بنا رسول الله ﷺ فسر بنا، فلبست من صالح ثيابي ثم عمدت إلى رسول الله ﷺ، فلقيني أخي فقال: أسرع فإن رسول الله قد أخبر بك فسر بقدومك، وهو ينتظركم،

فأسرعنا المشي فاطّلعت عليه فما زال يتبسم إليّ حتى وقفت عليه، فسلمت عليه بالنبوة، فردّ عليّ السلام بوجه طلق، فقلت: إني أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، فقال: «تعال» ثم قال رسول الله ﷺ: «الحمد لله الذي هداك قد كنت أرى لك عقلاً رجوت أن لا يسلمك إلا إلى خير»، قلت: يا رسول الله، إني قد رأيت ما كنت أشهد من تلك المواطن عليك معانداً للحق، فادعو الله أن يغفر لي، فقال رسول الله ﷺ: «الإسلام يجبّ ما قبله» قلت: يا رسول الله، على ذلك قال: «اللهم اغفر لخالد بن الوليد كل ما أوضع فيه من صدٍ عن سبيل الله»، قال خالد: وتقدم عثمان وعمرو فبايعا رسول الله ﷺ، قال: وكان قدومنا في صفر سنة ثمان، قال: والله ما كان رسول الله ﷺ يعدل بي أحداً من أصحابه فيما حزبه[1].

إسلام عمرو بن العاص

وقال عمرو بن العاص عن إسلامه: كنت للإسلام مجانباً معانداً. حضرت بدراً مع المشركين فنجوت، ثم حضرت أحداً فنجوت، ثم حضرت الخندق فنجوت، قال: فقلت في نفسي: كم أوضع؟ والله ليظهرن محمد على قريش، فلحقت بمالي بالرهط وأقللت من الناس ـ أي من لقائهم ـ فلما حضرت الحديبية وانصرف رسول الله ﷺ في الصلح، ورجعت قريش إلى مكة، جعلت أقول: يدخل محمد قابلاً بأصحابه، ما مكة ولا الطائف بمنزل، ولا شيء خير من الخروج، وأنا بعد ناء عن الإسلام، وأرى لو أسلمت قريش كلّها لم أسلم، فقدمت مكة وجمعت رجالاً من قومي، وكانوا يرون رأيي، ويسمعون مني، ويقدمونني فيما نابهم، فقلت لهم: كيف أنا فيكم؟ قالوا: ذو رأينا ومدرهنا[2] في يمن نفسه وبركة أمره، قال: قلت: تعلمون أني والله

---

(١) البداية والنهاية ٤/٢٣٨ - ٢٤٠ لابن كثير.

(٢) المدره: السيد الشريف والمقدم في اللسان واليد عند الخصومة والقتال.

لأرى أمر محمد أمراً يعلو الأمور علواً منكراً، وإني قد رأيت رأياً، قالوا: وما هو؟ قلت: نلحق بالنجاشي فنكون معه، فإن يظهر محمد كنا عند النجاشي نكون تحت يد النجاشي أحب إلينا من أن نكون تحت يد محمد، وإن تظهر قريش فنحن من قد عرفوا، قالوا: هذا الرأي. قال: قلت: فاجمعوا ما نهديه له ـ وكان أحب ما يهدي إليه من أرضنا الأدم ـ فحملنا أدماً كثيراً، ثم خرجنا حتى قدمنا على النجاشي، فوالله إنا لعنده إذ جاء عمرو بن أمية الضمري، وكان رسول الله ﷺ قد بعثه بكتاب كتبه يزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان، وفي شأن جعفر وأصحابه، ويدعوه فيه إلى الإسلام، فدخل عليه، ثم خرج من عنده، فقلت لأصحابي: هذا عمرو بن أمية، ولو قد دخلت على النجاشي، فسألته إياه، فأعطانيه، فضربت عنقه، فإذا فعلت ذلك سُرّت قريش، وكنت قد أجزأت عنها حين قتلت رسول محمد، فدخلت على النجاشي، فسجدت له كما كنت أصنع، فقال: مرحباً بصديقي، أهديت لي من بلادك شيئاً؟ قال قلت: نعم، أيها الملك، أهديت لك أدماً كثيراً، ثم قدمته، فأعجبه، وفرق منه شيئاً بين بطارقته، وأمر بسائره، فأدخل في موضع، وأمر أن يكتب ويحتفظ به، فلما رأيت طيب نفسه، قلت: أيها الملك، إني قد رأيت رجلاً خرج من عندك، وهو رسول عدوٍّ لنا، قد وترنا، وقتل أشرافنا وخيارنا، فأعطنيه، فأقتله، فغضب من ذلك ورفع يده فضرب بها أنفي ضربة ظننت أنه كسره، فابتدر منخراي، فجعلت أتلقى الدم بثيابي، فأصابني من الذل ما لو انشقت لي الأرض دخلت فيها فرقاً منه، ثم قلت: أيها الملك، لو ظننت أنك تكره ما قلت ما سألتك، قال فاستحيا وقال: يا عمرو تسألني أن أعطيك رسول من يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى والذي كان يأتي عيسى لتقتله؟ قال عمرو: فغيّر الله قلبي عما كنت عليه، وقلت في نفسي عرف هذا الحق العرب والعجم، وتخالف أنت، ثم قلت: أتشهد أيها الملك بهذا؟ قال: نعم أشهد به عند الله يا عمرو، فأطعني واتبعه، فوالله إنه لعلى حق، وليظهرن على من خالفه، كما ظهر

موسى على فرعون وجنوده، قلت: أتبايعني له على الإسلام؟ قال: نعم، فبسط يده فبايعني على الإسلام، ثم دعا بطست فغسل عني الدم، وكساني ثياباً -وكانت ثيابي قد امتلأت بالدم فألقيتها- ثم خرجت على أصحابي، فلما رأوا كسوة النجاشي سرّوا بذلك، وقالوا: هل أدركت من صاحبك ما أردت؟ فقلت لهم: كرهت أن أكلمه من أول مرة، وقلت أعود إليه، فقالوا: الرأي ما رأيت. قال: ففارقتهم وكأني أعمد إلى حاجة، فعمدت إلى موضع السفن، فأجد سفينة قد شحنت تدفع، قال فركبت معهم، ودفعوها حتى انتهوا إلى الشعبة، وخرجت من السفينة ومعي نفقة، فابتعت بعيراً، وخرجت أريد المدينة حتى مررت على مرّ الظهران، ثم مضيت حتى كنت بالهدّة فإذا رجلان قد سبقاني بغير كثير، يريدان منزلاً، وأحدهما داخل في الخيمة، والآخر يمسك الراحلتين، قال: فنظرت فإذا خالد بن الوليد، قال: قلت: أين تريد؟ قال: محمداً، دخل الناس الإسلام، فلم يبق أحد به طعم، والله لو أقمت لأخذ برقابنا كما يؤخذ برقبة الضبع في مغارتها، قلت: وأنا والله أريد محمداً، وأردت الإسلام، فخرج عثمان بن طلحة فرحب بي فنزلنا جميعاً في المنزل، ثم اتفقنا حتى أتينا المدينة، فما أنسى قول رجل لقيناه ببئر أبي عتبة يصيح: يا رباح يا رباح يا رباح، فتفاءلنا بقوله وسررنا، ثم نظر إلينا فأسمعه يقول: قد أعطت مكة المقادة بعد هذين، وظننت أنه يعنيني ويعني خالد بن الوليد، وولى مدبراً إلى المسجد سريعاً، فظننت أنه بشر رسول الله ﷺ بقدومنا، فكان كما ظننت، وأنخنا بالحرة، فلبسنا من صالح ثيابنا، ثم نودي بالعصر، فانطلقنا حتى اطلعنا عليه، وإن لوجهه تهللاً، والمسلمون حوله قد سرّوا بإسلامنا، فتقدم خالد بن الوليد فبايع، ثم تقدم عثمان بن طلحة فبايع، ثم تقدمت فوالله ما هو إلا أن جلست بين يديه فما استطعت أن أرفع طرفي حياء منه. قال: فبايعته على أن يغفر لي ما تقدم من ذنبي، ولم يحضرني ما تأخر، فقال: «إن الإسلام يجبّ ما قبله، والهجرة تجبّ ما كان قبلها»، قال فوالله ما عدل بي رسول الله ﷺ وبخالد بن الوليد أحداً

من أصحابه في أمر حزبه منذ أسلمنا، ولقد كنا عند أبي بكر بتلك المنزلة، ولقد كنت عند عمر بتلك الحالة، وكان عمر على خالد كالعاتب[1].

إسلام خزاعة:

أسلمت قبيلة خزاعة كافة، وكانت قد دخلت في حلف رسول الله ﷺ في صلح الحديبية، ولكن لم تلبث أن اعتنقت الإسلام، بعد الصلح بقليل.

دعوة الملوك والأمراء إلى الإسلام:

وجد رسول الله ﷺ أن الوقت قد أصبح مناسباً لدعوة الحكام، سواء أكانوا داخل الجزيرة أم خارجها، فاليهود قد انتهوا من الساحة، وقريش في هدنة معه، أما الأعراب فلابد من غزو ديارهم باستمرار، لأنهم اعتادوا على شنّ الغارات، فإن لم يغزهم قطعوا الطرق، أو قاموا بشنّ الغارات على من جاورهم، أو على مناطق المدينة بالذات.

وقد كتب الرسائل إلى الحكام وبعثها مع رسل له، فأرسل:

١ ـ دحية بن خليفة الكلبي إلى هرقل ملك الروم.
٢ ـ عبدالله بن حذافة السهمي إلى كسرى ملك الفرس.
٣ ـ عمرو بن أمية الضميري إلى النجاشي ملك الحبشة.
٤ ـ حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس حاكم مصر.
٥ ـ العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين.
٦ ـ سليط بن عمرو إلى هوذه بن علي الحنفي أمير منطقة اليمامة.
٧ ـ شجاع بن وهب الأسدي إلى الحارث بن أبي شمر الغساني أمير الغساسنة في حوران.
٨ ـ المهاجر بن أبي أمية المخزومي إلى الحارث الحميري حاكم اليمن.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير الجزء الرابع.

٩ - عمرو بن العاص السهمي إلى ملكي عُمان جيفر بن جلندي وعبد ابن جلندي.

وقد أسلم ملك البحرين المنذر بن ساوى، وملك الحبشة النجاشي الذي كان عهده بالملك حديثاً، إذ توفي النجاشي الذي سبقه والذي كان قد أسلم على يد جعفر بن أبي طالب، وملكا عمان ابنا جلندي، وحاكم اليمن الحارث الحميري وأخواه.

وخاف على ملكه كل من هرقل ملك الروم والمقوقس حاكم مصر.

أما كسرى ملك الفرس فقد مزق كتاب رسول الله ﷺ، فمزق الله دولته، بينما عامله على اليمن باذان فقد اعترف بنبوة محمد عليه الصلاة والسلام وأسلم.

وأما الحارث بن أبي شمر الغساني ملك حوران فقد هدد بغزو المدينة، بينما أسلم جبلة بن الأيهم وهو أحد أمراء الغساسنة إذ جاءه كتاب خاص من رسول الله ﷺ.

وأما أمير اليمامة هوذة بن علي الحنفي، فقد اشترط أن يجعل له الأمر من بعده.

سرية غالب بن عبدالله:

أرسل رسول الله ﷺ سرية بإمرة غالب بن عبدالله إلى بني الملوح وهم فخذ من بني الليث من كنانة، ومنازلهم على سواحل البحر جنوب منازل بني غفار، وقد أدت هذه السرية غرضها بنجاح على الرغم من أن عددها لا يصل إلى العشرين رجلاً، إذ قتلوا بعض الرجال، وأخذوا الأغنام، ولما جاءت جموع القبيلة، فصل بينهم السيل، ورجعت السرية إلى المدينة آمنة لم يصب أحد منها بأذى.

سرية شجاع بن وهب:

وبعث رسول الله ﷺ شجاع بن وهب على رأس أربعة وعشرين مقاتلاً إلى قبيلة هوازن شرقي الطائف، ففزع المشركون عندما وصلت إليهم أخبار هذه السرية، وظنوا أن عددها كبير، ولم يتوقعوا أن يسير هذا العدد هذه المسافة الطويلة، لذا فقد هرب أفراد قبيلة هوازن، وتركوا بعض النساء سبايا بأيدي أفراد السرية الذين استاقوا الأغنام.

وجاء وفد من هوازن معلنين إسلامهم، وكلموا رسول الله ﷺ في إطلاق سراح السبايا، فكلّم أفراد السرية في ذلك فوافقوا، وأطلق سراح السبايا.

سرية كعب بن عمير:

بعث رسول الله ﷺ أربعة عشر رجلاً للدعوة إلى الإسلام في جهات بلاد الشام الجنوبية، بإمرة كعب بن عمير، فاعتدى عليهم الغساسنة وقتلوا أفراد السرية جميعاً بعد معركة حامية بين الطرفين.

غـزوة مؤتـة

كانت نظرة الروم الذين يسيطرون على بلاد الشام ومصر وسواحل إفريقية الشمالية كلها إضافة إلى بلاد الأناضول وغيرها إلى العرب نظرة ازدراء واحتقار يسمعون بغارات بعضهم على بعض في سبيل السلب والنهب وأخذ شيء من الغنائم من العدو في سبيل الرزق، ويعلمون فقر جزيرتهم وجدبها، وإذا جاءتهم سنوات عجاف انطلقوا إلى أطرافها يغيرون، وكثيراً ما كان الروم يكلون إلى عملائهم الغساسنة ردّ تلك الغارات دون الحاجة إلى شغل أنفسهم بها أو التفكير بأمرها، وعندما انطلقت الدعوة الإسلامية لم تتغير نظرتهم باديء ذي بدء، فلما طرد اليهود من المدينة ووصل بعضهم إلى

بلاد الشام، ثم وصلت كتبهم إلى الملوك والأمراء، فآمن من آمن، وخاف على ملكه من خاف ومنهم هرقل ملكهم بالذات، وعاملهم على مصر، ولولا الخوف على الملك والمصالح لغدت دولتهم تتبع المدينة عاصمة المسلمين، فحقد لذلك المتعصبون من أتباع الكنيسة، وكادت قلوبهم تتميز من الغيظ، فأوغروا صدور عملائهم الغساسنة، وأوعزوا إليهم أن يقضوا على أي أثر يصل إلى جهاتهم من قبل المسلمين، ولهذا فقد قتل الغساسنة دعاة المسلمين الأربعة عشر رجلاً مع كعب بن عمير، وقتل شرحبيل بن عمرو الغساني أحد أمراء الملك الغساني الحارث بن أبي شمّر رسول النبي ﷺ الحارث بن عمير الأزدي عندما التقى به في مؤتة، وسأله عن قصده، فقال: الشام، فقال: لعلك من رسل محمد؟ قال نعم، أنا رسول رسول الله ﷺ، فأمر به فقيد، ثم قتله صبراً. هذا إضافة إلى تهديد الملك الغساني الحارث بن أبي شمر بغزو الجزيرة واحتلال المدينة، لهذا كله أراد رسول الله ﷺ، أن يعطي الروم وعملاءهم الغساسنة معاً صورة حقيقية عن المسلمين بأنهم لم يغزوا للغنائم، ولم يقاتلوا للأسلاب وإنما للدعوة إلى الله، وأن قوتهم إنما هي تختلف عن قوة القبائل البدوية المتنقلة التي في ذهن الروم، وأن قتال العقيدة ليس كقتال الكر والفر، وليس كالقتال من أجل التراب والديار والمنازل والأملاك أو الأعشاب والمياه.

لهذا أرسل رسول الله ﷺ جيشاً قوامه ثلاثة آلاف مقاتل وجعل عليه زيد بن حارثة الذي قاد عدداً من السرايا، وأبدى كثيراً من فنون الشجاعة والحرب، وقال: فإن أصيب فالأمير جعفر بن أبي طالب وكان قد جاء من الحبشة، وإن أصيب فالأمير عبدالله بن رواحة، ثم يختار المسلمون من شاءوا، وكان في هذا الجيش خالد بن الوليد، وهذا أول بعث سار فيه خالد إذ لم يكن قد مضى على إسلامه أكثر من ثلاثة أشهر إذ وصل إلى المدينة مسلماً في غرة صفر من السنة الثامنة للهجرة، وكان هذا البعث في جمادى الأولى من السنة نفسها، وانطلق الجيش الإسلامي، ووصلت أخباره إلى عامل الروم على

بلاد الشام الجنوبية شرحبيل بن عمرو الغساني، فأخبر الروم، وبدأ بجمع المقاتلين من القبائل العربية التابعة للروم، وأرسل أخاه (سدوس) طليعة له مع خمسين مقاتلاً من أجل استطلاع الأخبار عن الجيش الإسلامي، إلا أن سدوس قد وقع بأيدي المسلمين في وادي القرى وقتل، فخاف شرحبيل بعد مقتل أخيه خوفاً شديداً، وطلب النجدة من الروم، وكان هرقل ملكهم آنذاك في بيت المقدس. وجاءت نجدة الروم وكان قوامها مائة ألف مقاتل إذ أيقن أن الأمر جدّ، وما اعتادوا أن يطلب عملاؤهم نجدة منهم لرد غارة عربية إذ أنهم يكفونهم ذلك، بل قد لا يحتاجون إلى حشد الجيوش واستنفار القبائل المؤيدة، أما وإنهم قد طلبوا النجدة المستعجلة مع ما كانوا جمعوه من قبائلهم وأحلافهم وزاد عددهم على المائة ألف مقاتل. وأنجدهم الروم بقوة مثلها بقيادة تيودور أخي هرقل.

جاءت أخبار قوة الروم وعملائهم إلى الجيش الإسلامي، وكان قد وصل إلى معان، فوقف للتشاور، فرأى فريق منهم إعلام المدينة وطلب المدد وانتظار الجواب، ورأى الفريق الثاني ضرورة ملاقاة العدو، فالجهاد لا يتوقف على العدد وحساب العسكريين من غير المسلمين، وأنهم إن انتظروا فقد لا يمهلهم عدوهم فإما العودة وهي ليست بالحساب، وإما ملاقاة الأعداء، وكان عبدالله بن رواحة القائد الثالث على رأس الفريق الثاني وقد قال: «إن الذي تكرهون للذي خرجتم تطلبون، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، والله لقد رأيتنا يوم بدر ما معنا إلا فرسان، ويوم أحد فرس واحد، فانطلقوا بنا فإنما هي إحدى الحسنيين إما ظهور عليهم فذلك الذي وعدنا نبينا، وليس لوعده خلف وإما الشهادة فنلحق بالإخوان نرافقهم في الجنان». وبعد هذه الكلمة اشتدت حماسة المسلمين للقتال، وأصدر قائدهم زيد بن حارثة أمره بالتحرك لملاقاة الأعداء.

كان جيش الروم وعملاؤه يتألف من مائة ألف من الروم بقيادة تيودور

أخي هرقل، ومائة ألف من الغساسنة والعرب المتنصّرة بقيادة مالك بن رافلة البلوي، ومع هذا الجيش العرمرم عشرات الألوف من الخيل تزيد على خمسين ألفاً. أما الجيش الإسلامي فلم يكن ليزيد على ثلاثة آلاف.

وصل الجيش الإسلامي إلى مؤتة فتحصن بها خوفاً من التطويق، أما الروم فقد توقعوا أن يبيدوا الجيش الإسلامي إبادة تامة خلال ساعة أو ساعات قلائل، أو يضطروه إلى الاستسلام، ولكنهم رأوا غير ما توقعوا فقد وجدوا أناساً يندفعون إلى القتال دون مبالاة، وكأنه لا شيء أمامهم، أو كأنهم يحصدون حقولاً من القمح تمايلت سنابلها. وقد استمرت المعركة سبعة أيام، وجد الروم خلال الأيام الستة الأهوال كلها وعانوا الشدائد، وشُدهوا من الشجاعة البالغة لهؤلاء الذين يقاتلونهم، وكلما حاولوا اقتحام مواقع المسلمين باؤوا بالفشل على الرغم من كثرتهم الكبيرة، ورجعوا إلى أماكنهم مخلفين عدداً كبيراً من القتلى في ساحة المعركة، وظل المسلمون في صمود تام. وفي اليوم السادس استشهد زيد بن حارثة بعد أن دخل صفوف الأعداء، وقتل منهم الكثير كعادته في كل يوم من أيام المعركة. وفي هذه المرة تناوشته رماح الأعداء فخرّ صريعاً، ولم يسقط اللواء من يده بل تناوله القائد الثاني جعفر بن أبي طالب والذي كان يقاتل بجانب زيد طيلة أيام المعركة السابقة، فقاتل قتالاً شديداً شُدِهَ له الروم، فكان يدفع جحافل الأعداء أمامه وتسير كتائب المسلمين خلفه، ثم أقحم فرسه وسط جموع الخصوم ولكثرة الزحام وشدة الالتحام عجزت فرسه على قوتها عن الحركة، فألقى نفسه عنها، وعقرها، وقاتل مترجلاً قتالاً لم يكد يسبقه أحد إليه، وأحاط الروم به من كل جهة، وهو يشتت شملهم حيث اتجه حتى أنهك، وقطعت يده اليمنى التي تحمل الراية فأخذها باليسرى فقطعت، فاحتضنها بعضده خوفاً من أن تقع لأن وقوع الراية دليل هزيمة الجيش، وبوقوعها تنهار معنويات المقاتلين، ثم أثخنته الجراح فوقع شهيداً، وبه أكثر من تسعين ضربة، منها ضربة رمح قد أنفذته، وضربة سيف شطرته، ثم تناول الراية عبدالله بن رواحة فاستبسل في القتال

حتى لقي مصرعه كسابقيه، وسقط لواء المسلمين في الأرض، فضعفت المعنويات، وبدأ بعض المسلمين بالتراجع، إلا أن قطبة بن عامر الأنصاري قد رفع اللواء، وأخذه منه ثابت بن أقرم، وبدأ يصيح في الناس، فثابوا إلى رشدهم، وطلب من المسلمين أن يحملوا على اختيار قائد لهم يرفع لهم اللواء، فاختاروه فأبى، ولكنه أخذه فسلمه إلى خالد بن الوليد، فوافق وجوه الجيش، وكان اليوم السادس قد انتهى، وأرخى الظلام سدوله، ومنع الليل بعض الفريقين من بعض، وأثناء الليل نظم خالد الجيش من جديد وفكر في إنقاذ الموقف، فاختار كتائب من الفرسان، وطلب منها المرابطة خارج مؤتة، فإذا أصبح الصباح والتحم الناس، جاء بعضها إثر بعض مرتفعة أصواتها بالتكبير، وعدو الخيل يثير النقع، ثم تشترك في المعركة، كما أبدل مواقع فرق الجيش، إذ جعل الميمنة مكان الميسرة والساقة بدل المقدمة... ومع انبلاج الفجر عاد القتال، وشن خالد هجوماً معاكساً زلزل فيه الروم، فوجد المقاتلة الروم أمامهم غير الذين عرفوهم فظنوا أن مدداً قد جاء للمسلمين فخافوا مغبة الأمر، ثم تتالت كتائب فرسان المسلمين تصل إلى المعركة وكأنها فرق جديدة وكبيرة حسبما يظهر من الغبار المرتفع والأصوات المتعالية، وزاد خوف الروم، وأيقنوا أن المدد قد وصل، واعتقدوا أنهم لا قبل لهم بقوات إضافية كبيرة، وقد أنهكتهم قوة صغيرة فكيف لهم بجموع كثيرة لم تعرف التعب بعد.

وصبر المسلمون يومهم السابع ببسالة، ولكن بشيء كثير من التعب، وعندما جاء المساء وفصل الظلام بين الجيشين انسحب خالد بالجيش على شكل كتائب يحمي بعضها أثناء التراجع بعضها الآخر خوفاً من ملاحقة الروم ومطاردتهم، وعندهم الإمكانات الضخمة، فعندهم من سلاح المطاردة خمسون ألفاً من الفرسان، إلا أن الروم أيقنوا أن هذا الانسحاب إنما هو مكيدة حربية بعد أن جاءتهم القوات الجديدة، وأنهم ينصبون الكمائن ليوقعوا الروم فيها، فأحجموا عن المطاردة، ونجا الجيش الإسلامي الصغير بهذه الخطة.

وعلم رسول الله ﷺ بما حدث، وتأثر التأثر البليغ، وأخبر المسلمين، وعندما عاد الجيش ظنّ بعض الناس أن الجنود قد فروا من المعركة، فقذفوهم بوابل من الكلمات حتى برأهم رسول الله ﷺ مما ألصق بهم وأثنى عليهم وعلى قتالهم.

معركة ذات السلاسل:

يبدو أن الروم بعد معركة مؤتة شعروا بقلة المسلمين الذين لم يستطيعوا جمع أكثر من ثلاثة آلاف مقاتل يرسلونهم إلى منطقة بزيد بعدها على الألف كيلومتر وإلى دولة واسعة مترامية الأطراف تستطيع زجّ مئات الألوف، ولهذا فقد أوكلوا مرة ثانية إلى عملائهم من العرب المتنصّرة غزو قاعدة المسلمين وحاضرتهم المدينة المنورة، وخاصة قبيلة قضاعة وبطونها المتعددة الذين اشتركوا في معركة مؤتة، وكانوا قوامها، ودفعوا إليها مائة ألف مقاتل وقد لقي قائدهم مالك بن زافلة مصرعه في تلك المعركة. وبعد هذه الأوامر من الروم إلى عملائهم من العرب المتنصّرة فقد بدأت قبيلة قضاعة تحشد جموعها، وتستنفر بطونها المتعددة، وهي على خوف من القتال مع المسلمين لما لقيت في مؤتة، ولكن لا بد من تنفيذ أوامر ساداتها.

وصلت الأخبار إلى رسول الله ﷺ بجموع قضاعة، فأراد أن يفاجئها قبل استكمال عدتها، كما أراد أن يبعث إليها بقوة قليلة تدلّ على قيمة قضاعة في نظر المسلمين، وأن الثلاثة آلاف مقاتل الذين كانوا في مؤتة كان هدفهم الروم وليس قضاعة وغيرها من تلك القبائل الضاربة في تلك الجهات.

أرسل رسول الله ﷺ قوة مؤلفة من ثلاثمائة رجل بإمرة عمرو بن العاص، ومعهم ثلاثون فارساً، وعمرو بن العاص لم يمض على إسلامه أكثر من أربعة أشهر، ويكون قتاله هذا أول قتال إسلامي يشترك فيه، ويكون هذا البعث على قلّته من أفضل البعوث إذ يضم كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار السابقين في الإسلام، وفي هذا البعث تربية للمسلمين على الطاعة

والسمع للقائد ـ أياً كان ـ ما دام يجيد الفن الذي يعمل فيه، وعمرو بن العاص من المقاتلين من الدرجة الأولى. تحرك الجيش الإسلامي في جمادى الآخرة من المدينة، وسار حتى دخل في أرض العدو، ونزل على ماء يسمى ذات السلاسل، وجاءت المعلومات إلى عمرو بن العاص، أن قوة العدو كبيرة لا يستطيع ملاقاتها بمن معه، لذا طلب المدد من المدينة على جناح السرعة، وخرج من أرض العدو خشية الصدام قبل وصول المدد، كما منع إشعال النار وخاصة في الليل على الرغم من البرد الشديد في تلك الأيام وتلك الجهات زيادة في كتم الأخبار.

وصل المدد بإمرة أبي عبيدة بن الجراح ويضم مائتي مقاتل، وبقي عمرو بن العاص هو القائد الأعلى للجيش على الرغم من طلب بعضهم أن يكون أبو عبيدة هو القائد، ولكن أبا عبيدة رضي الله عنه لم ير الخلاف على القيادة في الظروف القائمة، ولا بأية حال، ولا بأية ظرف:

التحم الخصمان، ولكن قضاعة عجزت عن مواجهة المسلمين، فلم تصمد إلا قليلاً، ثم ولّت الادبار على الرغم من كثرتهم ومدّ الروم لهم بالسلاح والمال، وقد طاردهم المسلمون، ثم منع القائد المطاردة خوفاً من الكمائن.

رجع الجيش الإسلامي إلى المدينة ولم يصب أحد أفراده بأذى، وكان قد سبقه عوف بن مالك الأشجعي[1] ليخبر رسول الله ﷺ بما تم، فسُرّ رسول الله ﷺ سروراً كبيراً، وأقر تصرفات القائد وأثنى على أبي عبيدة.

---

(١) عوف بن مالك الأشجعي، أسلم في السنة السادسة، وشهد فتح مكة مع المسلمين، وكانت معه راية أشجع، وآخى رسول الله ﷺ بينه وبين أبي الدرداء، شهد فتوح الشام، وتوفي عام ٧٣ هـ.

دخلت خزاعة إثر صلح الحديبية في حلف رسول الله ﷺ، ودخلت بنو بكر في حلف قريش، ثم لم تلبث خزاعة أن اعتنقت الإسلام، وكان بين الحيين في الجاهلية ثارات، وبعد صلح الحديبية أثيرت حوادث الجاهلية، فهجمت بنو بكر على خزاعة، وهي على ماء لها يدعى «الوتير»، وقتلوا منها رجلاً، واشتبك الحيان، وأمدت قريش حليفتها بني بكر بالمال والسلاح، وعاونتهم بالرجال أثناء قتال الليل استخفاء، حتى اضطرت خزاعة إلى دخول الحرم، ولكن ذلك لم يمنعها من أعدائها الذين انتهكوا الحرم، فلجأت خزاعة إلى دار بديل بن ورقاء الخزاعي، وما كان من خزاعة إلا أن استنجدت بإخوانها المسلمين الذين يشكلون معها أمة واحدة.

خرج عمرو بن سالم الخزاعي حتى قدم على رسول الله ﷺ بالمدينة، وأخبره بما أصاب خزاعة، فقال له: نصرت يا عمرو بن سالم.

وخرج أيضاً بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه، وقدموا المدينة، وأخبروا رسول الله ﷺ بما أصيب منهم، وبمناصرة قريش لبني بكر.

وأرسلت قريش أبا سفيان إلى المدينة ليؤكد الصلح ويزيد في مدته، والتقى أبو سفيان وهو في طريقه إلى المدينة مع بديل بن ورقاء عائداً منها وذلك في عسفان، فلما وصل أبو سفيان إلى المدينة دخل على ابنته أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان زوج رسول الله ﷺ، فلما أراد أن يجلس على فراش رسول الله، طوته عنه، فقال: يا بنية، ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني؟ قالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ، وأنت رجل مشرك نجس، وما أحب أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ، قال: والله لقد أصابك يا بنية بعدي شر. ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ فكلمه، فلم يرد عليه شيئاً، ثم ذهب إلى أبي بكر، فكلمه ليكلم له رسول الله ﷺ، فقال: ما أنا بفاعل، ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه، فقال: أأنا أشفع لكم إلى

رسول الله ﷺ؟ فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به. ثم خرج فدخل على علي بن أبي طالب، وعنده زوجه فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وعندها ابنها الحسن بن علي بين يديها، فقال: يا علي، إنك أمسّ القوم بي رحماً، وإني قد جئت في حاجة، فلا أرجعن كما جئت خائباً، فاشفع لي إلى رسول الله، فقال: ويحكم يا أبا سفيان! والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه. فالتفت إلى فاطمة فقال: يا ابنة محمد، هل لك أن تأمري بنيك هذا فيجير بين الناس، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟ قالت: والله ما بلغ بني أن يجير بين الناس، وما يجير أحد على رسول الله ﷺ. قال: يا أبا الحسن، إني أرى الأمور قد اشتدت عليّ، فانصحني، قال: والله ما أعلم لك شيئاً يغني عنك شيئاً، ولكنك سيد بني كنانة، فأقم فأجر بين الناس، ثم الحق بأرضك. قال: أو ترى ذلك مغنياً عني شيئاً؟ قال لا والله، ما أظنه، ولكني لا أجد لك غير ذلك. فقام أبو سفيان في المسجد، فقال: أيها الناس، إني قد أجرت بين الناس. ثم ركب بعيره فانطلق. فلما قدم على قريش، قالوا ما وراءك؟ قال جئت محمداً فكلمته، فوالله ما رد علي شيئاً، ثم جئت ابن أبي قحافة، فلم أجد فيه خيراً، ثم جئت ابن الخطاب فوجدته أعدى العدو، ثم جئت علياً فوجدته ألين القوم، وقد أشار علي بشيء صنعته، فوالله ما أدري هل يغني ذلك شيئاً أم لا؟ قالوا: وبم أمرك؟ قال: أمرني أن أجير بين الناس، ففعلت، قالوا: فهل أجاز ذلك محمد؟ قال: لا، قالوا: ويلك! والله إن زاد الرجل على أن لعب بك، فما يغني عنك ما قلت. قال: لا والله، ما وجدت غير ذلك.

أخبر رسول الله ﷺ المسلمين بما عزم عليه من السير إلى مكة، وأمر بالتهيؤ لذلك، وقال: اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها.

وخاف حاطب بن أبي بلتعة على أهله في مكة، فأراد أن يصانعهم فأرسل إليهم كتاباً يعلمهم بمسير رسول الله ﷺ إليهم، بعثه مع امرأة مقابل شيء

يؤديه لها، فجعلت الكتاب في شعرها، وضفرت عليه ضفائرها، وانطلقت به، وأخبر رسول الله ﷺ بذلك من السماء، فبعث في إثر المرأة علي بن أبي طالب والزبير بن العوام، فأدركاها بذي الحليفة، فسألاها فأنكرت، ففتشا رحلها فلم يجدا شيئاً، فهدداها وأعلماها أن رسول الله ﷺ لم يُكذَّب، فأخرجت الكتاب من ضفائرها، فجاءا به إلى رسول الله ﷺ الذي سأل حاطباً عن سبب فعله هذا، فقال: يا رسول الله، أما والله إني لمؤمن بالله ورسوله، ما غيّرت ولا بدّلت، ولكني كنت امرأ ليس لي في القوم من أهل ولا عشيرة، وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل، فصانعتهم عليهم. فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله: دعني فلأضرب عنقه، فإن الرجل قد نافق، فقال رسول الله ﷺ: وما يدريك يا عمر، لعل الله قد اطلع على أصحاب بدر يوم بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم.

خرج رسول الله ﷺ من المدينة لعشر خلون من رمضان في السنة الثامنة للهجرة صائماً والمسلمون، حتى إذا كان بالكديد أفطروا. وخرج العباس مع أهله من مكة مهاجراً مسلماً، والتقى برسول الله ﷺ بالجحفة بالقرب من رابغ، فتابع عيال العباس إلى المدينة وصحب العباس المسلمين في طريقهم إلى مكة.

والتقى رسول الله ﷺ في الطريق بين مكة والمدينة بابن عمه أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وابن عمته عاتكة عبدالله بن أمية المخزومي أخي أم المؤمنين أم سلمة، فأسلما أيضاً.

ووصل رسول الله ﷺ إلى مرّ الظهران (وادي فاطمة) فنزل هناك، فجاءه أبو سفيان بن حرب، وحكيم بن حزام، وبديل بن ورقاء يستطلعون الأخبار، فالتقى بهم العباس بن عبد المطلب، فأخذ أبا سفيان ليستأمن رسول الله ﷺ له، ورجع صاحباه وكان العباس يرغب ألا يدخل رسول الله ﷺ مكة عنوة فتهلك قريش إلى آخر الدهر، ولكنه يريد أن يأتوه

فيستأمنوه فيدخل مكة دون قتال. واستأمن العباس رسول الله ﷺ في أبي سفيان فأمنه، وأسلم أبو سفيان. فقال العباس: أسرع إلى قومك يا أبا سفيان.

رجع أبو سفيان إلى مكة، فلما وصل إليها صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش، هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل داره وأغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، فتفرق الناس، ودخلوا دورهم والمسجد. وبهذا فقد استأمن قومه، ودخل رسول الله ﷺ مكة دون قتال، واتجه إلى ذي طوى، واضعاً رأسه تواضعاً لله سبحانه وتعالى على ما أكرمه به من الفتح، حتى إن لحيته لتكاد تمس واسطة الرحل.

وفي ذي طوى قسم رسول الله ﷺ الجند فسار الزبير بن العوام بقسم من الجيش، وكان على الميسرة، ودخل مكة من كدى، وانطلق سعد بن عبادة بقسم آخر، ودخل مكة من كداء. ثم أخذ الراية منه علي بن أبي طالب، ودخل خالد البلد الحرام من أسفله، وكان على الميمنة، وسار أبو عبيدة بن الجراح بين يدي رسول الله من «أذاخر» حتى نزل أعلى مكة، وضربت له هناك قبته. ولم يلق المسلمون أية مقاومة أثناء دخولهم مكة سوى ما كان من بعض الرجال الذين تعرضوا لخالد بن الوليد في «الخندمة»، وعليهم عكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو وغيرهم، وكانت بين الطرفين مناوشات فرّ المشركون على أثرها.

وكان رسول الله ﷺ قد أمر المسلمين ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم إلا أشخاصاً سمّى لهم منهم: عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وعكرمة بن أبي جهل، وعبدالله بن خطل، والحويرث بن نقيذ، ومقيس بن حبابة، وكعب بن زهير، والحارث بن هشام، وزهير بن أبي أمية، وقينتان، وصفوان بن أمية، وهبيرة بن أبي وهب المخزومي، وهبار بن الاسود، ووحشي قاتل حمزة، وهند بنت عتبة زوج أبي سفيان.

أما عبد الله بن سعد بن أبي سرح، فكان قد أسلم، وكتب لرسول الله الوحي، ثم ارتد وافترى الكذب، وفرّ إلى قريش. فعندما دخل رسول الله ﷺ مكة أمر بقتله، فهرب إلى عثمان بن عفان، وكان أخاه في الرضاعة. فغيبه قليلاً. ثم استأمن له رسول الله ﷺ فأمنه، فأسلم وحسن إسلامه. وولاه عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان، وكان من الولاة المعروفين والقادة المشهورين في قتال الروم.

وأما عكرمة بن أبي جهل فقد فرّ إلى اليمن عندما دخل رسول الله ﷺ إلى مكة، وأسلمت زوجه أم حكيم بنت الحارث بن هشام، فاستأمنت له عند رسول الله، وخرجت في طلبه إلى اليمن، فجاءت به إلى رسول الله ﷺ، فأسلم، وحسن إسلامه، وكان من الأبطال في فتح الشام.

وأما عبدالله بن خطل فقد كان مسلماً، فقتل رجلاً مسلماً، وفرّ إلى قريش مرتداً، فعندما دخل المسلمون قتلوه بأمر رسول الله.

وأما الحويرث بن نقيذ فقد كان يؤذي رسول الله بمكة، وآذى أهله بعد هجرته إلى المدينة، ولذا كان مصيره القتل عند فتح مكة.

وأما مقيس بن حبابة فقد كان مسلماً فقتل رجلاً أنصارياً، وهرب مرتداً، وقد قتل، وإن حكم المرتد هو القتل.

وأما كعب بن زهير بن أبي سلمى فقد كان شاعراً يهجو رسول الله ﷺ، ثم إنه عاد معتذراً إليه بعد أن فرّ وجاء إلى المدينة، وأنشده قصيدته الطويلة التي مطلعها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول ... متيم إثرها لم يفد مكبول[1]

وأما الحارث بن هشام وزهير بن أبي أمية المخزوميان فقد التجأ إلى أم هانىء بنت أبي طالب، وكانت عند هبيرة بن أبي وهب المخزومي فأمنتهما،

(١) بانت: فارقت وبعدت. متبول: أسقمه الحب وأضناه. متيم: ذليل مستعبد. مكبول: مقيد.

ثم أسلما بعد أن عفا عنهما رسول الله ﷺ، وكان الثاني منهما، وهو زهير ابن عمة رسول الله عاتكة.

وأما القينتان فكانتا لعبد الله بن خطل وكانتا تغنيان له بهجاء رسول الله فأمر بقتلهما معه.

وأما صفوان بن أمية فقد هرب إلى جدة يريد أن يركب البحر منها إلى اليمن، فأخذ له الأمان من رسول الله عمير بن وهب، ولحق به إلى جدة فعاد به، وأسلم صفوان، وكانت عنده فاختة بنت الوليد أخت خالد بن الوليد، وقد أخذت له الأمان أيضاً من رسول الله ﷺ بعد أن أسلمت.

أما هبيرة بن أبي وهب المخزومي ـ وكان زوج أم هانىء بنت أبي طالب ـ فقد فرّ وبقي كافراً حتى مات وقد تأثر من إسلام زوجه أم هانىء.

وأما هبّار بن الأسود فقد جاء إلى رسول الله وهو في الجعرانة فأسلم، وكذا أسلم وحشي وهند بنت عتبة يوم الفتح.

وبعد أن هدأت أوضاع الناس في مكة طاف رسول الله ﷺ حول الكعبة، ثم دعا عثمان بن طلحة ففتح له باب الكعبة فدخل إليها فأزال ما بها من صور، وحطم ما فيها من أصنام، ثم أعاد المفتاح إلى عثمان بن طلحة وأبقى السدانة معه. ثم وقف رسول الله ﷺ على باب الكعبة وقال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدّعى فهو تحت قدميّ هاتين، إلا سدانة البيت وسقاية الحاج، ألا وقتيل الخطأ شبه العمد بالسوط والعصا، ففيه الدية مغلظة، مائة من الابل، أربعون منها في بطونها أولادها. يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية، وتعظمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم من تراب، ثم تلا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ . . . ثم قال: يا معشر قريش،

ما ترون أني فاعل فيكم؟ قالوا خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم، قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء».

وجلس رسول الله ﷺ في المسجد فبايعه الرجال، ولما تمت بيعة الرجال بايعته النساء على ألا يشركن بالله شيئاً، ولا يسرقن، ولا يزنين، ولا يقتلن أولادهن، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن، ولا يعصين الرسول في معروف. ثم أمر رسول الله ﷺ بأن يؤذن على ظهر الكعبة.

وأقام عليه الصلاة والسلام بمكة بعد فتحها تسعة عشر يوماً يقصر فيها الصلاة، وولى عليها عتاب بن أسيد وفي اليوم الخامس من إقامته بمكة أرسل عليه الصلاة والسلام خالد بن الوليد على رأس ثلاثين فارساً لهدم هيكل العزى وهي أكبر صنم لقريش، ومكانها ببطن نخلة.

وأرسل عمرو بن العاص لهدم سواع، وهو أعظم صنم لهذيل، ومكانه على بعد ثلاثة أميال من مكة. كما بعث سعد بن زيد الأشهلي على رأس عشرين فارساً لهدم مناة وهي صنم لكلب وخزاعة، ومكانها على جبل يعرف باسم «السلل» على ساحل البحر الأحمر شمالي مدينة جدة بـ ١٧٠ كيلا.

كما أرسل رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جذيمة في تهامة داعياً، ولم يرسله مقاتلاً، ولكنه قتل من القوم، ولما علم رسول الله بعث إليه علي بن أبي طالب ليوقف القتل ففعل.

غـزوة حنين

بعد فتح مكة وإقبال الناس على الإسلام أخذت قبيلة هوازن وقبيلة ثقيف العزة بالإثم، وقالوا فلنغزهم قبل أن يغزونا، وأجمع أشراف القبيلتين على ذلك، وجعلوا أمرهم لمالك بن عوف النصري، وانضمت إليهم قبائل كثيرة منهم بنو سعد بن بكر قبيلة حليمة السعدية التي أرضعت رسول الله ﷺ، وانطلقوا وقد أخذوا معهم نساءهم وذراريهم وأموالهم ليعينهم ذلك

على الثبات والمقاومة حسب رأيهم.

وعلم رسول الله ﷺ بما تفعل هوازن وثقيف فرأى أن يسير إليهم قبل أن يداهموه في مكة ويستبيحوا حرمتها، فإن رجالاً ربما لم يدخل الايمان في قلوبهم بعد، فينقلبوا عليه أو لا يرون القتال حيث يجب. فسار إليهم ومعه اثنا عشر ألفاً، منهم ألفان من أهل مكة، والباقون ممن خرجوا معه من المدينة لفتح مكة، وأعجب المسلمون يومئذ بكثرتهم فلم تغن عنهم شيئاً، إذ أن القوة ليست بالكثرة كما أنها ليست بالسلاح وحده وإنما بالروح المعنوية لدى الجند، وبالايمان بالمبدأ الذي يقاتلون في سبيله ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [1]. وأثناء سير المسلمين إلى عدوهم خرج لمقدمتهم كمين كان قد كمن لهم في مضيق الوادي وعلى جنباته ففاجؤوهم قبل أن ينبلج الفجر وقابلوا خيلهم بوابل من النبل فتقهقرت الخيل وولّت الأدبار، فوجىء المسلمون بذلك فأصابهم ذعر شديد، فتفرقوا من غير نظام، وثبت رسول الله ﷺ وحوله جماعة من أصحابه وأهل بيته منهم: أبو بكر، وعمر، وعلي، والعباس، والفضل بن العباس، والمغيرة (أبو سفيان) بن الحارث بن عبد المطلب، وربيعة بن الحارث، وجعفر بن المغيرة بن الحارث، ومتعب بن أبي لهب، وأسامة بن زيد، وأيمن بن عبيد، وعدد من المهاجرين والأنصار. أما حديثو العهد بالإسلام من قريش فقد قالوا: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر، وأسرّها بعضهم وأعلنها بعضهم الآخر. وصمد رسول الله بمن معه للأعداء

---

(١) التوبة: ٢٥ - ٢٦

وهو يقول:

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

ثم أمر عمه العباس - وكان جهوري الصوت - أن ينادي بالمسلمين فصار يصرخ بأعلى صوته يا معشر الانصار يا أصحاب بيعة الرضوان، فأقبل الناس نحوه وثابوا إلى رشدهم. وعادوا إلى رسولهم، فاجتمع حوله عدد كبير، وأنزل الله سكينته عليهم وأنزل جنوداً لم يروها شدّت من عزيمتهم، وكرّ المسلمون على أعدائهم ففرّت هوازن وثقيف من أمامهم، ولم يلتفت أفرادهم إلى النساء والذراري الذين أخذوهم معهم لذلك، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون وقد جمعوا الانعام وأخذوا النساء والذراري.

وشعر الذين كانوا حديثي عهد بالإسلام من قريش بتأييد الله ورعايته للمسلمين، وتغيّرت فكرتهم، فدخل الايمان في قلوبهم، وحسن إسلامهم، على حين ساروا في البداية مع الجيش من أجل الغنائم، وكانوا سبب الهزيمة من قبل إذ لم يكونوا مؤمنين، ونصر المسلمين وهزيمتهم عندهم سواء، فكانوا في الجيش عدداً بلا فائدة بل سبباً في الفرار حيث لا يجدون داعياً للثبات، وعلى هذا ليس من الفائدة بل لا يصحّ أن يدخل في عداد الجيش أفراد لا يؤمنون بالاسلام ولا يدينون به، ولذا فإن أهل الكتاب لا يقاتلون في صفوف المسلمين، ولا يمتهنون الجندية وإنما يدفعون الجزية مقابل حمايتهم.

وجمع رسول الله ﷺ الغنائم في الجعرانة، وكانت ما يقرب من أربعة وعشرين ألف بعير، وأربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أوقية من الفضة. وتفرق المشركون فذهب قسم منهم إلى الطائف وفيهم مالك بن عوف النصري سيد القوم، وتجمّع قسم في نخلة، وعسكر قسم في وادٍ يعرف باسم «أوطاس».

أرسل رسول الله ﷺ أبا عامر الأشعري في سرية لقتال أولئك الذين

تجمعوا في « أوطاس » من المشركين فقاتلهم وشتت شملهم، واستشهد هو أثناء القتال نتيجة سهم أصابه، فتولى أمر السرية بعده ابن أخيه أبو موسى الأشعري.

غزوة الطائف

سار رسول الله ﷺ بمن معه من المسلمين إلى الطائف فتحصنت فيها ثقيف ومن معها من هوازن، وجمعوا في الحصون ما يكفيهم من الاقوات، ومن داخل الحصون أمطروا المسلمين بوابل من النبال فأصيب عبد الله بن أبي بكر، وفقئت عين أبي سفيان بن حرب، واستشهد سعيد بن سعيد بن العاص بن أمية، وعبد الله بن أبي أمية ابن عمة رسول الله ﷺ، واستمر الحصار ثمانية عشر يوماً، وضرب المسلمون الحصون بالمنجنيق، وحاولوا اقتحامها في دبابتين ففشلوا، واضطروا إلى فك الحصار، ودعا رسول الله ﷺ لثقيف فقال: اللهم اهد ثقيفاً، وأت بهم مسلمين.

ورجع رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين إلى الجعرانة حيث جمعت الغنائم والسبايا، فجاءه وفد من هوازن يطلب منه أن يمنّ عليهم باعتاق سبايا هوازن ففعل، وأرسل إلى مالك بن عوف النصري، وكان قد بقي مع ثقيف في الطائف بأنه إن جاء منّ عليه باعتاق أهله وإعطائه ماله، وفوقها مائة من الابل فجاء وأسلم. ثم وزع الغنائم بعد أن رفع خمسها فأعطى المؤلفة قلوبهم، والذين يطمع في إسلامهم فأعطى أبا سفيان بن حرب وابنيه معاوية ويزيد، وحكيم بن حزام، والاقرع بن حابس، والعباس بن مرداس، وعيينة بن حصن، وسهيل بن عمرو، وصفوان بن أمية، والحارث وغيرهم كثير.

وجد بعض الأنصار في أنفسهم شيئاً عندما أعطى رسول الله ﷺ تلك العطايا لقريش وقبائل العرب ولم يكن للأنصار منها شيء، ثم كلم سعد بن عبادة رسول الله ﷺ في هذا الامر، فطلب منه أن يجمعهم له. ففعل، فأتاهم رسول الله ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: يا معشر

الأنصار ما قالة بلغتني عنكم، وجدة وجدتموها عليّ في أنفسكم؟ ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألّف الله بين قلوبكم! قالوا بلى، الله ورسوله أمنّ وأفضل، ثم قال: ألا تجيبوني يا معشر الانصار؟ قالوا بم نجيبك يا رسول الله؟ لله ولرسوله المن والفضل. قال ﷺ: أما والله لو شئتم لقلتم، فلصدقتم ولصدّقتم: أتيتنا مكذَّباً فصدقناك، ومخذولا فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلا فآسيناك، أوجدتم يا معشر الانصار في أنفسكم لعاعة[1] من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم، ألا ترضون يا معشر الانصار، أن يذهب الناس بالشاه والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرأ من الانصار، ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً، لسلكت شعب الأنصار. اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار.

ومن الجعرانة دخل رسول الله ﷺ مكة معتمراً، ثم رجع إلى المدينة فوصل إليها لثلاث بقين من ذي القعدة من السنة الثامنة للهجرة، واستخلف عتاب بن أسيد على مكة، وخلّف معه معاذ بن جبل، يفقه الناس في الدين، ويعلمهم القرآن.

وفي المدينة جاء وفد قبيلة «صداء» إلى رسول الله ﷺ فأسلموا. وأرسل رسول الله ﷺ عيينة بن حصن في خمسين فارساً من الاعراب لقتال بني تميم الذين حالوا دون (بشر بن سفيان العدوي) رسول الرسول إلى بني كعب بن خزاعة لأخذ صدقاتهم، فقاتل عيينة بني تميم وأسر منهم أحد عشر رجلاً وعشرين امرأة وثلاثين صبياً فجاء في أثرهم إلى المدينة وفد بني تميم المؤلف من عطارد بن حاجب، والزبرقان بن بدر، وعمرو بن الأهتم، وأنزلت فيهم سورة الحجرات ثم أسلموا، وبقوا مدة في المدينة ليتفقهوا في الدين.

كما أرسل رسول الله الوليد بن عقبة بن أبي معيط لأخذ صدقات بني

---

(١) اللعاعة: بقلة خضراء ناعمة، شبه بها زهرة الدنيا ونعيمها.

المصطلق، فجاءوا لاستقباله فظنّ أنهم جاءوا مقاتلين فرجع خائفاً وأخبر رسول الله خبرهم فبعث إليهم خالد بن الوليد فوجدهم على إسلامهم.

وعلم رسول الله ﷺ أن الأحباش جاءوا في مراكب لهم للهجوم على جدة فأرسل إليهم علقمة بن مجزز في ثلاثمائة رجل، ففرّ الأحباش وعاد علقمة، وأثناء الطريق أمر بعض القوم أن يسرعوا وولى عليهم عبد الله بن حذافة السهمي، وكان رجلاً ذا دعابة، فأوقد لجماعته ناراً وقال لهم: ألستم مأمورين بطاعتي؟ قالوا: نعم. قال: عزمت عليكم إلا ما تواثبتم في هذه النار، فقال بعضهم: ما أسلمنا إلا فراراً من النار! وهمّ بعضهم بذلك إطاعة للامير فمنعهم عبد الله، وقال لهم: ما كنت إلا مازحاً! فلما ذكروا ذلك لرسول الله ﷺ قال: لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

وفي ربيع الأول من العام التاسع للهجرة أرسل رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب في خمسين فارساً لهدم صنم لطيء يدعى « الفلس »، فسار إلى هناك فهدم الصنم وأحرقه، وحارب الذين يعبدونه، وانتصر عليهم، وأخذ الابل والأغنام غنيمة للمسلمين، كما أخذ السبايا، وكان بينهن سفّانة بنت حاتم الطائي، ولما عاد علي بن أبي طالب بغنائمه إلى المدينة طلبت سفانة من رسول الله أن يمنّ عليها، فأجابها، فدعت له، وكان مما قالته له: شكرتك يد افتقرت بعد غنى، ولا ملكتك يد استغنت بعد فقر، وأصاب الله بمعروفك مواضعه، ولا جعل لك إلى لئيم حاجة، ولا سلب كريم نعمة إلا وجعلك سبباً لردها عليه. وكانت معاملة رسول الله ﷺ هذه لسفانة بنت حاتم سبباً في إسلام أخيها عدي بن حاتم الذي كان قد اختفى عندما رأى المسلمين يقصدون بلاده. وعندما رجعت جاءها أخوها فسألها عن رأيها في رسول الله ﷺ فقالت: أرى أن تلحق به سريعاً فإن يكن نبياً فللسابق إليه فضل، وإن يكن ملكاً فأنت. ثم جاء عدي إلى المدينة فالتقى برسول الله ﷺ، فسأله عن اسمه، فقال: عدي بن حاتم، فأخذه إلى بيته وأكرمه، فأسلم، وكان نصرانياً من قبل.

يبدو أن السرايا التي كان يبعثها رسول الله ﷺ إلى الجهات المختلفة، لم تكن لتستوعب المسلمين كلهم، وإن الأمة المسلمة أمة مجاهدة لا يمكن أن تتوقف عن الغزو والجهاد أبداً حتى ينتهي الظلم من سطح الأرض كلها، لذا كان لا بد من الإعداد لغزوة تضم المسلمين جميعاً لكي يبقى كل مسلم على استعداد دائم للحركة والانتقال من ساحة إلى ساحة، ولكيلا تميل النفوس إلى الفتور، وترغب في الاستقرار والرخاء، وكانت غزوة تبوك في وقت كان الناس فيه في عسرة من جدب الأرض، وقلة النتاج، ومُحل في السماء، ونقص في العشب، مما يجعل الاستعداد للجهاد صعباً، كما جاءت في وقت زاد فيه الحر واشتد، وأينعت الثمار، ورُغب في الظلال، الأمر الذي يجعل النفوس تميل إلى الراحة وتطلب هناء العيش، وهنا تطلب النفوس المريضة عدم القتال وترغب عنه، وتستعلي النفوس المؤمنة على ما في هذه الدنيا من متاع زائل، وتطلب النعيم المقيم في الآخرة وترغب فيه.

ويبدو أن الروم قد تغيّر عليهم وضع عرب الجزيرة وحروبهم بعد أن دانوا بالإسلام، وبعد أن رأوا قتالهم في مؤتة، وسمعوا عن حروبهم في ذات السلاسل ضد قضاعة وقبائلها، ووجدوا أنه لم يعد يجدي معهم تكليف حلفائهم من العرب المتنصرة وعملائهم من الغساسنة في تأديب عرب الجزيرة المسلمين إذ لا بد من أن يمدوهم بالجند ويدعموهم بالسلاح، وهكذا بدأوا في حشد الجموع والاستعداد لغزو المدينة.

وعلم رسول الله ﷺ بخبر الروم وتحشدهم، فأمر المسلمين بالتهيوء للقتال، وقد مضى عليهم وهم ماكثون أكثر من ثمانية أشهر بعد أن عادوا من مكة، إذ أقاموا منذ ذي الحجة من السنة الثامنة إلى شهر رجب من السنة التاسعة، كما استقر أهل مكة والقبائل الأخرى، وأخبرهم أنه يريد الروم، وكان من عادته ﷺ أنه إذا أراد جهة لم يذكرها وورّى بها إلا ما كان في هذه الغزوة إذ بيّنها للناس، لبُعد الشقة، وقسوة الواقع، وشدة العدو الذي يقصده، وكثرة

عدده، ليتأهب الناس لذلك، ويأخذوا عدتهم الكاملة.

وحثّ رسول الله ﷺ الموسرين على البذل لتجهيز الناس فدفع عثمان بن عفان عشرة آلاف دينار، وقدم ثلاثمائة بعير، وخمسين فرساً، فقال عليه الصلاة والسلام: اللهم ارض عن عثمان فإني راضٍ عنه، وقدم أبو بكر الصديق كل ماله وهو أربعة آلاف درهم، فسأله رسول الله ﷺ: هل أبقيت لأهلك شيئاً؟ فأجاب: أبقيت لهم الله ورسوله، وقدم عمر بن الخطاب نصف ماله، وقدم عبد الرحمن بن عوف مائة أوقية، وقدم العباس وطلحة مالاً كثيراً، وكذلك كل الموسرين أمثال عاصم بن عدي وغيره إذ لم يكن مسلم ليبخل بالمال الذي لا يعده أكثر من وسيلة يستعين بها على مرضاة الله، وخير عمل يعمله في هذه الحياة الدنيا إنما هو الجهاد في سبيل الله، لذا يجود المسلم بكل ماله وعندما يفعل ذلك لا يعتقد أنه قد عمل عملاً كبيراً، بل يعتقد أن هذا واجبه، وأنه من مقتضى إيمانه، وعندما يضم المجتمع المسلم أمثال هؤلاء الرجال لا يمكن أن يكون فيه المحتاج، كما ينعدم الضعف الذي ينتاب الأمة لقلة ما تملك. ولكن عندما تتغير المفاهيم وتتبدل المقاييس، ويصبح همّ الإنسان جمع المال وتكديسه للمباهاة والخوف في المستقبل من الأزمات التي قد تعترض الموسرين وأصحاب السلطة الذين ينتظرون أن يرتقي إليها غيرهم، كما جاءوا إليها هم بدعم خارجي لتأدية مهمة انتهت وانتهى معها دورهم، فيجمعون المال في مصارف بعيدة دون النظر إلى مصدر المال أجاء عن طريق مشروع أم غير مشروع، عندما يكون هذا تتخلف الأمة وتنتابها الأمراض، وتقل المشروعات بل يصبح تحقيقها ضرباً من المستحيل، وتزداد السرقات، وتعم الفوضى، وتسير البلاد عند ذلك إلى الوراء وهذا ما أصاب أمتنا، ويصيبها لأنها تخلت عن نظامها الذي أراده الله لها.

وجاء نفر من فقراء الأنصار يطلبون من رسول الله أن يحملهم، فقال: لا أجد ما أحملكم عليه، فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون، فجهز عثمان بن عفان ثلاثة منهم، وجهز العباس اثنين آخرين،

وجهز يامين بن عمرو اثنين أيضاً.

سار رسول الله ﷺ بالمسلمين، ويقرب عددهم من الثلاثين ألفاً، وقد ولّى على المدينة محمد بن مسلمة، وخلف علي بن أبي طالب على أهله. وتخلف المنافقون برئاسة عبد الله بن أُبيّ كبيرهم واعتذر الاعراب، وكلهم يتوقع الهزيمة للمسلمين مع الروم، وهم يرون المسلمين على ما هم عليه من الفقر والضعف والقلة، ولكن إذا كانوا فقراء بما في أيديهم فإنهم أغنياء بقلوبهم، أقوياء بالله، أقوياء بإيمانهم، ولن يهزم جمع هذه صفاتهم وفيه أمثال صحابة رسول الله ﷺ من الايمان والجود والشجاعة وحب الشهادة وإطاعة الله ورسوله. واعتذر الجد بن قيس خوف الفتنة من نساء بني الأصفر، وأرجف هؤلاء جميعهم بالمسلمين. كما تخلّف نفر قليل من المسلمين منهم أبو خيثمة، وكعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، ثم لحق أبو خيثمة بالركب قبيل وصوله إلى تبوك.

وكان اللواء بيد أبي بكر الصديق، وراية المهاجرين بيد الزبير بن العوام، وراية الأوس بيد أسيد بن حضير، وراية الخزرج بيد الحباب بن المنذر، وكان حرس الجيش بإمرة عبادة بن بشر.

ولما مرّ رسول الله ﷺ بالحجر (مدائن صالح) غطى ثوبه على وجهه، واستحثّ راحلته، ثم قال: لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا إلا وأنتم باكون، خوفاً أن يصيبكم مثل ما أصابهم.

وصل رسول الله ﷺ إلى تبوك ولم يجد أثراً لتجمع الروم فيها كما جاءه الخبر، فأقام فيها بضع عشرة ليلة جاءه أثناءها يوحنا صاحب أيلة[1]، وأهالي جرباء[2]، وأهل أذرح[3]، فصالحوه على دفع الجزية، وبعد ذلك رجع إلى المدينة.

---

(١) أيلة: مدينة كانت مكان العقبة اليوم.

(٢) جرباء: مدينة مكانها في الاردن اليوم في جنوب شرقي عمان على بعد خمسين كيلو متراً منها.

(٣) أذرح: مدينة في جنوبي بلاد الشام إلى الشمال الغربي من معان، وهي بعد عشرين كيلومتراً منها، وهي في جبال الشراة.

وصل رسول الله ﷺ إلى المدينة، فوجد أن المنافقين قد شيدوا مسجداً ضراراً لتفريق جماعة المسلمين، وطلبوا منه ﷺ أن يصلي فيه، ولما سألهم عن سبب بنائه حلفوا بالله إن أرادوا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون، فأمر الرسول بهدمه فهدم.

وجاء المخلفون يعتذرون لرسول الله عن تخلفهم بأقوال كاذبة فقبل رسول الله علانيتهم، ووكّل ضمائرهم إلى الله سبحانه وتعالى، واستغفر لهم.

وجاء الثلاثة الذين خُلّفوا عن رسول الله وهم من المؤمنين: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع مُقرّين بذنوبهم. ولنسمع كعب بن مالك يتحدث عن نفسه في هذا الموضوع، قال: (ما تخلّفت عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها قط، غير أني كنت قد تخلفت عنه في غزوة بدر، وكانت غزوة لم يعاتب الله ورسوله أحداً تخلف عنها، وذلك أن رسول الله ﷺ إنما خرج يريد عير قريش، حتى جمع الله بينه وبين عدوه على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ العقبة، حين تواثقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت غزوة بدر هي أذكر في الناس منها.

قال: كان من خبري حين تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزوة، والله ما اجتمعت لي راحلتان قط حتى اجتمعتا في تلك الغزوة، وكان رسول الله ﷺ قلّما يريد غزوة يغزوها إلا ورّى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول الله ﷺ في حر شديد، واستقبل سفراً بعيداً، واستقبل غزو عدو كثير، فجلّى للناس أمرهم، ليتأهبوا لذلك أهبته، وأخبرهم خبره بوجهه الذي يريد، والمسلمون من أتباع رسول الله ﷺ كثير، لا يجمعهم كتاب حافظ.

قال كعب: فقلّ رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أنه سيخفى له ذلك، ما لم

ينزل فيه وحي من الله، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار، وأحبت الظلال، فالناس إليها صُعْر، فتجهز رسول الله ﷺ، وتجهز المسلمون معه، وجعلت أغدو لأتجهز معهم، فأرجع ولم أقض حاجة، فأقول في نفسي، أنا قادر على ذلك إذا أردت، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى شمر الناس بالجد، فأصبح رسول الله ﷺ غادياً، والمسلمون معه، ولم أقض من جهازي شيئاً فقلت: أتجهز بعده بيوم أو يومين، ثم ألحق بهم، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز، فرجعت ولم أقض شيئاً، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئاً، فلم يزل ذلك يتمادى بي، حتى أسرعوا، وتفرط الغزو، فهممت أن أرتحل، فأدركهم، وليتني فعلت، فلم أفعل، وجعلت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ، فطفت فيهم، يحزنني أني لا أرى إلا مغموصاً عليه في النفاق، أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء، ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك فقال وهو جالس في القوم بتبوك: ما فعل كعب بن مالك؟ فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله حبسه برداه، والنظر في عطفيه، فقال له معاذ بن جبل: بئس ما قلت! والله يا رسول الله ما علمنا منه إلا خيراً، فسكت رسول الله ﷺ.

فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلاً من تبوك، حضرني بثي، فجعلت أتذكر الكذب وأقول: بماذا أخرج من سخطة رسول الله ﷺ غداً، وأستعين على ذلك كلَّ ذي رأي من أهلي، فلما قيل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أظل قادماً، زاح عني الباطل، وعرفت أني لا أنجو منه إلا بالصدق، فأجمعت أن أصدقه، وصبح رسول الله ﷺ المدينة، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد، فركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك، جاءه المخلفون، فجعلوا يحلفون له ويعتذرون وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فيقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم وإيمانهم، ويستغفر لهم، ويكل سرائرهم إلى الله تعالى، حتى جئت، فسلمت عليه، فتبسم تبسم المغضب، ثم قال لي: تعاله، فجئت أمشي، حتى جلست بين يديه، فقال لي: ما خلّفك؟

ألم تكن ابتعت ظهرك؟ قال: قلت: إني يا رسول الله، والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا، لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيت جدلا، لكن والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديثاً كذباً لترضين عني، وليوشكن الله أن يسخطك عليّ، ولئن حدثتك حديثاً صدقاً تجد عليّ فيه، إني لأرجو عقباي من الله فيه، ولا والله ما كان لي عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك، فقال رسول الله ﷺ: أما هذا فقد صدقت فيه، فقم حتى يقضي الله فيك. فقمت، وسار معي رجال من بني سلمة، فاتبعوني فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا، ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به إليه المخلفون، وقد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك، فوالله ما زالوا بي حتى أردت أن أرجع الى رسول الله ﷺ، فأكذب نفسي، ثم قلت لهم: هل لقي هذا أحد غيري؟ قالوا: نعم، رجلان قالا مثل مقالتك، وقيل لهما مثل ما قيل لك، قلت من هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العمري، من بني عمرو بن عوف، وهلال بن أمية الواقفي؛ فذكروا لي رجلين صالحين، فيهما أسوة، فصمتّ حين ذكروهما لي، ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا أيها الثلاثة، من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس، وتغيّروا لنا، حتى تنكرت لي نفسي والأرض، فما هي بالأرض التي كنت أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا، وقعدا في بيوتهما، وأما أنا فكنت أشبّ القوم وأجلدهم، فكنت أخرج، وأشهد الصلوات مع المسلمين، وأطوف بالأسواق، ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ، فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي، هل حرّك شفتيه بردّ السلام عليّ أم لا؟ ثم أصلي قريباً منه، فأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إليّ، وإذا التفت نحوه أعرض عني، حتى إذا طال ذلك عليّ من جفوة المسلمين، مشيت حتى تسوّرت حائط أبي قتادة، وهو ابن عمي، وأحب الناس إلي، فسلمت عليه، فوالله ما ردّ علي السلام، فقلت: يا أبا قتادة، أنشدك بالله: هل تعلم أني

أحب الله ورسوله؟ فسكت فعدت فناشدته، فسكت عني، فعدت فناشدته، فقال: الله ورسوله أعلم. ففاضت عيناي، ووثبت فتسورت الحائط، ثم غدوت إلى السوق، فبينا أنا أمشي بالسوق، إذا نبطي يسأل عني من نبط الشام، ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة، يقول: من يدل على كعب بن مالك؟ قال: فجعل الناس يشيرون له إليّ حتى جاءني، فدفع إليّ كتاباً من ملك غسان، وكتب كتاباً في سرقة من حرير، فإذا فيه: «أما بعد، فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك». قال: قلت حين قرأتها: وهذا من البلاء أيضاً، قد بلغ بي ما وقعت فيه أن طمع فيّ رجل من أهل الشرك. قال: فعمدت بها إلى تنور فسجرته بها. فأقمنا على ذلك، حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين، إذا رسول رسول الله يأتيني، فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، قال: قلت: أطلقها أم ماذا؟ قال: لا بل اعتزلها ولا تقربها، وأرسل إلى صاحبيّ بمثل ذلك، فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر ما هو قاض. قال: وجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، إن هلال بن أمية شيخ كبير ضائع لا خادم له، أفتكره أن أخدمه؟ قال: لا، ولكن لا يقربنك؛ قالت: والله يا رسول الله ما به من حركة إليّ، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان، إلى يومه هذا، ولقد تخوفت على بصره. قال: فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله لامرأتك، فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه، قال: فقلت: والله لا أستأذنه فيها، ما أدري ما يقول رسول الله ﷺ لي في ذلك، إذا استأذنته فيها، وأنا رجل شاب قال: فلبثنا بعد ذلك عشر ليال فكمل لنا خمسون ليلة، من حين نهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا، ثم صليت الصبح، صبح خمسين ليلة، على ظهر بيت من بيوتنا، على الحال التي ذكر الله منا، قد ضاقت علينا الارض بما رحبت، وضاقت عليّ نفسي، وقد كنت ابتنيت خيمة في ظهر سلع، فكنت أكون فيها، إذ سمعت صوت صارخ

أوفى على ظهر سلع، يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك، أبشر، قال: فخررت ساجداً، وعرفت أن قد جاء الفرج.

قال: وآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا، حين صلى الفجر، فذهب الناس يبشروننا، وذهب نحو صاحبيّ مبشرون، وركض إليّ رجل فرساً، وسعى ساعٍ من أسلم، حتى أوفى على الجبل، فكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني، نزعت ثوبيّ، فكسوتهما إياه بشارة، والله ما أملك يومئذ غيرهما، واستعرت ثوبين فلبستهما، ثم انطلقت أتيمم رسول الله ﷺ، وتلقاني الناس يبشرونني بالتوبة، يقولون: ليهنك توبة الله عليك، حتى دخلت المسجد، ورسول الله ﷺ جالس وحوله الناس، فقام إلي طلحة بن عبيد الله، فحياني وهنأني، ووالله ما قام إليّ رجل من المهاجرين غيره، قال: فكان كعب بن مالك لا ينساها لطلحة. قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال لي، ووجهه يبرق من السرور: أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك، قال: قلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: بل من عند الله، قال: وكان رسول الله ﷺ إذا استبشر كأن وجهه قطعة قمر. قال: وكنا نعرف ذلك منه. قال: فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله، إن من توبتي إلى الله عز وجل أن انخلع من مالي، صدقة إلى الله وإلى رسوله، قال رسول الله ﷺ: أمسك عليك بعض مالك، فهو خير لك. قال: قلت: إني ممسك سهمي الذي بخيبر، وقلت: يا رسول الله، إن الله قد نجاني بالصدق، وإن من توبتي إلى الله أن لا أحدث إلا صدقاً ما حييت، والله ما أعلم أحداً من الناس أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أفضل مما أبلاني الله، والله ما تعمدت من كذبة منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي.

قال كعب: فوالله ما أنعم الله علي نعمة قط بعد أن هداني للاسلام، كانت أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ يومئذ، أن لا أكون

كذبه، فأهلك كما هلك الذين كذبوا، فإن الله تبارك وتعالى قال في الذين كذبوه حين أنزل الوحي شرّ ما قال لأحد، قال: سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ .

قال: وكنا خُلّفنا أيها الثلاثة عن أمر هؤلاء الذين قبل منهم رسول الله ﷺ، حين حلفوا له فعذرهم، واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا، حتى قضى الله فيه ما قضى، فبذلك قال تعالى: وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ .

وليس الذي ذكر الله من تخليفنا لتخلفنا عن الغزوة، ولكن لتخليفه إيانا، وإرجائه أمرنا عمن حلف له، واعتذر إليه، فقبل منه.

ولننظر إلى المجتمع الإسلامي من خلال هذه الغزوة ومن خلال حديث كعب بن مالك هذا، فنرى المجتمع المطيع الذي يعرف كل فرد فيه حدوده، ويعرف مسؤولياته، فلا يحتاج إلى مراقب يراقب أعماله، وإنما هو يراقب نفسه، ويخشى الله في كل عمل يقوم به، فثلاثون ألفاً لهم قائد واحد، يرجعون إليه في أمورهم كلها، يرشدهم فيسمعون، ويأمرهم فيطيعون، ولا يراقب أي عمل يقوم به أي فرد، ولنقارن هذا المجتمع مع مجتمع في هذا العصر ابتعد عن منهج الله لنرى أن ثلاثين ألف جندي يحتاجون إلى خمسة آلاف ضابط صف وألفين ضابط، وكل منهم يراقب الجند، ومع هذا فالوضع لا يستقيم، فسرقات وتصرفات، وأوضاع وأوضاع، هذا من جهة ومن جهة ثانية فإن ثلاثين ألفاً قد انطلقوا إلى الغزو دون إنذار، ساروا من تلقاء أنفسهم بمجرد أن طلب منهم رسول الله ﷺ الاستعداد والتهيؤ للقتال،

أما الآن فلو ترك الناس حرية الذهاب إلى الحرب، لما سار رجل واحد، ولو طلب منهم الرأي، لاعتذروا جميعاً ولو غُزوا في عقر دارهم، وداهمهم العدو في بيوتاتهم. ولننظر الآن إلى هذا المجتمع بعد المعركة، فعندما طلب منهم رسول الله ﷺ مقاطعة أولئك الثلاثة الذين تخلفوا، قاطعوهم جميعاً في السر والعلانية حتى أقرب الناس إليهم، وأحبهم إلى نفوسهم، حتى ذاق هؤلاء المخلفون عاقبة أمرهم، بل أكثر من ذلك، طلب منهم أن يعتزلوا نساءهم، فوافقوا، وهذا أمر خفيٌ لا يعلمه أحد إلا الله، ويمكن للانسان أن يبدي الالتزام، ويمتنع سراً عن التنفيذ، ولكن كان يعلم أن الله مطلع عليه، ولا يخشى أوامر السلطان فيتهرب منها على حين غفلة منه، لأن السلطان لا يستطيع أن يطلع عليه. والمسلم ينفذ ما يؤمر به رغبة لا رهبة، وطمعاً لا خوفاً وقد لاحظنا كيف ضرب كعب بن مالك بمغريات الغساسنة في أشد الساعات حرجاً بالنسبة له، وفي أكثر الأوقات التي يمكن أن يقوم بها بردة فعل ضد مقاطعة المجتمع له. وأخيراً يمكن أن نلاحظ الدولة التي تطمئن من منهجها وتطبيقه، وتعرف رعاياها وما هم عليه من الطاعة، فتسمح حتى لأعدائها أن يدخلوا كأفراد إلى عاصمتها يتاجرون، أما اليوم فأجهزة الأمن بأعدادها الكبيرة لا تراقب الأعداء فحسب بل المجتمع حتى لا ينفلت أفراد منه ويتصلوا بالخصوم حتى بالخارج فكيف هم إذا وجدوا في الداخل! وما ذلك إلا لما تعلمه من أعمالها و... وحتى غدت مراقبة الرعايا هي السائدة لا مراقبة الأعداء.

وفد الطائف

ولما رجع رسول الله ﷺ من تبوك جاءه وفد من الطائف. وكان عروة بن مسعود أحد وجهاء ثقيف قد تبع رسول الله ﷺ إثر انصرافه من الطائف، وأدركه قبل أن يصل إلى المدينة، فاعتنق الإسلام، وطلب من رسول الله ﷺ أن يرجع إلى قومه بالإسلام. فقال له: إنهم قاتلوك، فقال عروة: يا رسول الله، أنا أحب إليهم من أبصارهم، وكان محبباً بينهم ومطاعاً، فلما جاءهم بالاسلام رموه بالنبال، وقتلوه، وبعد مدة شعروا

بضعفهم أمام ما حولهم من الاعراب التي دانت بالاسلام، فأرسلوا وفداً إلى رسول الله ﷺ. فأسلم الوفد، وولى عليهم رسول الله عثمان بن أبي العاص، وكان أصغرهم سناً، وأحرصهم على الفقه. ولما رجعوا، أرسل رسول الله ﷺ أبا سفيان والمغيرة بن شعبة لهدم اللات صنم ثقيف، فهدموه. وأسلمت ثقيف.

حج أبي بكر الصديق

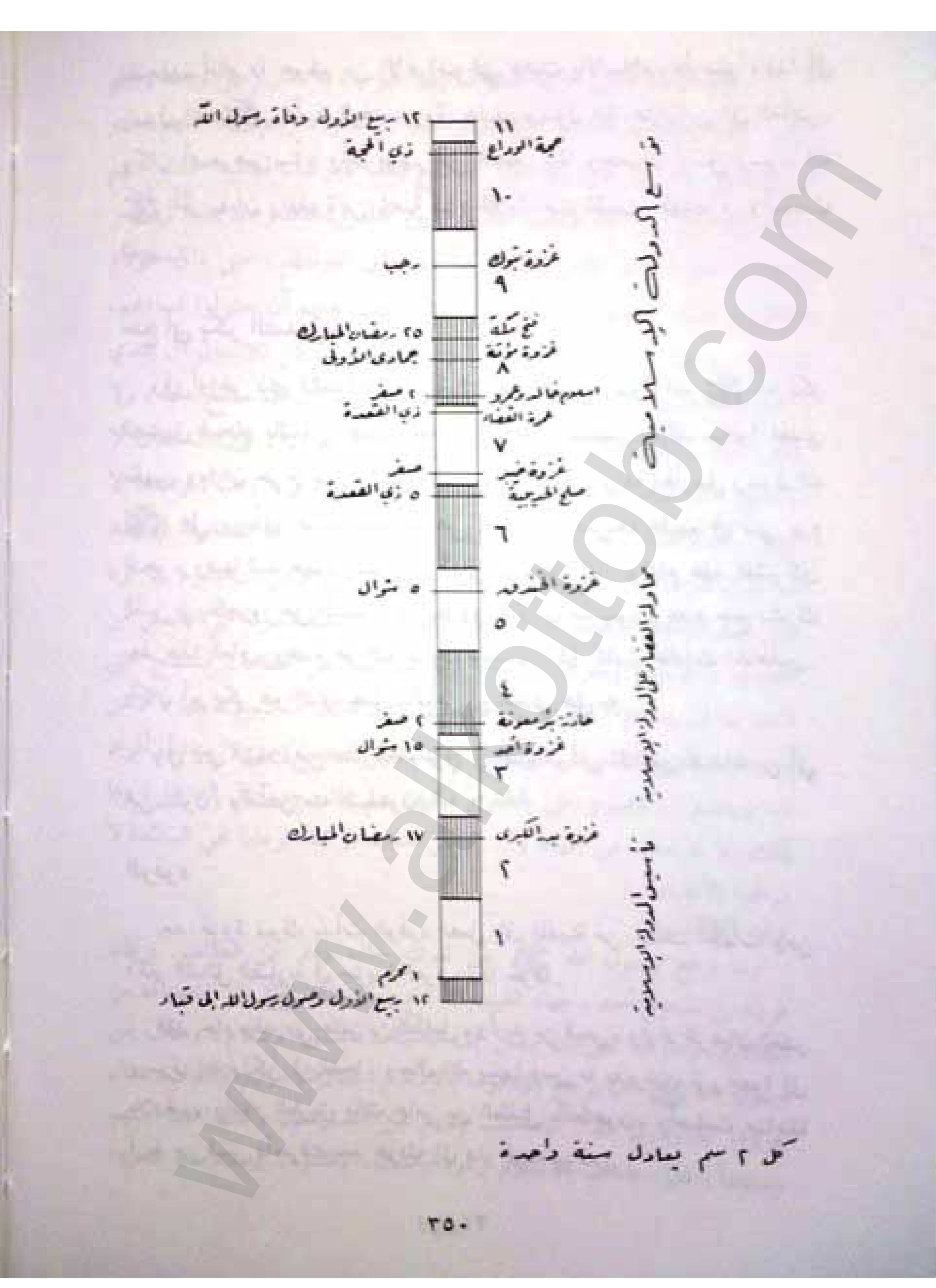
وفي أواخر ذي القعدة من السنة التاسعة، أرسل رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق ليحج بالناس. فسار معه ثلاثمائة من المسلمين، وقد ساقوا الهدي معهم، وما إن خرج حتى نزلت أوائل سورة التوبة (براءة) فأرسل رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب ليتلوها على المسلمين. فقرأها عليهم في منى يوم النحر، وفيها نبذ عهود المشركين الذين لم يوفوا بها، وإتمام عهد المشركين الذين لم يظاهروا على المسلمين ولم يغدروا بهم إلى مدتهم، ثم عدم حج مشرك بعد هذا العام، وعدم طواف عريان بالبيت، كما كانت عادات الجاهليين. وكان أبو بكر هو الذي يصلي بالناس، ويقتدي علي به.

وفي ذي القعدة من هذا العام توفي في المدينة رأس المنافقين عبدالله بن أبي ابن سلول، وتخلص منه المسلمون.

الوفود

بعد غزوة تبوك بدأت الوفود تصل إلى المدينة من مختلف الجهات ومن أكثر القبائل الضاربة في جزيرة العرب وما حولها.

فقد جاء وفد بني عامر بن الطفيل، وأربد بن قيس، وأراد الزعيمان الغدر برسول الله ولكن لم يفلحا، وحال الله بينهما وبين ما يدبران، ثم رجعوا إلى بلادهم، وأثناء الطريق مات عامر بن الطفيل بالطاعون، وأصابت صاعقة أربد بن قيس فأحرقته بعد عودته إلى دار قومه بيومين.



كل ٢ سم يعادل سنة واحدة

وأقبل وفد بني سعد بن بكر بإمرة ضمام بن ثعلبة فأسلم، وعندما رجع إلى قومه دعاهم إلى الإسلام، فأسلموا جميعاً ما تخلّف منهم رجل واحد.

وأقبل وفد بني عبد القيس بإمرة الجارود بن عمرو، وكان نصرانياً، فأسلم، وحسن إسلامه، وعندما ارتدّ من قومه بعض من أسلم وقت الردة، بقي هو على إسلامه.

وقدم وفد بني حنيفة وفيهم مسيلمة الكذاب، فأسلموا، فلما رجعوا إلى بلادهم اليمامة، تنبأ عدوّ الله مسيلمة، وارتدّ معه أكثر قومه.

وقدم وفد طيء وفيهم زيد الخيل، فأسلموا وسمى رسول الله ﷺ سيدهم زيد الخير، ولم يلبث أن توفي.

وجاء فروة بن مسيك المرادي من شمال اليمن فأسلم، واستعمله رسول الله ﷺ على مراد وزبيد ومذحج كلها، وبعث خالد بن سعيد بن العاص معه على الصدقات، فكان معه في بلاده حتى توفي رسول الله ﷺ.

وجاء وفد من زبيد بإمرة عمرو بن معدي كرب، فأسلم وتبع فروة إلا أن عمراً قد ارتدّ حين ارتدت العرب.

ووفد الأشعث بن قيس على رأس وفد من كندة يضم ثمانين رجلاً، فأسلموا.

ووفد على رسول الله ﷺ وفد من الأزد من عسير وعليهم صرد بن عبدالله الأزدي، فأسلموا، وقد جعل رسول الله ﷺ صرد بن عبد الله على من أسلم من قومه، فرجعوا، وقاتلوا قومهم، وحاصروهم في مدينة جرش، ثم تركوهم، فلحقوا بهم، فقاتلوهم قتالاً شديداً.. ثم خرج وفد من جرش إلى رسول الله ﷺ فأسلموا.

وجاء إلى رسول الله ﷺ وفد يحمل كتب ملوك حمير يخبرونه فيه بإسلامهم، وترك ما كانوا يعبدون من دون الله، وأرسل رسول الله ﷺ

معاذ بن جبل إلى الكورة العليا من اليمن، وبعث أبا موسى الاشعري على الكورة السفلى منها، وأوصاهما. وقد بقي معاذ بن جبل حتى توفي رسول الله ﷺ، وقدم أبو موسى الاشعري مكة ورسول الله في حجة الوداع.

وجاء وفد من نجران يضم ستين راكباً وكانوا من النصارى، ورضوا بدفع الجزية، وعادوا إلى بلادهم.

وجاء رسول من فروة بن عمرو الجذامي عامل الروم على العرب في معان وما حولها إلى رسول الله ﷺ يعلمه بإسلام فروة بن عمرو، ويقدم له هديته، ولما بلغ الروم إسلام فروة أخذوه، وسجنوه ثم قتلوه.

وقدم وفد من همدان إلى المدينة، وأعلنوا إسلامهم لرسول الله ﷺ.

وقدم وفد ثعلبة، ووفد بني سعد بن هذيم من قضاعة، ووفد بني أسد وفيهم ضرار بن الأزور وطليحة بن خويلد الذي ادّعى النبوة فيما بعد، ووفد بني عذرة، ووفد بلي، ووفد بني مرة، ووفد خولان باليمن، ووفد بني محارب، ووفد بني عبس، ووفد غسان و..

وبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى بني الحارث بن كعب بنجران، فدعاهم فاستجابوا فرجع إلى المدينة مع وفد منهم بناء على رأي رسول الله ﷺ.

حجة الوداع

تجهز رسول الله ﷺ للحج في أوائل ذي القعدة من السنة العاشرة، وأمر الناس بالتهيؤ لذلك، وولّى على المدينة أبا دجانة، وانطلق منها يوم السبت لخمس بقين من ذي القعدة، وكان معه جمع غفير يقرب من التسعين ألفاً، ولما وصل إلى مكة دخلها من كداء، وفي التاسع من ذي الحجة توجه إلى عرفة، فأرى الناس مناسكهم، وعلمهم سنن حجهم، وخطب في الناس خطبة بيّن فيها كثيراً من جوانب الدين، وكان مما قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

أيها الناس اسمعوا مني أبين لكم فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا . أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد. فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها. وإن ربا الجاهلية موضوع، وإن أول ربا أبدأ به ربا عمي العباس بن عبد المطلب. وإن دماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث. وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية. والعمد قود، وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر، وفيه مائة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية. أيها الناس، إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه، ولكنه رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم. أيها الناس، إن النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً، ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله، فيحلوا ما حرم الله ويحرموا ما أحل الله. وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض. وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق الله السموات والأرض، منها أربعة حرم، ثلاث متواليات، وواحد فرد: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذي بين جمادى وشعبان، ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد. أيها الناس، إن لنسائكم عليكم حقاً ولكم عليهن حق ألا يوطئن فرشكم غيركم، ولا يدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم، ولا يأتين بفاحشة، فإن فعلن فإن الله أذن لكم أن تعضلوهن وتهجروهن في المضاجع، وتضربوهن ضرباً غير مبرح، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وإنما النساء عندكم عوان، ولا يملكن لأنفسهن شيئاً، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمات الله، فاتقوا الله بالنساء، واستوصوا بهن خيراً. ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد. أيها الناس، اعقلوا قولي، فإني قد بلغت، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به، فلن تضلوا أبداً، أمراً بيناً، كتاب الله وسنة نبيه. أيها الناس، اسمعوا قولي واعقلوه، تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم، وإنما

المؤمنون إخوة، ولا يحل لامرىء مال أخيه إلا عن طيب نفسٍ منه، فلا تظلمن أنفسكم، ولا ترجعن بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض. ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد. أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي فضل على أعجمي إلا بالتقوى، ألا بلغت؟ اللهم فاشهد، فليبلغ الشاهد منكم الغائب.

أيها الناس إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث، ولا تجوز لوارث وصية، ولا تجوز وصية في أكثر من الثلث، والولد للفراش، وللعاهر الحجر. من ادعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وفي هذا اليوم أنزل الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ (١).

وبعد أن أدى رسول الله ﷺ مناسك الحج، وأقام بمكة عشرة أيام، رجع إلى المدينة.

جيش أسامة بن زيد

أقام رسول الله ﷺ بالمدينة بعد حجه ـ وهي الحجة الوحيدة التي حجها رسول الله ـ بقية ذي الحجة وشهر المحرم وفي الرابع من صفر من السنة الحادية عشرة جهز جيشاً بإمرة أسامة بن زيد، وأمره أن يصل إلى تخوم بلاد البلقاء في الأردن، وكان في هذا الجيش كبار الصحابة أمثال: أبي بكر، وعمر، وأبي عبيدة، وسعد بن أبي وقاص، مع أن أسامة لم يكن ليبلغ الثامنة عشرة من عمره، ولم يسر هذا الجيش لمرض رسول الله ﷺ.

---

(١) المائدة: ٣

مرض رسول الله ﷺ

مرض رسول الله ﷺ في أواخر شهر صفر، وبقي في مرضه ثلاثة عشر يوماً، ولما تعذر عليه الخروج للصلاة قال: مروا أبا بكر فليصل بالناس.

وتوفي في ضحى الإثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول السنة الحادية عشرة، وحفر له في حجرة عائشة، ودفن يوم الأربعاء الرابع عشر من الشهر نفسه.

زوجات رسول الله

صلى الله عليه وسلم

تزوج رسول الله ﷺ عدة زوجات لأسباب عدة اقتضت هذا الزواج دون أن يكون لداعي الشهوة والهوى أي أثر إذ تزوجهن كلهن عدا عائشة أرامل وكبيرات في السن، وأهم هذه الأسباب القربى، والإسلام، والإعالة في الوقت الذي انقطعت فيه إعالتهن من غيره، ثم اتصال النسب، وتآلف القبائل، وتربية المسلمين إذ كانت بيوتهن مدارس للمؤمنين والمؤمنات وهؤلاء الزوجات هن:

١ ـ خديجة بنت خويلد، رضي الله عنها:

وقد تزوجها رسول الله ﷺ قبل البعثة عندما كان في الخامسة والعشرين من عمره، بينما كان سن زوجته الأربعين، وهي أول من تزوج، وكانت قبله عند أبي هالة بن مالك، ومن قبل كانت عند عُتَيق بن عابد بن عبدالله المخزومي. وقد ولدت لعتيق عبدالله، ولأبي هالة هالة بن أبي هالة وهند بن أبي هالة وزينب بنت أبي هالة. وقد بقيت عنده خمسة وعشرين عاماً: خمسة عشر قبل البعثة وعشرة بعد البعثة، ولم يتزوج في حياتها غيرها. وقدمت الكثير في سبيل الدعوة رضي الله عنها.

وأنجبت له أولاده الذكور: القاسم، الطيب، الطاهر. والبنات كلهن زينب، ورقية، وأم كلثوم وفاطمة.

وماتت بمكة قبل الهجرة بثلاثة سنوات وقد ناهز عمرها الخامسة والستين.

٢ ـ سودة بنت زمعة، رضي الله عنها:

وقد تزوجها بعد وفاة خديجة بعوالي الشهر، وكانت قبله عند السكران بن

عمرو أحد بني عامر بطن قريش المعروف، وقد أسلم السكران، رضي الله عنه، على الرغم مما لاقى من أهله وذويه وأخيه سهيل بن عمرو، فهاجر إلى الحبشة، وهاجرت معه زوجه وابنة عمه سودة، وعندما رجع من الهجرة إلى الحبشة توفي، وبقيت زوجه بلا معيل، بل لا تستطيع الحياة بين أقاربها المشركين الذين ربما فتنوها عن دينها، فكان لا بد له من أن يضمها إليه رضي الله عنها، وهي ابنة الخامسة والخمسين، وعاشت معه خمس سنوات ثم توفيت بالمدينة المنورة بعد الهجرة بعامين، ولم تنجب له، إذ كانت في سن اليأس.

٣ ـ عائشة بنت أبي بكر، رضي الله عنها:

وهي الفتاة البكر الوحيدة التي تزوجها رسول الله ﷺ، والغاية من زواجها زيادة أواصر المودة مع صديقه أبي بكر الصديق، وقد خطبها صغيرة في مكة بعد وفاة خديجة بشهرين، وبنى بها في المدينة.

وقد كانت صغيرة مع قاعدة زواج الفتيات المبكر آنذاك، والنضج المبكر في البلاد الحارة، وهو الأصح، وإذا كان ما ذكره ابن هشام في سيرته وبعض أصحاب السير الآخرين في أنها كانت من السابقات للإسلام، فمعنى ذلك أن سنها كانت تزيد على الخامسة عشرة، وكذلك كانت قد خطبت لجبير بن المطعم بن عدي قبل رسول الله ﷺ، كل ذلك يدل على أنها كانت قد جاوزت السابعة عشر، مع العلم أن خولة بنت حكيم زوج عثمان بن مظعون هي التي عرضت عليه هذا الزواج بعد وفاة خديجة رضي الله عنها، فهل تعرض فتاة للزواج لكي تقوم مقام سابقتها أم ليضم إليه طفلة يرعاها؟

وقد عاشت عائشة مدة طويلة بعد وفاة رسول الله ﷺ إذ توفيت عام ٥٨ هـ في خلافة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه. ولم تنجب عائشة لرسول الله.

٤ ـ حفصة بنت عمر بن الخطاب، رضي الله عنها:

تزوج رسول الله ﷺ حفصة لربط النسب بينه وبين صاحبه الثاني عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وقد كانت حفصة قبل رسول الله عند خنيس بن حذافة السهمي القرشي، وقد استشهد في بدر بعد أن أبلى البلاء الحسن، وضحى كثيراً في سبيل الإسلام، ولم تكن ذات جمال، ولم يرض بها أحد، إذ عرضها أبوها رضي الله عنه على عدد من الرجال، ولم يجد رسول الله ﷺ في مواساتها بزوجها حلاً خيراً من زواجها.

وعاشت بعد رسول الله ﷺ، وتوفيت بالمدينة عام خمسة وأربعين في خلافة معاوية بن أبي سفيان، ولم تنجب لرسول الله.

٥ ـ زينب بنت خزيمة، رضي الله عنها:

تزوجها رسول الله ﷺ، وهي ابنة الستين من العمر، وكانت قبله عند ابن عمه عبيدة بن الحارث بن المطلب شهيد بدر بالمبارزة، وقد تأثرت بعد فقد زوجها، إذ لم يعد لها معيل، ولم يتزوجها أحد لسنها، وزوجها ابن عم رسول الله ﷺ، ولم يجد بداً من أن يضيفها إلى أسرته، وعاشت عنده عامين، ثم توفيت في حياته.

٦ ـ هند بنت أبي أمية، رضي الله عنها:

وهي أخت أبناء عمة رسول الله ﷺ عاتكة، الذين منهم عبد الله وزهير ابني أبي أمية، وشقيقة المهاجر بن أبي أمية. وقد كانت عند ابن عمها أبي سلمة عبدالله بن عبد الأسد ابن عمة رسول الله ﷺ. وكان زوجها أبو سلمة أول من هاجر إلى المدينة، وحبسها أهلها في مكة، ثم سمحوا لها بالهجرة... وقد أصيب زوجها في أحُدٍ بسهم، ثم عوفي، وأرسله ﷺ بعد ذلك لقتال بني أسد، فلما عاد مات إذ انكفأ عليه جرحه، وبقيت معيلة

لأبنائها سلمة، وعمر، ورقية وزينب، أبناء أبي سلمة، وهي مسنة، فتزوجها رسول الله مواساة لها، وقد كانت تدعو فتقول بعد فقد زوجها أبي سلمة: «اللهم آجرني في مصيبتي واخلفني خيراً منها».

٧ - زينب بنت جحش، رضي الله عنها:

وهي ابنة عمة رسول الله ﷺ أميمة بنت عبد المطلب، وقد أسلمت زينب مع إخوتها عبدالله، وعبد، وعبيدالله، وحنة، وكان اسمها برة، فسماها رسول الله زينب، وكانت معتزة بجمالها ونسبها، وزوجها رسول الله ﷺ إلى مولاه زيد بن حارثة، رضي الله عنه، بعد ممانعة منها ومن أهلها لوضع زيد حتى أنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾

ولكن زيداً، رضي الله عنه، لم يستطع الحياة معها لتعاليها عليه، وقد شكاها عدة مرات لرسول الله ﷺ، ثم اضطر أن يطلقها، وأمر الله رسوله أن يتزوجها وذلك ليبطل التبنّي، إذ كان يقال لزيد: (زيد بن محمد) ولا يصح أن يتزوج الرجل مطلقة ابنه، وأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿ادعوهم لآبائهم﴾ فأطلق عليه زيد بن حارثة، إذن كانت زينب الساحة التي ألغيت عليها عادة التبنّي التي كانت منتشرة عند العرب.

فالزواج كان من عند الله، وكذلك فإن زينب هي ابنة عمة رسول الله ﷺ، وهو الذي أجبرها على الزواج من زيد، فهو المسؤول عنها إذن، ويجب ألا يضيعها، وأن يأخذها من هو أفضل من زيد، وكان هو الذي تزوجها ﷺ.

لم تنجب زينب من رسول الله، وعاشت بعده حتى توفيت عام عشرين للهجرة أيام خلافة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه.

٨ ـ أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان، رضي الله عنها:

وهي زوج ابن عمة رسول الله ﷺ عبيد الله بن جحش، وقد هاجرت مع زوجها إلى الحبشة، وهناك ارتد زوجها ففارقته، وبقيت في الحبشة، ولما كان أبوها سيد قريش ولا تستطيع الرجوع إلى أهلها وهي على إسلامها لعدائهم الشديد للإسلام. فكان لا بد من أن يتزوجها نظيره، ومن هو أفضل من ابن عمته عبيد الله، لهذا طلب رسول الله ﷺ من النجاشي أن يخطبها له، ففعل، وأرسلها مع شرحبيل بن حسنة الذي كانت معه أمه ولما عادت إلى المدينة تزوجها رسول الله ﷺ.

وقد عاشت بعد رسول الله ﷺ، ولم تنجب منه، وتوفيت في خلافة أخيها معاوية بن أبي سفيان عام ٤٤ هـ.

٩ ـ جويرية بنت الحارث، رضي الله عنها:

وهي ابنة الحارث بن أبي ضرار سيد بني المصطلق، وكانت تحت مسافع بن صفوان الذي قتل في غزوة بني المصطلق، والتي وقع فيها قومها جميعهم في الأسر، وقد جاء أبوها ليفتديها بما عنده من إبل، وقد ترك جملاً من الفدية استحسنه لنفسه دون أن يعلم أحد. فعندما أخبره رسول الله بما فعل، أسلم، وزوج ابنته من رسول الله.

وقد أطلق المسلمون أسراهم وسباياهم من بني المصطلق، وقالوا أصهار رسول الله ﷺ، وكأن رسول الله كان يريد أن يفعلوا ذلك اختياراً لإيمانهم وحبهم لرسولهم وبذلهم في سبيل ذلك.

لم تنجب جويرية بنت الحارث من رسول الله، وعاشت بعده مدة طويلة، وتوفيت عام ٥٦ هـ. في خلافة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه.

١٠ - صفية بنت حي بن أخطب، رضي الله عنها:

وهي ابنة سيد بني النضير، وكانت قبل رسول الله ﷺ تحت كنانة بن أبي الحقيق الذي قتل في حصار خيبر، ووقعت أسيرة، ورأى الصحابة رضوان الله عنهم أن تكون لرسول الله بصفتها ابنة سيد بني النضير، وقد كانت في سهم (دحية)، فأخذها رسول الله لنفسه وأعتقها وخيّرها بين الإسلام والعودة إلى أهلها، فاختارت الإسلام، واستحسن رسول الله مقالتها عندما خيّرها، فتزوجها إكراماً لها. وعسى أن يلاحظ اليهود هذا الإحسان إليهم فيرعووا ويسلموا، ولكن أنى لتلك النفوس المشحونة بالحقد أن تتراجع عن غيها؟

١١ - ميمونة بنت الحارث الهلالية، رضي الله عنها:

وهي أخت زوج العباس بن عبد المطلب لبابة، أي خالة عبدالله بن العباس، كما أنها خالة خالد بن الوليد، وقد تزوجها رسول الله ﷺ في مكة أثناء عمرة القضاء في أواخر السنة السابعة للهجرة، وكانت آخر امرأة تزوجها رسول الله، وكان اسمها (برة) فسماها الرسول ميمونة، وكانت قبله عند أبي رهم بن عبد العزى العامري، وقد مات عنها.

وتزوجها رسول الله وهي ابنة سبع وثلاثين سنة في (سرف)، ولم تنجب له، وماتت في خلافة معاوية بن أبي سفيان عام ٥١ هـ في (سرف) في المكان الذي تزوجت فيه نفسه.

أما مارية القبطية فليست زوجة لرسول الله، وإنما هي أمة، أهداها المقوقس له عام ٧ هـ هي، وأختها سيرين، فقدم رسول الله سيرين إلى حسان بن ثابت.

ولدت مارية لرسول الله ابنه إبراهيم فأعتقها ولدها، وعاشت بعد رسول الله، وتوفيت عام ١٦ هـ في خلافة سيدنا عمر بن الخطاب، رضي الله عنه.

أولاد رسول الله

صلى الله عليه وسلم

أنجبت خديجة بنت خويلد لرسول الله ﷺ أبناءه عدا إبراهيم وبناته كلهن، ولم تنجب له غيرها من نسائه، فقد ولدت له زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة ثم أنجبت له القاسم وعبدالله.

١ - القاسم بن رسول الله ﷺ:

وقد ولد قبل البعثة بثلاثة أعوام تقريباً، ولم تنته مدة الرضاعة حتى توفي، وإن كان قد مشى.

٢ - عبد الله بن رسول الله ﷺ:

وقد ولد قبل البعثة، فلما بعث رسول الله ﷺ سماه أو لقّبه الطيب والطاهر، ولهذا عدّه بعضهم اثنين، وعده آخرون ثلاثة، وكذلك لم تطل حياته إذ توفي بعد مدة لم تتجاوز العامين أيضاً.

٣ - إبراهيم بن رسول الله ﷺ:

وأمه مارية القبطية، وهو الوليد الوحيد لرسول الله ﷺ من غير خديجة، وقد ولد في السنة الثامنة للهجرة وتوفي في العاشرة إذ لم تطل حياته أيضاً.

أما بنات رسول الله ﷺ فهن:

١ - زينب بنت رسول الله ﷺ:

وهي كبرى بنات رسول الله ﷺ، تزوجت قبل البعثة ابن خالتها أبا العاص بن الربيع، فلما بعث أبوها، أسلمت، ولم يسلم زوجها، وأسر في غزوة

بدر، وافتدته وكانت في مكة، وأطلق سراحه رسول الله ﷺ على أن يرسل زينب ففعل إذ فرق بينهما رسول الله، ثم أسر ثانية مع قافلة، فأجارته في المدينة، فأطلق المسلمون سراحه مع القافلة، فلما رجع إلى مكة، وأدى أمانات الناس وأموالهم، أسلم، وعاد مهاجراً إلى المدينة، فأعاد له رسول الله زينب بعقد جديد على ما في العقد السابق.

ولدت زينب لأبي العاص علياً وأمامة. أما علي فقد توفي صغيراً، وأما أمامة فقد تزوجها علي بن أبي طالب بعد وفاة خالتها فاطمة الزهراء.

عاشت زينب حتى الثامنة للهجرة، وتوفيت في حياة أبيها عليه الصلاة والسلام، ورضي الله عنها.

٢ ـ رقية بنت رسول الله ﷺ:

ثانية بنات رسول الله، ولدت قبل البعثة، وتزوجت كذلك من عتبة بن أبي لهب، فلما بعث رسول الله أسلمت، وغضب أبو لهب فأمر ابنه بمفارقتها ففعل.

تزوجت بعدئذ سيدنا عثمان بن عفان، وهاجرت معه إلى الحبشة، ثم استقرت في المدينة، ولم تنجب لسيدنا عثمان، وتوفيت في حياة أبيها، وهو في غزوة بدر، وكان عثمان قد تخلّف عن تلك الغزوة لتمريضها بأمر رسول الله ﷺ.

٣ ـ أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ:

وهي ثالثة بناته عليه الصلاة والسلام، ولدت، ونشأت، وتزوجت قبل البعثة، وكان زواجها من عتيبة بن أبي لهب، وبعد البعثة طلب أبو لهب من ابنه مفارقتها، كما فعل أخوه عتبة لزيادة عائلة رسول الله.

هاجرت إلى المدينة مع عيال رسول الله ﷺ ، ثم تزوجت سيدنا عثمان بعد وفاة رقية ، ولكنها لم تلبث أن توفيت في السنة التاسعة في حياة أبيها ، ولم تنجب لسيدنا عثمان.

٤ - فاطمة بنت رسول الله ﷺ :

ولدت في السنة الخامسة قبل البعثة ، وتزوجها سيدنا علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، في المدينة في السنة الثانية للهجرة ، وولدت له الحسن ، والحسين ، وأم كلثوم ، وزينب ، وعاشت بعد أبيها ستة أشهر إذ توفيت في السنة الحادية عشرة ، وهي الولد الوحيد لرسول الله ﷺ الذي عاش بعده.

كتاب رسول الله
صلى الله عليه وسلم

على الرغم من قلة المعرفة للقراءة والكتابة في مكة وقت ظهور الإسلام إذ لم يزد عدد الذين يعرفونها على سبعة عشر رجلاً فإن عدداً منهم قد دان بالإسلام منذ أول عهده وكتب لرسول الله ﷺ الوحي وما يحتاج إليه ، ومن هؤلاء الكتاب في مكة: علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان ، وأبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وخالد بن سعيد بن العاص ، وعامر بن فهيرة ، والأرقم بن أبي الأرقم ، وأبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومي ، وجعفر بن أبي طالب ، وحاطب بن عمرو ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، وعبد الله بن أبي بكر ، وأضيف إليهم في المدينة:

أبو أيوب الأنصاري خالد بن زيد ، وأبي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وعبد الله بن رواحة ، ومعاذ بن جبل ، ومعيقيب بن أبي فاطمة الدوسي ، وعبدالله بن عبدالله بن أبيّ بن سلول ، وعبد الله بن زيد ، ومحمد بن مسلمة ،

وبريدة بن الحصيب، وثابت بن قيس بن شماس، وحذيفة بن اليمان، وحنظلة ابن الربيع، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح وزاد بعد الحديبية وفتح مكة:

أبو سفيان صخر بن حرب، ويزيد بن أبي سفيان، ومعاوية بن أبي سفيان، وخالد بن الوليد، وجهم بن سعد، وجهيم بن الصلت بن مخرمة بن المطلب، والحصين بن النمير، وحويطب بن عبد العزى، وعبد الله بن الأرقم، والعباس بن عبد المطلب، وأبان بن سعيد بن العاص، وسعيد بن سعيد بن العاص، والمغيرة بن شعبة، وعمرو بن العاص، وشرحبيل بن حسنة، والعلاء بن الحضرمي[1].

وأضحى في المدينة لكل كاتب اختصاص تقريباً.

فكان علي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وزيد بن ثابت، وأبي بن كعب يكتبون الوحي، ويكاتب الملوك والأمراء زيد بن ثابت، ويكتب المعاهدات علي بن أبي طالب، ويكتب حوائج الناس المغيرة بن شعبة، والمداينات في المجتمع عبد الله بن الأرقم، ويسجل الغنائم معيقيب بن أبي فاطمة الدوسي، كما كان حنظلة بن الربيع يكتب عندما يتغيب أي كاتب لذا عرف بالكاتب.

صحابة رسول الله
صلى الله عليه وسلم

يزيد عدد صحابة رسول الله ﷺ على مائة وعشرين ألف صحابي، ولكن لا بد من أن يكون لبعضهم دور بارز في بعض جوانب الحياة أكثر من بعضهم الآخر الذين قد يمتازون في نواحٍ أخرى.

ففي بدء الدعوة برز أبو بكر الصديق رضي الله عنه كداعية ورجل إيمان

(١) وانظر «كتاب النبي» للدكتور مصطفى الأعظمي، طبع المكتب الإسلامي.

ومرافق لرسول الله ﷺ، وباذل للمال. كما امتاز سعيد بن زيد رضي الله عنه بالدعوة، واتخذت دار الأرقم بن أبي الأرقم كمقر للعمل، وكان عثمان بن مظعون المسؤول عن المهاجرين للحبشة في المجموعة الأولى، وجعفر بن أبي طالب في المجموعة الثانية. وعندما أسلم حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب كانا دعامة المسلمين. وكان كل من علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله في مقتبل الشباب.

ولم يكن القتال قد فرض لذا لم تبرز الأبطال بشكل جلي في هذه المرحلة، وإنما كان المسلمون جميعاً لهم دور واحد تقريباً، كما أن بعضهم كان لا يزال مستضعفاً.

وفي المدينة ظهر دور مصعب بن عمير الداعية الأول هناك والذي عرف باسم المقرىء، كما برز أبو أمامة أسعد بن زرارة الذي نزل عنده مصعب بن عمير، وكان دور لأصحاب بيعة العقبة الأولى أمثال عبادة بن الصامت من الخزرج وأبو الهيثم بن التيهان من الأوس، ومن أهل بيعة العقبة الثانية البراء ابن معرور، وسعد بن عبادة، وسعد بن الربيع، وعبد الله بن رواحة إضافة إلى من عرف وارتفع اسمه. وكذلك كان أثر سيدي الأوس سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير.

وعندما هاجر رسول الله ﷺ ارتفع ذكر خالد بن زيد أبي أيوب الأنصاري الذي نزل عنده رسول الله.

وعندما فرض القتال بدأ رسول الله ﷺ يرسل السرايا ويسير مع الغزوات يدرس الارض، ويعترض عير قريش، ويتفق مع القبائل، وكان اعتماده على المهاجرين من دون الأنصار فبرز دور حمزة بن عبد المطلب، وعبيدة بن الحارث، وسعد بن أبي وقاص، وأبي سلمة عبد الله بن عبد الاسد المخزومي، وعبد الله بن جحش، وزيد بن حارثة، أما من الأنصار فكان سعد بن عبادة الذي استخلفه رسول الله على المدينة أثناء غيابه. وفي هذه المدة مات عثمان بن مظعون من المهاجرين، وأسعد بن زرارة، والبراء بن معرور.

وعندما حدثت غزوة بدر برز دور علي بن أبي طالب وحمزة بن عبد المطلب .

ونستطيع أن نقول: إن المعارك التي خاضها المسلمون مع رسول الله ﷺ كانت تتركز على مجموعة من الرجال الأشداء الذين يلتفون حول رسول الله ﷺ ، ويعدون أركاناً له أمثال: أبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وأبي عبيدة بن الجراح، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص من المهاجرين، وسعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، وأسيد بن حضير من الأنصار، وعلى مجموعة ثانية كانت تجول في ساحة المعركة تحصد الأعداء حصداً، وعرفت بشدة البأس، وحسن البلاء لذا فقد ارتفع ذكرها كثيراً أمثال علي بن أبي طالب، وحمزة بن عبد المطلب، والزبير بن العوام من المهاجرين وأبي دجانة وعبدالله بن رواحة، وسعد بن الربيع، والحباب بن المنذر من الأنصار.

ومن الرجال الذين اشتهروا في حراسة المعسكر النبوي سعد بن معاذ، ومحمد بن مسلمة، وعباد بن بشر وهؤلاء من الأوس، ويبدو أنه كان يعتمد على هؤلاء الثلاثة كثيراً في هذه المهمة.

وظهر من القادة إضافة إلى المهاجرين المعروفين الحباب بن المنذر، وبشير بن سعد، وعبدالله بن رواحة ثم أضيف إلى هؤلاء القادة خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص بعد إسلامهما. كذلك جعفر بن أبي طالب بعد أن عاد من الحبشة.

وبعد فتح مكة رفدت المسلمين برجال أقوياء أمثال: العباس بن عبد المطلب وأبنائه، وأبي سفيان صخر بن حرب وابنيه يزيد ومعاوية، وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، وأصبح أسامة بن زيد من الشباب القادة. أما الولاة والدعاة فقد عرف منهم: علي بن أبي طالب، ومعاذ بن جبل، وأبو عبيدة بن الجراح، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو سلمة، وسعد بن عبادة، وعبد الله بن أم مكتوم، وأبو لبابة بن عبد المنذر وغيرهم، ورضي الله عنهم جميعاً.

فهرس الموضوعات

الباب الثالث: